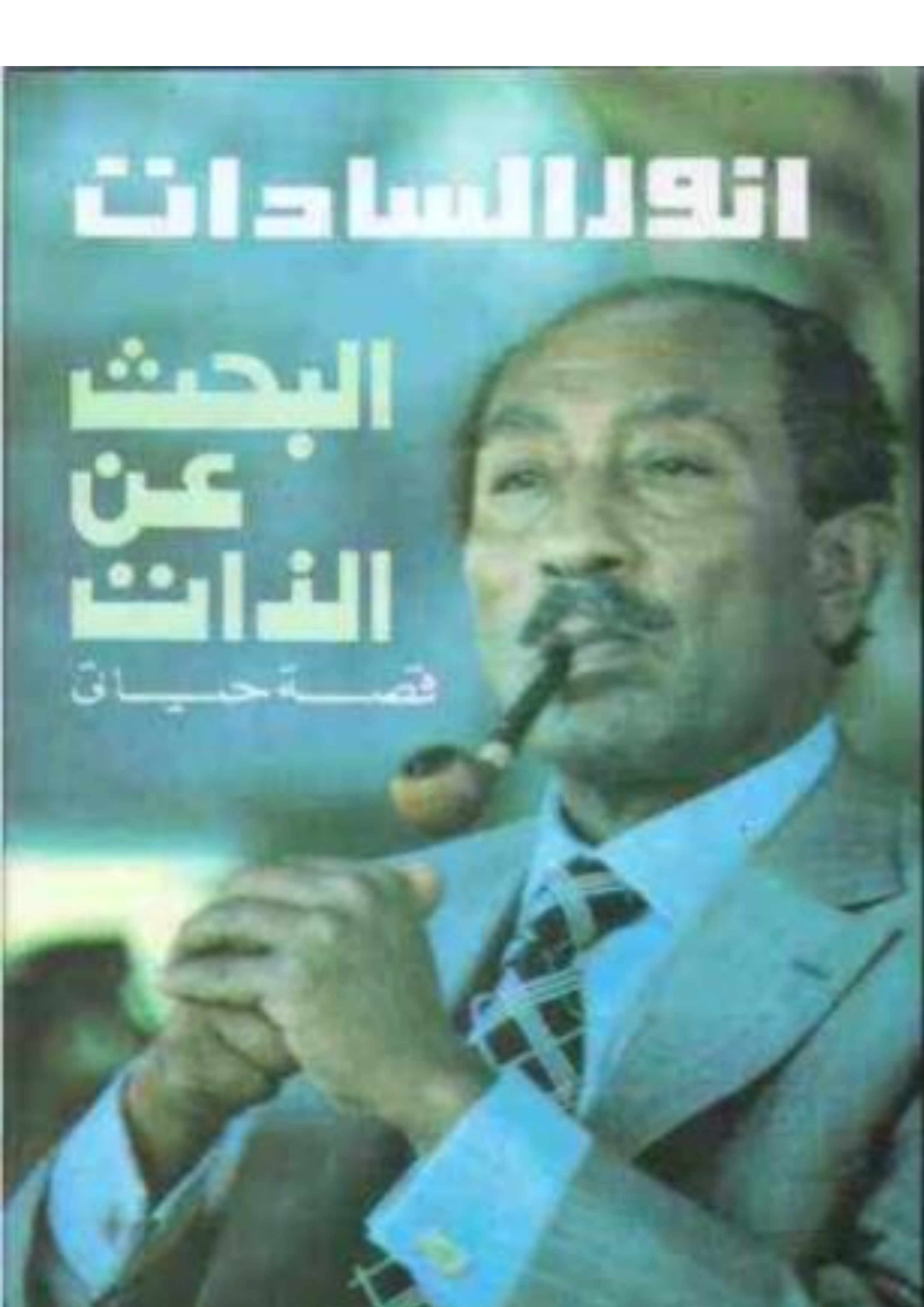

انور السادات
البحث
عن
الذات
قصة حياتي

البحث عن الذات

قصة حياتى

أنور السادات

تحويل للصيغة النصية و مراجعة

د / حازم مسعود

قصة حياتي

أنا أنور السادات فلاح نشأ وتربي علي ضفاف النيل حيث شهد الإنسان مولد الزمان - أهدي هذا الكتاب إلي القارئ في كل مكان ..

إنها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ ١٩١٨ .. هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك الفترة من تاريخها .. ولذلك فأنا أروي القصة كاملة لا كرئيس الجمهورية مصر العربية .. بل كمصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً منذ بدايتي إلي الآن ..

وحياتي .. مثل قصة حياة أي منا .. ليست في الواقع إلا رحلة بحث عن الذات .

فكل خطوة خطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر والحق والحرية والسلام .

هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسي منذ الطفولة .. والآن وأنا أنظر إلي بانوراما حياتي وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها من أحاسيس .. هل أستطيع أن أري صورتي لنفسي وقد التقت بصورة مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح الفرن في قريتي ميت أبو الكوم وأنا ما زلت صبياً في العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو علي الأقل أصبح في الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقاري ليراه بنفسه . .

أنور السادات

الفصل الاول : من ميت أبو الكوم إلي سجن الأجانب

العسل وصل .. يعلن المنادي في أزقة وساحات القرية .. وتهرع جدتي وأنا أمسك بيدها وأسير إلي جوارها نحو الترعة حيث رست مركب العسل القادمة إلي (كفر زرقان) المجاورة لنا ..

ليس الطريق طويلا .. ولكن كل خطوة يخطوها تملأ قلبى فرحاً وفخاراً ..

فالرجال علي طول الطريق تقف تحية لجدتى - هذه المرأة التي لا تعرف القراءة والكتابة ومع ذلك كنت أري الجميع يلجأون إليها لتحل مشاكلهم ولتشفيهم مما قد يصيبهم من أمراض بوصفات وأعشاب الطب العربي القديم التي لم يكن في قريتنا أو في القري المجاورة من يتقنها مثلها .. و نشترى زلعة العسل الأسود ونعود إلي دارنا .. أسير خلف جدتي صبيا أسمر ضئيل الجسم حافي القدمين يرتدي جلبابا تحته قميص أبيض من البفتة .. لا تفارق عينيه زلعة العسل .. ذلك الكنز الذي استطعنا الحصول عليه أخيرا ..

كم كان شهيا عندما نخلطه باللبن الرايب (الزبادي) .. وكم كان يسعدني كما لا يسعدني أي شيء آخر ..

كل شيء في القرية كان في الحقيقة مصدر سعادة لي لا تماثلها سعادة أخري ..

عندما نخرج لنشتري الجزر لا من بائع الجزر .. بل من الأرض نفسها ..

عندما أضع بصلة في محمي الفرن وهم يخبزون العيش ثم أعود آخر النهار فأخرج البصلة وآكلها ..

وحينما كنت ألعب مع أقراني في القرية في ليالي القمر أو نسهر علي المصطبة نحن والطبيعة من حولنا و السماء فوقنا لا فاصل بيننا ..

وشروق الشمس .. عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفتية و الرجال أصحب الدواب والبهائم في موكب خروج الفلاحين للعمل وسط

خضرة لا يحدها البصر و بسطة الأرض التي تبدو كأن لا أرض بعدها .

كل شيء كان يسعدني في ميت أبو الكوم قريتي الوديعة القابعة في أحضان دلتا النيل .. حتي برودة الماء في الشتاء عندما كنت أخرج في الفجر لأن الترعة قد امتلأت بالمياه ولكن لفترة لا تتعدي الخمسة عشر يوما هي (النوبة) أو نصيب قريتنا من الري .. ولذلك كان الإسراع بالعمل والمشاركة فيه أمرا ضروريا فنحن كل يوم في أرض واحد منا نرويها بطنبوره أو بطنبور غيره لا يهم ... المهم أنه بانتهاء النوبة تكون أرض القرية كلها قد ارتوت ..

هذا العمل الجماعي مع الغير ومن أجل الغير دون أن أنتظر منه ربحاً أو فائدة لي جعلني أشعر أني لا أنتمي إلي أسرتي الصغيرة في دارنا أو أسرتي الكبيرة في قريتنا .. بل إلي شيء أكبر وأهم هو الأرض ..

ولذلك في رحلة العودة مع الغروب والدخان ينبعث من البيوت مؤذنا بعشاء شهي ينتهي بعده اليوم في القرية .. والهدوء يخيم علي الجميع والسلام عمر قلوبنا .. كنت أتأمل الشجر والزرع وأحس برباط خفي من الحب والصداقة يربطني بكل ما حولي ..

فهذه الشجرة الوارفة من صنع الله ... أراد لها أن تكون فكانت .. وهذا الزرع اليانع الخضرة قد زرعنا حباته بأيدينا ولكن لولا إرادة الله ما كان .. وهذه الأرض التي أمشي فوقها .. ومياه الترعة تنساب بين ضفتيها .. كل شيء حولي من صنع إله كبير يرعاه ويتولاه .. وكذلك أنا ..

الشجرة والحبة والثمرة كلهن إذن زميلاتي في الكون .. ألسنا جميعا من نبت الأرض وبدونها لا نكون؟.

والأرض قوية صلبة .. وكل من ينتمي إليها لا بد أن يكون مثلها .. وإذ كانت هذه الخواطر تمر برأسي الصغير كنت أستعيد قول جدتي :

«لا شيء يساوي أنك ابن الأرض .. فالأرض هي الخلود لأن الله أو دعها كل سره ..»

كم كنت أحب هذه السيدة .. كانت شخصية في غاية القوة بالإضافة إلي الحكمة .. حكمة الفطرة .. والتجربة .. والحياة .. وطوال فترة نشأتي في القرية كانت هي رأس العائلة ، فقد كان والدي يعمل مع الجيش في السودان .. وكانت هي ترعانا و تخرج وراء الأنفار كأي رجل تتعهد الفدانين والنصف الي اقتناها والدي ..

أم الأفندي .. هكذا كانوا يطلقون عليها في القرية .. ولهذا قصة ..

كان منتهي أمل القروي عندنا أن يدخل الأزهر .. ولكن جدي الذي كان يعرف الكتابة والقراءة و هو أمر نادر في وقته .. أراد أن يشق لأبي طريقة آخر .. فأدخله التعليم العام حيث حصل علي الشهادة الإبتدائية .. وكانت في ذلك الوقت تعتبر مؤهلا هاماً .. فالإحتلال البريطاني كان في أول مراحله .. وجميع المواد كانت تدرس باللغة الإنجليزية ..

كان والدي أول من حصل علي الشهادة الإبتدائية في قريتنا .. ولذلك رغم أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتي ذكر الأفندي وأولاد الأفندي يعرف كل إنسان أنه والدي وأبناؤه ..

ويبدو أن جدتي أرادت لي أن أسير في نفس الطريق الذي سار فيه والدي فأدخلتني كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن ثم نقلتني إلي مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير نديم مشهور مطر انه هو نفس مطران دير وادي النطرون ..

لم تكن المدرسة تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلو واحد ورغم أنني لم أستمر بها طويلا إلا أني ما زلت أذكر بوضوح مسيو (مينا) المدرس الذي كان يعلمنا كل شيء والذي كنا نخشاه و نحبه في نفس الوقت .. وما زالت ترن في أذني دقات الحرس الكبير تعلن بدء اليوم الدراسي فيدق معها قلبي رهبة واحتراما للعلم ..

أما كُتاب القرية فما زلت أراه بعين الخيال وكأنني فارقته بالأمس .. العريف الطيب الشيخ عبد الحميد رحمه الله الذي شيعت جنازته منذ فترة غير بعيدة .. وكنت أدين له بالكثير فهو أول من فتح لي أبواب المعرفة والإيمان ..

وأقراني في الكتاب وأنا أجلس بينهم علي الأرض أحمل اللوح (الصفيح) والقلم البسط .. كل عدتي في تلقي العلم .. وجيب جلابيي الفضفاض الذي كنت أحشوه في الصباح بالجبن الناشف المخلوط بكسر الخبز التهمه حفنة بعد حفنة أثناء الدروس وما بينها ..

كان إقبالي علي العلم يتزايد يوما بعد يوم ولكنه لم يشغلني يوما عن القرية ..

كانت حياتي بها بهجة تتلوها بهجة .. فكل يوم يأتي بشيء جديد .. موسم الزرع .. موسم الري .. موسم حصاد القمح .. الاحتفال بموسم الحصاد .. وأفراح القرية وصواني الكنافة التي كنا نلتهمها في نهم .. وموسم حصاد القطن الذي كان يأتي دائما مع البلح .. وكيف كنت أغترف القطن وأضعه في جيبي ثم أهرع إلي بائعة البلح وأعطيه لها فتعطيني ما يقابله من البلح .

وعندما كنت آخذ البهائم إلي الترعة لتشرب .. أو أجلس علي النورج لدرس القمح .. أو أشترك مع غيري من الصبية في جمع القطن . كنت أحس في كل مرة أني أفعل هذا لأول مرة.. فقد كانت حياتي بالقرية اكتشافات تعقبها اكتشافات .. وكأنها ساقية تدور علي بحر كل ما به دائماً جديد .

هذا الإحساس بأن كل شيء أفعله أو أراه جديد لم يفارقني أبدأ طوال فترة نشأتي بالقرية .. وكان مصدراً لا ينضب من مصادر سعادتي . .

حتي القصص التي كانت تحكيها لي أمي أحيانا وجدتي أحيانا أخري كل ليلة .. كنت في كل مرة أستمتع بها وكأنها جديدة وكأنني لم أسمعها من قبل مع أنها هي هي نفس القصص لم تتغير .

ولم تكن هذه القصص حواديت الشاطر أو بطولات أبو زيد الهلالي .. بل كانت أقرب إلينا وألصق بحياتنا من تلك الأساطير البعيدة .

كانت إحدى هذه القصص تروي كيف دس الإنجليز السم لمصطفي كامل حتي لا يكمل كفاحه ضدهم.. لم أكن أعرف في ذلك الوقت من هو مصطفى كامل وأنه مات فعلا في ريعان شبابه ولكني عرفت لأول مرة

أن هناك قوماً اسمهم الإنجليز .. وأنهم ليسوا منا .. وأنهم أشرار لأنهم يضعون السم للناس .

وكانت جدتي تحكي لنا أيضا موال أدهم الشرقاوي وبطولاته وكفاحه ودهاءه في محاربة الإنجليز والسلطة .

ولكن لعل مما ترك في نفسي أثرا عميقا موال زهران بطل دنشواى .. وأنا أستمع إليه من أمي وقد اعتليت سطح الفرن الدافيء وإلي جانبي الأرانب وإخوتي الصغار وقد استغرقوا جميعا في النوم أما أنا فكنت بين اليقظة والمنام .

كان هذا الموال يستهويني كل مرة أستمع إليه .. فدنشواي قرية لا تبعد عن قريتنا بأكثر من خمسة كيلو مترات .. والموال يحكي كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام في دنشواي أطلقوا عليها الرصاص . و طاشت طلقة أحرقت جرنا من أجران القمح .. وتجمع الفلاحون فأطلق عليهم الرصاص أحد عساكر الإنجليز وجري .. جري الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكري الإنجليزي .. وفي الحال قبضوا علي الأهالي .. وشكلت محكمة عسكرية في القرية .. وعلقت المشانق قبل صدور الأحكام التي قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر .

وكان زهران بطل المعركة التي قامت مع الإنجليز وكان أول من حكموا بشنقه .. ويحكي الموال عن شجاعة زهران و صموده في المعركة وكيف أنه تقدم من المشنقة مرفوع الرأس فخوراً مزهوا بنفسه لأنه استطاع أن يتصدي للمعتدين وأن يقتل أحدهم .

كنت أستمع إلي الموال ليلة بعد ليلة وأنا بين النوم واليقظة - كما قلت - ولعل هذا ما جعل عقلي الباطن يختزن القصة .. وأطلق العنان لخيالي فكم رأيت زهران وعشت بطولته في الصحو وفي المنام .. وكم تمنيت لو كنت زهران .

وهكذا أدركت من فوق سطح الفرن في دارنا بالقرية أن هناك خطأ ما في حياتنا .. وقبل أن أري الإنجليز .. وأنا مازلت داخل قريتي .. تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا .

ولكن لم يكن هذا كل ما تعلمته في ميت أبو الكوم فقد تعلمت ما بقى بعد ذلك معي طول العمر وهو أني أينما ذهبت وفي أي مكان كنت فسوف أعرف دائما أين أنا .. لن أضل الطريق أبدا .. لأني أعرف أن جذورى هناك حية متأصلة في أرض قريتي التي انبتتني كما تنبت الزرع والشجر.

هكذا قضيت السنوات الأولي من حياتي في قريتي الوادعة إلي أن كان يوم وجدت نفسي فيه أنتقل فجأة مع أسرتي إلي القاهرة لأن والدي - كما قالوا لي - قد عاد من السودان .

كم كان عمري حينذاك ؟ لم أكن أعرف .. عرفت فقط بعد ذلك أن أحداث

حياتي كانت تسير جنبا إلي جنب مع أحداث التاريخ .

هكذا - كما يبدو .... شاء القدر .

جئت إلي القاهرة في سنة ١٩95 في أعقاب مقتل السردار الإنجليزى سيرلى ستاك في سنة ١٩٢4 .. فقد كان من أهم العقوبات التي وقعتها انجلترا علي مصر أن يعود الجيش المصري من السودان .. فعاد وعاد معه والدي ...

كنا نسكن في بيت صغير بكوبري القبة وكان علي أن أكمل تعليمي العام الذي بدأته بمدرسة طوخ فاختار لي والدي مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية لأنها كانت مدرسة أهلية ومصاريفها تناسب دخله ...

وبالفعل أخذت أوراقي وذهبت إلي المدرسة لألتحق بها. : عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التي تقدمت بها عرفت أني ولدت في ٢٠ ديسمبر سنة 1918 .

كانت المدرسة في الزيتون وكنت أذهب إليها وأعود كل يوم سيرا علي الأقدام ..

وفي الطريق كنت أمر بسراى القبة .. أحد قصور الملك فؤاد في ذلك الوقت.

ومازالت أذكر كيف كنت وبعض أقراني في المدرسة نتلكأ حول سور حديقة السراي في الربيع لنقتطف بعض ثمار المشمش .. رغم ما كان يعتلج في صدورنا من إحساس بالخوف والرهبة .. فمجرد الإقتراب من أي شيء يخص الملك كان معناه الهلاك لي ولعائلتي ولأي إنسان .

لم أكن أعرف في ذلك الوقت السحيق أنني سأشارك وزملاء لي في تغيير وجه التاريخ .. وأني سوف أجتاز يوما ما هذا السور الرهيب .. وأجلس في نفس المقعد الذي كان يجلس عليه الملك فؤاد ومن بعده فاروق ..

قضيت بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فترة التحضيري وسنة أولي وثانية ابتدائي .. وأذكر أني في تلك المرحلة كنت متفوقاً في التعليم فكنت أتناوب الأولوية علي الفصل مع الدكتور حسن الشريف وزير التأمينات الأسبق رحمه الله ..

بعد السنة الثانية انتقلت إلي مدرسة السلطان حسين في أول مصر الجديدة حيث أخذت الشهادة الابتدائية .. وبعدها التحقت أنا وأخي الأكبر طلعت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية ..

كان ذلك في سنة ١٩٣٠ .. وكان القانون يقضي بأن يدخل أحدنا مجانا و الآخر مصاريف ولكن رفض طلبنا .. فاضطر والدي إلي دفع المصاريف لي ولأخي ..

كان القسط الأول ستة عشر جنيها .. هي كل مرتب والدي .. أعطاه لي فدفعته للمدرسة .. ولما حل ميعاد القسط الثاني أخذه أخي طلعت من والدي ولكن بدلا من أن يدفعه للمدرسة هرب به إلي حيث لا نعرف و انفقه إلي آخره ثم عاد ليعلن أنه لا يرغب الاستمرار في التعليم ..

ربما كانت هذه مشيئة القدر .. فبدون إحجام أخي عن التعليم كيف كان سيتسني لوالدي بدخله المحدود الإنفاق علي تعليمنا نحن الإثنين .. أغلب الظن أنه كان سيضطر إلي إيقاف تعليمى .. وخاصة أن طلعت هو أخي الأكبر ..

في المدرسة الثانوية تفتحت عيناي لأول مرة علي أهل المدينة وعرفت معني الطبقة والفوارق .. في المدرسة كان معي ابن وزير الحربية وابن وكيل وزارة المعارف .. وكان كل منهما ينتقل إلي المدرسة ويعود منها إلي البيت في سيارة فاخرة (كونبيل) كما كنا نسميها في القرية .. منظر مبهر للغاية ولكنه لم يترك في نفسي أي أثر للغيرة أو الحقد.. وطبعا زملائي في الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسي بكثير ولكن هذا لم يصيبني بأي عقدة ..

كان لي أصدقاء كثيرون من أولاد الذوات وكانوا يعيشون في بيوت فخمة لم أرها من قبل ولكني لا أذكر أني تطلعت يوما إلي ما هم فيه .. اطلاقا .. ففي البلد عندنا دارنا وبهائمنا والجميع يعرفون أني ابن الأفندي - وقبل كل شيء عندنا الأرض التي انتمي إليها ... صلبة .. دائمة ... لا تزول .. تماما مثل قيم القرية التي لا يعرفها أهل المدينة...

في الحارة التي كنا نسكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشتري علبة كبريت من البقال .. قلت « أنا عاوز علبة كسفريت »

وفجأة انفجر الزبائن بالضحك .. اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لي و ضرورى تقول كبريت .. صممت علي « كسفريت ». واستمرت سخريهم مني .. وفي مواجهة هذه السخرية جاءني شعور بأني أقوي منهم .. فمن هم لكي يسخروا مني ؟

إن أفضلهم في نظرهم أغناهم مالا وأكثرهم حسباً ونسباً .. أما نحن في القرية فلا نعير مثل هذه الأشياء أي اهتمام .. الرجل الذي علي خلق عندنا قيمة عليا في ذاته رغم ما قد يكون عليه من فقر مدقع .. وفي القرية عندنا شيء اسمه العيب .. ونحن ينتمي بعضنا إلي البعض بالتآخي والتعاون والحب .. أما هم في المدينة فينتمون إلي مالهم وسلطانهم وبيوتهم الكبيرة الفاخرة وكلها عرض زائل فاقد القيمة ..

وهكذا كانت مجموعة القيم التي نشأت عليها في القرية ولم أجد مثلها في المدينة سندا لي في تلك المرحلة المبكرة من حياتي فقد عمقت إحساسي بالتفوق الداخلي الذي لم يفارقني لحظة منذ أن نشأت والذي هو في الحقيقة - كما أدركت بمرور الأيام - قوة داخلية لا تستند إلي أي مصدر مادى .. بل بالعكس .. فربما كان هذا الشعور بالتفوق الداخلي أقوي ما يكون عندما تنعدم أو تكاد المصادر المادية الخارجية .

في مرحلة التعليم الثانوي كنت أعيش تحت خط الفقر فقد كان والدي بدخله المحدود يعول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولدا وبنتا .. ولذلك فرغم أننا كنا نعيش في القاهرة كان بمنزلنا فرن نخبز فيه العيش .. إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة .. كان أمرا لا طاقة لنا به ..

وكان مصروف يدي مليمين في اليوم وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشترى كوبا من الشاي باللبن وأشربه وأنا أحس أني أسعد إنسان في العالم .. في حين كنت أري زملائي من حولي يشترون أفخر أنواع الشكولاته والحلوي من (كانتين) المدرسة .. وكان لدي الواحد منهم أكثر من حلة فاخرة يختار من بينها ما يروق له فهو دائما أنيق متجدد .. أما أنا فكانت عندي حلة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكني لا أملك تغييرها أو حتي تجديدها ..

وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوما جعلتني أحس أني أقل من زملائي في شيء بل وفي تلك السن المبكرة لم تكن علي الإطلاق مدعاة إلي أن أقارن بيني وبينهم .. .

أذكر فقط أني عندما تقدمت للحصول علي شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية .. وكان لهذه الصورة أهمية خاصة في نظر أي طالب .. فشهادة التوجيهية هي بطبيعة الحال نقطة تحول في حياته .. ولذلك ذهبت إلي والدي وطلبت منه حلة جديدة أتصور بها هذه الصورة التاريخية .. وأدرك والدي أهمية مطلبي ولكنه قال .. « أمهلني يوما أو اثنين لأدبر المبلغ».. وفي اليوم الثالث جاء إلي و هو باسم الوجه وقال « وجدت الحل .. اذهب إلي وكالة البلح .. هناك الدكاكين كلها متشابهة ولكن هذا هو اسم صاحب الدكان الذي أريدك أن تذهب إليه .. وأعطاني مائة وخمسين قرشا ..

لم يكن حجم الدكان يزيد علي متر ونصف في مترين .. وفي واجهة الدكان طاولة بطوله تقريبا يقف وراءها صاحب المحل وخلفه أثواب القماش وقد رصت علي عدة رفوف .. وفي الزاوية ماكينة خياطة .. انتقيت القماش وتناوله من الرجل وأعمل فيه المقص ثم جلس إلي ماكينته .. وبعد ساعة ونصف ناولني حليتي الجديدة ..

لم تكن بالطبع لتقارن بما أعده زملائي في المدرسة لهذه المناسبة ولكني كنت سعيدة بها كل السعادة .. فهي تفي بالغرض ولا يهم علي الإطلاق إذا كانت خشنة الملمس أو رخيصة المظهر .. ثم بها أو بدونها أنا هو أنا .. ذلك القروى الصغير الذي يري في فلاحة الأرض ما يميزه ويميز من يمارسها علي أهل المدينة الذين يعيشون علي التجارة ..

هكذا كانت حياتي طوال مدة تعليمي بالقاهرة سلسلة من المقارنات أو المفارقات المستمرة بين المدينة والقرية .. ولكنها لم تكن في أي وقت في صف المدينة بأي حال من الأحوال .. علي العكس أشياء كثيرة أزعجتني في القاهرة .

مثلا منظر (الكونستابل) الإنجليزي علي الموتوسيكل يجوب الشوارع ليل نهار و بدون انقطاع كالمجنون .. بوجهه الذي في لون الطماطم فظ

.. بليد... وعينيه الجاحظتين وفيه المفتوح دائما كفم الأبله .. ورأسه المنتفخة يغطيها طربوش طويل قرمزي يصل إلي أذنيه ..

كان الجميع يخشونه .. أما أنا فكنت أكره النظر إليه .. وأتساءل في نفسي .. ما الذي أتي بهذا الغريب القبيح المنظر إلي المدينة ؟

لو أتي إلي قريتنا لما استطاع أن يسير خطوة واحدة .. ولكنه لم ولن يأتي ... لأنه لا يجرؤ ..

و وابور الزلط الذي في كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائي .. أسرع الخطي فيسرع خطاه ... أجري فيجري خلفي .. ما قصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعي ليدوسنى تحت عجلاته الحديدية الضخمة .. ولكن لم ؟ وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفني ..؟ ولم تنفعي هذه الأسئلة في شيء .. فكلما نظرت خلفي رأيته يلاحقي فيزداد ذعرى .. ولم يكن لينقذني منه كل مرة إلا إذا انعطفت في حارة ضيقة لا تسمح بمروره أو أطلقت ساقي للريح بحيث لا أراه ولا يراني .. فقد كان واضحا أنه رغم جبروته ورغم ضآلتي إلا أني كنت أسرع منه بكثير .

وأول مرة دخلت فيها السينما في حياتي .. كان ذلك يوما عصيباً .. فقد شاهدت قطار سكة حديد قادمة من أقصي الشاشة ومندفعة بسرعة مذهلة نحوي .. ماذا أفعل ؟ أغمضت عيني ورجعت بجسدي إلي الوراء .. ولكن صوت القطار ما زال يدوي في أذني .. ففيم الانتظار ؟ قمت لتوي من مقعدى وبسرعة رحت اخترق الصفوف مهرولا في طلب النجاة .. ولفت نظري أن الناس كلها قابعة في مقاعدها وكأن شيئا لم يحدث .. هذا شأنهم قلت في نفسي .. ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف - وعيناى قد تسمرتا علي الشاشة - لم أجد القطار ... وجدت بدلا منه رجلا وامرأة يتناولان الطعام في مقهي صغير فاخترقت الصف مرة أخري وعدت إلي مقعدى ... أرقب أحداث الفيلم في هدوء كما يفعل الآخرون ..

كم انبهرت ذلك اليوم بما رأيت .. وكان من نتيجة انبهاري أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلي السادسة بعد الظهر .. وتسمرت في مقعدى لأشاهد القطار العجيب مرة أخري .

كنت في ذلك الوقت قد انتقلت من السنة الثانية الثانوية إلي السنة الثالثة .. ولكن بمجموع صغير فطلبوا مني أن أعيد السنة الثانية حفاظا علي النتيجة العامة للمدرسة في شهادة الكفاءة وهي شهادة عامة كنا نتقدم لها بعد السنة الثالثة .. رفضت .. وسحبت أوراقي من المدرسة (مدرسة فؤاد الأول) وقدمتها إلي مدرسة أهلية هي مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الثالثة .. وحصلت علي شهادة الكفاءة في نفس السنة .

و بإرادة التحدي - التي لم أكن بعد قد اكتشفتها في نفسي في ذلك الوقت المبكر - أخذت أوراقي مرة أخري إلي مدرسة فؤاد الأول حيث التحقت بالسنة الرابعة ولكن في الإمتحان في السنة الرابعة إلي الخامسة وهي نهاية مرحلة التعليم الثانوي تكرر ما حدث لي عندما انتقلت من السنة الثانية إلي الثالثة فسحبت أوراق من فؤاد الأول وذهبت بها ثانية إلي مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الخامسة .. وتقدمت في نهاية العام للحصول علي شهادة التوجيهية .. ونجحت في جميع المواد ولكني رسبت في المجموع .

كانت هذه نقطة تحول .. فقد أدركت أن رسوبي إنما كان دليلا علي عدم رضاء الله عني وعقابا لي منه عز وجل .. لاستهتاري ربما .. وربما للثقة الزائدة عن الحد في نفسي .. لم يكن أمامي من ملجأ سوي قيم القرية تحفظ علي نفسي كما فعلت دائماً .. وبهذا الإحساس الغامض بالذنب و التوبة معا نقلت أوراقي إلي مدرسة رقي المعارف بشبرا وحصلت علي شهادة إتمام الدراسة الثانوية .

قد يوحي ما حكيت عن إحساسي بالتوبة أني أثناء تعليمي تخليت عن القرية ولو لبعض الوقت ولكن هذا لم يحدث علي الإطلاق .. فبمجرد أن تنتهي الدراسة كنت أهرع إلي قريتي وأرتمي بين أحضانها ... مجتمعي المثالي الذي كنت أجد فيه نفسي .. بل وأجسد فيه الوطن بأجمعه فلفترة طويلة كانت مصر عندي هي ميت أبو الكوم أما المفهوم الشمولي للوطن فلم أدركه ولم أشعر به إلا بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوي . .

ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فقد بدأ إحساسي بشيء أفتقده .. وبأن هناك وضعا خاطئا يجب إصلاحه و أنا أستمع إلي موال زهران ليلة بعد ليلة علي سطح الفرن في دارنا بميت أبو الكوم .

كان زهران مرتبطا في وجدانى بمصطفى كامل و بأدهم الشرقاوي فكلهم رجل واحد .. أو هكذا بدوا لي في تحديهم للإنجليز البرابرة المعتدين الذين شقوا وجلدوا أهلنا في قرية دنشواى المتاخمة لقريتنا ولكن عندما جئت إلي القاهرة رأيت في بيتنا صورة كمال أتاتورك وسألت عنه أبي فقال إنه رجل عظم .. وكان أتاتورك في ذلك الوقت مثلا أعلي في العالم الإسلامي يتردد إسمه علي كل لسان فقد قام ليحرر بلاده .. ويعيد بناءها .. وكان والدي شديد الإعجاب به كما كان معجبا بنابليون الذي حدثني عنه طويلا وذكر لي فيما ذكر أنه عندما نفاه الإنجليز في سانت هيلانه تعمد الحاكم الإنجليزي الجزيرة أن يجعل بوابة بيت نابليون قصيرة بحيث يضطر القائد الفرنسي الأسير إلي أن يحني قامته في كل مرة يدخل بيته أو يخرج منه .. ولكن نابليون لم يمكنه من غرضه فكان يجلس علي الأرض ويدخل أو يخرج زاحفاً ولكنه رافع الرأس . طبعا هذه لم تكن إلا خرافة .. ولكنها تعكس صورة البطل في وجدان الشعب المصري وخاصة إذا كان هذا البطل خصما قوياً من خصوم الإنجليز الذين كنا نعاني من احتلالهم لبلادنا ونرفض وجودهم بينا بكل الوسائل التي كانت في أيدينا في ذلك الوقت . من هنا كان إعجابي بسعد زغلول بدليل أني كنت أخرج إلي شارع الخليفة المأمون كل مساء لانتظار خليفته النحاس باشا عندما ينتقل من

بيته في مصر الجديدة إلي بيت الأمة وعندما يعود .. فقد كنت أري في النحاس وفي الوفد في ذلك الوقت رمزاً لكفاح المصريين جميعا ضد الإنجليز .

لا أستطيع أن أقول إن كان وعيي السياسي قد نضج أو حتي تشكل في هذه الفترة المبكرة من حياتي .. كنت أشارك طبعاً في الأحاسيس الوطنية التي كانت تعتلج في صدر كل مصري فأخرج في المظاهرات .. وأساهم في تكسير الصحون وحرق الترمويات وفي الهتاف بسقوط صدقي باشا وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ .. دون أن أدرك ماذا كان ذلك الدستور .

ولكني أستطيع أن أقول إنه إلي أن تركت المدرسة الثانوية كان قد تأصل في نفسي شعور دفين بالكره للمعتدين وبالحب والإعجاب لكل من يحاول تحرير بلده .. أذكر أنه في سنة ١٩٣٢ مر غاندي بمصر في طريقه إلي إنجلترا .. وامتلأت الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاحه فأخذت به واستولت صورته علي وجداني فما كان مني إلا أن قلدته .. خلعت ملابسي وغطيت نصفي الأسفل بازار و صنعت مغزلا واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلي أن تمكن والدي من إقناعي بالعدول عما أنا فيه .. فلن يفيدني ما أفعله أو يفيد مصر في شيء بل علي العكس كان من المؤكد أن يصيبني بمرض صدري وكان الوقت شتاء قارس البرودة. وعندما زحف هتلر من ميونخ علي برلين ليخلص بلاده من آثار هزيمتها في الحرب العالمية الأولي ويعيد بناءها كنت في ذلك الوقت أقضي الصيف في القرية ..

فجمعت أقراني وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر وإني أنوي الزحف علي القاهرة من ميت أبو الكوم .. كان عمري في ذلك الوقت ١٢ سنة فضحكوا منى وانصرفوا عني .

كانت هذه في أغلبها إرهاصات تلقائية بخط كفاح لم أكن بعد قد تبينته ولكن من بين هذه الإرهاصات التي كانت في الحقيقة مجموعة انفعالات و تفاعلات مع الأحداث - بقي لي شيء واحد هو حبي لكمال أتاتورك .. فمن أتاتورك استهوتنى البدلة العسكرية وهو لم يستطع أن يفعل شيئا ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة .

كانت أحداث حياتي تسير جنبا إلي جنب مع أحداث التاريخ كما سبق أن قلت .. فقد انتهيت من إتمام دراستي الثانوية سنة 1936 وفي نفس السنة كان النحاس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣6) .. وبمقتضي هذه المعاهدة سمح للجيش المصري بأن يتسع .. وهكذا أصبح في الإمكان أن ألتحق بالكلية الحربية .. قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصري ضيق الرقعة ضئيل الفاعلية وكان دخول الكلية الحربية قاصراً علي أبناء الطبقة العليا .

ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التي واكبت رغبتي في دخول الكلية الحربية لم يكن التحاقي بهذه الكلية – و هو منتهي أملي حينذاك – بالأمر السهل .

صحيح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية ولكن كان باستمارة الدخول شرطان .. دخل الأب و ثروته ثم الواسطة .. وفي كشف الهيئة كان ينادي رسميا علينا .. فلان ابن فلان .. وواسطة فلان .

بالنسبة للشرط الأول كان والدي موظفاً بالحكومة فهو علي الأقل عنده دخل ثابت أما الواسطة فمن أين لي بها ووالدي كما سبق أن ذكرت - مجرد باشكاتب بالقسم الطبي - لا يعرف أحداً من الباهوات أو الباشوات ؟

قالوا له إن رئيس اللجنة التي تقبل الطلبات هو اللواء إبراهيم باشا خيري ولابد من الوصول إليه ولكن كيف ؟

كان إبراهيم باشا يمثل قمة الأرستقراطية في ذلك الوقت.. فهو الذي عهد إليه الملك فؤاد بتعليم فاروق في صدر شبابه الفروسية .. هو إذن معلم الملك وإلي جانب هذا هو وكيل وزارة الحربية .. ثم إنه متزوج سيدة من العائلة المالكة ... باختصار كان إبراهيم باشا نجماً من نجوم المجتمع .. فكيف الوصول إليه ونحن لا تملك الوصول حتي إلي سكرتير وزير ؟

أخيراً اهتدي والدي ببساطته المعهودة إلي أنه أيام خدمته في السودان كان يعرف أحد الصولات .

وتصادف أن كان هذا الصول في خدمة إبراهيم باشا فرتب لي ولوالدي ـ لا أعرف كيف ـ فرصة للقاء إبراهيم باشا .. وذات صباح توجهت مع والدي إلي قصر الباشا في حدائق القبة أحد أحياء القاهرة الأرستقراطية في ذلك الوقت.

دخلنا الفيلا الأنيقة ووقفنا في الأنتريه .. هكذا كان الترتيب بحيث لابد أن يمر بنا الباشا في طريقه إلي الخروج فنستلفت نظره ويسألنا عما نريد .. وفعلا نزل الباشا بعد قليل .

واقترب منه الصول وهمس في أذنه ببعض الكلمات .. التفت بعدها إبراهيم باشا إلي والدي وقال له بكل عنجهية :

آه .. آه .. أنت باشكاتب القسم الطبي .. ودا الولد ابنك اللي ... طيب ... طيب .. ومضي مسرعاً نحو الباب .. وأبي يسير خلفه وهو يتمتم بكلمات لم أدركها ولا أحسب أنه هو نفسه كان يدرك ما يقول.

تجربة لم تبرح وجداني أبدا ولا أظن أني سأنساها مدي الحياة فقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت باشا أو التقي بأحد أفراد هذه الطبقة .. وتشاء الصدف أن ألتقي بإبراهيم باشا نفسه بعد ذلك بسنوات وكان ذلك عندما استقبلته في مكتبي وأنا رئيس مجلس الأمة .. كانت عنده مشاكل خاصة بأبنائه وفرض الحراسة وما شابه ذلك . . فساعدته في حل جميع مشاكله وبعدها ذكرته بلقائنا الأول في منزله ولكني قلت له :

« إياك أن تتصور أن هذا اللقاء ترك في نفسي أي أثر بالنسبة لك .. بالعكس أرجو أن تعتبر أني في أي وقت مستعد لتلبية جميع طلباتك .. فأنا أدين لك بالكثير : الا بالنسبة للقائنا في قصرك بحدائق القبة .. بل لأنك كنت رئيس لجنة القبول التي أدخلتني الكلية الحربية كما أدخلت جمال عبد الناصر وجميع ضباط مجلس قيادة الثورة .. فلولاك ما قامت الثورة ....

متناقضات ومفارقات لا نهاية لها ولكن لعل أبرزها أن الإنجليز الذين كان هدفي من دخول الكلية الحربية خلاص البلاد منهم هم الذين ساعدوني علي الالتحاق بالكلية .

فبعد أن تم لقاؤنا مع إبراهيم باشا خيري في قصره كان لابد أن أجد الواسطة كما تنص استمارة القبول كما اسلفت .. لم يجد والدي أحداً يلجأ إليه إلا حكيمباشى الجيش المصري الذي كان والدي يعمل معه وهو انجليزي اسمه الدكتور فيتس باتريك .. واستجاب الرجل للطلب وكتب التزكية كما أوصي بي كبير المعلمين بالكلية وهو عضو لجنة القبول وانجليزي مثله .

وهكذا قبلت بالكلية الحربية وكان ترتيبى آخر المقبولين وعددهم إثنان وخمسون وذلك لأن واسطتي كانت أقل الوساطات شأنا .. في ذلك الوقت كانت الوساطات تتدرج من الأمير محمد علي ولي العهد إلي الباشوات والباكوات من ذوي النفوذ.

ولكن بعد أن قبلت وذهبت لأدفع المصاريف حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان .. فقد كان حمدي باشا سيف النصر وزير الحربية مع النحاس باشا في مونتريه لعقد معاهدة إلغاء الإمتيازات الأجنبية التي كانت تعفي الأجانب من الخضوع للقانون المصري (وكان أمرا شاذاً ومقززا أن يرتكب الأجنبي الجناية في مصر فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تحاسبه أو تلقي عليه القبض وإنما تملك ذلك سفارته فقط ويحاكم أو يعفي من المحاكمة بمقتضي تلك الإمتيازات) أعود إلي القصة فأقول إن وزير الحربية وهو في مونتريه لما أرسلوا له طلب التصديق علي قبولنا بالكلية الحربية كما يقضي القانون أرسل برقية يطلب حجز ستة أماكن لبعض أقربائه .. فاضطرت إدارة الكلية إلي حذف أسماء الست الأواخر وكنت أنا طبعاً أول المستبعدين .

عناء بعد ذلك كثير .. فقد التحقت بكلية الآداب ثم كلية الحقوق فكلية التجارة ... ثم عاد حمدي سيف النصر وألحق أقاربه بالكليه .. وبعدها تدخل حكيمباشي الجيش وكبير المعلمين الإنجليز .. وأخيرا وبعد أن فقدت الأمل تماما .. فوجئت ذات صباح بوالدتي تطلب مني أن أتوجه فورا إلي أبي في مقر عمله لآخذ منه مصاريف الكلية الحربية فقد قبلت بها .. وكان قد مضي علي دخول أقراني في الدفعة ستة وعشرون يوما كاملة .

في الكلية الحربية كان أتاتورك مازال مثلي الأعلى ... فبدأت أقرأ عن الثورة التركية .. ورجعت أيضا إلي تاريخ مصر لكن ليس إلي أبعد من حملة نابليون .. فقد كنت أركز علي الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ والخديعة التي دخل بها الإنجليز مصر وما ترتب عليها من المأساة التي كنا نعيشها .

مصطفى كامل كنت مازلت أحبه ولكني أخذت عليه أنه لم يلجأ إلي القوة ... وكان إيماني أن الإنجليز لن يخرجوا إلا بالقوة . ولكن هل كان الإنجليز هم المدانون وحدهم ؟

ماذا عن العائلة المالكة وهي أجنبية ؟ وماذا عن الخديوي توفيق واستعراضه للجيش الإنجليزي في ميدان عابدين وكأنه بذلك يقر شرعية الاحتلال الإنجليزي في مصر بعد هزيمة الجيش المصري بالخديعة عام ١٨٨٢ ؟

إن نظام الحكم كان المسئول الأول عما حدث ويحدث لنا .. في حادث دنشواى مثلا كان القاضي والمحامي والنيابة كلهم من المصريين .

ومع هذه التساؤلات تطرح نفسها علي الواحدة بعد الأخري .. بدأت مداركى تفتح علي الأوضاع شيئا فشيئا وبت أنتظر يوم تخرجي من الكلية الحربية بفارغ الصبر حتي أستطيع أن أفعل شيئا .. فقد كنت أزخر بالعديد من الأماني والآمال لمصر ولكنها كانت كلها مازالت حبيسه في صدري لم تترجم بعد إلي واقع .

تخرجت من الكلية الحربية في فبراير سنة ١٩٣٨ ومع خروجي إلي الحياة بدأت الطاقة المختزنة في عقلي الباطن منذ سنين في الإنطلاق .

في طفولتي - كما حكيت - كنت أستمع إلي موال زهران كل ليلة قبل أن أنام .. وكنت أري زهران وهو يصعد إلي المشنقة بخطي ثابتة .. رافع الرأس لا يخشي الإنجليز الذين حكموا بإعدامه ولا يخاف الموت الذي سيلاقيه بعد دقائق .. فرغم قوة العدو وجبروته إلا أن زهران كان أقوي منه بكثير لأنه يملك أقوي الأسلحة وأمضاها وهو سلاح الرفض لكل ما يسعي إلي قهره وقهر أهله .

لم يفارقني طيف زهران بعد ذلك .. التقيت به كثيرا في الصحو وفي المنام .. وفي كل مرة كنت أتمني أن أكون زهران وأن تحكي الناس قصتي كما جعلوا من قصته موالا تتغني به الأجيال .

ومرت الأيام وبدأ الوعي ينمو .. فعرفت مصطفي كامل ومن قبله عرابي ثم أتاتورك .. وكانوا جميعا موضع إعجابي ولكن زهران ظل أقربهم إلي قلبي أرى نفسي فيه وأتمني أن أفعل ما فعل ولكن بدلا من أن يحكم علي الإنجليز بالإعدام أقود أنا ثورة تؤدي إلي هلاكهم وخلاص البلاد من حكمهم .

إن سلاح الرفض كان وسيظل دائما أقوي أسلحة أهل الأرض الطيبة التي أحبها أكثر من أي شيء في الوجود .. وهل يملك الإنسان إلا أن يكون ابن أرضه ووريث أسلافه ؟ كان إحساسي بالقوة الداخلية مازال يلازمني بطبيعة الحال ولكن كان يصاحبه الآن إحساس بقوة خارجية فقد أصبحت ضابط بالقوات المسلحة وكنت أؤمن بأنه لن يتخلص مصر من الإنجليز وفساد الحكم إلا القوة . .

فيم الانتظار إذن؟ لابد من عمل تنتظم يهدف إلي ثورة تقوم بها القوات المسلحة.. هذا هو طريق الخلاص .. ولا طريق غيره. ولكن هل يمكن أن تقوم الثورة من فراغ ؟ لابد من تهيئة النفوس وهذا لا يتأتي إلا بخلق وعي كامل علي قدر المستطاع بالأوضاع التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت .

قلت أبدأ بوضعنا نحن كضباط في الجيش المصري فأقرب الطرق إلي قلب الإنسان ما يمسه هو شخصياً ولذلك ركزت في أحاديثي مع زملائي الضباط علي وضعين لم يكن أحد يختلف علي أنهما يسيئان إلي الجيش وإلي حياتنا في القوات المسلحة وهما البعثة العسكرية البريطانية ومالها من سلطات مطلقة ثم جيل كبار الضباط المصريين وانسياقهم الأعمي إلي ما يأمر به الإنجليز .. .

كنا في ذلك الوقت في منقباد وكانت الاجتماعات تتم في حجرتي بميس الضباط فقد كانت بالصدفة حجرة ضابط عظيم .. شقة صغيرة تقريبا .. إذ عند نقلي إلي منقباد كانت حجرات صغار الضباط أمثالي كلها مشغولة فأعطوني هذه الحجرة ..

كنا نجتمع فيها كل ليلة نشرب الشاي ونتسامر ، وفي أثناء السمر كنت أعمل – دون تعمد واضح - علي تفتيح أعين زملائي علي أوضاع البلاد عامة ووضع الإنجليز بصفة خاصة ..

كانت جلساتنا تستغرق وقتا طويلا.. وكانت تدور بيننا مناقشات لا حصر لها ولكنها كانت ليلة بعد ليلة تضيف إلي إدراك زملائي الضباط لأوضاع البلد وتعمق إحساسهم بخطئها .. أغلبهم كانت تنقصه الثقافة السياسية .. وكنت أنا ألجأ إلي التاريخ أنتقي منه الصور المناسبة ثم أعقد المقارنات بين هذه الصور وبين الحاضر الذي نعيشه بمشاكله ومآسيه .. ولكني كنت .. عن عمد.. أتحاشي إقتراح الحلول .. وكان لهذا الأسلوب في الإثارة والإقناع أثره الفعال فقد كنت أري الزملاء ينصتون إلي في صمت ثم يستفسرون ويسألون ويستوعبون . وإذ كانت مداركهم تتفتح شيئا فشيئا كنت أري بعضهم يثير قضايا جديدة ويقلبون الأمور علي وجه بعد وجه و الحماس يملأ صدورهم والألم أحيانا يعتصر قلوبهم .. وكانت كل القضايا تدور دائما حول مصر وخلاص مصر مما تعانيه حتي أنهم أطلقوا علي حجرتي الكبيرة بميس الضباط (بيت الأمة) ..

طبعا كان يتخلل حديثنا بعض المزاح والنكات والسمر .. وكنت أشاركهم في الهزل كما أشاركهم في الجد .. فقد كنا جميعا شبابا لا يتجاوز أكبرنا سنة العشرين من عمره .. هذا إلي جانب أن هذه كانت

الطريقة المثلي .. فلم يكن من المصلحة في شيء أن أنعزل عن إخواني أو أن أشعرهم أني أختلف عنهم .. المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأني أختلف عن زملائي كانت عندما زارنا عزيز باشا المصري بصفته المفتش العام للجيش المصري وأخذنا معه لزيارة الدير المحرق الذي لم يكن يبعد عن المعسكر كثيراً في الوجه القبلي ..

كان قصده من هذه الزيارة تثقيفنا فقد كان دائم الدعوة إلي الثقافة .. المهم أننا عندما دخلنا الدير المحرق .. ولم يكن أحد منا قد رآه من قبل، وجدنا القسيس أو الكاهن الصغير يعيش في صومعة .. وهي قاعة ليست لها شبابيك فيما عدا فتحة صغيرة في الحائط لا يزيد قطرها علي البوصتين .. وينام علي مصطبة من الطين ... ودهش الجميع من هذا الأسلوب في الحياة و أشفقوا علي القسيس من كل هذا التقشف أما أنا فلم أدهش ولم أجد في هذه الحياة أي تقشف .. فقد ولدت في صومعة مشابهة وإن كنا في القرية نسميها القاعة .. أما المصطبة فهي نفس المصطبة التي قضيت فوقها أيام وليالي حياتي في ميت أبو الكوم.

تركت زيارة عزيز المصري أثرا عميقة في نفسي فقد شاهدت بعيني هذه الشخصية الأسطورية التي شاركت في الثورة التركية مع أتاتورك كما كان أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي وجمعية تحرير الأمة العربية .. هذا إلي جانب تاريخه الطويل المليء بالكفاح .. وولعه بالثقافة والدعوة إليها ...

والثقافة كانت دائما تستهوينى و بوجه خاص في تلك المرحلة المبكرة في حياتي فجنبا إلي جنب مع الخط السياسي الذي بدأته مباشرة بعد تخرجي من الكلية الحربية التزمت بخط ثقافي لم يكن في نظري يقل أهمية عن الخط السياسي لأنه في الواقع يدعمه ويقويه .. ولذلك حاولت الالتحاق بالمعهد البريطاني بالقاهرة للحصول علي البكالوريوس في الآداب من جامعة لندن .. وكنت مولعاً بالقراءة وأتصيد الكتب من علي سور الأزبكية كلما ذهبت إلي القاهرة أما وأنا في الأقاليم فكنت أكتب إلي الناشرين والمكتبات في طلب قوائم الكتب أنتقي منها ما يروقني فيرسلونها إلي الملازم ثان محمد أنور السادات .. أينما كنت ..

في هذا بالذات كنت أختلف عن بقية زملائي .. أذكر ونحن في منقباد كان يحملنا عصر كل خميس أتوبيس عسكرى خاص إلي أسيوط لقضاء ساعات المساء بها .. وكان زملائي يذهبون إلي السينما أو أماكن اللهو الأخري .. أما أنا فكنت أجلس في مقهي وسط ميدان قريب من محطة السكة الحديد أدخن الشيشة وأقرأ الكتب التي تسوقتها من القاهرة وأنا في غاية السعادة إلي أن يعود إخوانى من لهوهم ويعود بنا الأتوبيس جميعا إلي المعسكر ..

كانت جلساتنا في حجرتي بالميس تتسع يوما بعد يوم وكان عدد الضباط الذين يشاركون فيها يزداد وأذكر أني رأيت جمال عبد الناصر لأول مرة في هذه الجلسات فقد لحق بنا هو الآخر مع كتيبته في منقباد .. وكان انطباعى عنه أنه شاب جاد لا يميل إلي المزاح مثل غيره من الزملاء ولا يقبل أن يضاحكه أي إنسان لأنه كان يري في هذا مساسا بكرامته مما جعل أغلب الزملاء يبتعدون عنه بل ويتحاشون الكلام معه حتي لا يسيء فهمهم .. كان ينصت إلي مناقشاتنا باهتمام ولكنه لا يتكلم إلا في القليل النادر وقد توسمت فيه الجدية لأول وهلة وكنت تواقاً إلي المزيد من التعرف عليه .. ولكن كان من الواضح أنه يقم بينه وبين غيره من الناس حاجزآ من الصعب اجتيازه .. فقد كان منطوياً علي نفسه بشكل يلفت النظر ولذلك فكل ما قام بيننا ـ في تلك المرحلة ـ لم يخرج عن نطاق الاحترام المتبادل ولكن عن بعد.. .

استمرت الجلسات ولم ينقطع الكلام أو الحوار عن أوضاع مصر ومشاكلها ولكن كل هذا كان يدور في نطاق محدود .. وكنت أريد مجالا أوسع لتنفيذ الخطة التي وضعتها للعمل السياسي عند تخرجي وكان هذا المجال الذي أتطلبه هو القاهرة بطبيعة الحال .. ولكني كنت بعيداً عنها وسأظل كذلك ما دمت في سلاح المشاة ..

من هنا بدأت أضيق بالخدمة في هذا السلاح إلي جانب تبرمى بالبعثة البريطانية وبقائد محطتنا في منقباد الذي كنا نسميه السلطان عبد الحميد لقسوته وبطشه الذي كان يحاول عن طريقه إخفاء جهله من جهة وإرضاء رؤسائه الإنجليز من جهة أخري .. ولكن أين المفر ؟

وأخيرا حانت الفرصة فقد كنت واحداً من الضباط الذين اختارتهم القيادة للحصول علي فرقة إشارة بمدرسة الإشارة بالمعادي قرب القاهرة .. كان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٩ وكان معي في نفس الفرقة عبد الناصر الذي وصل منقباد بعد وصولنا بستة أشهر ولكن كان الحاجز مازال قائما بيننا ..

انتهي التدريب بعد شهرين ونصف وهي المدة المحددة للفرقة وعقد الامتحان ثم أقاموا لنا حفل تكريم قبل أن نعود إلي وحداتنا .. لم يكن عندي أي أمل في أن التحق بسلاح الإشارة الذي أنشيء حديثا في الجيش .. فقد كان في ذلك الوقت أهم الأسلحة جميعا ولابد لدخوله من واسطة كبيرة مثل كل شيء آخر .. وعهد إلي بالقاء كلمة في حفل الوداع نيابة عن زملائي ...

وقد وجدت في إعدادها متعة لم أعرفها من قبل وهنا اكتشفت لأول مرة أن لدي قدرة علي الكتابة وسياق مفاهيم ومعاني جديدة مترابطة..

كانت كلمتي هادفة ولها معني متكامل ولم أقرأها من الورق بل ألقيها من الذاكرة ويبدو أنها راقت قائد سلاح الإشارة الأميرالاي إسكندر فهمي أبو السعد وكان أديباً فما أن عدت إلي كتيبتي بمنقباد حتي نقلت للعمل بسلاح الإشارة بالمعادي وكان ذلك من أسعد أيام حياتي فأخيرا أتيحت لي الفرصة التي انتظرتها طويلا ..

بدأت الاتصالات فورا وعلي نطاق واسع شمل أغلب أسلحة الجيش في القاهرة التجمع الأكبر من الضباط .. وبدلا من حجرتي بمنقباد بدأنا نلتقي في شقتي بكوبري القبة .. في نادي الضباط .. وفي المقاهي وبيوت بعضنا ..

كان الاتصال أول الأمر قاصراً علي زملاء السلاح والسن في دفعتي .. ولكن انتصارات هتلر المتلاحقة في سنة 39، 40، 41.. وهزائم الإنجليز شجعتنى علي أن أوسع الدائرة شيئا فشيئا حتي شملت الكثيرين ممن التحقوا بالجيش بعدنا و نفر غير قليل ممن كانوا أسبق في الخدمة منا.

كان الجميع يستجيبون للدعوة بسرعة وحماس .. وكانت الدعوة أننا يجب أن ننتهز الفرصة ونقوم بثورة مسلحة ضد الإنجليز في مصر ..

هكذا قام أول تنظيم سري من الضباط وكان ذلك في سنة ١٩٣٩ .. كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرؤوف وكان يعتبر الرجل الثاني بعدى .. وعبد اللطيف بغدادي وحسن إبراهيم وخالد محي الدين وأحمد سعودى حسين الله يرحمه .. وحسن عزت و المشير أحمد إسماعيل ... الذي كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصصه ..

لم ألجأ إلي الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم في أوائل سنة 1943 بعد اعتقالي في صيف ١٩٤٢ في تلك السنة كان خط هتلر قد بدأ في الإنكسار وبالتالي استعاد الإنجليز قوتهم في مصر فكان علي عبد الناصر آن يخطط للمستقبل ..

أما أنا فلماذا أخطط لثورة علي مدي زمني بعيد ؟ كانت الأحداث وما أعقبها من ردود أفعال - أي انتصارات هتلر المتلاحقة وهزائم الإنجليز كنتيجة حتمية لهذه الانتصارات قد جعلت الباب أمامي مفتوحاً للعمل المباشر .. ففم الإعداد للمستقبل والفرص متاحة أمامنا وواجبنا أن ننتهزها قبل أن تفوت .

في هذا الاتجاه سرت وأسرعت الخطي .. فإلي جانب اتصالاتي الواسعة بالضباط وتشكيل الهيكل التنظيمي للثورة بدأت أتصل بالجنود في وحدتي بالمعادي وألقي عليهم محاضرات عن المعركة والموقف العسكري في العالم و موقفنا من الإنجليز والأوضاع في مصر .. كيف كانت وكيف أصبحت .. وإلي جانب هذا كنت أحدثهم عن الوطن والوطنية كما كنت أصلي بهم .. .

و تصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودى ففوجئت يوم مولد النبي سنة 1940 بأحدهم يهمس في أذني بأن بالباب رجل ممتاز في الدين يريد أن يقول كلمتين للجنود بمناسبة المولد وكنت ضابط النوبة في تلك الليلة .. سألت من يكون .. ولما عرفت أنه الشيخ حسن

البنا المرشد العام للإخوان المسلمين رحبت به و جعلته يلقي المحاضرة علي الجنود بدلا مني ..

كان ممتاز في اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه .. من كل النواحي فعلا كان الرجل مؤهلا للزعامة الدينية .. هذا إلي جانب أنه كان مصرياً صميماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة في معاملة الناس .. .

كنت قد سمعت الكثير عن الإخوان المسلمين وكنت أتصور أنها جماعة دينية هدفها الوحيد الإصلاح الخلقي وإحياء قيم الإسلام ... ولكن بعد أن استمعت إلي الشيخ البنا بدأ مفهومى يتغير بعض الشيء فقد كان الرجل يتكلم عن الدين والدنيا معا .. وبأسلوب جديد لم نألفه من رجال الدين .

أعجبت به كل الإعجاب فبعد أن انتهي من المحاضرة هنأته من كل قلبي ..

وجلسنا نتبادل الحديث لبعض الوقت .. وقبل أن يخرج دعاني لحضور درس الثلاثاء الذي كان يلقيه كل أسبوع بعد صلاة المغرب في مقر المركز بالحلمية الجديدة .

وذهبت إليه وحضرت بعض الدروس وفي كل مرة كان يصطحبني إلي مكتبه الخاص لنتجاذب أطراف الحديث .. ولفت نظري ما كان عليه الإخوان من تنظيم وما كانوا يحيطون به المرشد العام من احترام و تبجيل يكاد يصل إلي درجة التقديس حتي أنهم في معاملتهم لي كادوا يقبلون الأرض بين يدي لمجرد أنه كان يدعوني للجلوس معه في مكتبه ..

كان الإخوان دون شك قوة لا يستهان بها ويكفي للتدليل علي هذه القوة أنه كانت أمام مقرهم بالحلمية فيلا رائعة أراد الشيخ البنا أن يجعلها مقرا جديدا للجمعية فطرحها للاكتتاب وفي أقل من يوم غطي الاكتتاب و اشتراها ..

بعد سماعي لعدد من دروس الثلاثاء وقبل ذلك المحاضرة التي ألقاها علي جنودى يوم مولد النبي ساورني الظن بأن الشيخ البنا إنما كان

يعمل علي مستوي سياسى و بطريقة ذكية للغاية فهو في أحاديثه لا يتعرض للسلطة علي الإطلاق..

وإنما يتكلم عن الإسلام فحسب ديناً ودنيا .. وكيف أنه صالح للروح كما أن لا صلاح للحكم بدونه .. .

وأكد هذه الظنون ما سبق أن دار بيني وبين الضابط العظيم لفرقتى من حديث حول الشيخ البنا.. فبعد محاضرته في الجنود يوم مولد النبي .. زارني الضابط العظيم في حجرتي في ساعة متأخرة من الليل ..

قلت : خيراً ..

قال إنه إنما جاء ليقول لي كل سنة وأنت طيب بمناسبة المولد .. ثم دخل في الموضوع مباشرة فأخبرني أن المخابرات قد علمت بزيارة الشيخ البنا.. فحركاته مرصودة من الدولة لأن تنظيمه في الواقع تنظيم سياسى و لذلك فهو يحاول أن يجند أفراد القوات المسلحة لبلوغ أهدافه ..

وعرفت بعد ذلك ما لم يقله إلي الضابط العظيم أن عند الشيخ البنا وتنظيم الإخوان ضابطا متقاعدا اسمه محمود لبيب هو رئيس الفرع العسكري بالإخوان قد استطاع بالفعل تجنيد بعض الجنود والضباط .

كان هذا أول تنبيه لي .. ومع ذلك داومت علي حضور دروس الثلاثاء .. ولكن لم يكن يعجبني منظر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام .. فأنا لا أميل بطبعي إلي هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء (ولو أني كنت أقبل يد أبي إلي أن مات وبعد ولايتى كرئيس للجمهورية) ولذلك تعمدت بعد ذلك أن أذهب للقائه قبيل انتهاء الدرس فيصطحبني كعادته إلي مكتبه الخاص ويبدأ الحديث معي ..

كان دائما في منتهي اللباقة و الحرص فهو يتلمس طريقه إلي قلبي في كل حوار يدور بيننا أما الأسئلة التي يوجهها إلي فقد كان هدفه منها استكشاف نواياى و مقاصدي .. وكنت أنا علي وعي تام بما يحاول صنعه في إحدي اجتماعاتنا قلت له .. - اسمع يا شيخ حسن .. واضح أنك حريص أكثر من اللازم في الحديث معي وأنا لا أرى داعياً لهذا .. بصراحة أنا أسعي إلي عمل تنظيم عسكرى هدفه قلب الأوضاع في البلد ..

باغتت الرجل هذه المفاجأة .. فنظر إلي في دهشة ولم يعرف ماذا يقول .. ربما كنت أحد رجال المخابرات .. وربما كنت مدسوساً عليه من جهة أو أخري .. وقطعت عليه صمته بقولي :

- نعم أنا أسعي إلي ثورة مسلحة .. ومعي عدد كبير من الضباط من كل أسلحة الجيش .. وحركتنا تسير . بدأ يسألني أسئلة محددة .. أي أسلحة الجيش معكم ؟ وما مدي قوتكم ؟ وكم عدد الضباط الذين يمكن أن تعتمد عليهم للقيام بهذه الثورة ؟

وأجبته .. وفجأة طلب مني أن ننسق العمل معا .. قلت له :

- لقد صارحتك بكل شيء .. وأحب أن أقول لك بنفس الصراحة .. نحن تنظيم لا يخضع ولا يعمل لحساب أي حزب أو هيئة وإنما لمصلحة مصر ككل .. وأرجو أن يكون ذلك واضحاً منذ البداية ...

وأمن الرجل علي كلامي وقال :- يكفي فقط أن نتعاون .. ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتي كان قد جند لحساب الإخوان عبد المنعم عبد الرؤوف الرجل الثاني بعدي في تنظيم الضباط الأحرار.

كنت مفتونا بشخصية عزيز المصري منذ لقائنا في منقباد وكان معروفا عنه أنه يكره الإنجليز حتي أن سير مايلز لامبسون السفير البريطاني في ذلك الوقت طلب من علي ماهر إقالته من منصبه بالجيش ولكن علي ماهر اكتفي بإعطائه إجازة مفتوحة .. .

كنا بحاجة إلي الإفادة من خبرات هذا المحارب العظيم و إرشاداته ..

هكذا أحسست ، فطلبت من الشيخ حسن البنا أن يجمعنى به وكان ذلك في سنة 1940 وهي نفس السنة التي التقيت فيها بالشيخ البنا...

واستجاب الرجل علي الفور .. فطلب مني أن أتوجه إلي عيادة الدكتور إبراهيم حسن بالسيدة زينب .. وكان في ذلك الوقت وكيل الإخوان .. وأحجز تذكرة كأي مريض عادي ثم أدخل للكشف وبعد ذلك يقوم الدكتور حسن بالمطلوب .. وفعلا بمجرد أن دخلت علي الدكتور حسن وقدمت التذكرة .. فتح باب حجرة مكتبه وهناك وجدت عزيز باشا في انتظارى ..

حييته وذكرته بلقائنا في منقباد ثم بدأت أتكلم في شئون البلد وأحوال الإنجليز وأحوالنا .. لن أنسي أبدأ هذا اللقاء الأول مع عزيز المصري .. كان متردداً في التحدث معي .. وصارحني بأنه متشكك في أمري .. وأني ربما كنت أحد رجال المخابرات أو أي شيء من هذا القبيل .. قلت له .. لو كان الأمر كذلك لالتقيت بك مباشرة ولكني كما تري أتيت إليك عن طريق الشيخ حسن البنا وأظنك تثق به ..

فلما اطمأن سألني : ما سبب مجيئك وماذا تريد مني ؟

قلت : نحن ضباط في مرحلة تنظيم يهدف إلي طرد الإنجليز من مصر وتغيير الأوضاع في مصر .. وباعتبارك شخصية عسكرية كبيرة نتطلع إليها جميعا .. نرجو أن تسمح لنا بأن نرجع إليك من آن لآخر لكي ترشدنا و تفيدنا بخبرتك و تجاربك .

قال : أول درس أقوله لكم .. اعتمدوا علي أنفسكم .. ولا تنتظروا أي رائد .. المبادرة يجب أن تأتي منكم أنتم .. نابليون وصل لرتبة جنرال وكان زعيماً وعمره سبعة وعشرون سنة .. كم سنك أنت ؟

قلت : ٢٢ سنة .. قال : عال .. تعاونوا مع بعضكم البعض .. وهذا يكفي ..

ثم أخذ يشكو لي من البلد وأنه قد احتك بأناس كثيرين للقيام بأعمال من هذا القبيل ولكن كانوا كلهم نصابين وانتهي الأمر كل مرة إلي لا شيء.. قلت له إننا جادون وإنه سيري ذلك بنفسه عندما يسمح لنا بمداومة الاتصال به للمشورة وتبادل الرأي ..

قال : عظيم .. أول شيء كما قلت .. لابد أن تعتمدوا علي أنفسكم .. ثاني شيء الثقافة .. لابد أن تثقفوا بأنفسكم .. والثقافة ليست بالشهادات .. الثقافة بالقراءة .. اقرأوا في كل الاتجاهات وفي كل المجالات.. الشيء الثالث الذي أوصيكم به هو أن تجعلوا تنظيمكم محكما بحيث لا يتسرب إليه أي غريب أو تنال منه أية دسيسة .. لقد عانيت الكثير في حياتي من الخيانات والغدر ..

ثم التفت إلي وسألني فجأة .. ماهي علاقتكم بالإخوان المسلمين ؟

قلت : لقد صارحت الشيخ البنا منذ البداية أننا نعمل من أجل مصر لا من أجل أي حزب أو كتلة.

قال : رائع !.. هذه هي نقطة البدء.. سليم.. في نهاية اللقاء اتفقنا كيف نتقابل وأين .. كان بيته في عين شمس ولكنه كان مراقباً من المخابرات المصرية والبريطانية ... قلت إنه يمكننا التغلب علي هذا .. فمعنا في التنظيم بعض ضباط الشرطة وفعلا كنت أذهب لزيارته في بيته وأحيانا كنا نلتقي في جروبي ... وفي مرحلة من المراحل كان يسكن في بنسيون وسط البلد اسمه الفينواز .. وكنت ألتقي به هناك أيضا ..

وهكذا استمرت اتصالاتي بعزيز باشا المصري .. كما لم تنقطع صلتي بالشيخ حسن البنا .. وفي هذه الأثناء كنت أوسع دائرة الضباط الأحرار يوما بعد يوم ..

تلاحقت الأحداث فقوات هتلر تجتاح أوروبا بسرعة غير متوقعة ومركز الإنجليز يزداد ضعفا كل يوم وفي كل مكان .. بحيث جعل الفرصة تبدو أمامنا قريبة جدا لكي نضرب ضربتنا ونتخلص من المستعمر والأحزاب ..

في هذه الأثناء صدرت الأوامر بنقلي إلي مرسي مطروح في أقصي الشمال كضابط إشارة لآلاى المدفعية .. وهناك تابعت نشاطى بشكل مكثف بين الضباط ..

كان الجيش المصري إلي ذلك الوقت يشترك مع القوات البريطانية في الدفاع عن الصحراء الغربية ضد قوات المحور مما جعل مصر طرفاً في النزاع العالمي رغم أن المحور لم يعلن الحرب علينا.. وأصبحت الصورة بهذا أننا نحارب لحساب انجلترا مما ينتقص بطبيعة الحال من سيادة مصر التي نصت عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ ... هذا إلي جانب الشعور العام بأن عدونا الأصلي إن لم يكن الوحيد هو انجلترا وليست أية قوة خارجية أخري ..

لم يكن الرأي العام في مصر راضيا بأي حال من الأحوال عن هذا الوضع بل كان في الواقع ساخطاً عليه كل السخط .. ففي حديث دينى لشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفي المراغي .. وكان شخصية مرموقة .. قال عبارة أصبحت تتردد علي كل لسان .. وهي أنه لا ناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب .. ثم جاء علي ماهر رئيس الوزراء في ذلك الوقت وأعلن في البرلمان سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب .. وهي السياسة التي أقرها البرلمان علي الفور وبالإجماع وبناء عليه صدرت إلينا الأوامر بالنزول من مرسي مطروح وكان هذا معناه أن يتولي الإنجليز وحدهم الدفاع عن القطاعات الثلاثة الموجودة في المنطقة ـ وكنا قبل ذلك نتولي نحن الدفاع عن قطاعين منها ..

أغضب الإنجليز هذا الإجراء فطلبوا منا تسليم أسلحتنا قبل انسحابنا من مواقعنا.. وهنا ثارت ثائرتي ولكني سعدت لأن هذا الطلب كفيل بتعبئة الشعور العام للضباط ضد الإنجليز وضد قيادة الجيش المصري التي وافقت علي الطلب فهذه إهانة عسكرية لنا ثم إننا بحاجة إلي السلاح .. اتصلت بجميع الضباط وكانت النتيجة الإجماع علي عدم التخلي عن

السلاح .. وإذا صمم الإنجليز علي تجريدنا منه فليس أمامهم وأمامنا إلا القتال .. ولما علمت إدارة الجيش بقرارنا سلموا بمطالبنا فصدرت الأوامر بالانسحاب مع الاحتفاظ بالسلاح .

كان هذا في صيف ١٩٤١ وهنا دبرت أول خطة لأول ثورة .. فاتفقت مع جميع الوحدات المنسحبة من مرسي مطروح علي أن نلتقي في وقت محدد عند فندق مينا هاوس في نهاية طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوي وهناك نبدأ التجمع وندخل القاهرة فنضرب الإنجليز .. ونستولي علي السلطة ..

إلي هذا الحد كان الإنجليز في ذلك الوقت علي قدر من الضعف جعلني وزملائي نقدم علي هذه المغامرة دون أن نحسب حساب نتائجها .. نعم .. كانت هناك خطة مرسومة وكانت تفاصيلها كلها معي ولم يكن للإخوان المسلمين أو لأي تنظيم مدني آخر أي دور فيها .. ولكن هل كان هذا يكفي ؟ المهم أني أخذت وحدتي من مرسي مطروح وفي قفزة واحدة وصلنا إلي العجمي عند مدخل الإسكندرية .. حيث قضينا ليلتنا وأنا في غاية السعادة في الغد سوف ألتقي بالوحدات الأخري عند مدخل مينا هاوس وسوف ندرس الخطة معا ونوزع الواجبات و تختار الوقت المناسب ثم ندخل القاهرة ونحقق ثورتنا..

ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. فعند مينا هاوس لم تكن هناك أية تجمعات فغسلنا العربات .. وجلست أنا وجنودي في انتظار الوحدات .. ولكن عبثا .. لابد أنهم سبقونا إلي القاهرة .. قلت في نفسي .. وبعد طول الانتظار .. أمرت وحدتي بالسير إلي معسكرنا في المعادي ...

وهكذا لم تتحقق لنا أول ثورة دبرتها .. ولكن ربما كان هذا من فضل الله .. فلو أن هذه الثورة قامت ثم فشلت لتنبه المسئولون ولشددوا الرقابة علي الجيش ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو ..

أخذت المسألة بروح رياضية ولذلك بدلا من أن يعرف اليأس طريقه إلي قلبي رحت أكثف اتصالاتى بجميع أسلحة الجيش ..

واتسعت الدائرة كما لم تتسع من قبل في كل يوم كان ينضم أعضاء جدد إلي تنظم الضباط الأحرار .. كان عبد المنعم عبد الرؤوف نائبى .. وكنا

نعقد الإجتماعات في بيته بالسيدة زينب أو عندي في كوبري القبة أو في فيلا حسن عزت و سعودى بكوبري القبة أيضا .. وفي هذه المرحلة بدأنا في عمل اللجان فكانت هناك لجنة للإتصالات بالهيئات السياسية ولجنة للإتصال بالضباط المنتمين للتنظيم في الأسلحة المختلفة .. ولجنة ثالثة لا أذكر الآن ماذا كانت مهمتها بالضبط .. وفي نفس الوقت داومت علي اتصالي بالإخوان المسلمين و عزيز المصري .

في أواخر عام 1941 التقيت بعزيز المصري في جروبي بناء علي طلبه .. كان بحاجة إلي مساعدة تنظيم الضباط الأحرار لتمكينه من السفر إلي العراق .. فقد وصلته رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد عالي الكيلاني في ثورته التي قام بها في العراق ضد الإنجليز .. في هذه الأثناء كان الإنجليز قد أفلحوا في استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالة عزيز باشا إلي المعاش ... وكانت المخابرات علي علم بإتصالاتى به فأنذروني بالابتعاد عنه ولكني لم أعبأ بإنذارهم فقد كان من واجبي مساعدته .. إلا أننا - كما قلت له - لا نملك من الوسائل سوى ما قد يمكنه من بلوغ بيروت وهناك يستطيع أن يتصرف ..

بعد ذلك بقليل أبلغنى عزيز باشا أنه تسلم رسالة ثانية من الألمان يقولون فيها إن طائرة ألمانية ستكون في انتظاره عند جبل رزة في مدخل طريق الفيوم في يوم معين ساعة الغروب ..

هنا أدركت سر مجموعات الرحالة الألمان الذين كانوا يفدون إلي الصحراء الغربية ويضلون طريقهم فيها - كما كنا نقرأ في الجرائد قبل الحرب ..

كانت هذه الرحلات في الحقيقة بعثات استكشاف فقد أصبح من الواضح أن الألمان قد درسوا توبوجرافيا الصحراء دراسة كاملة وإلا فكيف توصلوا إلي معرفة جبل الرزة و هو نقطة صغيرة علي الخريطة لا تكاد العين تتبينها ؟

اشترينا عربة من نوع (البيك آب) الصالح للسير في الصحراء ولكن صاحب المحل أبلغ عن بيع السيارة طبقاً للأوامر حينذاك .. عرفت المخابرات أني اشتريها .. شكوا في الأمر فصدرت الأوامر بإبعادي إلي مكان اسمه الجراولة لا يبعد كثيرا عن مرسي مطروح .. تمارضت ودخلت المستشفي العسكري حيث أعطوني إجازة لمدة أسبوع لم تكن كافية لتنفيذ خطة هروب عزيز باشا فوضعت الخطة بين يدي عبد المنعم عبد الرؤوف وذهبت إلي الجراولة حيث التقيت لأول مرة

بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك فاروق بعد ذلك .. والذي لعب دورا مرموقا دون أن يدري في مسيرة ثورتنا نتيجة للصداقة التي نشأت بيننا..

لا أعلم ما الذي حدث للعربة الـ (بيك آب) .. أغلب الظن أن الإنجليز استولوا عليها .. وإلا لما لجأ عبد المنعم عبد الرؤوف بالاشتراك مع حسين ذو الفقار صبري وكلاهما طيار ماهر إلي الاستيلاء علي طائرة حربية وضعا فيها عزيز المصري وحقائبه للسفر إلي بيروت (التي كانت في ذلك الوقت خاضعة لحكومة فيشي التي سلمت للألمان). ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بدقائق معدودة اكتشف حسين ذو الفقار صبري أن الزيت قد نفد فيبدو أنه بدلا من أن يفتح طلمبة الزيت أغلقها فاضطر إلي الهبوط فوق شجرة في أحد الحقول بجوار بنها .. ومن هناك استطاع ثلاثتهم بمساعدة مأمور قليوب الوصول إلي القاهرة حيث اختبأوا.. .

في هذه الأثناء اكتشفت حادثة الطائرة واكتشفت أيضأ حقيبة في مكان الحادث وعليها الحرفان. A .M أي .. عزيز المصري .. فاتجهت الشكوك إليه وخاصة بعد أن وجدوا أن الطائرة كانت موجهة إلي بيروت .. ولعلمهم بميوله المعادية للإنجليز أدركوا أنه كان في طريقه للاتصال بالألمان في العراق ..

ولما كانوا علي معرفة باتصالاتي به قبضوا علي فورا في الجراولة ونزلوا بي إلي القاهرة وأنا تحت الحراسة ..

وصلت القاهرة في الصباح المبكر فتوجهوا بي إلي وزارة الحربية حيث جلست في مكتب سكرتير الوزير أقرأ في كتاب أرمسترونج « الذئب الأغبر »

وهو كتابه المعروف عن أتاتورك .. كنت مستغرقا في القراءة فلم أشعر إلا بعد فترة أن هناك من يقف أمامي ينظر إلي ويتفحصني .. كان إبراهيم باشا عطا الله رئيس الأركان ومن حوله طاقمه .. وقفت علي الفور وأديت له التحية العسكرية .. نظر إلي من حوله وقال :

- هذا هو اليوزباشى محمد أنور السادات ؟

أخبروه أني قد وصلت في الصباح من الصحراء الغربية فنظر إلي في ازدراء ومضي ..

قلت في نفسي إنه لو كلف خاطره و نظر إلي الكتاب لأدرك الكثير .. ربما .. وربما لم يكن ليدرك شيئاً علي الإطلاق ..

استدعوني في المساء للقاء وكيل النيابة وانتظرت دورى .. كان الرجل مشغولا في أخذ أقوال شهود حادث الطائرة وشهود سلاح الطيران وكان عددهم كبيرة فانتظرت طويلا وفي هذه الأثناء كنت قد أعددت نفسي للقاء إعدادا كاملا .. فقد قرأت الجرائد وعرفت منها كل ما حدث.. أخيرا وفي منتصف الليل استدعيت وسألني وكيل النيابة ..

- هل لك صلة بعزيز المصري ؟ وهل كنت تزوره ؟

وأجبت : نعم لي صلة به وقد طلبت مني المخابرات قطع هذه الصلة ولكني لم أستمع إليهم فليس في هذه الصلة في نظري أي جرم أو مخالفة ..

وعاد يسألني : - هل تعرف عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى ؟

- طبعا ونحن دفعة واحدة وأصدقاء

- ألم يتصل بك عزيز المصري بشأن سفره خارج القطر ؟

وأجبته : أنا اتصالاتى بعزيز باشا تقوم كلها علي الحب والوفاء ... فمنذ أن زارنا في منقباد وأنا معجب به .. .

واسترسلت في وصف تلك الزيارة وكيف أخذنا إلي الدير المحرق وماذا رأينا هناك إلي أن اختتمت حديثي الطويل بقولى :

- بعد أن أحيل عزيز باشا إلي المعاش وجدت أنه من باب الوفاء أن أزوره بين الحين والحين .. هذا كل ما في الأمر .

وعاد وكيل النيابة إلي سوءالى :

- هل عندك أية معلومات عن محاولة السفر أو أية اتصالات تمت بينه وبين الألمان ؟

قلت : ومن أين لي مثل هذه المعلومات وأنا علي بعد 50 كيلو من القاهرة وقد سافرت إلي الجراولة قبل الحادث بخمسة أيام ؟

لم يجد وكيل النيابة أي دليل علي إدانتي فأمر بالإفراج عني وعودتي إلي عملي بالجراولة ..

«هذه ميزة سيادة القانون» قلت في نفسي وأنا في طريق العودة إلي الصحراء .. ولم يكن هذا كل ما قلته .. كان الحوار بيني وبين نفسي طويلا .. ما الذي حدث لعبد المنعم عبد الرؤوف ولحسين ذو الفقار صبري ؟ لم أكن أعرف ... وعزيز المصري .. ماذا كان مصيره ؟ وتساءلت عن سبب قلقي لفشل خطة سفره إلي العراق .. وجاءني الجواب ..

مما لا شك فيه أنه كان سيساعد في نجاح ثورة رشيد عالي الكيلاني للتخلص من الإنجليز في العراق .. وكل ما من شأنه إضعاف مركز الإنجليز في الشرق الأوسط كان يهمني في المقام الأول . أليس في إضعاف العدو - أينما كان - مزيدا من الفرص لكي نضرب ضربتنا .. ؟

في أواخر عام 1941 صدرت إلينا الأوامر بالنزول من مرسي مطروح وأذكر أن كتيبة عبد الناصر كانت علي مقربة منا في جهة اسمها الحمام .. ولكنه لم يكن فيها .. كان في السودان ولم يعد منها إلا في ديسمبر سنة ١٩٤٢ .. في القاهرة أخذت فرقة للترقي وفي أثناء عملي بالفرقة داومت نشاطي السياسي في بناء تنظيم الضباط الأحرار .

كان ذلك في أوائل سنة 194٢ وقد وصل روميل إلي ليبيا مع فرق البانزر (الدبابات) الألمانية وكان الشعور العام في مصر معاديا للإنجليز وبالطبع في صف أعدائهم .. وكان الإنجليز يعلمون ذلك .. فطلبوا من فاروق في فبراير 194٢ أن يكلف النحاس زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة أملا منهم في استمالة الرأي العام المصري .. ولكن فاروق رفض فما كان من السفير البريطاني لورد (كيلرن) إلا أن حاصر قصر عابدين بالدبابات يوم 4 فبراير 194٢ فإما أن يستجيب فاروق لمطلبهم أو يتنازل عن العرش .. وأمام هذا التهديد استدعي فاروق النحاس وكلفه بالوزارة .

كان ذلك في 4 فبراير سنة 194٢ .. تاريخ لا ينساه جيلنا .. في ذلك اليوم سقط النحاس في نظرنا .. إذ كيف يقبل أن يفرضه المستعمر علي البلد بقوة السلاح ؟ فتجمع الضباط بالقاهرة وسرنا إلي قصر عابدين تحية للملك الذي خرج لرد التحية .

لم نكن بطبيعة الحال راضين عن فاروق ولكن ما حدث كان إهانة لمصر جيشا وشعبا واعتداء علي سيادتها بصرف النظر عن شخص من يمثل هذه السيادة ..

لذلك عندما سمعنا أن لورد (كيلرن) قد وجه إنذاراً ثانياً إلي فاروق إثر حادث وقع في مطار القاهرة بعد أيام من حصار عابدين جرحت فيه كرامة إنجلترا.. اتفقنا نحن الضباط الأحرار أن نحيط بالقصر الملكي ونشتبك مع الإنجليز لو حاصروا القصر بدباباتهم مرة أخري .. ومن ثم استعرت عربة زكريا محي الدين وكان الوحيد بيننا الذي يملك عربة خاصة . ورحت أطوف بها حول القصر طوال الليل أرصد الحركة من

قريب و من بعيد لأنذر إخواننا لو حدث ما كنا نتوقعه .. ولكن الليل انقضي دون أن يحدث شيء فرجعت بالعربة في الصباح المبكر وأعدتها لصاحبها .

كان الشعور العام ضد الإنجليز يزداد يوما بعد يوم إلي أن أتي الصيف وحطم روميل الجيش الثامن البريطاني ووصل إلي العلمين وهي تبعد ٧٠ كيلو مترا عن الإسكندرية .. وهنا كشف المصريون عن شماتتهم في الإنجليز فخرجت المظاهرات تنادي « إلي الأمام يا روميل ، فقد كانت الجماهير تري في هزيمة الإنجليز الطريق الوحيد لخلاص البلاد منهم .

وأصاب الإنجليز الذعر فراحوا يحرقون وثائقهم وأوراقهم ويرحلون رعاياهم والموالين لهم إلي السودان .. فبعد أن سقطت العلمين في يد روميل أصبح الطريق أمامه مفتوحا لغزو مصر .

لم يكن هناك أي شك في أن روميل سوف يواصل سيره إلي الإسكندرية ومنها إلي القاهرة .. المسألة فقط مسألة وقت .. ووقت قصير أيضا .

وكان مقررا أن تكون مصر من نصيب إيطاليا وإن موسوليني قد جهز بالفعل حصانا أبيض ليدخل القاهرة علي ظهره كما كانت العادة أيام الإمبراطورية الرومانية .

اجتمعت مع إخواني في تنظيم الضباط الأحرار وقلت لابد من عمل شيء.. فكيف نترك روميل يغزو مصر بدون أية مقاومة ؟ اتفقنا علي أن نرسل أحدنا إلي روميل في العلمين ليقول له إننا مصريون شرفاء وإن لنا تنظيمنا داخل الجيش ونحن مثلكم ضد الإنجليز وعلي استعداد لكي نجند من بيننا فرقة كاملة تحارب إلي جانبكم وأن نزودكم بصور جميع خطوط ومواقع القوات البريطانية بمصر وفوق هذا كله فنحن نتكفل بأن لا يخرج عسكري إنجليزي واحد من القاهرة .. كل هذا مقابل أن تنال مصر استقلالها التام فلا تكون من نصيب إيطاليا أو تحكمها ألمانيا وأن لا يتدخل أحد في شئونها الداخلية أو الخارجية بأي حال من الأحوال .

كانت هذه هي شروط المعاهدة التي أمليتها وحملها المرحوم الطيار أحمد سعودى علي طائرة هرب بها من القاهرة إلي العلمين وأنا عندي ٢٢ سنة بعد أن عرضتها علي إخواني وحازت قبولهم ولم يكن عبد الناصر معنا فقد كان في السودان كما سبق أن أوردت .

وتعزيز لحركة المقاومة وضمانا لتنفيذ بنود مشروع المعاهدة اهتديت إلي سوق الزجاج حيث اشتريت عشرة آلاف زجاجة أعددناها علي هيئة كوكتيل مولوتوف . ثم قام بغدادى و حسن إبراهيم مع سعودي وحسن عزت بتصوير المواقع البريطانية بالطائرة ووضعنا الأفلام ومشروع المعاهدة في حقيبة وعهدنا إلي سعودى بتوصيلها إلي روميل في العلمين .

في ذلك اليوم كانت طائرة حسن إبراهيم هي التي تحت الإنذار فأعطاها لسعودى الذي طلع بها كأنه في دورية عادية ثم اتجه إلي العلمين .

كانت طائرة من طراز بريطانى طبعاً يسمي جلادياتور ولذلك فرغم إشارة الصداقة أطلق الألمان نيرانهم عليها فوق العلمين فانفجرت بسعودي وما فيها .

وعندما اكتشف فقدان الطائرة قدم حسن إبراهيم للمحاكمة وتأخرت أقدميته ولكنهم لم يتمكنوا من الكشف عما وراء الحادث من تنظيم ،

في ذلك الوقت كنت أعمل بسلاح الإشارة في الجبل الأصفر بالقرب من القاهرة .. وكنت أنتظر إشارة من سعودي أو من الألمان ولكن طال الإنتظار فبدأت أقلق .. في هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتي إلي زميلي حسن عزت ليقول إن ضابطين من الجيش الألماني يريدان الاتصال بي للتعاون ففرحت وقلت هذه نجدة من السماء .

كان أحدهما و اسمه (ابلر) من أم ألمانية متزوجة من مستشار مصري أنجبت منه ولدا اسمه حسن جعفر .. كان حسن الخلق .. أما (ابلر) واسمه العرفي حسين جعفر فقد طرده زوج أمه المستشار لسوء سلوكه بعد أن عاش فترة غير قصيرة من عمره في مصر ولذلك عندما التقيت به وجدته يتكلم العربية كأحد أبنائها .. أما الضابط الآخر زميله - وكان ضابط إشارة فلم يكن يعرف العربية إطلاقا .. سألتهما كيف دخلا

مصر فعرفت أنهما تنكرا في ملابس ضباط الجيش الثامن البريطاني ثم عن طريق طرق القوافل التي لا يعرفها إلا بدو الصحراء دخلا إلي الواحة الخارجة ومنها إلي أسيوط فالقاهرة .

في القاهرة توجه أبلر ومعه زميله ساندي إلي ملهي (الكيت كات) يسهران ويعربدان ليلة بعد أخري دون حساب فقد كانت معهما كميات كبيرة من الجنيهات الاسترلينية المطبوعة في اليونان .. ولفت البذخ الذي يعيشان فيه أنظار الجميع فأبلغت عنهما إحدي راقصات (الكيت كات) .. ومنذ ذلك اللحظة وضعا تحت رقابة المخابرات البريطانية .. كل هذا عرفته بعد ذلك .. أما عندما التقينا فلم أكن أعرف سوي أنهما يعيشان في دهبية علي النيل قرب (الكيت كات) أستأجرها لهما حكمت فهمي إحدي فنانات ملهي بديعة مصابني .. وأن معهما جهاز لاسلكي ألماني ولكنه معطل ..

ذهبت معهما إلي الدهبية لأري الجهاز فوجدت جهازين أحدهما ألماني وهو المعطل وآخر أمريكى جديد تماما Hallicrafter/ Sky Challenger وهو جهاز قوى تماما وممتاز ولكن أبلر أخبرني أنه بعد عطل الجهاز الألماني اتصل سرا بسفارة سويسرا التي كانت ترعي شئون ألمانيا في مصر .. وأن القائم علي هذه الرعاية وهو ألماني قد أمدهما بجهاز لاسلكى أمريكي وجدت أنه أفضل بكثير من الجهاز الألماني المعطل ولكن ليست عند الجاسوسين مفاتيح فاقترحت أن أشغله بمفاتيح مصرية ..

ووافقا و بالفعل أخذت الجهاز معي وناديت (تاكسى) وضعته فيه وتوجهت إلي بيتي في كوبري القبة ..

في البيت جربت الجهاز فوجدته في منتهي القوة والجودة .. وكنت سعيداً بذلك كل السعادة فأخيراً سنتمكن من الاتصال بروميل ونعرض عليه شروطنا التي سبق أن ضمنها مشروع المعاهدة معه والتي بت أعتقد أنها لم تصله .. وإلا ففيم هذا الصمت وإلي متي نترك الأمور كما هي والوقت يجري بسرعة و روميل قد يدخل القاهرة في أية لحظة وإذا حدث هذا دون اتفاق سابق و دون علم بوجود حركة مقاومة مصرية ضد الإنجليز ومدي ما يمكن أن يقدمه التنظيم له من مساعدات مقابل

استقلال مصر فسوف يكون مصير البلاد استبدال الاحتلال البريطاني باحتلال آخر ألماني أو إيطالي .. ونحن لا نريد هذا بأي حال من الأحوال ..

لم يكن أمامي أي مخرج من هذا المأزق سوي الاتصال برومبل ... وها أنا أخيرآ قد حصلت علي وسيلة الاتصال بعد أن فشلت الوسيلة الأولي كما أصبح واضحا...

لم يبق أمامي إلا أن آخذ الجهاز إلي الورشة عندي في الجبل الأصفر وأجر به تجربة نهائية ثم نبدأ الاتصال ..

لم تكن عندي أية فكرة أن أبلر وزميلهساندى مراقبان .. ولذلك فوجئت في الصباح عندما وصلتني أنا وحسن عزت رسالة من عبد الغني سعيد - وهو الأصل في صلتنا بالجاسوسين بأن أبلر وزميله قد قبض عليهما بمعرفة المخابرات البريطانية ..

كان لابد من إخفاء الجهاز فأخذته وذهبت مع حسن عزت إلي صديق له يسكن في شبرا ولكن لسوء الحظ وجدنا بيته مغلقة وقالوا لنا إنه سافر إلي قريته فعدت بالجهاز إلي بيتي في كوبري القبة وأخفيته في حجرة من الحجرتين اللتين كنت أشغلهما .. وفي نفس الليلة وصل زوار الفجر .. قرعوا الباب مرة .. مرتين .. عدة مرات حتي استيقظ أهل البيت ..

- اليوزباشي أنور السادات ساكن هنا ؟

- نعم ..

دخلوا مباشرة .. فرقة ضباط كاملة من المصريين والإنجليز .. وحوالي ٢٠ أو ٣٠ مخبر آ ملأوا الحديقة والبيت كله حتي أصبح من الصعب معرفة عددهم وكان عندنا في الحديقة كلب بلدي عادى فما أن شاهد هذا الجيش من الغزاة الغرباء حتي اتخذ لنفسه موقعة إلي جانب الفرن و أخذ ينبح بشدة ولا يكف عن النباح محتجا ربما .. ولكن في أغلب الظن مدافعا عن الفرن مصدر لقمة العيش لأهل هذا البيت الهادئ المطمئن الذي يأوي إليه والذي هو في الواقع أحد أفراده .. .

- أين حجرتك ..؟ سألوني فأشرت إلي إحدي حجرتين كنت أشغلهما في بيت أبي وكانت حجرة نومى .. فتشوها وفي أثناء التفتيش لاحظ سيف

اليزل ضابط المخابرات المصري وجود مسدس آخر إلي جانب مسدسي العسكري فما كان منه إلا أن تناوله ووضعه في جيبه ببساطه .. لم أكن أعرفه معرفة خاصة أو يعرفني ولكن كانت تربطنا صلة أقوي من أية صلة .. وهي الوطنية المتأججة في صدر كل مصري .. أيا كانت وظيفته .

بعد الانتهاء من تفتيش حجرة نومى طلبوا تفتيش الحجرة المجاورة وكانت حجرة مكتبي .. قلت لهم إن حريم الأسرة بهذه الحجرة وإن تقاليدنا تقتضي إخلاءها قبل دخولهم .. فسمحوا لي بذلك ..

ودخلت الحجرة .. كان بها جهاز اللاسلكي وصفيحة بارود كنا نصنعه في القرية من خشب شجر الصفصاف والسماد .. طلبت من أخي الأكبر طلعت أن يأخذه الصفيحة والجهاز ويخفيهما في أي مكان .. وفعلا أخذهما طلعت وخرج من الباب الخلفي للبيت حيث دفن الجهاز في وقود الفرن وتركه والصفيحة في حراسة الكلب الطيب الذي غطي نباحه المستمر جميع تحركات طلعت ..

في حجرة المكتب لم يجدوا غير بعض الكتب فأخذوها .. وطلبوا مني أن أذهب معهم .. وأخذوني إلي سجن الأجانب .. رفضت دخوله فالقانون يقضي بأن حبس أي ضابط في الجيش المصري لا يكون إلا في ميس الضباط حيث يقوم علي حراسته ضابط مثله .. هكذا قلت لهم .. وخضعوا لسيادة القانون .. واقترحوا أن أقضي بقية ليلتي ضيفا علي البوليس في مكاتب الفرقة (ب) بجاردن سيتي إلي أن ترسل قيادة الجيش في طلبي في الصباح .. اقبلت .. وفي اليوم التالي كنت في ميس الفرسان .. وكان هناك أيضا زميلي حسن عزت .. ولكن أنا في طرف وهو في الطرف الآخر .. لا تجمعنا إلا وجبة الإفطار حيث يجلسنا المرحوم أحمد رياض قائد الفرسان جنبا إلي جنب ويهمس إلينا بأن ننهي حديثنا بسرعة إذ لابد بعد الأفطار أن يتوجه كل منا إلي مكانه .. تماما كما حدث عندما وضع سيف اليزل مسدسي في جيبه لانقاذي .. مصريون كلنا ومتعاونون.. ضد العدو والسلطة .. رغم وظائفنا المتباينة.. ورغم واجباتنا الرسمية .. ودائما .. رغم كل شيء .. لأن واجب الوطن كان فوق كل شيء ..

ثلاثة أيام بلياليها لم أذق طعم الأكل .. كنت فقط أشرب الماء ولا أرتوى وكأن شيئا يحترق بداخلي .. فقد كان عقلي يعمل ليل نهار بحثا عن مخرج مما أنا فيه ..

لم يكن هناك سبيل إلي الإنكار .. كنت أعلم ذلك جيداً فقد قابلت أبلر مرات ومرات ... الطريق الوحيد إلي الخلاص هو التبرير .. والتبرير المقنع المتكامل .. لكل ما حدث .. ولكن كيف..؟

بعد جهد وعناء مستمر وفي نهاية الأيام الثلاثة كنت قد ألفت في رأسي قصة كاملة تتضمن كل ردودى و مخارجى و تسد علي الخصم جميع الطرق ..

أطلعت زميلي حسن عزت علي تفاصيل القصة كلها حتي لا تتناقض أقوالنا في التحقيق .. وبعد ذلك استرحت و عدت إلي حياتي الطبيعية آكل وأشرب وأنام .. .

أخذونا بعد ذلك إلي رئاسة الجيش حيث وقفنا في طابور .. ليتعرف علينا الجاسوسان مرة بعد مرة كالصاروخ... كان ابلر يتوجه إلي مباشرة ودون أي تردد .. أما ساندي فكان أقل جرأة من زميله فهو يسير أمام الطابور إلي أن يصل إلي مكاني ثم يشير إلي .

قدمونا للمحاكمة أمام مجلس التحقيق تمهيدا للمجلس العسكري العالي .. وكان مجلس التحقيق يتكون من اثنين من الضباط الإنجليز و ضابطين من الجيش المصري و ضابط بوليس هو كمال رياض من الفرقة (ب) شرطة .. تشكيل خاطيء دون شك.

وبدأت المحاكمة :

- تعرف أبلر ؟.

- لا

تعرف حسين جعفر ؟.

- لا

- تعرف هذا الذي تعرف عليك ؟. (وأشاروا إلي أبلر) .

قلت : طبعاً أعرفه .. إنه ماجور إبراهام من الجيش الانجليزي. ارتبك المجلس لحظات .. ثم استمرت المحاكمة .

- ألم تأخذ منه جهاز لاسلكى ؟.

- جهاز لاسلكى؟ . طبعا لا .. هذا الرجل قدم لي نفسه وزميله علي أنهما من ضباط سلاح الإشارة الإنجليزي .. وأنا بطبيعة عملي أتعاون مع هذا السلاح ولذلك التقينا أكثر من مرة .

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم .. التفت إلي أبلر وسألته فجأة : - أتتذكر لقاءنا في محل الجمال يا ماجور إبراهام ؟

- نعم أذكره .. ولكني لم أقل لك أن إسمي ابراهام بل قلت لك إني ألماني واسمي أبلر .

- لو قلت لي هذا كنت أبلغت عنك .

قال : وماذا عن الدهبية ؟.

أنكرت طبعاً مكان الدهبية .. قال يذكرني :

- هل نسيت عندما نبح الكلب وأنت خارج من الدهبية ومعك الجهاز ؟
من غيظي ضغطت علي قدمه بكل قوة . وقف علي التو من الألم وقال :
- لماذا تدوس علي قدمي الآن ؟.

قلت مندهشا :

- أنا دست علي قدمك ؟ لماذا تدعي علي بما لم يحدث ؟ الدهبية .. والجهاز .. ونباح الكلب .. والآن قدمك ؟ ما قصدك من كل هذا ؟

قال : لا فائدة .. لقد اعترفت بالكامل .. ويجب أن تعترف مثلنا .

قلت بمنتهي الهدوء : أعترف بماذا ؟.. أنا أعرفك فعلا .. ولكن كضابط إنجليزي .

قال : وماذا عن مصر الجديدة ؟

كنت قد قابلته بعزيز المصري في مصر الجديدة ولكني قلت :-

- نعم حدث .. لقد التقينا في مصر الجديدة .

وعاد إلي السؤال : وفي مصر الجديدة من كان معنا ؟.

اخترعت قصة كاملة مؤداها أنه أتي إلي في محل (صولت) بمصر الجديدة ويومها أخبرني أن زميله ساندي مريض .

أتوا بحسن عزت وكانت أقواله مطابقة تماما لأقوالي . بعد ذلك أتوا بساندي ففعلنا به ما فعلناه بأبلر . انهارت أركان القضية .. فأعادوني وحسن عزت إلي ميس الضباط معتقلين . في هذه الأثناء .. وفي شهر يوليو عام ١٩٤٢ علي وجه التحديد .. جاء تشرشل إلي مصر في زيارة سرية وغير القيادة و عين مونتجومرى وذهب إلي العلمين ليرفع الروح المعنوية بين القوات البريطانية .

وكما علمت بعد ذلك .. التقي بالجاسوسين أبلر وزميله ووعدهما بحياتهما إذا اعترفا وكان هذا سر اعتراف أبلر الكامل .

بقيت معتقلا في ميس الضباط إلي أن أتي رمضان وفي يوم قبل المغرب بساعة تقريبا دخل علي أبي شاحب الوجه يبدو عليه الإعياء والإنهيار .. كان يقوم علي حراستي ضابط المدفعية .. فقام لتوه وتركنا وحدنا حتي نتكلم بحرية .. سألت أبي عن سر الزيارة فأجاب وهو يجمع أنفاسه :

- اليوم أتي إلي اللواء علي باشا موافي رئيس إدارة الجيش .. وقال لي إن موقف إبنك في القضية ميئوس منه والأفضل له أن يعترف .. ففي هذه الحالة سيصدر عليه حكم مخفف أما إذا لم يعترف فسوف يقتلونه رميا بالرصاص في الفجر .

أدركت ساعتها أن جميع جهودهم لإقامة قضية قد فشلت تماما .. ولذلك فهم يلجأون إلي هذه الحيلة الرخيصة كمحاولة أخيرة .

قلت لأبي : لكي يضربوني بالرصاص لابد من مجلس عسكرى عال وتهمة تثبت علي .. هذا هو النظام في الجيش .. ولو كانت هذه التهمة في أيديهم فعلا لما لجأوا إليك لتطلب مني الإعتراف .

اقتنع الرجل .. وكان رحمه الله يأخذ كلامي أمرا مسلماً به .. فاسترد أنفاسه وزال اضطرابه .. وخرج بعد أن تناول الإفطار معي وهو مطمئن كل الإطمئنان أن لا خطر علي حياة ابنه علي الإطلاق.

في اليوم التالي .. كما عرفت بعد ذلك .. زاره في مكتبه موافي باشا ليعرف نتيجة اللقاء وكان رد أبي عليه .

- اسمع يا باشا.. إذا كان ابني مخطئاً فاضربه بالرصاص .. وإذا كان بريئا فواجبكم أن تعيدوه إلي عمله . وحذره موافي باشا من نتيجة إصراري علي عدم الإعتراف .. وكان تعليق أبي الوحيد أن افعلوا ما شئم .. ولكن ليس لدي أكثر مما قلته .

في هذه الأثناء كان مونتجومري قد حشد حشودة هائلة حتي يضمن المعركة مائة في المائة وقطع علي روميل خطوط إمداداته في البحر الأبيض .. وبذلك بدأت أعصاب الإنجليز تهدأ فتغيرت نظرتهم إلي قضيتنا .. وكانت النتيجة أنه في يوم ٢٩ رمضان سنة 194٢ قبل المغرب بساعة طلبني رئيس أركان حرب قسم القاهرة وأبلغني أنه قد صدر النطق الملكي السامي بالإستغناء عن خدماتى .

خلعت الرتب .. وتقدم مني محمد إبراهيم رئيس القسم السياسي بالبوليس وقال :

- تعال معنا إلي المحافظة لعمل بعض الإجراءات . فهمت أنهم بصدد اعتقالي فسألته :

- إلي أين نحن ذاهبون بالضبط حتي يعرف المراسلة أين أنا فيحضر لي طعام الإفطار ؟

- فأجاب باختصار ... «سجن الأجانب».

وفي رمضان 1942 عندما ألقوا القبض علي مقابل جهودي للتخلص من الإستعمار الإنجليزى سرت إلي سجن الأجانب.

وطوال الطريق .. كان يرتفع أمام عيني طيف زهران وهو يسير رافع الرأس سعيداً بما فعل لا يخشي الموت الذي سيلقاه .... بعد قليل.

لقد فعلت أخيراً ما فعله زهران .. وإذ غامرني هذا الشعور أدركت - كما لم أدرك من قبل - أن زهران لم ينهزم قط .. ورغم أنهم حكموا عليه بالإعدام إلا أن إرادته لم تمت .

ألم أكن أنا امتدادا لهذه الإرادة التي سرت في كياني منذ طفولتي ؟

إرادة النصر والتحدي ؟.

بلغنا السجن وإذ كنت أصعد السلم في طريقي إلي حجرتي كان يغامرني فرح غريب بما في داخلي من قوة لا يدرك مداها سواى .

لقد انتصرت كما انتصر زهران من قبل . رغم موته .. ورغم تجريدى من رتبى واعتقالى .. رغم كل شيء.

الفصل الثاني : نحو تحرير الأرض

كانت هذه أول مرة أدخل فيها سجن الأجانب .. وكان ذلك في ٢٩ رمضان سنة ١٩٤٢ ميلادية وهي (ليلة القدر) .. موسم من المواسم الدينية التي نحتفل بها في مصر عامة وفي الريف علي وجه الخصوص ... فنذبح بطة أو أوزة أو دجاجتين .. كل حسب مقدرته المالية .

كان سجن الأجانب مخصصاً للعمليات المتعلقة بمعركة الإنجليز ولذلك كان مأموره مستر ميكمان الملطي الأصل البريطاني الجنسية .

دخلت الزنزانة الخاصة بي وكانت في الدور الأول وبعد قليل جاء المغرب وأحضر المراسلة الطعام فصليت وتناولت طعام الإفطار .

إلي هنا كانت حالتي عادية .. لم أكن بعد قد أحسست بالصدمة .. ولكن بعد أن أكلت ودخنت سيجارة (وقد كان التدخين مسموحا به في سجن الأجانب دون بقية السجون) بدأت حيرتي ورحت أتساءل .. ما هو الحل ؟ سوف أقضي مدة السجن ولكن ماذا سأفعل بنفسي بعد ذلك ؟ وقد جردت من رتبي ولم يعد لي عمل ؟

واستمرت التساؤلات واستمرت الحيرة ساعة .. ساعتين .. ثلاث ساعات لا أدري .. وأنا أسير في الحجرة من ركن إلي ركن ومن حائط إلي حائط ولكن لا إجابة واحدة عن تساؤلاتي .. وأخيراً جلست علي الأرض وأسندت ظهري إلي السرير كما نفعل في القرية .. ربما لأني عندما أجلس علي الأرض أحس أني قريب من الطبيعة والفطرة وربما لأني تعودت الجلوس علي الأرض في القرية - لا أعرف .. ولكن فجأة خطرت قريتي علي بالي ..

كان مجرد خاطر ولكنه وضع كتلا من الصخر والصلب بداخلي ... فقريتى هناك قابعة في حضن الدلتا .. وسوف أعود إليها ففيم القلق وفيم البحث عن مصير ؟

إن القرية هي الاستقرار .. أقل إنسان في القرية وأضعف وأفقر إنسان دائما مطمئن .. لماذا ؟ لأن عنده داره .. ومهما كانت صغيرة حتي ولو كانت عبارة عن قاعة واحدة ودورة مياه ومصطبة .. فإنه عندما يغلق بابه عليه يصبح أكثر الناس اطمئنانا واستقراراً ..

هذه هي روح الفلاح في كل مكان .. الأمن والاستقرار .. لأنه مرتبط بالأرض يعطيها فتعطيه .. يكفيها فتكفيه دون الحاجة إلي أي إنسان ..

لم أكن قد عرفت نفسي بعد... ولكن في تلك اللحظة الحاسمة من حياتي وأنا أواجه نفسي في السجن لمحت جانبا من جوانب شخصيتي .. فقد أدركت أنه يكفي أن أكون فلاحاً بسيطاً لكي أكون أسعد الناس ..

هذا الإحساس بالقناعة بالأرض - حتي ولو لم تتعدى رقعتها الفدانين وهي كل ما أملك – أصبح وأنا في سجن الأجانب مصدر قوتي .. وما زال .. في أي وقت وتحت أية ظروف أحس أني غني بكوني فلاحاً عن كل شيء ..

فالأرض هناك وفي أي وقت يمكن أن أعود إليها أزرعها وأفلحها بيدى .. وفي هذا الكفاية بل أكثر من الكفاية .. فأمري دائما بيدي .. وإرادتي هي إرادتي وحدي .. وأنا سيد نفسي ..

وخطر لي خاطر مر برأسي كسحابة سوداء تحجب الشمس للحظة .. إن الغالبية العظمي من الناس تطلب ما لا تملك .. ومن له مطالب ... من يطمع في شيء يظل طول حياته عبدا لهذا الشيء .. رغم أنه يبدو حرا طليق الحركة لا يعيش وراء القضبان ... كما أنا في سجن الأجانب .

كان سجن الأجانب يختلف عن بقية السجون .. ففي كل زنزانة سرير وبطاطين وكرسي وطاولة صغيرة .. حتي التدخين - كما سبق أن قلت - كان مسموحا به ولكن بشرط أن يشعل السجان السيجارة ويقدمها لك .. فليس من حق السجين أن يحمل معه كبريتا أو ولاعة ..

ولما وجدت الأمور بهذا الشكل تشجعت وطلبت الجرائد فأحضروها لي ومعها بعض الكتب (تفرقة حتي في السجن فعندما دخلت سجن مصر بعد ذلك بفترة مكثت به سنة كاملة معزولا عن العالم الخارجي .. فلا جرائد ولا كتب ولا فراش ولا مقاعد ولا شيء علي الإطلاق)...

فكرت في أن أقوي نفسي في اللغة الإنجليزية فطلبت بعض الكتب بهذه اللغة وأرسل إلي هيكمان مأمور السجن مجموعات من القصص القصيرة وغيرها .. ومن الكتب التي ما زلت أذكرها كتاب عن جمعية في الريف الإنجليزي يجتمع أعضاوئها كل أسبوع ويتناول كل واحد منهم موضوعا يتكلم فيه - نظرتهم للحياة - ما يحدث في قريتهم أو القري المجاورة أو أحوال الحصاد والمحصول ... إلخ .. ويسجلون ما يدور في الاجتماع ثم في نهاية كل ثلاث شهور يجمعون أحاديثهم في كتاب .

راقتني الفكرة كثيراً فعزمت علي أنه بمجرد خروجي من السجن وعودتي إلي قريتي أفعل بالمثل فأجتمع مع الأهل والأصحاب و نعقد ندوات ودية .. ألا ما أجمل انطلاقة الريف والراحة التي أحس بها في مندرة دارنا .. وأحلي من هذا كله كلام أهل الريف التلقائي البسيط الصادق والذي في الوقت نفسه يحمل الكثير من المعاني العميقة المعبرة التي تمتد جذورها إلي حضارة آلاف السنين ..

قضيت بسجن الأجانب وقتا لا بأس به .. أقرأ وأخرج إلي فناء السجن مرتين في اليوم كل ربع ساعة أمارس فيها رياضتي المحببة وهي المشي بين أضلاع السجن الأربعة .

أشياء كثيرة حدثت في السجن ولكني لا أذكرها كلها.. أذكر مثلا أني صحوت من النوم علي صوت امرأة تغني « لا والنبي يا عبده » وكانت

هذه من الأغنيات الشائعة في ذلك الوقت وفجأة سمعت نفس الصوت يولول ويصرخ .. تماما كما يحدث في أفلام السينما الميلودرامية .

سألت قالوا إنها حكمت فهمي الراقصة وإنها في الزنزانة المجاورة لي .. وإنها هي الأخري متهمة في نفس قضيتنا .. فهمت .. فهي التي أجرت الدهبية للجواسيس الألمان ..

كل من كان في سجن الأجانب في ذلك الوقت كان مقبوض عليهم في قضايا خاصة بالسلطات البريطانية لاستكمال التحقيق معهم تمهيدا لترحيلهم إلي المعتقلات ..

هكذا علمت .. ولذلك لم أدهش عندما أخرجوني من الزنزانة يوما وساروا بي إلي مأمور السجن حيث كان هناك أيضا الجاسوس الألماني (أبلر) .. أعادوا التحقيق ولم أغير كلامي طبعا .. اتصلوا تليفونيا بهيمان مأمور السجن .. يسألونه عن النتيجة..

فسمعته يقول : لا أمل لأنه ينكر علي طول الخط (ولم يكن يعرف أني أعرف الإنجليزية):

كان معنا في السجن طبعاً زميلى حسن عزت ولم نكن نتقابل ولكن لما عرف الحراس أننا من الضباط بدأوا ينقلون الكلام بينا .. وبدأوا أيضا يعاملونى معاملة بها الكثير من التعاطف والود والاحترام .. فمن خلالهم تعرفت علي أكثر المساجين .. مثلا كان هناك رجل ألماني اسمه (ماكس) قالوا لي إن له في السجن سنة ونصف .. وآخر إيطالي معتقل له ٨ شهور .. وهكذا وهكذا .. أقل فترة لأي سجين كانت لا تقل عن 6 شهور .

قلت في نفسي هذا يعني أني سأقضي هنا 6 شهور علي الأقل .. وكان الشتاء قد دخل و غيرنا ملابسنا ولكن الملابس الشتوية لم تكن كافية وخاصة أن الواحد منا كان يقضي معظم الوقت في زنزانته دون حركة أو عمل .. . وذات صباح فوجئت بالسجان يفتح الباب يحمل إلي بعض الطعام من البيت عندنا ومعه روب شتوي ممتاز .. فردت الروب أمامي علي السرير ووقفت أنظر إليه وأتحسسه .. كان شيئا جميلا للغاية كالأشياء التي نراها في السينما .. لم أصدق عيني فناديت السجان

وسألته إذا كان هذا الروب حقيقة لي .. قال أنه مرسل للزنزانة رقم ٧.. وهذه هي .. تأكدت فلبسته وأنا في منتهي السعادة .. مثل هذا الروب لم يكن في استطاعتي شراؤه وأنا يوزباشى في الجيش فكيف حصل عليه أهلي ؟ لابد أنهم صرفوا المكافأة المستحقة لي وهي ثمانون جنيها واشتروا بجزء منها هذا الروب الجميل .. كان بالنسبة إلي متعة لا تساويها متعة أخري .. فقمت وتوضأت وصليت حمدا لله .. لم أكن فقط فرحا بالروب نفسه .. بل أيضا باللفتة التي يحملها.. (إذن هناك من لا يزال يذكرني وما زالت علي قيمة في نظر الناس .. أو بعضهم علي الأقل) .

كنت قد بدأت أتأقلم علي حياة السجن .. وخاصة بعد أن سمحوا لي و لزميلى حسن عزت باللقاء.. وكان هذا معناه أن التحقيقات قد انتهت .. وفي لقاءاتنا كان حسن عزت يحكي لي عن مشروعاته بعد خروجنا من السجن ... مشروعات صيد سمك من وراء خزان أسوان .. ومشروعات زراعة ... إلخ .. أما أنا فكان مشروعي الوحيد أن أعود إلي الأرض ومن هناك أبدأ من جديد ..

لم نستمتع طويلا بحالة الاستقرار والتأقلم التي هي من نعم الله علي الإنسان في يوم من الأيام جاء إلي السجان و طلب مني أن أحزم أمتعي ...

قلت : خيرا .. قال : ستنقل من هنا..

- إلي أين ؟

سألت ولكن ما من جواب .

جهزت ملابسي وتوجهت إلي حجرة المأمور حيث سلموني رباط حذائى ورباط عنقي وماكينة الحلاقة وثلاثة جنيهات كان أهلي قد أودعوها السجن أمانة ..

- عهدتك تمام ؟

- نعم تمام .

- اتفضل وقع .

وقعت علي أني تسلمت حاجياتى ثم أمروني بالسير إلي باب السجن وعسكرى إلي يميني وآخر إلي يسارى .. نظرت فرأيت عربة (بيك آب) تقف ملتصقة بالباب .. أما السلم المؤدي إلي الباب فقد غطوه من الجانبين بالبطاطين ..

فهم لا يريدوني أن أري شيئا مما حولي .. وكأنهم مثلا يقومون بعملية اختطافى .. في العربة وجدت زميلى حسن عزت ويبدو أني كنت آخر القادمين فبمجرد دخولي غطوا العربة ال (بيك آب) ببطانية ثم ساروا

بنا .. وما هي إلا دقائق معدودة حتي وجدنا أنفسنا علي رصيف الصعيد في محطة مصر .. كانوا قد أخلوا الرصيف من المسافرين تماما ولكن كان البوليس محتشداً فوقه بصورة توحي بأننا قوة خطيرة لابد من حصارها وإلا أصبح أمن الدولة في خطر ..

كان في انتظارنا قطار ديزل صغير أدخلونا فيه فاكتشفنا أننا لم نكن وحدنا إذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين .. منهم علي ما أذكر اثنان من كبار ضباط الجيش من ضحايا الأحزاب .. وإلي جانب كل منا .. هم ونحن يجلس ضابط لحراستنا .. وتحرك القطار بنا في طريقه إلي معتقل جديد .. كما كان يبدو واضحاً .. ولكنه كان في هذه المرة في الصعيد .. علي بعد ٢ كيلو من المنيا (وهي تبعد عن القاهرة بـ 160 ميلا).

لم يكن المعتقل الجديد الذي نقلونا إليه بنفس الطريقة (أي أن البطاطين كانت تغطي العربة بحيث لا نري شيئا إلي أن وصلنا) معتقلا بمعني الكلمة ، بل قصراً شامخاً يقف منعزلا علي ضفاف ترعة الإبراهيمية يحيط به التراب وخلفه قرية صغيرة لا تختلف كثيرا عن ميت أبو الكوم .. ما الذي أتي بهذا القصر إلي هذا القفر ؟

عرفنا بعد ذلك أنه كان ملكا لأحد أعيان حزب الوفد وساءت حالته المالية فأجره للحكومة التي أحالته إلي معتقل.. أو بدأت تفعل ذلك .. فعندما وصلنا وجدنا المهندسين العسكريين يعملون في بناء أسوار من الأسلاك الشائكة تحيط بالقصر كله .. ولاحظت أنها كانت عالية جدا بحيث لا يستطيع أحد تسلقها . .

أقمت في معتقل (ماقوسة) هذا من ديسمبر ٤2 إلي سبتمبر 43 .. في هذه الأثناء وحتي قبلها بقليل في نوفمبر ٤٢ علي وجه التحديد ، كان مونتجومرى قد قام بهجومه علي القوات الإيطالية والألمانية في معركة العلمين المشهورة بعد حصار بحري منع الإمدادات عن قوات روميل .. ومع ذلك استطاع روميل أن ينسحب بقواته سليمة كاملة برغم التفوق الهائل لقوات مونتجومري وما زال انسحاب روميل علي الصورة التي تمت يعتبر في التاريخ العسكري موازياً للنصر الذي أحرزه

مونتجومري ولعل انتصار الحلفاء في تلك المرحلة هو الذي جعل أعصاب الإنجليز تهدأ قليلا .. فاكتفوا بفصلنا من الجيش و اعتقالنا ..

كانت إقامتى بمعتقل ماقوسة صعبة في الأيام الأولي رغم أنه كان قصراً منيعا به مرايا فرنسية وأخشاب فاخرة وشبابيك من الزجاج الملون وحمامات رائعة .. أشياء لم أر مثلها من قبل في حياتي بهرتني في أول الأمر وكانت مصدر دهشة لي .. ولكن مع الوقت تعودت عليها وأصبح السجن سجنا كبقية السجون .. وخاصة عندما بدأوا يغلقون الشبابيك بقضبان من الحديد .. .

ما معني هذا والمبني تحيط به الأسلاك الشائكة من كل جانب ؟ كان لابد من التمرد . وفعلا كانوا كلما ركبوا القضبان الحديدية أزلناها .. وهكذا يوما بعد يوم إلي أن اضطروا إلي الاكتفاء بالأسلاك الشائكة ..

في معتقل ماقوسة كان معنا حسن جعفر الأخ الغير شقيق لحسين جعفر أو (أبلر) الجاسوس الألماني .. ولم يكن لحسن أي دور فيما حدث ولكن رغم ذلك اعتقله الإنجليز من باب الإحتياط .. .

وجدت في حسن شاباً دمث الخلق لطيفاً للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية فطرأت لي فكرة طرحتها عليه للفور وهي أن يعلمني اللغة الألمانية وكنت قد قرأت أن الشيخ محمد عبده (وهو أحد أقطاب نهضة مصر الحديثة) لما بدأ تعلم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ رواية بالفرنسية علي أن يعاونه في قراءتها شخص يعرف الفرنسية والعربية معا .. فالرواية هي شريحة من الحياة بكل ما فيها من أوصاف وحوار ونقاش ... إلخ .. .

وكان مع حسن جعفر رواية لإدجار والاس مترجمة إلي الألمانية فاتفقنا علي قراءتها معا .. وفعلا كنا نجلس كل يوم علي سلم القصر الداخلي نقرأ الرواية .. في أول الأمر كنت أقرأ في اليوم 4 سطور ثم وصلنا إلي نصف صفحة .. فصفحة وبالتدريج بعد سبعة شهور استطعت أن أقرأ فصلا كاملا إلي أن جاء الشهر التاسع فانتهيت من الرواية كلها وأصبحت أقرأ الألمانية كما يقرؤها حسن جعفر تماما حتي أني عندما زرت النمسا في الفترة الأخيرة وألقيت خطابا بالألمانية سمعت أن كيسنجر قال لفورد إنني أنطق الألمانية أحسن منه لأن كيسنجر من

جنوب ألمانيا أصلا وأنا أتكلم لغة الشمال التي هي أقرب إلي الألمانية السليمة ..

وفي نفس الزيارة كان مستشار النمسا حريصاً علي أن أتعرف علي كاردينال النمسا و هو من الشخصيات الهامة في الفاتيكان .. وفعلا تم التعارف و وجدته يتقن عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والعربية .. وفي أثناء حديثي معه سألنى أين تعلمت الألمانية بهذا الإتقان .. ودهش طبعاً عندما عرف .. وما زلت إلي اليوم أتذكر معالم الدهشة التي بدت علي وجهه..

كان أهلي يأتون لزيارتي بالمعتقل كل شهر .. فأجرة السفر غالية وأهلي فقراء .. وحدث مرارا أني وزملائي تمارضنا فكانوا يرسلوننا إلي المستشفي في المنيا.. وفي إحدي هذه المرات ذهبت إلي المكتبة وهناك التقيت بوجيه خليل أحد زملائي في الكفاح الذي رتب اللقاء عندما عرف بوجودى ليخبرني أن إخوانه الضباط قد قرروا دفع عشر جنيهات شهرية لأسرتي بالقاهرة ..

لا يمكن أن تتصور مدي تأثير لمسة الوفاء هذه علي وأنا في المعتقل بعيداً عن إخواني الضباط بل ولم أعد حتي واحداً منهم ...

في معتقل (ماقوسة) حضرت رمضان مرة أخري كما حدث في سجن الأجانب من قبل .. وكعادتي قرأت القرآن ثلاث مرات مرة كل عشرة أيام .. كان ذلك خلال عام 1943 ، وقد بدأت هزائم المحور وبدأ مسار الحرب يتغير لصالح الحلفاء .. وخاصة بعد أن حارب الروس معركة رائعة في ستالنجراد .. وساعدهم في حربهم الجنرال «ونتر» (أي الشتاء القارس) الذي سبق أن هزم نابليون كما كان السبب الرئيسي في هزيمة الألمان .. وقبل أن تنتهي سنة 1943 صدرت إلينا الأوامر بالانتقال إلي معتقل آخر - قرب القاهرة - هو معتقل الزيتون..

في معتقل الزيتون كان هناك أيضا نوعان من المعتقلين - النوع الأول مثلي من المصريين المكافحين ضد الإنجليز أو من أهل سوريا ولبنان المتمصرين ممن كانت تستخدمهم حكومة فيشي أو الألمان بحكم الاستعمار والوجود الفرنسي التقليدي في الشام الذي كان يشبه الوجود الإنجليزي عندنا . أما النوع الثاني فكان من أعضاء أحزاب مناهضة لحزب الوفد الحاكم مثل حزب مصر الفتاة وحزب الكتلة الذي كونه مكرم عبيد عندما انشق علي النحاس باشا زعيم الوفد وأصدر (الكتاب الأسود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشف عن أسرار تسيء إلي حكم الوفد .. ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس .

في معتقل الزيتون تعرفت علي (كونت) من بلاد البلطيق معتقل مثلنا .. كان رجلا لطيفا للغاية ولكن - رغم أنه كان يعيش في غرفة صغيرة في البدروم مغلوبا علي أمره كأي معتقل إلا أنه لم ينس لحظة أنه كونت أوروبي .. فكان يأمر وينهي كأنه في قصره ويمشي ويتكلم بأرستقراطية لم يستطع أبدا أن يتنازل عنها مما جعله طول الوقت موضع ضحكنا بل وتسليتنا الوحيدة .

كانت الحياة مملة في معتقل الزيتون فالوقت يمضي في بطء شديد ولا شيء نفعله .. ففكرنا في تربية الأرانب - اشترينا زوجين أو ثلاثة في بادىء الأمر- وبعد ثلاثة شهور فقط تكاثرت أرانبنا حتي امتلأت بها القاعة الوحيدة الفسيحة في المعتقل مما جعلنا ندور حولها لكي نذهب إلي حجرتنا فقد أصبح من المستحيل أن نخطو فيها خطوة واحدة .. ماذا نفعل بكل هذا الجيش من الأرانب ؟ وهنا اكتشفنا موهبة فذة في صديقنا الكونت الأرستقراطي .. وهي أنه يجيد الطهي وخاصة طهي الأرانب بالذات .. وهكذا عشنا فترة علي تربية الأرانب وأكلها إلي أن جاء وقت أصاب أحدها المرض وانتشرت العدوي بينها ما هي إلا أيام قلائل حتي أخذ عددها يتناقص بنفس السرعة التي تكاثرت بها .. وخلت القاعة منها وعادت إلينا فسيحة خاوية كما كانت في البداية .

وهكذا توقفنا عن تربية الأرانب وعن أكلها طبعاً وتوقف صاحبنا الكونت عن طهيها وحفظ (الحلة) أو الوعاء الذي كان يملوه كل صباح بها ويحفظه بين المرتبتين علي سريره حتي تظل محتفظة بحرارتها كما كان يفعل كل مرة نتأخر فيها بعض الوقت عن ميعاد الأكل .

ومن الشخصيات التي أذكرها في معتقل الزيتون وكيل وزارة الداخلية في ذلك الوقت .. غضب عليه النحاس باشا فاعتقله رغم أنه كان محايداً لا ينتمي إلي أي حزب ... كان اسمه أبو شادي وقد رأيته مرة أخري بعد الثورة - عندما فرضت عليه الحراسة لا أعرف تحت أية ظروف ولا لأية أسباب .. كان هذا في سنة 196١ أي بعد حركة الانفصال عن سوريا .. وكانت كل الحراسات التي فرضت أساسها حزبي فقد نشأ عند عبد الناصر خوف من الإنفصال أعقبه شعور مضاد عند الشعب المصري نحو الحكومة فزين له بعض أعوانه أن هذا الشعور إنما هو ثورة مضادة .. وبناء عليه لجأوا إلي فرض الحراسات علي جميع الحزبيين وجاء ضمنهم أبو شادي مع أنه كما قلت لم يكن ينتمي إلي أي حزب .. بل كان مثلا أعلي للموظف المسئول في اتخاذ الإجراءات العادلة السليمة .

ولكن كان من الطبيعي بعد فشل الوحدة مع سوريا أن يتكلم الناس وأن يتناول بعضهم نظام الحكم بالنقد وهذا ما ذهب ضحيته أبو شادى .. تماما كما حدث بعد سنة 1965 بالنسبة للإخوان المسلمين الذين هُيىء للسلطة الحاكمة في ذلك الوقت بأنهم يتآمرون ليقوموا بالثورة المضادة وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف .. وصدرت ضد الكثيرين منهم أحكام وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلي أن صفيت أنا العملية كلها فأغلقت المعتقلات كلها مباشرة بعد أن صفيت مراكز القوي في سنة ١٩٧١ أما المحكوم عليهم سواء من الإخوان أو في أية قضية سياسية أخري فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣.

أعود إلي حديثي عن معتقل الزيتون .

في الحقيقة كانت له عدة مزايا عن معتقل ماقوسه . : فنحن هنا في القاهرة وأهلنا يترددون علي زياتنا دون تكاليف السفر إلي المنيا .. ثم إن معتقل الزيتون كان فيلا بها حديقة كبيرة تتيح لنا فرصة الحركة أكثر من حديقة معتقل ماقوسه الصغيرة الضيقة .. ولكي نقطع الوقت فكرت وزميلي حسن عزت في زراعة الحديقة بالبرسيم ليكون غذاء للأرانب التي ربيناها .. ثم بعد فناء الأرانب لجأنا إلي زراعة البطاطا وكانت هذه أول مرة أمارس فيها هذه الزراعة

وهكذا عشنا في هدوء لا يعكره سوى مطبعجي من سيدنا الحسين كان كلما أفرجت عنه السلطات يطبع منشوراً ضد الحكم فيعود إلينا في اليوم التالي .. فهو يفضل عيشة المعتقل علي عيشة الحرية .. والسبب أنهم رتبوا رواتب شهرية قدرها سبعة جنيهات ونصف لكل منا .. تقبلها الجميع ما عداى وحسن عزت الذي أقنعته بعدم قبول منحة من سلطات الاعتقال لأن هذه مسألة مهينة للكرامة .. وكان المطبعجي ضمن من يتقاضون هذا الراتب الشهري .. وكانت الإقامة بالمعتقل بما فيها الأكل والمبيت بالمجان طبعا ولذلك كان حريصا علي أن يبقي بالمعتقل أطول مدة ممكنة علي أمل أن يخرج منه في النهاية برأس مال محترم .. في نظره علي الأقل.

في يوم من الأيام عكر صفونا تعيين قومندان جديد للمعتقل .. كان عنيف السلوك ولذلك فصل أكثر من مرة من منصبه وعاد إليه أيضا أكثر من مرة إذ كان عمه عضو مجلس شيوخ وَفدي عن مديرية البحيرة .. وكانت لهم عصبية كبيرة تمتد إلي ليبيا موطنهم الأصلي .

المهم أنه حدثت بيني وبين القومندان الجديد مشادة لا أذكر سببها الآن ولكن أذكر نتائجها جيداً .. فقد جمعت المعتقلين جمعيا وأقمنا متاريس من فراش وأمتعة حجراتنا ووضعناها كلها علي السلم بحيث تمنع أي إنسان من الوصول إلينا في الدور الثاني .. بعد ذلك بفترة قصيرة جاء القومندان إلي حجرتي وأخذ يهددنى وهو يحمل طبنجة في يده .

قلت له : أنت جبان ... وإلا فكيف تهددني بالسلاح وأنا أعزل ؟

خرج غاضبا وتوجه إلي حجرته وأحاطها بالعساكر وظن أنه في أمان .. قلت في نفسي لابد أن أوءدب هذا الإنسان الشاذ .. فقفزت من حجرة إلي حجرة إلي أن دخلت حجرته من الشباك .. نظر فرآني أمامه .. انذعر .. قلت : أنت مغلق الحجرة علي نفسك والحراس يحرسون الباب .. وهكذا تعتقد أنك في أمان .. ولكن في مقدوري الآن أن أخنقك .. أو أن أفعل بك أي شيء.. هل تدرك هذا ؟.. ودار بينا حوار ساخن تركته علي أثره وتوجهت إلي حجرتي .. وأغلقنا السلالم بالمتاريس إغلاقاً تاماً .

كان الموقف السياسي في العالم قد انكشف تماما في عامي 43 ، 44 أصبح من الواضح أن ألمانيا في طريقها إلي الهزيمة وكانت هذه فرصة مواتية لاستعجال الإفراج عنا .. فاستقر رأيي وزميلي حسن عزت علي إثارة الرأي العام في المعتقل . عملنا حركة عصيان وأشركنا معنا جميع المعتقلين .. ضربوا فينا بالرصاص من حديقة المعتقل .. وكان هذا التصعيد للموقف من جانب الحكومة ما توقعناه ... بل وأكاد أقول ما طلبناه فقررنا أن نعطيهم درسا لا ينسونه مدي الحياة .

ولكن كيف ؟

قررنا أن يهرب ستة منا .. واتفقنا علي خطة ونفذناها بكل دقة .. كان أحسن وقت للهروب هو وقت تغيير الحراس في أول المساء .. نسبة إلي ما يسود المكان من هرج و مرج .. أما طريقة الهروب فكانت أن نفتح فتحة في سقف حجرة الأرانب ولم يكن هذا بالأمر الصعب فالسقف من الخشب البغدادلي .. وفي اليوم الذي حددناه نصبت السلم وتسلقته و حفرنا فجوه في السقف خرجت منها إلي السطح واستلقيت علي وجهي حتي لا يراني أحد.. ومددت يدي أتسلم بقية الهاربين من بين يدي حسن عزت الذي كان يقف علي أرض الحجرة يناولهم إلي الواحد بعد الآخر فأدله علي الطريق .. إلي أن انضم إلي حسن عزت فنزلنا إلي الشارع وكان الظلام حالكاً .. ولكن كانت هناك عربة (أولد زموبل) في انتظارنا كما رتبنا .. فركبنا نحن الستة و مضينا .

كان حسن فخوراً بالعربة - فالكاوتش جديد كما قالوا له .. وهو أمر كان نادراً في ذلك الوقت خلال الحرب فلا يمكن شراء كاوتش جديد إلا بإذن من السلطات البريطانية .. بعد كيلو أو اثنين ضرب الكاوتش فاقترح حسن أن نذهب إلي أية ورشة لإصلاحه - ولكني رفضت وقلت : اعملوا أنتم ما يتراءي لكم فأنتم الذين ستظلون هاربين كما قررنا أما أنا ومحسن فلنا خطة أخري .

كان محسن فاضل شابا دمث الحلق قضي شطرا كبيرا من حياته في فرنسا .. أين نختفي إلي أن يطلع الصباح وننفذ خطتنا ؟ اقترح محسن أن نذهب إلي شقة سيدة فرنسية عاشت في مصر بعض الوقت مع صديق مصري لها ثم هجرها وبقيت هى بشقها الصغيرة في ميدان الإسماعيلية - في وسط البلد - تنتظر انتهاء الحرب حتي تعود إلي وطنها .. ضربنا الجرس ففتحت الباب ورحبت بمحسن وبي أحسن ترحيب . حكي لها محسن القصة بالتفصيل فتعاطفت معنا بكل كيانها .

كانت سيدة عظيمة في الواقع – تمثل روح الشعب الفرنسي أحسن تمثيل - ذلك الشعب الأصيل العاشق للحرية تماما كشعب مصر .. استنكرت عودتنا إلي المعتقل كما كانت تقضي به خطتنا في الصباح .. ومازالت كلماتها ترن في أذني :

كيف تعودان إلي السجن بعد الحرية .. وبمحض إرادتكما ؟ لقد اقتصدت ٢٠٠٠ جنيها هي كل ما أملك .. خذا المبلغ بأكمله واهربا إلي أي بلد... هيا اذهبا.. .

رفضنا شاكرين ... فعادت تقترح أن تختبيء عندها وهي تتكفل بمصاريفنا مهما طال الوقت ..

كم كانت رائعة هذه السيدة الفرنسية في إلحاحها علي أن تعطينا كل ما تملك وتبدأ هي حياتها من جديد رغم تقدم السن بها .. وكل هذا من أجل الحرية !

في الصباح وجدنا مائدة الإفطار في انتظارنا وفوقها الجرائد العربية وكل شيء معد علي أحسن صورة .. تناولنا الإفطار ثم شكرناها ونزلنا إلي الشارع.. أخذنا تاكسى و توجهنا إلي قصر عابدين ..

دخلنا القصر فوجدنا أحد الأمناء في حجرة الأستقبال و دفتر التشريفات مفتوح - إلي هنا كل شيء عادي فالدفتر مفتوح لأي مواطن يريد أن يشكر أو يستأذن في السفر أو أي شيء من هذا القبيل ..

توجهنا مباشرة إلي الدفتر وقيد كل منا اسمه وقلنا إننا معتقلون في الزيتون وقد حضرنا خصيصا لكي نقول للملك إن الحكومة يجب ألا تخضع للسلطة البريطانية كما لا يجوز إطلاقا أن تعاملنا هذه المعاملة البالغة السوء .. وإننا علي الفور سنعود إلي المعتقل بمحض إرادتنا .. وقد هربنا لكى نبلغ هذه الرسالة للملك ولكي نقول له إن أربعة من زملائنا قد هربوا معنا ولكنهم لن يعودوا مثلنا إلي المعتقل .. بل سيظلون أحرارا يفعلون ما يريدون .. رهائن خارج السجن مقابل حريتنا جميعا وتحدياً للسلطة ..

عندما قرأ التشريفاتي المسئول عن الدفتر هذا الكلام فزع وهرع إلي الأمين الأول يبلغه بما حدث ، جاء الأمين الأول وكان اسمه بدر وكان يعرف من معتقل ماقوسة عندما كان في ذلك الوقت مدير المنيا.. قال لي إن هذا عمل جنوني وإنه سوف يثير أزمات وأزمات .. قلت له إننا سنعود فوراً إلي المعتقل وله أن يفعل ما يشاء .. وعلي مشهد منه ومن جميع مرؤوسيه الذين تجمعوا حولنا خرجت ومعى محسن وأخذنا

تاكسي وتوجهنا إلي المعتقل .. فتحوا الباب ، دخلنا بالتاكسي ثم نزلنا وسلمنا أنفسنا ..

لم يكونوا قد اكتشفوا هربنا إلا صباح اليوم التالي حيث جاء وكيل النيابة ليحقق معنا ـ قلنا إننا فعلنا ما فعلناه لكي يحسنوا معاملتهم لنا .. وإن المقصود بالعملية إعطاء درس لوزارة الداخلية ولإدارة المعتقل وكان وكيل النيابة الذي أجري التحقيق هو الأستاذ أنور أحمد الذي أصبح وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية بعد ذلك ..

طبعا نقلوا قومندان المعتقل و تحسنت معاملهم لنا بشكل ملموس ثم جاء

أكتوبر سنة 1944.

في ذلك الوقت كان النحاس مازال في الحكم منذ أن فرضه الإنجليز علي الملك في فبراير سنة 194٢ .. ومنذ ذلك الوقت و الملك يتحين الفرص للتخلص من النحاس .. وأخيرا جاء الوقت المناسب في أكتوبر سنة 1944 وضح انتصار الحلفاء و بدأت أعصاب الإنجليز تهدأ ومخاوفهم تزول فأقال الملك النحاس وعين بدلا منه أحمد ماهر .. وكان من أقطاب الوفد المنشقين علي النحاس وزعيما لحزب جديد شكّله هو الحزب السعدي ..

بمجرد تولي أحمد ماهر الحكم أفرج عن زملائنا في المعتقل الذين ينتمون إلي حزب الكتلة فقد كان هناك شبه ائتلاف بين الكتلة والسعديين والأحرار الدستورين أما الوفد فقد كان وحده .. أفرجوا أيضا عن أعضاء حزب مصر الفتاة ممن كانوا معنا بالمعتقل وكل الحزبيين المعتقلين .. الكل أفرج عنهم إلا نحن المعتقلين بناء علي أوامر السلطات البريطانية..

إلي متي سنظل في المعتقل ونحن في نهاية سنة 44 والحرب قد اتضحت نتائجها ؟ لابد من عمل شيء.. حرضت زملائي فأضربنا عن الطعام .. ولكن بعد فترة لم يتحملوا الجوع فعادوا إلي تناول الطعام أما أنا فلم أتنازل مطلقا فاضطروا حسب القانون إلي نقلي إلي مستشفي القصر العيني الجديد لكي أكون تحت العناية الطبية حسبما تقتضي القوانين .

هناك أوقفت إضراب عن الطعام .. وبعد فترة قصيرة زارني في المستشفي زميلى حسن عزت الذي كان قد هرب من معتقل المنيا وقال : ماذا تفعل هنا ؟.. لابد من تدبير خطة هروبك .. وفعلا دبرنا الخطة ..

في ساعة الظهيرة عندما يزدحم المستشفي بالداخلين والخارجين من آلاف الناس جاء حسن عزت بعربة (أوستن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء .. ولم يوقف الموتور .. خرجت أنا إلي فناء المستشفي وخلفي حارسي .. وفي زحمة الناس استطعت بسهولة أن أتواري عنه وبسرعة بلغت العربة التي اختفت بي و بحسن عزت في لمح البصر .. وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فم الخليج حيث الشقة التي كان قد جهزها حسن كمخبأ لي علي بعد دقائق قليلة.

كان هذا في أكتوبر سنة 44 كما قلت .. وبقيت مختبئا هاربا من وجه العدالة إلي سبتمبر سنة 45 عندما سقطت الأحكام العرفية فبسقوط الأحكام العرفية انتهي اعتقالي حسب القانون - هذه ميزة سيادة القانون التي أحترمها وأدين بها وأطبقها الآن وأنا رئيس الجمهورية مصر ..

ماذا حدث لي طوال سنة كاملة منذ أكتوبر سنة 4 إلي سبتمبر سنة 45 وأنا هارب من وجه العدالة .. ويمكن في أية لحظة أن يقبض علي وأعود إلي المعتقل أو ربما إلي السجن ؟

هذه قصة أخري ..

كانت فترة الهروب مليئة بالأحداث .. فقد كان لابد أن أعمل لكي أجد لقمة العيش لي ولأولادي فلم يكن والدي في وضع يسمح له بمساعدتي بأي شيء علي الإطلاق .. ولذلك كان علي أن أخرج للحياة فأطلقت ذقني لأخفي ملامحي وسميت نفسي الحاج محمد.

أول ما قمت به هو أني عملت حمالا علي عربة لورى كان يملكها زميلي حسن عزت .. بدأنا أنا وسائق اللوري بالعمل لحساب تاجر اسمه غويبة كان متعهدا للجيش البريطاني في الإسماعيلية .. وأذكر أنه في مرة من المرات وصلنا الإسماعيلية في المساء فتكرم علينا غويبة وسمح لنا أن نبيت ليلتنا في مكتبه علي الأرض ..

كان غويبة هذا مليونيراً من أغنياء الحرب فلما أصدر عبد الناصر قوانين الإشتراكية في سنة ٦1 وضع غويبة أمواله تحت البلاطة كما نقول وارتدى ملابس رثة للغاية فصدق عبد الناصر ورجاله أنه معدم فعلا .. ولم يكن غويبة فريداً في هذا فقد فعل مثله الكثيرون من الأثرياء في عهد عبد الناصر وقبله . فالشعب المصري علي مدي تاريخه الطويل قد تعلم كيف يخدع حكامه إذا تعارضت أوامر الحكام مع رغبات الشعب ومصالحه ..

نعود إلي قصتي مع غويبة .. في المرحلة الثانية من عملي معه عهد إلي بنقل الخضر والفاكهة إلي معسكر الإنجليز في التل الكبير .. وأذكر أني عندما سلمت أول شحنة لاحظت أنها محملة بأسوأ أنواع البرتقال ..

فاندهشت ولكني اكتشفت أن هناك اتفاقا بين المتعهد و مسئول التموين بالجيش الإنجليزي Quarter Master - علي الغش طبعا.. وبعد فترة طلبوا منا عدم إمدادهم بأي تموين .. فقد لجأوا إلي استيراد جميع متطلباتهم من اليهود في فلسطين .. ربما لأنهم كانوا أكثر قدرة علي الغش والرشوة من المصريين .. وربما لسبب آخر لا أعرفه ولكن بهذا توقف عملى مع غويبة..

عملت بعد ذلك في بلدة اسمها مزغونة (بالقرب من القاهرة) وكان عملي بها أن أنقل الحجر (الدبش) من المراكب الآتية بالنيل إلي أن

أصل بها إلي الطريق الذي كان في ذلك الوقت يرصف بين القاهرة وأسوان .

كنا نعمل من مطلع الفجر إلي غروب الشمس دون توقف وفي نهاية اليوم كنت أهرع إلي مطعم صغير حيث أتناول شوربة العدس الساخنة في برد الشتاء القارس بعد جهد وجوع يوم بأكمله.. فكانت أشهي طعام أكلته في حياتي بمجرد أن ألتهمه وأحس بالشبع والدفء آوي مباشرة إلي جراج مسقف بالصفيح أنام.. .

كان ذلك في ديسمبر سنة 44 ومع مجيء سنة 45 انتقلت إلي بلدة أبو كبير بالشرقية وعملت في مشروع شق ترعة رى تسمي ترعة الصادر بالمنطقة وكان من عادة مصلحة الري في ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل سنة ..

سكنت في منزل غفير في مكان اسمه عزبة طلعت أجرته منه .. وكان السقف من حطب القطن .. وفي ليلة من ليالي الشتاء أمطرت السماء مطرا شديدا فاخترق الماء سقف الحجرة وبدأ يتساقط فوقي .. ماذا أفعل ؟

غطيت راسي وجسمي بقماش خيمة صغيرة كنت أحملها معي دائما ..

وتحمل قماش الخيمة المطر الذي لم ينقطع طول الليل وظل ينهمر بغزارة فوق الخيمة وأنا تحتها أسمعه يضرب القماش بعنف مما أطار النوم من عيني .. ولكن لعله التعب والإجهاد .. أو لعله صوت المطر وهو يسقط فوقي في رتابة .. لا أعرف ولكن نمت تلك الليلة نوماً عميقاً إلي أن طلع الصباح .. وكان الخفير يجاملني فيقدم لي كل صباح اللبن الزبادي أو اللبن «المترد» فأتناوله .. ولم أكن أعلم أن معدتي ليست سليمة وأن اللبن بالذات من أكثر الأشياء التي تضر بها ...

تم مشروع شق الترعة فوجدت نفسي مرة أخري بدون عمل ولكن لم يطل انتظارى .. في بلدة سنور شرق النيل جنوب بني سويف في صعيد مصر وسط الصحراء القاحلة وجدت عملا واشتغلت .. كانت هناك شركة مصر للمناجم والمحاجر وهي تملك امتياز منجم الرخام الألباستر الوحيد الموجود في هذه المنطقة .. وكان هذا المنجم يعمل أيام

الفراعنة ثم أهمل إلي أن أتي محمد علي فأعاده إلي العمل و بنى منه مسجد القلعة.. في هذا المنجم عملت وكان يبعد عن شاطىء النيل 51 كيلو مترا ولكن محمد علي أقام استراحات كل منها تبعد عن الأخري ١٧ كيلو .. وبقايا هذه الاستراحات قائمة وموجودة إلي اليوم .. كنت أعمل كمقاول لنقل الرخام .. وسوف تدهش إذا علمت أن الاستراحة التي بناها الملك فاروق في الهرم لنفسه من هذا الرخام (وهي اليوم كازينو) وأن جميع رخام هذه الإستراحة قد قطعته أنا من المحجر ونقلته بنفسي إلي منطقة الأهرامات لكي يبني فاروق استراحته ثم لكي يستمتع بها الشعب اليوم بعد أن أصبحت كازينو مفتوحاً للشعب .

بانتهاء الحرب سقطت الأحكام العرفية وكان ذلك في سبتمبر سنة 45 فخرجت إلي الحياة إذ بسقوط الأحكام العرفية أو ما يسمي قانون الطوارئ .. يسقط حق الاعتقال .. وهذه ميزة سيادة القانون. . وهكذا عدت إلي بيتي بعد ثلاث سنوات من التشرد والحرمان .. وارتديت ملابسي وبدأت أظهر بالصورة التي يعرفني بها أهلي وأصحابي .. صورتي التي تعودتها ..

في تلك الفترة لم يكن عندي أي عمل.. وكانت الخمسة مليمات بالنسبة إلي عملة صعبة بكل معني الكلمة .. فكنت أسير علي الأقدام يومياً من منزلي بكوبري القبة إلي العتبة.. أي أكثر من ٢٠ كيلو .. لأني لا أملك 6 مليمات أجرة الترام .. ولقد نشأت علي حبي للجمال في كل شيء.. وكانت ملابسي ضمن الأشياء التي أتطلب فيها الجمال .. وكانت عندي جاكتة أعتز بها كثيرة ارتديها قبل اعتقالي مرات معدودة فقررت أن أبيعها في محل من محلات وسط البلد التي تشتري الأشياء المستعملة .. وفعلا أخذتها وتوجهت إلي إحدي هذه المحلات ولكني عندما أصبحت علي مسيرة قدمين من المحل توقفت .. لابد أن صاحب المحل سيتصور أني سرقتها فليس من المعقول أن شابا رث المنظر بهذا الشكل يمكن أن يمتلك هذه الجاكتة الوجيهة .. خطر لي هذا الخاطر وأنا أقف أمام التاجر فتراجعت وعدت إلي البيت سيراً علي الأقدام ومعى الجاكتة .. كنت أعرف أن التاجر لن يسألني من أين أتيت بالجاكتة .. وكنت واثقاً من أنه سيشتريها مني بأي ثمن ، وأن المبلغ الذي سيدفعه مهما كان ضئيلا سوف يفك ضائقتي .. ولكني فضلت أن لا أشوه صورتي في نظر إنسان لا أعرفه ولا يعرفنى مهما كلفني هذا ..

ولكن ماذا عن صورتي لنفسي كما أراها بعيني ؟ هل هي حقا ما أردت لها أن تكون ؟

لقد عادت حريتى .. هذا ما كان يعنيه انهاء الأحكام العرفيه .. ولكن هل أحسست أنا بالحرية كما يشعر بها سجين أطلق سراحه ؟ إن مصر ما زالت حبيسة والشعب ما زال لا يملك من أمر نفسه شيئا ..

ولذلك بمجرد أن عاد إلي كياني كمواطن حر طليق كان أول عمل قمت به هو تكوين الجمعية السرية .. فكيف تتحرر الذات بدون أن يتحرر الوطن !؟

كان ذلك في سبتمبر سنة 45 ولم يمض علي خروجي إلي الحياة سوي أيام قليلة .. اتصلت بعمر أبو علي شقيق زميلى سعودى حسين الطيار الذي سبق أن أرسلناه لروميل وضربت طائرته - وعرفني عمر بشاب اسمه حسين توفيق اتضح أنه كان يمارس قتل الجنود الإنجليز في المعادي قبل أن ينضم إلينا .. ولكن هل قتل حفنة من الجنود الإنجليز هو الطريق إلي تحرير مصر ؟ طبعا لا .. ربما كان هذا العمل مجرد تدريب ولكن المهم أن نتخلص ممن كانوا يساندون الإنجليز في ذلك الوقت ..

وكان علي رأس هؤلاء في نظرنا مصطفي النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذي سقط في نظرنا منذ أن فرضه الإنجليز بقوة السلاح في 4 فبراير ٤٢ ... فلا شيء يعادل خيبة الأمل التي يصاب بها الشباب في زعيم كان يوما مثلهم الأعلى ..

وما زلت أذكر كيف كنا ونحن طلبة نخرج إلي الشارع مرتين كل يوم ننتظر ذهاب النحاس إلي بيت الأمة وعودته منه لنراه ونهتف و نصفق له ..

كان بطلا أسطوريا ورمزاً فريداً للوطنية والفداء والعطاء .. أما بعد 4 فبراير فقد فقدَ كل شيء وأصبح في نظرنا خائنا لمصر ولشعبها يحتم علينا واجبنا الوطني أن نزيله من طريقنا .. ولذلك قررنا التخلص منه ..

كانت عادة النحاس أن يذهب في يوم مولد النبي إلي النادي السعدي وهو مقر حزب الوفد ليلقي خطابة بهذه المناسبة .. وصادف ذلك يوم 6 سبتمبر سنة 45 فخرجت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية ننتظر خروج النحاس من جاردن سيتي إلي شارع القصر العيني حيث يوجد النادي .. كان البوليس يحرس الطريق منعا للشغب .. فلا أحد يملك أن يمنع النحاس من إلقاء خطابه .. رغم أن أحمد ماهر كان في الحكم

والنحاس طبعا خارج الحكم .. ولكن كانت هناك قيم وأصول يحترمها الجميع في ذلك الوقت ..

كنت قد دربت أعضاء الجمعية علي استعمال القنابل اليدوية .. وكان الذي سيقوم بالعملية هو حسين توفيق .. وفعلا ألقي القنبلة في الوقت المناسب ولكن سائق النحاس فوجيء وهو ينطلق من جاردن سيني بعربة ترام في شارع القصر العيني تكاد تصطدم به .. فأسرع لكي يتحاشاها .. كان فرق السرعة ست ثوان لا أكثر .. ولكنها كانت كافية .. فعندما انفجرت القنبلة كان النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار .. فأصابت الشظايا عربة أتوبيس بها فتيات . . A T S التابعات للقوات المسلحة البريطانية ..

طبعا كنت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية في مواقعنا نراقب العملية فانسحبنا في هدوء وركبنا الترام إلي ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن) وهو علي بعد دقائق قليلة من مكان الحادث .. حيث توجهنا إلي مقهي (أسترا) مكاننا المفضل الذي كنا نعقد فيه أغلب اجتماعاتنا ..

في نفس المقهي قررنا التخلص من أمين عثمان الذي تولي وزارة المالية طوال حكم النحاس بعد أن فرضه الإنجليز في 4 فبراير ..

ولكن لم يكن هذا هو السبب في إدانتنا لأمين عثمان .. فلم يكن له أثر بذكر في سياسة الوفد أو علي النحاس نفسه .. ولكنه كان أكثر من صديق للإنجليز .. ومساندة لبقائهم في مصر بشكل لم يسبق له مثيل..

كان قد كون في تلك الأيام نوعا من الحزب السياسي أطلق عليه اسم (رابطة النهضة) وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أنه لم يكن في مصر حزب سياسى واحد لم أدخله من باب المعرفة ربما أو من باب البحث عن منفذ نخلص به مما كنا فيه .

كان مقر (رابطة النهضة) هذه في شارع عدلي وسط القاهرة .. وكانت لها ستة مبادئ أساسية بنص المبدأ الثاني منها علي أننا مرتبطون بإنجلترا ارتباطا حتميا .. فقد أعلن أن مصر وإنجلترا قد تزوجا زواجا كاثوليكياً .. فحتي لو تركتنا هي يتحتم علينا أن لا نتركها .

هذا التصريح كان بمثابة حكم الإعدام عليه ..

كان ذلك في يوم السبت 6 يناير سنة 46 وأمين عثمان قد عاد من إنجلترا قبل ذلك بيومين وزار المندوب السامي البريطاني لورد كيلرن في ظهر نفس اليوم وفي المساء ذهب إلي مقر الرابطة .. وكان حسين توفيق في انتظاره عند باب العمارة حسب الخطة .. قبل أن يصل إلي المصعد ناداه حسين : « يا أمين باشا .. يا أمين باشا » التفت إليه أمين عثمان فأطلق عليه حسين رصاص مسدسه ..

كان الظلام مازال يسود القاهرة طبقا لما كان بطبق أثناء الحرب العالمية الثانية وكان في الإمكان أن يهرب حسين توفيق دون أن يلتفت إليه أحد، ولكن تصادف مرور ضابط طيران أسمه مرسى رأي حسين توفيق وشاهد العملية كلها ونبه الناس إليه .. فجروا وراءه .. وظل يجرى و هم وراءه حتي ازداد عددهم واشتد حصارهم ففجر قنبلة من قنبلتين بدويتين كنت أعطيهما له وأوصيته ألا يستعملهما إلا في حالة الضرورة .. وبعيداً عن الناس ... و فعلا عمل بالوصية فرمي القنبلة داخل سور (صندوق الدين) .. وأدي الإنفجار الغرض المطلوب فانصرف عنه الناس .. وعاد هو في هدوء إلي بيته بمصر الجديدة ..

كنت في هذه الأثناء أجلس في مقهي قريب فقمت علي أثر سماعي الانفجار لأتأكد من عدم وجود ضحايا بين الأهالى.. فلما اطمأن بالي أخذت الترام وذهبت إلي بيتنا في كوبري القبة.

في الصباح قرأت خبر اغتيال أمين عثمان في الجرائد وكيف أن المندوب السامي البريطاني استدعي له كبير أطباء الجيش الإنجليزي في محاولة يائسة لإنقاذه .. وذكرت الصحف أيضا ضمن تفاصيل الحادث كيف أن أمين عثمان يوم اغتياله كان ضيف المندوب السامي البريطاني الذي استقبله في الظهر وتناول طعام الغداء علي مائدته .

في تلك الأيام كانت مقابلة المندوب السامي تعتبر تشريفاً كبيراً لأي سياسى .. إذ كانت تعني في أغلب الأحيان ترشيحاً لرئاسة الوزارة .. ثم إن أمين عثمان كان قد عاد قبل يومين من إنجلترا.. فهو إذن موضع حماية ورعاية من الحكومة البريطانية وممن يمثلها في مصر .. ولكن رغم هذا تم اغتياله .. وقد ترك كل هذا أثره في نفوس الجماهير فقد

أوضح بما لا يقبل الشك أن الإنجليز قد فقدوا القدرة علي حماية أنصارهم .. بل علي العكس أصبح من هو قريب منهم في موضع ضعف لا موضع قوة كما كان الحال من قبل ..

وهكذا تحقق لنا ما نريد باغتيالنا الأمين عثمان .. فإلي جانب أننا تخلصنا من أحد أنصار الاستعمار قضينا إلي حد كبير علي الحالة التي كانت تحيط بالسلطات البريطانية وجعلنا صورة الاستعمار تهتز في نظر الناس بشكل لم يحدث من قبل ..

طبعا لم يمر مقتل أمين عثمان بدون تدخل البوليس الذي ذهب يتحرى في مكان الحادث فإذا بالطيار مرسي يتطوع لمعاونهم ويعطيهم أوصاف القاتل التي انطبقت علي حسين توفيق وقد كان عندهم محل شبهة منذ أن كان يمارس قتل الإنجليز في المعادي فذهبوا إلي منزل والده حيث كان يقيم فوجدوه علي مائدة العشاء ... سألوه أين كان وقت حدوث الجريمة ولما لم يستطع الإجابة قبضوا عليه علي ذمة التحقيق ..

صمت حسين توفيق في أول يوم .. وفي ثاني يوم لازم الصمت أيضا .. وأغاظ هذا وكيل النيابة وكان رجلا ماكراً فأوعز إلي الصحف بالإشارة إلي أن الجريمة كانت أسبابها نسائية .. وهنا انفجر حسين توفيق واعترف .. وكان وكيل النيابة يعرف فيه طبيعته في حب البطولة ولذلك أفلح في الكمين الذي نصبه له. اعترف حسين بالكامل وبشكل لا يختلف عن الطريقة التي سبق أن أعترف بها (أبلر) الجاسوس الألماني إن لم يكن أكثر اندفاعة وعنفا .

في يوم 10 يناير سنة 46 اعترف حسين توفيق و دل البوليس هو وبعض أفراد الجمعية السرية علي مخزن السلاح الذي كان في جبل المقطم .. قلت في نفسي لقد انتهي الأمر تماما ولكن كان ما زال عندي بصيص أمل في أن يكون حسين توفيق قد أخفي أمري عن البوليس .. .

في 11 يناير 1946 وصل الملك عبد العزيز آل سعود إلي القاهرة في زيارة رسمية للملك فاروق وكانت المدينة والدولة كلها تستعد لاستقباله منذ فترة .. فقد كان عبد العزيز رحمه الله بطلا شهماً كريماً وقد أكرم فاروق عند زيارته للسعودية فأراد فاروق أن يزيد في إكرامه له .. هذا إلي جانب أن الملك عبد العزيز كان يحب مصر .. وهذا تقليد عند

الأسرة السعودية فهم دائما حريصون علي تنسيق وتوثيق علاقاتهم بمصر .. فخرجت مع غيري من الناس لاستقبال الملك عبد العزيز .. ووقفت في انتظار الموكب إلي أن مر أمامي في ميدان الأوبرا تحت حراسة مشددة جعلتني أضحك منهم .. فنحن لا نفكر في أن نصيب الملك عبد العزيز بأي أذي .. إن هدفنا أعداء مصر لا أصدقاؤها ..

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما مر الموكب فعدت إلي بيتنا في كوبري القبة .. فلم يكن في مقدوري أن أفعل شيئا سوي أن أبقي في البيت ، أعيش علي أعصابي وأنتظر ..

ولم يطل انتظاري في الساعة الثانية صباحا من ليلة ١١ - ١٢ يناير 46 قرعوا الباب ودخلوا كما فعلوا في سنة 194٢ .. ولكن هذه المرة لم يكن هناك الإنجليز .. بارحت فراشي وذهبت إليهم .. وكان الجو قارس البرودة .. سألت :

- هل معكم أمر من النيابة بالتفتيش ؟

وأجابوا : إن معنا وكيل النيابة نفسه .

وقال وكيل النيابة كامل قاويش : نعم أنا هنا بنفسي .. وأنا بنفسي الذي أحقق قضية اغتيال أمين عثمان ..

فهمت .. فقد كان هو الذي نصب الكمين لحسين توفيق واضطره إلي الاعتراف .

فتشوا البيت حجرة حجرة . وبعد التفتيش أخذوني معهم إلي سجن الأجانب .. تماما كما حدث في سنة 194٢.

في سجن الأجانب وضعوني في زنزانة بمفردى .. سألت علي حسين توفيق فعرفت أنهم وضعوه في الزنزانة رقم 1 في الدور الأول - وهي حجرة كبيرة جداً .. أما بقية أعضاء الجمعية فوزعوهم علي حجرات أخري كل علي انفراد .. طبعا أنا لي سابق معرفة بسجن الأجانب وحراسه وكل من يعمل به .. عرفت منهم أن وكيل النيابة يلتقي بالأولاد كل ليلة حيث يجري معهم التحقيق وأنه يسهر معهم إلي مطلع الفجر .. يتناولون العشاء معا علي حساب وكيل النيابة ... المسألة أصبحت مسألة صداقة .. وخاصة ... كما علمت ... بين وكيل النيابة وحسين توفيق ..

ماذا أفعل ؟ اتصلت بالأولاد عن طريق السجانين وأوصيهم بأن ينكروا إنكاراً تاماً اعترافاتهم السابقة .. فهذه هي الطريقة الوحيدة لعدم إدانتهم .. بدأ بعضهم فعلا ينكر ما سبق أن اعترفوا به – أحس وكيل النيابة بأن شيئا ما يحدث ضد مصلحته ومصلحة التحقيق .. وأني أنا السبب فأمر بنقلي إلي الدور الأعلى حيث أكون بمعزل عن بقية المتهمين .. وفعلا تم نقلي ولم يعد في إمكاني الاتصال ..

بقيت في حجرتي الجديدة حوالي أسبوع .. لا تحقيق ولا اتصال من أي نوع .. وفجأة فتحوا باب حجرتي في الساعة الثانية صباحا وطلبوني للتحقيق .. نوع من الإرهاب .. وإلا فلم الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالذات لبدء التحقيق ونحن في يناير والشتاء قارس البرودة ؟

فتحوا المحضر وسألوا :

- أقوالك ؟

- بالنسبة لماذا ؟

- حسين توفيق أعترف عليك بكذا وكذا وكذا ..

عرفت أن حسين اعترف بكل شيء .. أدق التفاصيل ذكرها .. لم ينس شيئا علي الإطلاق.. وكأن عقله آلة تسجيل ..

كنت أعرف أن بعض الأولاد قد أنكروا ما اعترفوا به من قبل وأن هذا الإنكار فيه تميع للقضية .. ولكن بقى ركن هام لإفساد القضية إفساداً تاماً .. وهو التعذيب .. فكرت بسرعة وقلت لوكيل النيابة :

- كل ما اعترف به حسين توفيق غير صحيح علي الإطلاق أما بالنسبة لغيره من الأولاد فأنا مستعد لمواجههم واحداً بعد الآخر .. وستري بنفسك كيف أن اعترافاتهم السابقة كانت كلها كاذبة ولذلك أنكرها بعضهم .. ثم إن هناك شيئا هاماً يجب أن يثبت في التحقيق ..

- ماذا ؟

- أنكم استدعيتموني للتحقيق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

- هذا مثبت بالمحضر ..

- أعرف ولكن أطلب إثبات أن هذه عملية تعذيب

- فقد أيقظتموني من النوم في حين كان النهار كله أمامكم وهذا الذي فعلتموه قد أصابنى بهزة عصبية شديدة .

أثبتوا ما قلته.. ثم أقفلوا المحضر وهم في غاية الاطمئنان فقد كانت القضية في نظرهم منهية وخاصة بعد اعترافات حسين توفيق وغيره .. بعد ذلك كانوا يرسلون في طلبي أثناء النهار .. ومرة سألوني :

- أليس لديك أقوال جديدة ؟

- لا.. أبدأ .. علي العكس أنا ما زلت أصر علي مواجهة جميع المتهمين .. وكيل النيابة وجد أني ثابت... بدأ يهتز .. فأخذ خطة جديدة في التحقيق ...

- تعرف عمر أبو علي ؟

تعرف فلان ؟ أجبت أني طبعاً أعرفهم جميعا .. فهذا شقيق صديق قديم لي .. وذاك عرفته بمناسبة كذا .. وكذا .. وجدت مبرراً لمعرفتي بهم .. ولكني أنكرت .. بل استنكرت أن تكون لمعرفتى بهم أية صلة بما يدعونه في اعترافاتهم والدليل علي صدق كلامي أني مستعد لمواجهتهم واحداً واحداً.

بدأ الخوف يدب إلي قلب وكيل النيابة فأنا بإصراري هذا أفسدت ما قالوه فأمر بإعادتي إلي زنزانتى و تركنى أسبوعاً بأكمله دون تحقيق .. في خلال هذا الأسبوع كان وكيل النيابة يكدح ذهنه .. كيف يدينني وكنت أنا أيضا أفكر كيف أفسد القضية .. وأهتديت في تفكيري إلي أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذي صمد ولم يعترف بأي شيء هو ابن خالة حسين توفيق وكان شاباً صغيراً اسمه محمد كامل .. اتصلت به عن طريق السجان فوجدت منه استجابة أسعدتني كثيراً .. فهو شاب يمكن الاعتماد عليه وأنا وهو معا يمكننا إفساد القضية تماما .. (هذا الشاب محمد كامل هو وزير الخارجية الحالي).

في هذه الأثناء عرفت أن وكيل النيابة كان علي اتصال دائم بحسين توفيق وبقية المتهمين .. يسهر معهم كل ليلة ويرسل في طلب العشاء لهم من خارج السجن .. هو إذن يواصل جهوده لاستمالتهم إليه .. قررت أن أسبقه ..

في ليلة فجأة طلبت استدعاء مأمور السجن وقبل أن يسأل عن سبب استدعاني له فاجأته بقولي : -

- أريد ورقة وقلما لأكتب برقية إلي النائب العام ...

أحضروا ما طلبت فكتبت برقية أطلب فيها إرسال وكيل نيابة للتحقيق لأني أعيش تحت ضغط شديد .. ووكيل النيابة المحقق يريدني أن أعترف بأمور لم أرتكبها إطلاقا.. ومأمور السجن وضباط البوليس السياسي يمارسون معى أقصي أنواع التعذيب ..

قرأ مأمور السجن هذا الكلام فاندهش : -

- ما هذا الذي كتبته ؟ من هم ضباط البوليس الذين عذبوك ؟

- توفيق السعيد والجزار .

- ولكن متي وكيف ؟

- هذا شأني ..

كان سبب هذه الحكاية التي ألفتها أنه في يوم من الأيام قبل نقلي من الدور الأرضي إلي الدور الأعلى فتح باب زنزانتي الضابط توفيق

السعيد لكي أخرج وأتمشى في فناء السجن مدة الربع ساعة المخصصة لكل منا قبل دخول المساء ...

كنت أعرفه ويعرفني منذ إقامتي بسجن الأجانب في سنة ١٩٤٢ فتبادلنا التحية وإذا به يقول لي : -

- مفيش داعي يا أنور للإنكار .. كلهم اعترفوا .. وليس هذا فقط .. بل أخذونا معهم إلي مخزن الأسلحة في جبل المقطم وأتينا بالأسلحة من هناك ، يعني كل شيء ثابت والقضية اكتملت فيم إصرارك علي الإنكار ؟

قلت : هل تريدني أن أعترف ؟

قال : نعم .

قلت : وهل عندك أدني شك في أننا قتلنا أمين عثمان ؟

نعم قتلناه - لأنه خائن ويستحق الذبح !

قال مستنكراً : أمرك غريب والله .. هل نسيت أن في البلد قانونا ؟

قلت : أعرف أن هناك قانونا ولكنه لا يسري علي الخونة ولذلك يتحتم علينا أن نتولى نحن أمرهم ..

قال : علي أي حال أنا سعيد لأنك اعترفت .. فالإعتراف سيخفف الحكم عليك ..

وفجأة التفت إليه وقلت : اسمع يا توفيق ..

قال : نعم

قلت : هل صدقت أننا قتلنا أمين عثمان حقا ؟ أنا قلت لك هذا لأتحداك وجها لوجه ولو كان معنا اثنان من الشهود لما قلت لك شيئا لأن العبرة في الاعتراف أن يكون أمام اثنين من الشهود .. هل نسيت ؟

قال : لا تتعب نفسك علي أي حال .. فالكل اعترفوا .. وإنكارك لن يفيدك في شيء ..

قلت : سنري ..

اختزنت هذه الواقعة مع توفيق السعيد لاستعمالها في الوقت المناسب .. وبناء عليه أرسلت البرقية إلي النائب العام استغيث به .. وأعطيتها لمأمور السجن.. الذي نزل بها إلي وكيل النيابة القاويش نفتح المحضر وأثبت البرقية فيه .. لم يكن يملك أن يفعل غير هذا فرغم أن التحقيق كان مازال سرياً إلا أنه عندما تزول السرية وأبلغ المحامين أني أرسلت برقية للنائب العام ولم تثبت في المحضر ستعتبر القضية لاغية من أولها إلي آخرها ..

استدعاني القاويش بعد ذلك فنزلت حيث رأيته جالسا وإلي جانبه مأمور السجن وتوفيق السعيد و الجزار وأبتدأ التحقيق ...

س : هل كتبت البرقية ؟

ج : نعم .

س : لماذا ؟

ج : لأن هناك تعذيبا وقع علي .

س : من الذي عذبك ؟

ج : مأمور السجن وتوفيق السعيد و الجزار .

س : تركوا علامات علي جسمك ؟

ج : لا وليس بالضرورة أن يترك التعذيب علامات .. يكفي أنهم شتموني وصفعوني علي وجهي وضربوني « بالشلاليت » فهل تترك هذه أي آثار ؟ ثم إنهم يريدون إجباري علي الاعتراف .. توفيق السعيد حاول هذا أكثر من مرة .. وقال لي لكي يغريني علي الاعتراف بأنهم ذهبوا إلي جبل المقطم وأتوا بالأسلحة التي يقول إني أخفيتها هناك . بدت الدهشة علي وجه القاويش لأن هذه الواقعة من أسرار التحقيق والمفروض أن يواجهني هو بها ...

أخذ أقوال مأمور السجن والجزار وتوفيق السعيد والكل أنكروا .. التفت إلي توفيق السعيد وقلت : -

- في اليوم الفلاني ألم تفتح باب حجرتي علي في الساعة الثانية صباحا ؟ ألم توقظني من النوم في البرد القارس و تهجم علي ؟

- توفيق السعيد أجاب : أبداً .. لم يحدث هذا . قلت : حاول أن تتذكر جيدا .. وراح توفيق السعيد يضرب كفا بكف وينظر إلي باستغراب .

قلت : هذا حصل .

قال : أبداً كل ما حدث أني قابلته في فسحة العصر ودار بينا حديث .

قلت : أبداً .. الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل « وانت اتهجمت علي وشتمتني وضربتني » وقلت لي إذا لم تعترف فسوف تلقي أسوأ مصير .. لأن القضية جاهزة .. وإدانتك واضحة وخاصة بعد أن اعترف الجميع.

كنت أعرف أن مثل هذه الأقوال كفيلة بهدم القضية وخاصة عندما تخرج إلي حيز العلانية ويتناولها المحامون ويستغلونها أحسن استغلال ..

أدرك وكيل النيابة القاويش ذلك .. فواجهني بالمتهمين ما عدا حسين توفيق .. بعضهم قد اعترف و تمسك باعترافه.. أما عمر أبو علي فكنت واثقة منه ... نظرت إليه ففهمني مباشرة .. أنكر كل ما سبق أن قاله ... جن جنون القاويش إذ أدرك أن القضية بدأت تنهار فأمر بعودتي إلي الزنزانة .. راجعت مع نفسي كل ما حدث .. كنت مرتاحاً إلي أن عمر أبو علي أيدني ثم أني أثبت التعذيب .. ولكن ما زال هناك شوط علي أن أقطعه..

طلبت مأمور السجن .. حضر إلي زنزانتى ..

- ورقة وقلم ..

- مرة أخري ؟ ما الذي جد ؟

- هذا شأني..

أحضروا الورقة والقلم .. وكتبت إلي النائب العام : « أرجو إنقاذي من وكيل النيابة المحقق .. لقد سبق أن استغثت بك من التعذيب الذي حدث لي وقد أخذ وكيل النيابة أقوالي وأقوال من عذبوني ولكن التعذيب مازال مستمراً .. ولذلك فأنا أطالب بوكيل نيابة آخر يحقق معي ... علما بأني مضرب عن الطعام منذ هذه اللحظة احتجاجا علي ما يحدث لي ..

وقد طلبت من مأمور السجن أن يفتش حجرتي ليتأكد من أنه لا طعام بها » .

أرسل القاويش وكيل النيابة في طلبي وفتح المحضر ..

- أنت مضرب عن الطعام ؟

- نعم .

- السبب ؟

- التعذيب .

- من الذي يقوم بتعذيبك ؟

- أنت أولا ثم الجزار و توفيق السعيد .. ومأمور السجن الذي يأمر رجاله باقتحام حجرتي في الليل والتهجم علي بالسب والضرب ثم ينسحبون ليعاودوا التهجم مرة أخري وهكذا طول الليل ..

أخذ القاويش أقوال كل من اتهمهم .. طبعا أنكروا .. وخصوصا مأمور السجن الذي أكد أن شيئا مما قلته لم يحدث علي الإطلاق ... تمسكت بأقوالى .

أدرك القاويش أن هدفي من كل هذا تقويض أركان القضية .. وخاصة أن محمد كامل كما سبق أن رويت رفض الاعتراف وأن عمر أبو علي غير أقواله .. لم يكن أمام القاويش إلا أن يواجه بأكثر المتهمين صلابة وأكثرهم انحياز إليه وهو حسين توفيق ..

وفعلا تمت المواجهة في الحال .. حسين توفيق أصر علي موقفه .. واخترعت أنا قصة أفسر بها معرفتي بحسين توفيق ومقابلاتي معه.. وطبعا كانت بعيدة كل البعد عما حدث .. حاول حسين توفيق تكذيب ما قلت .. ولكني أصررت علي أن هذه هي الحقيقة و أبديت دهشتي لقدرته علي تشويه الواقع وحاولت أن أوحي إلي حسين توفيق أن الإصرار علي هذا الكلام معناه الإعدام .. بدأ حسين توفيق هو الآخر يهتز وأدرك وكيل النيابة خطورة ما يحدث فأنهي التحقيق علي الفور .. ولكي يتخلص مني .. لكي يبعدني عن بقية المتهمين حتي لا أوءثر عليهم

وبذلك يتغير مسار القضية .. أمر بنقلي فوراً إلي سجن قره ميدان أو سجن مصر العمومي حيث أودعت الزنزانة 54.

الفصل الثالث : نحو تحرير الذات « الزنزانة 54»

كانت الساعة الخامسة والنصف مساء عندما وجدت نفسي داخل الزنزانة 54 في سجن قره ميدان .. وتلفت حولي .. كل شيء يختلف اختلافا تاماً عن سجن الأجانب .. فلا سرير ولا مائدة صغيرة ولا كرسي ولا نور .. ولا أي شيء علي الإطلاق .. فقط أرضية الحجرة المصنوعة من الأسفلت وفوق جزء منها « برش » من الليف الخشن بالكاد يكفي لكي يتمدد عليه الإنسان لينام ملتحفاً ببطانية قذرة إلي أبعد حدود القذارة التي لا يمكن أن تتصورها مهما حاولت ..

أما حيطان الزنزانة في الشتاء ينشع منها الماء ليل نهار وفي الصيف تغطيها مع الماء جيوش من البق لا حصر لها .. كيف يستطيع البق أن يعيش مع هذه المياه التي لا تجف لحظة ؟.. لم أعرف . ولا أعرف إلي الآن..

هكذا عشت سنة ونصف كاملة .. لا قراءة ولا كتابة ولا راديو ولا نور ولا أي شيء مطلقا .. ففي هذه الأثناء كانوا قد نقلوا بالتدريج جميع المتهمين في القضية إلي سجن قره ميدان .. كل في زنزانة منفردة بطبيعة الحال .. فقد كان هذا من حقنا لأننا مازلنا رهن التحقيق.. بالإضافة إلي أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نسجن في الزنزانات الكبيرة التي خصصت للمحكوم عليهم ما بين لص و قاتل و تاجر مخدرات وحرامي الخزن ..! وكان هذا الأخير - كما علمت - أكثر الناس احتراما في نظر المجرمين ..

في أول الأمر كان يسمح لكل منا بفسحة لمدة ربع ساعة منفردة يوميا ثم بعد أن قدمونا لقاضي الإحالة جعلوا الفسحة ثلاثة أرباع الساعة صباحا ومثلها بعد الظهر .. وفي أثناء الفسحة سمحوا لنا باللقاء و الكلام .. وتكلمنا .. كل كلامنا تقريبا كان يدور حول ما نعانيه في هذا السجن اللعين .. وخاصة دورات المياه التي كان يستحيل علي أي آدمي أن يقضي بها حاجته فإلي جانب قذارتها بصورة لا يمكن أن تري العين مثيلا لها.. كان علينا عندما نضطر إلي اللجوء إليها أن نقضي حاجتنا جماعياً .. هكذا كما يفعلون في الأدغال أو ربما في الريف .. ولكن في الحقيقة أسوأ بكثير .. فالأرض هناك واسعة .. ولكن هنا في السجن

كانت طاقة دورة المياه ألف شخص في حين كانت حمولتها دائما ثلاثة آلاف في أي وقت .. وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً للغاية علي معنوياتنا بل لقد كان السبب في تخصيص عنبر للجرب في كل سجن من سجون مصر .. فكثير من المساجين كانوا يمرضون بهذا المرض .. لأنهم ينتقلون أصلا من بيئة قذرة إلي بيئة أكثر قذارة وهي السجن .. فينتشر هذا المرض بينهم بسرعة .. كما سبق أن انتشر عندنا في معتقل الزيتون في الأرانب .. وهكذا «بقدرة قادر» أصبح لا فرق بين الأرانب والآدمي في السجن .. (وقد عالجت كل هذا بعد أن توليت).

عشنا سنة كاملة في هذه المعاناة التي لم يستطع أن يتحملها الكثيرون كما تحملتها أنا بفضل نشأتي بالقرية وللخشونة التي اكتسبها من خدمتى بالقوات المسلحة فمثل هذه المسائل لها أثرها دون شك ..

من خلال وساطات بعض أهالي المتهمين معنا من الأكابر سمحوا لنا في مرحلة متأخرة - بعد سنة تقريبا - بالأكل بالملعقة، كما ركبوا شبابيك زجاج فوق شباك الزنزانة الذي لم يكن سوي كوَّة في أعلي الحائط مفتوحة علي الدوام لبرد الشتاء وقيظ الصيف ..

في هذه المرحلة كان المفروض فيمن هو تحت التحقيق أن يأخذ أكل السجن أو يطلب طعامه من متعهد خارج السجن وكان هناك متعهد يملك دكانا في مواجهة السجن .. في الإفطار كان يرسل لنا بعض العسل والخبز والجبن أيضا .. ربما .. لا أذكر .. ولكني أذكر أني لم أكن آخذ وجبة الظهر من المتعهد فقد كان الإفطار وحده يتكلف سبعة جنيهات ونصف في الشهر .. وكان أهلي في كثير من الأحيان لا يستطيعون دفع ثمنه لأنهم لا يملكونه ..

في يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقي طلعت وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهات شهريا لأسرتي ... تماما كما سبق أن فعل إخواني الضباط وأنا في معتقل ماقوسة بالمنيا .. ولكن توقفت المعونة المالية بعدما انتهي الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربى ولما عدت إلي السجن كان ما زال لا أثر لها علي الاطلاق .. ربما نسوا سامحهم الله ...

وأخيرا أتي الشيخ حسن البنا ليعطي لعائلتي عشرة جنيهات شهريا في وقت كان شقيقي طلعت لا يجد ثمن إفطارى ولا حتي من زجاجة ملح الفواكه التي كان ثمنها في ذلك الوقت ١٢ قرشا.. وملح الفواكه بدأت أتناوله أول شيء في الصباح وأنا في السجن وما زلت إلي الآن استخدمه .. فترة طويلة تقرب من ثلاثين عاماً لم يمكنني فيها الاستغناء عنه إطلاقا .. أضف إلي هذا ثمن إيجار السرير والمنضدة والكرسي بعد أن سمحوا لنا في السجن باستعمالها ما دمنا تحت التحقيق ولكن بشرط أن ندفع عنها إيجار يوميا قدره عشرة قروش.

ورغم أن سجن الأجانب لم يكن نزلائه إلا من أسافل القوم ورغم أن السجون العمومية هي لأبناء مصر .. لكن التفرقة كانت واضحة .. فهنا ندفع .. وندفع مقابل ماذا ؟ مرتبة من قش الأرز صلبة خشنة والأرجح أنها مصنوعة من ألياف جامدة كالحجر .. أما هناك فالفرش وثيرة والنور الكهربائي متوفر وكذلك الطعام .. وكل هذا بدون مقابل ... تمييز عنصري حتي في السجون بينما نحن أبناء الوطن وبين الأجانب ..

ولكن للأسف كانت سجوننا من أسوان إلي الإسكندرية هكذا علي نفس الطراز ، حتي أني لما ذهبت في 6 أكتوبر ١٩٧٠ لأهدم سجن طره كرمز لإنهاء امتهان كرامة الإنسان وأمسكت المعول بيدى أضرب به أحسست أن جدران السجن هي نفس جدران سجن قره ميدان ، فالطوب تحت المعول مبلل هش من المياه التي تتخلله وحتي قبل أن أصل للطوب ، وأنا أزيل الطلاء أحسست بالرطوبة ورأيت الصراصير تخرج من بين الطوب والطلاء .. جيوش من الصراصير لا حصر لها .. كان منظرها قبيحا ولكني لم أترك المعول لحظة .. ظللت أضرب في الحائط وأعصابي مشدودة فلابد أن أزيله.. حاولوا أن يوقفوني .. ولكني رفضت وقلت لهم أنا بخير .. المهم أن تزول هذه السجون وتحل محلها سجون يمكن أن يعيش فيها الإنسان .. ولذلك أمرت ببناء سجون جديدة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية .. وفي الوقت نفسه تصلح للإنتاج بحيث لا يقضي السجين طول مدة سجنه بين أربع جدران عاطلا عالة علي المجتمع .. بل يجب أن يفيد ويستفيد فيخرج من السجن بحرفة جديدة تعلمها وببعض المال الذي يستطيع ادخاره في السجن مقابل عمله

وفعلا بدأنا التجربة في السجن الذي أقمناه بدلا من سجن قره ميدان ، وهو الآن موجود علي طريق مصر اسكندرية الصحراوي وإلي جانبه قطعة أرض تم استصلاحها ويقضي بها المساجين نهارهم يزرعونها خضراً وفاكهة بعد أن هدم سجن قره ميدان وأصبحت في مكانه حديقة عامة يستمتع بها الشعب ..

نعود إلي قره ميدان .. في أثناء إقامتنا به كان وكيل النيابة القاويش دائم السعي بطبيعة الحال إلي إدانتنا ..

قبل أن أنقل من سجن الأجانب حدث أن جاء أخي طلعت ليأخذ ملابسي للغسيل كالعادة وكنت قد وضعت في جيب البيجامة ورقة بها رسالة باللغة الإنجليزية تقول :

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

شك القاويش في الملابس ففتشها وأخرج الورقة وصورها ثم أعادها إلي مكانها بالبيجاما .. أحس أخي طلعت وهو في طريقه إلي البيت أن هناك من يتبعه .. أدرك أن هناك شيئا ما .. في البيت وجد الورقة نقل الرسالة التي تحملها وترك الرسالة الأصلية في جيب البيجاما حيث تم غسلها مع بقية الملابس .. وفي عودته إلي السجن كان مازال تحت المراقبة وكان القاويش ينتظر النتيجة - فتح جيب البيجاما فوجد الورقة - الرسالة الأصلية - في مكانها ولكنها قد أصبحت عجينة .. ذهب المستند الذي كان يتطلع إليه ! خاب أمله و ازداد خيبة عندما علم من رجاله أن الرسالة لم تبلغ إلي أية جهة .. فقد بلغها أخي طلعت في الساعات الأولي الفجر في يوم كان واثقا فيه من أن أحدا لن يفكر في أن يتبعه..

كان التنظيم «أ» كله من المدنيين وأما التنظيم «ب » فقد كان خليطا من العسكريين والمدنيين .. ولكن لا أحد يعرف أن الآخر في التنظيم ..

أراك يا عزيزي القارئ تتساءل إلي من بلغت الرسالة فأجيبك علي الفور ..

إلي من عهدت إليهم الأقدار بالقيام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . (وكان تصرف وكيل النيابة في هذا الموضوع من الأركان الرئيسية لبراءتى).

بعد عودة الملابس مباشرة أتي إلي السجن القاويش وطلب التحقيق معي ..

أعطاني ورقة وقلما وقال .. اكتب و أملاني.

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

فهمت أن الرسالة التي بعثت بها قد وقعت في أيديهم .. كنت قد كتبت الرسالة بحروف مفردة .. ولكني كتبتها الآن بالخط المشبك .. فعاد وطلب أن أكتبها بالحروف المفردة .. أنا عادتي أميل الكتابة لليمين أو أقف في الوسط . فتعمدت أن أميلها للشمال .. كتبت ثلاثة صفحات كاملة بالحروف المفردة والمشبك فقد كان هدفه أن يقارن ما كتبت بخط صورة الرسالة التي عنده . ويصبح لديه بهذا مستند يحقق الأمل الذي كان يراوده وهو أن يقع في يده تنظيم الجيش . ولكن خاب ظنه. لم يأتي القاويش إلي بعد ذلك الإمتحان الذي فشل فيه .

كان بقية المتهمين في القضية - « الأولاد » كما كنت أسميهم - قد بدأوا يفدون إلي سجن قره ميدان كما سبق أن رويت .. وكان معني هذا أننا ما زلنا تحت التحقيق إلي أن نذهب لقاضي الإحالة الذي له أن يحكم بتحويلها إلي محكمة الجنايات أو باعتبارها جنحة لا ترقي إلي جناية .. أو أنها لا شيء علي الإطلاق فيفرج عن المتهمين ..

بمجرد أن عرضت القضية علي قاضي الإحالة رفعت عنها السرية وتداولها المحامون فوجدوا أني قد قوضت أركان القضية بانكارى و تكذيبي للآخرين واتهامى مأمور السجن ووكيل النياية و غيرهم بتعذيبي .. ووجد المحامون في القضية لقمة سائغة فأخذ كل محامي يوصي موكله بالإنكار قالوا لهم لو أنكم استمعتم في بداية الأمر إلي نصائح أنور السادات ؟. إنه رجل ... أما أنتم فما زلتم صبيه صغارا ... كان عمرى ٢٧ عاما في ذلك الوقت أي سنة 1946 أما أعمارهم فكانت

تتفاوت بين 14 ١٧، ٢٠، ٢٢ سنة .. كنا سبعة وعشرين متهما في القضية وكان رقمي السابع أي كان أمامي 6 وخلفي عشرون .. وبالطبع تختلف تهمة كل منا عن تهم الآخرين ولكنها تدور جميعا حول مقتل أمين عثمان .. أفرج قاضي الإحالة عن اثنين منا فقط بكفالة .. بينما ظل الباقون وكنت منهم طبعا في السجن ننتظر المحاكمة .

ولكي نشغل الوقت راح المحامون عنا يقدمون المعارضة بعد الأخرى ..

ولكن بدون فائدة ..

هكذا مرت سنة 46 ثم أتت سنة 47 ولم يكن فيها من جديد سوي أنهم حددوا لنا دائرة جنايات . وكان موقف المحامين في هذه المرحلة طلب التأجيل مرة بعد أخري ودعواهم أن القضية كبيرة وملفاتها كثيرة - مجرد كسب وقت - ونجحوا طبعا .. فمع مرور الزمن تغيرت دائرة الجنايات إلي دائرة جديدة ..

فقد كان الذين يترافعون عنا من أكبر محامي مصر .. وكان الواحد يتقاضى عن القضية الواحدة آلاف الجنيهات ولكن للأسف لم يكن هذا حالهم في العشرين سنة الأولي للثورة بعد أن عطلت سيادة القانون ، فلم يصبح هناك أي مجال للمحاماة أو القضاء .. وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا .

ولكن الأمور قد عادت إلي مجراها الطبيعي اليوم بعد أن أعدت سيادة القانون..

أصبحت الحاجة ملحة إلي المحامين للعمل علي رفع الظلم عن الناس ..

وبعد الانفتاح زاد الطلب علي المحامين إذ لابد لكل رجل أعمال أجنبي يفد إلي مصر من أحد المحامين لكى يرعى شئونه .. وبذلك عاد الكيان لا إلي القضاء وحده بل إلي المحاماة أيضا .

مكانان في هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته .. هما الحرب والسجن .. وفي الزنزانة 54 عشت مع نفسي .. تلازمني وألازمها ليل نهار ... لم تكن هذه الفرصة قد أتيحت لي من قبل .. فقد كنت مشغولا بأشياء كثيراً أعمل بالجيش وأشتغل بالسياسة بينما كان تيار الحياة اليومية يجرفني معه أينما ذهب أو ذهبت . أما الآن فأنا أعيش في الزنزانة 4ه دون أن تكون لي صلة بالعالم الخارجي .. فلا راديو ولا صحف ولا أي شيء علي الاطلاق .

وحدة رهيبة لم يكن هناك من سبيل إلي الخلاص منها سوي أن أعيش مع نفسي .. وفعلا عشت معها ولكن رغم هذه المعايشة لم أستطع أن أنفذ إليها كأن شيئا ما يقف بيني وبينها ..

ظلمات كنت أعاني منها من زمن ولكني لم أدركها تمام الإدراك لأني لم أستطع أن أنقلها إلي منطقة الضوء. وعندما سمحوا لنا في السجن بالكتب والمجلات والصحف انكببت عليها أقرأ في نهم وأجد في كل سطر شيئا جديدا يفتح أمامي آفاقاً لم أعرفها من قبل .

كان أكثر من نصف قراءاتي باللغة الإنجليزية و الباقى باللغة العربية و عندما كانت تستهوينى فكرة أو قصيدة شعر أو أي شيء فيما أقرأ كنت علي التو أنقل ما يروقني في كراسة ما زلت أحتفظ وأعتز بها كل الإعتزاز إلي الآن وهى كراسة السجن .. وقد أودعتها أغلب ما كان له أثر علي حياتي من آراء أو مشاعر الكتاب ومفكرين من الشرق والغرب .

ولم يقتصر أثر قراءاتي المتعددة علي توسيع آفاقى الفكرية والعاطفية بل لقد ساعدتني هذه القراءات علي المزيد من التعرف علي الذات .. فاستطعت أن أتخلص من أزمة عصبية كنت أعاني منها منذ زمن وكانت بسبب القبض علي في الساعة الثانية صباحاً في برد الشتاء القارص في كل من عامي سنة ٤٢ ، 46 . لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكني كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامى الروحي .. إلي أن دخلت السجن وعشت مع نفسي فطفت هذه المعاناة علي السطح تلقائيا ..

أسبوع واحد في السجن يكفي لهذا .. أما كيف تخلصت من هذه الأزمة فالفضل يرجع إلي مقال قرأته في ال «ريدرز دايجست » لأحد علماء النفس الأمريكان .. كانت خلاصة المقال أو النتيجة التي وصل إليها الطبيب النفساني بعد تجارب ٢4 سنة هي أن الإنسان في أية مرحلة من مراحل حياته معرض لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شيء حوله مغلق.. وكأنه في سجن لا باب له ..

أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسان ماذا يضايقه .. وثاني باب .. الإيمان .. ما معني الإيمان ؟ أن تنظر إلي أي شيء كريه يحدث علي أنه قدر لابد من مواجهته وتحمله .. وبعد ذلك تتغلب عن الآثار الناجمة عن هذا .. فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة . لأن الحل دائما هناك .. ما الذي يجعلك تفكر هذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دوراً يجب أن تؤديه في هذه الحياة .. والإله الذي خلقك ليس شريراً علي الإطلاق .. بالعكس إنه خير جدا .. لا كما يصوره لنا الشيخ في كتاب القرية - جبار .. مخيف . وذلك فالعلاقة المثلي بين الإنسان و الله لا تنبني علي الخوف أو علي الثواب والعقاب ... بل علي قيمة أسمي من كل قيمة.. وهي الصداقة .. فمن صفات الخالق .. الرحمة والعدل والحب ثم هو قادر علي كل شيء لأنه مصدر الأشياء جميعا فإذا اتخذت منه صديقاً منحك الاطمئنان .. فتحت أية ظروف وفي جميع الأحوال تحبه ويحبك .

إن تحليل العالم النفساني لم يحل لي عقدة الهزة العصبية فقط بل فتح أمامي آفاقاً من الحب لا حدود لها في علاقاتي بالكون .. كانت كامنة في خضم الحياة العادية فكشفت عنها تجربة السجن ومعاناتها بحيث أصبح الحب المنطلق الرئيسي لكل أفعالى و مشاعري .

من أجل هذا .. ولأني أصبحت مليئاً باليقين والاطمئنان لم أهتز لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التي واكبت حياتي في جميع مراحل العمر . ولم يخذلني الحب مرة واحدة .. بل كان دائما ينتصر في النهاية ...

وهذه حكايتى أو طرف منها مع جمال عبد الناصر.. في الثماني عشرة سنة التي لازمته فيها .. كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها أن أفهمه أو

أن أقر بعض تصرفاته ومع ذلك كانت مشاعري نحوه هي نفس المشاعر .. الحب والحب وحده ..

وقد تساءل البعض في حيرة كيف قضيت هذه الفترة الطويلة مع عبد الناصر من غير أن يقع بيننا ما وقع بينه وبين بقية زملائه مثلا تساءل صحفي أجنبي في لندن قائلا إما إني كنت لا أساوي شيئاً علي الاطلاق وإما أني كنت خبيثاً غايً الخبث بحيث تحاشيت الصراع معه .. وبقيت أنا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذي لم يمسسه سوء بل علي العكس عندما فارق عبد الناصر الحياة كنت أنا نائب رئيس الجمهورية الوحيد..

وإن دل هذا التساؤل الساذج علي شيء فإنما يدل علي جهل أصحابه بطبيعتى فلا أنا كنت عديم الصفة أثناء حياة عبد الناصر ولا كنت خبيثاً أو لئيماً في حياتى قط .. كل ما في الأمر أني وعبد الناصر تصادقنا ونحن في سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة وأصبح هو رئيسا لجمهورية مصر .. فقلت في نفسي أهلا وسهلا .. صديق الذي أثق فيه قد صار رئيس جمهورية ، وهذا شيء يسعدني ونفس الإحساس شعرت به عندما أصبح عبد الناصر زعيماً للأمة العربية و بنى حوله هالة كبيرة ..

أحيانا كنا نختلف و تحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين أو أكثر يرجع السبب فيها ربما إلي اختلافنا في الرأي أو إلي دس بعض من لهم تأثير عليه ممن حوله ... فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلي الإصغاء للقيل والقال .. ولكن أيا كان الأمر فلم يحدث مرة واحدة أن وضعت نفسي موضع الدفاع فليس من طبعي أن أفعل هذا بالنسبة لعبد الناصر أو لغيره من الناس .. طبعا كانت تنتهي الجفوة مهما طالت عندما يتصل بي تليفونياً ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به ؟ وكنت أجيب بأنه كان لابد مشغولا ولذلك فضلت أن أتركه لمشغولياته .. ثم نلتقي وكأن شيئا لم يكن ..

حدث هذا مرات عديدة ولكني كنت أقابل كل ما يفعله عبد الناصر بالحب الخالص من جانبي .. لقد تسلم تنظيم الضباط الأحرار في نهاية سنة 194٢ وقطع به شوطا طويلا استغرق 6 سنوات كاملة كنت أنا أثناءها في السجون والمعتقلات ثم بعد خروجي من السجن كان لابد لي

من العودة إلي الجيش لكي أشاركه وزملاءه في الجهود التي بدأتها ثم استأنفوها هم من بعدى ... وفعلا تحقق هذا عندما عدت إلي الجيش عام ١٩٥٠ .

ثم قامت الثورة في ١٩٥٢ و ساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمتي بالأمر الذي يهمني في حد ذاته ... الأهم من كل شيء أن الثورة قد قامت و تحقق بها الحلم الذي استولي علي حياتي منذ أن كنت صبياً لم أبلغ الثانية عشرة بعد...

هذا ما جعلني أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع . لأني لم أكن أريد شيئا .. لم تكن لي مطالب من أي نوع و في أي وضع كنت ... عضوا في مجلس قيادة الثورة أو سكرتيراً للمؤتمر الإسلامي أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية أو وكيلا لمجلس الأمة.. أو رئيس مجلس الأمة .. لم يتغير حبي لعبد الناصر أو تختلف مشاعري نحوه .. فأنا إلي جانبه منتصراً كان أو مهزوماً.. ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٧ سنة وينتبه إلي أن هناك إنساناً لم تقم بينه وبينه معركة في يوم ما ..

وهذا ما جعلني أقول إن الحب ينتصر في النهاية ... فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عيني عبد الناصر .. وداخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله .. يحتم علي واجبي كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها .. ولكنها كانت موجودة .. عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون.. فقد قضاها كلها بين انفعال و انفعال .. القلق يأكله أكلا فقد كان يفترض الشك في كل إنسان مسبقا .. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها ..

ولكني كما قلت وكما زلت أكرر .. انتصر الحب في النهاية .. هذا الحب الذي كان وليد المرارة والألم في الزنزانة 54 .. فلا شيء مثل المعاناة يصقل النفس ويزيل عنها الصدأ ويكشف عن معدنها الأصيل .. فقد تكشف لي أني بطبعى وتكويني أحب الخير .. وأن الحب هو الدافع الحقيقي لكل ما أفعل .. وبدون الحب لا أستطيع فعلا أن أعمل..

لقد منحني الحب اليقين والثقة الكاملة في نفسي وفي كل شيء حولي ..

فحبي للكون مستمد من حبي لله عز وجل .. ومادام الخالق صديقى ففم الخوف من البشر ؟. إنه هو الذي يملك أمرهم و أمر الوجود كله ..

بهذا الإحساس الذي أصبح جزءا لا يتجزأ مني .. والذي كان كذلك طوال حياتى ولكن دون أن أعيه وعياً كاملا . ارتفعت فوق المكان والزمان في الزنزانة 54 فلم يعد المكان الزنزانة ذات الأربعة جدران .. بل اتسع بحيث شمل الكون كله .. أما الزمان فلم يعد له وجود بعد أن دخل قلبى حب سيد الكون فاستولي علي وأصبحت أشعر أني أينما كنت فأنا منه قريب .. يقول تعالي : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ .

صدق الله العظيم

أصبح صديقي الذي تملأ صداقته كل كيانى و تملأ فراغ الزنزانة هو الله منبع الحب والخير والوفاء وكل ما يجعل قوته شريفة .. فقد كنت معه أحبه وأعبده في كل ما خلق .. كم أصبح كل شيء مصدراً للبهجة والسعادة فالكل أصدقائي لأن الكل من صنع الله .. الشجرة التي أراد لها أن تكون فكانت والحبة التي تنبت بإرادته التي هي حبه .. والزهرة والجبل والثمرة والجذور والفروع والبشر علي مختلف ألوانهم وطباعهم .. كل ما في الوجود أصبح موضع حبي ..

لأنه كان مثلي كان ويكون بحب الله له .. وبحبه لله ..

مما تعلمته في الزنزانة 54 أن العاقل هو من يحرص علي النجاح الداخلي لأنه سيظل دائما متوازنا داخل ذاته صادقا مع نفسه والصدق مع النفس يعني الصدق مع الناس .. وأنا لا يهمني النجاح الذي يراه الناس في بل النجاح الذي أراه أنا في داخل نفسي وأرتاح إليه .. هذا النجاح يعتمد أساسا علي معرفة الذات و لذلك فمن يؤمن .. يحاسب نفسه قبل محاسبته للغير وهو لا يأخذ في الاعتبار ما يناله الإنسان من مكاسب مادية بل علي مدي اكتشاف صورة الإنسان لذاته وتحقيق هذه الصورة فيما يصدر عنه من أفعال .. إن النجاح الداخلي قوة دائمة مطلقة لا تخضع لأي مؤثرات خارجية علي عكس النجاح الخارجي الذي يهتز ويتغير من وقت إلي آخر حسب الظروف والعوامل الخارجية فقيمته دائما نسبية . أغلب الناس يبهرهم النجاح الخارجي - ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان - باختصار صورهم في نظر الغير ولذلك إذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الإنهيار .. فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائما تبرر الوسيلة .. أما أنا فقد درجت علي أن تكون صورة الذات في نظري أهم عندي من صورتي في نظر الناس .. رئاسة الجمهورية ليست أكبر عندي من أنور السادات ، فأنور السادات هو نفس أنور السادات في أي موقع وتحت أية ظروف .. إنسان ليست له مطالب خاصة لنفسه ومن ليس بحاجة إلي شيء فهو سيد نفسه .

فالاعتماد علي النجاح الخارجي يبعد الإنسان عن ذاته .. والجهل بالذات هو أسوأ ما يمكن أن يصيب المرء إذ تنتشر الظلمة داخل النفس .. وبانتشارها يفقد الإنسان الرؤية وتضيع عنه معالم الطريق فيصبح سجياً داخل نفسه .. منعزلا عن كل ما عداه .. وبهذا يفقد كيانه كإنسان ..

فهذا الكيان لا يتحقق إلا بالاتصال والاتصال دائما بين الإنسان والكون .. إذ بدون الاتصال يعيش الإنسان علي ما تأتي به الأيام من نجاح أو فشل عبدا للزمان والمكان فهو يكون ولا يكون..

فقط عندما يتصل .. عندما يتسع وعيه حتي يشمل الكون بأجمعه .. عندما تذوب ذاته في ذات الآخرين .. عن طريق الحب والمعاناة من أجلهم ... باختصار فقط عندما لا يكون الإنسان فهو يكون .. فيقهر الزمن ويعلو علي المكان ..

هكذا تعلمت من تجاربي في الحياة ، ولكن كم من الناس يدركون هذا ؟ وكيف يدركون وهم لا يملكون إلا رؤية أنفسهم وقياس الغير بمقاييسهم التي أعمت بصائرهم عن كل شيء فيما عدا ما ينالون من نجاح خارجي يشوه الذات فيعذبها بدلا من أن يحققها فيسعدها ؟

في أواخر الخمسينات كنت ألقي حديثا أسبوعياً بإذاعة صوت العرب .. وكنت أحس أن المجتمع المصري لابد له من العودة إلي قيمة الأصيلة التي حفظت عليه وحدته وشخصيته عبر آلاف السنين ومواجهة العديد من المغيرين وأن بناء الإنسان يجب أن يكون هو الهدف بعد أن كان واضحا أن البعض يريد أن يستغل الثورة لهدم القيم والإنسان فأخذت أنبه إلي ذلك في هذه الأحاديث ولا أعرف من الذي أخبر عبد الناصر .. وأنا لا أريد بهذه القصة اغتياب عبد الناصر ، فالوفاء له يقتضيني ألا أسمح لأحد باغتيابه بقدر ما لدي من معلومات وبقدر ما أخذت نفسي به من إعطاء الشعب حريته ..

المهم سألني عبد الناصر عن أحاديثي في صوت العرب .. وقال إن الإذاعة دفعت إلي حوالي 400 جنيه مقابل تلك الأحاديث .. قلت نعم .. فعلا حدث و لم أقل له ما لم يكن يعلمه وهو أني كنت قد كونت جمعية باسم مسجد ميت أبو الكوم ، وأن شيك الإذاعة تسلمه صندوق الجمعية كما هو .. فكما سبق أن قلت .. أنا لم أضع نفسي يوماّ موضع الدفاع أمام أي إنسان ..

واستمر عبد الناصر في كلامه بما يشير إلي الناس سوف تتكلم وأن كلام

الناس كثير ... إلخ .. .

بعد هذا سجلت الحديث الأسبوعي وجعلته ختام أحادين وكان موضوعه النجاح الداخلي .. والنجاح الخارجي .. وكيف أن الأول أبقي وأدوم أما

الثاني فأنا لا آخذ به لأن الصدق مع النفس ينقصه وبالتالي فمن يؤمن به لن يكون صادقاً مع الناس .. بل وسيظل عبدا لمطالبه ورغباته وشهواته .. وهو ما أرفضه .

اخترت موضوع الحديث هذا عمداً كختام لهذه الأحاديث .. فقد كنت أعرف أن أحد مستشاري جمال يبهرهم النجاح الخارجي. وأنه سوف ينقل الحديث إلي عبد الناصر وخاصة عندما أوضحت أنه لا يعنيني أن يري الناس النجاح الخارجي في وإنما يعنيني أن أري أنا النجاح الداخلي في نفسي ..

وفعلا حدث ما توقعت .. فكانت جفوة بيني وبين عبد الناصر استمرت شهرا أو أكثر لم يتصل خلالها أحدنا بالآخر..

لقد سيطر مفهوم النجاح الخارجي علي أذهان ومشاعر القائمين علي أمور مصر فترة طويلة ، وكان من نتائج ذلك أن أقبل الناس علي المادة وأغرقوا أنفسهم فيها بشكل لم يسبق له مثيل - فأصبح الإنسان يقاس لا بقدر ما يحققه من خير أو يحمل قلبه من حب للآخرين بل بقدر ما ينال من مال أو قوة .. وهكذا في خضم التصارع علي المادة نسينا أو غابت عنا الحقيقة الأزلية التي لا يمكن لأي مجتمع إنساني أن يقوم بدون أن تكون في بؤرة شعوره باستمرار .. وهي أن الإنسان قيمته تستمد من ذاته فهي مطلقة علي الدوام ولا يمكن أبداً أن تكون نسبية . يقول تعالي : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

صدق الله العظيم

لقد أفرد الله للإنسان دورة تميز به عن جميع الكائنات .. في التوراة يقول تعالي : « إن الله قد خلق الإنسان علي صورته » ، وفي القرآن : «نفخ فيه من روحه ».. وكل هذا يحتم علي الإنسان أن تكون له رسالة وإلا انتفي المعني لوجوده .. فالأصل في هذا الوجود هو حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها..

قد تختلف الرسالة من شخص لآخر .. ولكنها في جميع الأحوال تهدف إلي تحقيق ما أراد له الله أن يحققه من حملة الأمانة .. فإذا خلت حياة الإنسان من رسالة يوديها كان هذا معناه أنه قد خان الأمانة .

ولكن لكي يؤدي الإنسان الرسالة التي خلق من أجلها ، يجب عليه أن يستمد كيانه من ذاته لا من عوامل خارجية .. بهذا وحده يستطيع الإنسان أن يدين بالولاء لما هو أكبر وأبقي من هذه الذات فتكون له رسالة يؤديها في هذه الحياة ...

هذا يقين توصلت إليه في الزنزانة 54 وأصبح جزءا لا يتجزأ من كياني فإذا انقضي يوم بدون أن أفعل شيئا نحو هذه الذات التي هي أكبر مني وأشمل بت غير راض عن نفسي وتساءلت ماذا فعلت بالأمانة التي أحملها يوما بأكمله ؟

إن قيمة الإنسان مطلقة دون شك .. لأنها لو كانت نسبية فسوف تتغير من شخص إلي آخر ومن مجتمع إلي مجتمع .. ومن زمن إلي زمن .. حسبما يفيد منه الناس كل من وجهة نظره.. فيراه البعض عظيم الفائدة ويراه الآخرون عديم النفع .. أو ربما كثير الضرر .. وهكذا إلي أن يفقد الإنسان قيمته كإنسان وبالتالي يفقد كيانه .

وهذا ما يحدث في المجتمعات الفاشية مثل المجتمع النازي أو الشيوعي حيث تكون قيمة الإنسان مرهونة دائما بمتطلبات هذه المجتمعات مما يمسخ البشر أو يحيلهم إلي أنصاف آلهة في الأحزاب الحاكمة أو يجعلهم عبيداً عليهم فقط أن يطيعوا الأوامر أو آلات تعمل دون أن تعي ..

وفي كل هذه الحالات يفقد الإنسان كيانه كإنسان له قيمة في ذاته ويسلب حق حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها ويجرد من الرسالة تلك الشعلة المقدسة التي خُلق ليضيء بها الطريق لمن حوله ولمن يأتي بعده من أجيال ..

فعندما تصبح قيمة الإنسان نسبية تزول القوانين الإلهية بل والوضعية أيضا . . إذ يصبح لا مكان لها ما دامت سيادة القانون قد زالت كقيمة مطلقة وحلت محلها سيادة بعض الأفراد ممن هم أسري النجاح الخارجي والذي يصبح المقياس الوحيد الذي يقيسون به الناس مما يؤدي بالضرورة والحتمية إلي ضياع القيم الإنسانية العليا التي من أجلها وجد الإنسان ..

وهكذا يضيع مجتمع الخير والجمال ويحل محله مجتمع القوة .. وأغلب البشر الآن يعيشون مجتمع الحقد والقوة مما أفقد العالم القيم العليا التي بناها الإنسان علي مر العصور .. وفي اعتقادي أن المخرج الوحيد للبشرية من الأزمة التي تعانيها هو العودة إلي هذه القيم والإصرار علي وضعها موضع الصدارة في جميع مجالات الحياة .. ولذلك تجدني لا أكف عن الدعوة إلي تبن قيم القرية المصرية ربما بشيء من التطرف أحيانا .. ولكنني أري فيها الخلاص الوحيد من آثار مجتمع القوة التي جربناه في مصر فأضاع القيم بأكملها.. في الثمانية عشر عاماً السابقة علي رئاستي للجمهورية حاولوا أن يجعلوا من مصر مجتمع حقد وقوة فقط ولكن التجربة فشلت ١٠٠ ٪ لأنها لا تتلائم مع تكويننا أو طبعنا ..

نادينا بالديكتاتور العادل أو المستبد العادل فلما جاءنا .. قام البناء علي الرمال .. وليت الأمر اقتصر علي هذا ... فأقبح ما واجهته لم يكن الوضع الاقتصادي المنهار ولا الوضع العسكري المهين .. بل جبل الحقد الذي نشأ عن محاولة بناء مجتمع القوة .. ففي هذه المجتمعات كما قلت تنعدم القيم الإنسانية ومع انعدامها يصبح الشاغل الوحيد لكل فرد في المجتمع أن ينال أكبر قسط من النجاح الخارجي (الكسب أو الجاه والقوة المادية) بحق أو بدون حق ومهما كلفه هذا من ثمن ولو كان القضاء علي الآخرين .

من نتائج مجتمع الحقد والقوة حالة الضياع والحيرة التي يعيشها الشباب في مصر اليوم فقد وضعوا أمامهم قيمة المجتمع لا وجود له في ذاتهم ولا في تكوينهم وقالوا لهم هذا هو مجتمعكم الجديد و هو أحسن المجتمعات .. ومن هنا نشأ صراع داخلى مرير عند الشباب .. بين قيم جمالية ترسبت في وعيهم الجماعي علي مرور آلاف السنين هي عمرهم الحضاري .. ومجتمع القوة الجديد الخالي من أي قيم والذي فرض عليهم فرضا .. وازدادت حدة الصراع وأصبح الضياع أمر محتوماً عندما رأي الشباب مجتمع القوة ينهار أمام أعينهم ومع ذلك فما زالوا يلقنونهم أنه أفضل المجتمعات وأقواها .

في الزنزانة 54 بدأت الروابط التي تربطني بمطالب الحياة تنقطع الواحدة بعد الأخري .. ولما تخففت الروح من أثقالها تحررت الذات وانطلقت كما ينطلق الطير من قفصه إلي الفضاء الواسع.. إلي الكون بأجمعه .. إلي اللانهائية .. فما دام الإنسان يريد أن يكون هذا أو ذاك أو أن يمتلك هذا أو ذاك فهو لا يمتلك شيئاً علي الإطلاق لأنه سيظل عبدا لما يريد ولما يملك .. و بذلك فهو لا يكون .. فقط عندما يتخلص من كل ما يمت إلي ذاته يصبح سيد نفسه .. فيكون . .

فعندما يخرج الإنسان من الذات الضيقة بمعاناتها وانفعالاتها الدنيوية يجد أمامه عالما جديدة لم يعرفه من قبل .. هذا العالم الجديد أرحب وأغني من الحياة التي ألفها وهو أيضا من نوع مختلف .. فيه تتحرر الذات بحيث تصبح كل ما في الوجود فلا زمان ولا مكان يمكن أن يحتويها .. وفي هذا التحرر تتحول الإرادة إلي حب .. وكل ما كان يمكن أن يعكر الصفو .. إلي سلام لا حدود له ويجد الإنسان سعادة تفوق كل ما يمكن أن يسعد به علي هذه الأرض ..

من أجل هذا كانت الستة شهور الأخيرة لي في الزنزانة 54 وما زالت أسعد أيام حياتي .. ففيها تعرفت لأول مرة علي هذا العالم الجديد ... عالم إنكار الذات إنكاراً تامة بحيث ذابت في غيرها من الكائنات فاتسعت و اتصلت بسيد الكون..

طبعا لم يكن هذا ليحدث قبل أن أخلو إلي نفسي وأعيش معها وأعرفها ... ومما لا شك فيه أيضا أن قراءاتي قد ساعدتني علي اكتشاف هذا العالم الجديد .. أنا لم أدرس التصوف ولكن ما وقع في يدي من أقوال وكتابات المتصوفين وجد صدي في نفسي مثل الكثير من قراءاتي في السجن فقد عبرت لي عما كنت أشعر به دون أن تصل درجة إدراكي إلي مرحلة الوعي الكامل والتعبير . ولكن لعل المعاناة من أهم العوامل التي قربت بيني وبين العالم الجديد الذي عرفت فيه السلام الروحي كما لم أعرفه من قبل فالآلام العظيمة هي التي تبني الإنسان و تجعله يري نفسه علي حقيقتها .. وهذه الآلام تندرج تحت الكثير من القيم الإنسانية العليا ..

مثلا غدر الصديق بي يفوق كل ألم آخر في الحياة .. لأن الصداقة عندى شيء مقدس ولذلك عندما يغدر بي صديق أحس أن الأرض قد اهتزت تحت قدمى .. وعندما أقرر الاستغناء عن الصديق لغدره بي أشعر أن جزءا من كياني قد انسلخ عني ... وأعاني من الآلام ما لا طاقة لبشر بتحمله .. إلي من ألجأ ؟ وما هو السبيل إلي دفن أحزاني ؟

لم يعد هذا حالي بعد أن تعرفت علي عالمي الجديد و عشت فيه .. لا وجود لذاتي .. فالوجود الوحيد لذات الكون وللذات العليا .

كان هذا العالم الجديد فتحة حقيقية بالنسبة لي. ففيه عرفت صداقة الله .. هو وحده عز وجل الصديق الذي لا يمكن أن يخونك أو يتخلي عنك .. فهو الذي خلقك و كونك وحملك الأمانة و أعطاك من روحه وهو لا يعرف إلا الحب الذي لا حدود له و الخير الذي ليس بعده خير ..

وهو يريد للحياة التي خلقها أن تسير شريفة .. قوية .. جميلة ..

بعدما عرفت صداقة الله ، تغيرت كثيراً فلم أعد أغضب أبدا إلا في الحق وأصبحت الحياة بالنسبة لي أرحب وأجمل و أوسع وزادت قدرتي علي التحمل مهما كانت الأمور والمشاكل التي علي أن أتحملها.. وصار أهم هدف لي في الحياة إسعاد الآخرين وأصبحت البسمة علي أية شفاه وخفقة الفرحة في قلب أي إنسان تسعدني كما لو كان قلبي هو الذي يخفق فرحاً .. ولم يعد للانتقام أو الحقد أي مكان في نفسي .. وأصبح إيماني بأن الخير دائماً ينتصر جزء لا يتجزأ من وجدانى .. وزاد إحساسي بجمال الحب وهو الاحساس الذي صورته لي نشأتي بالقرية كرباط يجمع بين الناس في العمل والحياة .. ثم غذته فيَّ أمي خلال مراحل حياتي .. إذ كانت رحمها الله معيناً لا ينضب للحب .. كان هذا تكوينها الطبيعي .. مجموعة انفعالات حب لا يعرف الحدود .

ولذلك فلعل أكثر ما عانيت منه في الزنزانة 4ه هو شعوري بالفراغ العاطفي فلكي يكون الرجل مكتملا لابد أن تكون له رفيقة .. تحبه ويحبها .. هذه فعلا أعظم نعمة في الوجود .. فعندما تمتلئ نفس الإنسان بالحب يستطيع أن يتم رسالته .. وبدون هذه العاطفة يعيش إلي أن يبلغ منتهي العمر وهو يشعر أنه يفتقد شيئاً هاماً وأنه مهما حقق فهو لم يكتمل بعد .

كان هذا شعوري في جميع مراحل حياتي .. لم أشعر أبدا أن الحب كقيمة إنسانية عليا قد تغيرت في نظري يوما ما .. بل علي العكس إذ اكتشفت أن الحب هو المفتاح لكل شيء ..

حدث هذا في الزنزانة 54 عندما تجردت من ذاتى فنعمت بصداقة الله .. وعمر قلبي بحبه .. وأصبح ظله سبحانه وتعالي يحتوينى .. وعندها أدركت أن الحب قانون تستقيم به الحياة وتزدهر وتثمر وأن بدونه كل شيء عدم .

لقد اكتشفت ذاتى عن طريق الحب .. وعندما أنكرت هذه الذات وأذبتها في ذات الكون .. أصبح الحب الشمولي لمصر - للكون - الخالق عز وجل - هو المنطلق الذي مارست منه وما زلت أمارس واجبي في الحياة .. في الشهور الأخيرة لي في السجن .. بعد خروجى منه .. عندما كنت عضوا في مجلس قيادة الثورة .. والآن وأنا رئيس جمهورية مصر ..

هذا ما يجعلني أدعو دائما إلي الحب .. فهو المظلة التي تحمي الإنسان من كل الأزمات .. كل من عرفه لن يعرف الجدب بل النماء والإزدهار لأن الحب عطاء والعطاء دائما يبني .. علي عكس الحقد الذي ساد حياتنا في الثمانية عشر عاما الأولي قبل أن أتولي الرئاسة فهدم كل ما في طريقه هدماً ما زلنا نعانى من آثاره إلي اليوم.

« ربي قد طويت من عمرى صفحات ونشرت اليوم صفحة فاجعل صفحتي هذه أدعي للخير وأخلي من الشر .. وزينها بالحق وبرئها من الباطل . واجعل فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك والعمل لوجهك واجعل يقيني أفضل اليقين وصحح بما عندك يقيني ».. هكذا كنت أناجي ربي كصديق .. في الأسبوع الأول بعد وفاة عبد الناصر قبل ولايتى ..

كان من الطبيعي بعدما عشت عالمي الجديد حيث تخلصت الروح من أثقالها واقتربت المسافة بينها وبين الكون وخالقه عز وجل أن تتضح في نظرى بعض مفاهيمي للحياة وأن يصيب التغيير نظرتي إلي كثير من الأشياء ..

لم يعد الحب بالنسبة لي عملية احتواء للحبيب بل عطاء وفناء في ذات من تحب .. وليس هذا الفناء معناه العدم .. فالحب هو الطاقة الوحيدة القادرة علي إزالة الحواجز بين الروح والمادة .. بين ما تري وما لا تري .. بين الذات وخالق الكون .. وبدون الحب يعمي بصرنا عن أن نري « غيرانية » الغير .. فيتعذر الاتصال و نفقد أنفسنا في أنفسنا .. ولا يقتصر الأمر علي هذا بل يضيع السلام الروحي .. وهو دعامة كبري من دعامات الحياة فبدونه يفقد الإنسان توازنه الداخلي ويدخل في صراع مع نفسه لا يعلم متي ينتهي ..

عندما أنظر اليوم إلي الثمانية عشر عاما الأولي من الثورة قبل أن أتولي الرئاسة أجد أن هذه المرحلة من حياتي كانت فترة معاناة لم أدرك سببها في ذلك الوقت ، فقد ظلت كامنة في العقل الباطن .. ولكنها أحدثت خللا في توازني .. عبد الناصر كان صديقى دون شك .. وعندما خرجت من السجن كنت حريصاً علي أن أبقي علي السلام الروحي الذي اكتسبته في الزنزانة 54 ... ولكن حينما دخلت مجلس قيادة الثورة شعرت أن هناك خللا في توازني الداخلي وأني في طريقي إلي أن أفقد سلامي الروحي ..

كان لابد من المحافظة عليه .. ولكن كيف ؟

إن الإنسان عقل و جسد وروح .. ولابد من الغذاء لكل من هذه العناصر حتي يتحقق السلام الروحي .. لجأت إلي المعرفة أنهل منها ولا أتوقف عن القراءة يوما .. فهذا غذاء العقل و بالإيمان الذي لا يعرف الحدود روضت روحى أما الجسد فكانت وما زالت رياضته الوحيدة المشي علي الأقدام أربعة كيلو مترات كل صباح .

بهذا حاولت طوال فترة المعاناة أن أحافظ علي السلام الروحي الذي أعتقد أنه ضرورة لا بد منها لكي يؤدي الإنسان. رسالته علي هذه الأرض كما يجب أن يؤديها .

وقد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذي هو ثمرة السلام الروحى يعنى الاستسلام للأمر الواقع أو علي الأقل تقبله .. ولكن هذا غير صحيح فأنا لا أقبل الأمر الواقع كما هو بل أحاول دائما تطويعه والسمو به إلي ما هو أفضل . ففي اعتقادي أن الإنسان يجب أن يعمل دائما ونصب عينيه مثل أعلي يريد أن يبلغه .. فبدون المثل الأعلى كيف تكون للإنسان رسالة .. وإذا خلت الحياة من الرسالة فلماذا نحياها وأي معني لها؟ وفي الزنزانة 54 كانت المعرفة قريبة مني كما لم يحدث من قبل .. ويبدو أن هناك علاقات متبادلة بين المعرفة و الحياة الروحية .. فكلما نهلت من الواحدة ازدادت الأخري نضجا - منوال دائم لا نهاية له .. ولكنه يؤدي إلي المزيد من معرفة الذات ، وكلما ازدادت رؤية الإنسان لذاته وضوحاً ازدادت قدرته علي قهر ذاتيته فأصبحت أفعاله وأفكاره ومشاعره أكثر تحرراً وانطلاقا بحيث لا تهدف إلي منفعة ذاتية بل إلي طلب الكمال المطلق في كل شيء.

وهكذا أصبح الجمال يلح علي في كل ما أري وما أفعل.. أتطلبه في جميع نواحي الحياة وكلما اغترفت منه ازدادت حاجتي إلي المزيد منه .

ومن هنا كانت المثالية التي هي في الواقع ليست إلا سعي دائما نحو الجمال .. هذه المثالية التي أنحو إليها بكل كياني جعلت الكثيرين من الناس لا يستطيعون فهمى .. بل وغمضت بعض تصرفاتي في عيونهم.

يسألني البعض ما هي السياسة ؟ والإجابة دائماً تحيرني .. فأنا لا أدعي أني درست السياسة وتخصصت فيها .. كل ما أعرفه أني نشأت بميول و آمال و أحلام معينة هي التي كونت شخصيتي منذ الطفولة إلي أن أصبحت رئيسا للجمهورية .. هذه الآمال والميول كانت وما زالت تهدف إلي هدف واحد هو تخليص مصر من المعاناة والسير بها دائما نحو الجمال والكمال ...

يصف البعض السياسة بأنها فن الممكن ولكني لا آخذ بهذا التعريف فإذا قسناه علي حرب أكتوبر لقلنا إن السياسة هي فن المستحيل .. فأيهما أصح ؟

أنا لم آخذ دكتوراه في السياسة ولم أتبحر في علومها .. أنا مجرد إنسان اكتشف ذاته ولذلك فأنا صادق مع نفسي في كل ما أقول وما أعمل والمعاملة بيني وبين الناس تقوم دائما علي الصدق ..

ولعل هذا ما يدهش البعض إذ يجدونني رجلا سياسية يقول في حجرة مغلقة نفس الكلمة التي يقولها أمام الميكروفون .. ولا يستغل موقفا معينا لشعبية رخيصة .. أو لهتاف الجماهير ..

فإدراك الذات إنما يجعل كل تصرفات الإنسان تصدر عن موضوعية لا ذاتية مطلقة ..

ولذلك فالسياسة - في رأيي - هي فن بناء مجتمع يحقق إرادة الله من خلق هذا الكون وهي العمران .. في هذا المجتمع يجب أن تكون حرية الفرد مطلقة لا يحدها سوي ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية أصيلة نبتت من المجتمع نفسه فهي ثمار حضارته .. والحرية نفسها أجمل هذه الثمار وأغلاها وأقدسها فلا يجب أن يشعر الفرد في هذا المجتمع أنه تحت رحمة أية قوة من قوي القهر .. أو أن إرادته مرهونة بما يريده الغير ..

و بالتأكيد فإن الحرية ليست لازمة لبناء مجتمع القوة .. ولكنها الدعامة الكبري لبناء مجتمع الحق والخير والجمال حيث تعمر النفوس بالحب والنور والإيمان و بالتالي تعمر الكون صروح الإيمان والانتصار بالإنسان وما يُشيد من صروح الأمان والعزة والرفعة والسلام فتتحقق إرادة الله ...

ولكن لكي يقوم هذا المجتمع لابد لمن يتصدون لقيادته من أن يحملوا مسئولية تنبع أساسا من وجدانهم الإنساني وأن لا تكون أفعالهم مجرد ردود أفعال لانفعالات ذاتية أو لأوهام أمجاد ديكتاتورية تسيطر عليهم وتلعب برؤوسهم .. كما كان الحال مع هتلر وغيره .. في مثل هذه الحالات لا مكان لمجتمع الحق والخير والجمال .. لأن كرامة الإنسان

لا تصبح موضع أي اعتبار .. بل علي العكس تهدر حين يهدرون قيمته المطلقة كإنسان ويحيلونه إلي شيء من الأشياء ..

أنا أتكلم من واقع التجربة والممارسة .. فثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أتت بأفكار جديدة وحاولت جاهداً إلي أن تنقل المجتمع المصري إلي المرحلة الحضارية التي يعيشها اليوم . ولكن يجب أن أعترف بأن النجاح لم يحالفنا بالكامل فيما أردنا تحقيقه لأسباب كثيرة منها الصراعات الشخصية .. ومنها أيضا عدم وضوح الرؤيا بالقدر الكافي لا في وقت مجلس قيادة الثورة ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية .. فقد كان بطبعه كثير الشك .. ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة وعن أهم وأثمن ما في الوجود وهو الإنسان .. وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. في غمرة شكوكه وانشغاله بأمنه تحددت آفاق الإنسان المصري وأبعاده .. وهكذا حدثت في مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه .. وهو آدمية الإنسان وإنسانيته ..

في الزنزانة 54 لازمني الاحساس بأنني منذ أن تخرجت من الجيش وأنا أواجه الخطر .. كان إحساساً صادقاً ، فقد حدث أن واجهت المخاطر في جميع مراحل حياتي منذ أن أصبحت ضابطاً بالجيش إلي آخر لحظة قضيتها بالزنزانة 54 .. عندما بدأت بالتمهيد لوجود رأي عام بالجيش .. ثم جهودى لحماية مصر من غزو قوات هتلر والتي أدت إلي فصلي من الجيش واعتقالي .. وبعد ذلك محاولاتي للقضاء علي أعوان الإستعمار الإنجليزي وقضية أمين عثمان .. والزنزانة 54 حيث أصبح الخطر قائماً وخطيراً بل و محققاً كما كان يبدو لي ..

كيف ستنتهي القضية ولم أكن أعلم .. كل ما كنت أعرفه أن ترتيبي في الاتهام كان السابع .. وأن تهمي يمكن أن تؤدي إلي الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة .. ولا وسط في العقوبة .. فإما أن تكون هكذا أو لا تكون علي الاطلاق .. أي البراءة .. ولكن كيف ؟

أثناء وجودي في السجن قامت حرب فلسطين .. كان ذلك في منتصف عام ٤٨ ويعلم الله كم عانيت و تألمت من الغارات الإسرائيلية علي القاهرة ، وكان مصدر ألمي أني في السجن لا أملك أن أفعل شيئا .. وأن الإسرائيليين بهذه الغارات ينتهكون حرمة الشهر المقدس .. شهر رمضان ...

كنت أعرف أنها مجرد حرب نفسيه .. لا أكثر .. وزاد في اطمئناني أن جيوشنا كانت تشق طريقها إلي نصر أكيد.. ولكن فجأة عقد الملك عبد الله الهدنة التي أنقذ بها رقبة إسرائيل ..

ثم هذا طبعا بالاتفاق مع الإنجليز .. وكم أثار ما فعله الملك عبد الله غضبى ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل وأنا بين أربعة جدران سجين في الزنزانة 54 ؟

لماذا عهدوا إلي الملك عبد الله بقيادة الجيوش العربية ؟ ما الذي دعاهم إلي هذا ؟ ما السبب ؟ ما السر ؟ رحت أتساءل مع نفسي وقلبي ينفطر مرارة ..

من أجل ذلك .. وحتي لا يتكرر ما حدث.. لا أكف اليوم عن الدعوة إلي أنه لا مجال للمجاملات .. وأننا يجب أن نضع النقط فوق الحروف .. فلا نسمح للعناصر غير الصالحة أن تشكل مصيرنا و أنه لزام علينا أن نردع كل من تسول له نفسه العبث بمصيرنا .

استغرقت محاكمتنا ثمانية شهور من يناير إلي أغسطس سنة 1948 وأذكر أنه عندما أتي البوليس ليأخذنا إلي المحكمة، حاولوا وضع (الكلبشات) في أيدينا فرفضت وقلت « إذا حكم علي فافعلوا ما تشاؤون .. ولكن الحكم لم بصدر بعد.. وهذا الذي تحاولونه لا أقبله اطلاقا .. طبعا حذا الأولاد حذوي .. فاكتفي البوليس بأن يضعنا كلنا في (لورى) كبير ليأخذنا إلي المحكمة ثم يعود بنا إلي السجن .

في هذه الأثناء هدأت أعصاب الحكومة - قليلا - فسمحوا لنا بالخروج بعض الوقت .. وانتهزت أنا الفرصة وطلبت أن أعالج أسناني عند طبيب أسنان أعرفه في الجيش أسمه أحمد علي - فسمحوا لي .. كانت الرحلة من القلعة إلي مستشفي الجيش في كوبري القبة طريفة للغاية.. إذ كنت أقطعها في التاكسي وأملأ عيني بملامح القاهرة وشوارعها وأملأ رئتى بهواء الحرية ساعة كاملة علي الأقل في كل مرة .. نعم كان إلي جوارى دائما أحد ضباط البوليس ولكن ماذا يهم ؟ أوصيت الطبيب أن لا يعالج الضرس المريض .. حتي تمتد الرحلة وتتكرر . وفي كل مرة كان يقف ضابط البوليس يراقب الطبيب . ولكنه لم يفطن طبعاً إلي أن الطبيب كان يتناول أسناني كلها بما يشبه العلاج ما عدا الضرس موضع الداء .. ما زالت متعتني بهذه الرحلة عالقة بذاكرتي .. فقد كانت نسمة الحرية لطيفة رغم قصرها .. وأحيانا كنت أنتهز الفرصة وأزور والدي الذي كان يعمل بمستشفي الجيش .. ونشرب الشاي معا .

لم تدم متعتي طويلا ففجأة هرب حسين توفيق - وهو المتهم الأول - من السجن وكان رد الفعل المباشر أن أوقفوا خروجنا مهما كان السبب .

واستمرت المحاكمة يوما بعد يوم وشهراً بعد شهر .. كان الرأي العام كله معنا .. وكنت قد شككت في سلامة القضية بما يكفي كما سبق أن رويت .. هذا إلي جانب أن القضية كانت في أيدي كبار رجال المحاماة في مصر ..

انتهت المحاكمة في أوائل يوليو 1948 ثم جاء النطق بالحكم وكان ذلك في أغسطس سنة 1948 ، فذهبت إلي المحكمة وأنا لا أرتدي سوي بنطلون رمادى رث وجاكت بيضاء .. فقد كان هذا كل ما عندي .. بدأوا طبعا بالمتهم حسين توفيق .. وبمجرد أن سمعت الحكم وهو ١٠ سنوات سجن (غيابية طبعاً) جاءني إحساس بأنهم سيحكمون علي بالبراءة . وفعلا عندما أتي دوري أعلنت المحكمة المتهم رقم ٧ براءة .

صدر الحكم في الظهر .. ولكن كانت التعليمات تقضي بالبقاء في السجن حتي الساعة الخامسة مساء فعدت إلي السجن وبقيت به إلي الساعة الخامسة مساء ، حيث سمحوا لي بالخروج ..

قررت الذهاب إلي حلوان وهناك بحثت عن بنسيون رخيص يتناسب مع ما معي من نقود قليلة .. وعشت أعالج معدتي بمياه حلوان المعدنية وأنتظر الأيام ...

الفصل الرابع : العمل من أجل قيام الثورة

- 1 -

كان من الطبيعي بعد أن قضيت ٣١ شهرا متواصلا في السجن .. أن أشعر كأني قد ولدت لتوي في عالم جديد لا أعرفه .. ولذلك كنت أقضي وقتي متنقلا بين البنسيون الرخيص الذي سمحت لي نقودي القليلة أن أقم به ، وبين الحديقة اليابانية حيث كنت أسترخي علي أحد مقاعدها الخشبية أقرأ في صحيفة أو كتاب بعيدا عن الناس .. قانعا بخلوتي .. أتأمل ما أنا فيه .. وما حدث .. وما قد تأتي به الأيام .. .

كنت أتحاشي الجلوس مع الناس أو الكلام معهم .. فلو أني حاولت هذا لتطلب مني جهدا لم يكن في مقدوري أن أبذله ، فقد أصبح ما كان مألوفاً من أمور الحياة العادية عالما غريباً بالنسبة إلي لابد أن أتأقلم معه... حتي أشعر أنني واحد من سكانه ...

أذكر أني بعد شهر تقريبا من خروجي من السجن ، ركبت سيارة أقودها بنفسي ورغم اتقاني القيادة فقد هالني أن أجد أنني لم أكن أعرف كيف أسير في شوارع القاهرة .. وانتهي بي الأمر إلي حادثة تحت نفق الجيزة ... هكذا قضيت أيامي في حلوان أحاول التخلص من آثار السجن وأحاول شفاء معدتي بمياهها المعدنية إلي أن جاء يوم فوجئت فيه بزيارة زميلي وصديقي القديم حسن عزت الذي بحث عني في كل مكان إلي أن أهتدي إلي مقامى ...

كنت أصلي الفجر عندما هبط علي .. وكانت نقودي قد نفدت تقريبا ولم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسي .

- ما الذي يقعدك هنا ؟ قم معي - تعال ..

قالها لي حسن عزت وهو يتأمل أثاث وجدران الحجرة البالية التي كنت أقطن بها ..

قلت : إلي أين ؟ وأجاب : إلي بيتي في السويس - هيا بنا ..

وارتديت ملابسي ... الجاكته البيضاء والبنطلون الرمادى - نفس الملابس التي خرجت بها من السجن وكانت كل ما أملك ولاحظ حسن

عزت أن البنطلون قد بلي من الخلف ، فقلت له ليس عندي غيره وحتي لو ذهبنا إلي بيت والدي ما وجدت بديلا عنه.

قبل أن نتوجه إلي السويس ذهبت مع حسن عزت إلي القاهرة حيث اشترينا قمصان وفصلت بدلتين وكانت هذه أول مرة أري فيها الجوارب السوكيت التي يبدو أنها ظهرت وانتشرت في الأسواق وأنا في السجن - فأعجبتي واشتري لي حسن عزت ثلاثة أزواج أو أربعة منها . وبعدها ركبت معه سيارة وذهبنا إلي السويس ..

في بيته هناك التقيت لأول مرة بجيهان - زوجتي - حيث كانت في زيارة لابنة عمتها زوجة حسن عزت - قضيت معهم بعض الأيام ، تبينت خلالها أن حسن عزت لم يبحث عني ويأتي بي إلي السويس لوجه الله .. فقد كان علي خلاف مع شركائه في عمليات تجارية بين مصر والسعودية عن طريق السويس - فأراد أن يخيفهم ببطل قضية أمين عثمان حديث كل المجلات والصحف .. الذي هو أنا طبعا .. واشتركت معهم فعلا في بعض الصفقات وكان نصيبي منها كما علمت بعد ذلك ١٨٠ جنيها من الذهب أعطاني منها حسن عزت 60 جنيها وأخذ الباقي لنفسه وكان الجنيه الذهب في ذلك الوقت يساوي ستة جنيهات مصرية .. ولذلك عندما عدت إلي حلوان لأستأنف علاج معدتي .. وضعت المبلغ في خزينة اللوكاندة حتي لا يسرق - وطبعا لم يحدث هذا .. الذي حدث أن المبلغ صرف عن آخره علي إقامتي بحلوان ...

انتقلت بعد ذلك إلي بنسيون في وسط البلد بالقاهرة عاطلا بدون عمل بينما تتراكم الديون علي يوما بعد يوم .. فذهبت إلي إحسان عبد القدوس وهو صديق قديم لي .. ليبحث لي عن عمل .. قصدنا جريدة الأهرام ولكن لم تكن بها مجالات للعمل - فاقترحت روز اليوسف ولكن إحسان قال إن روزا لا تتحملنا نحن الأثنين - وكان إحسان وقتها يعمل بروز اليوسف وبدار الهلال كمعيد للصياغة Rewriter وفي جريدة الزمان .. في ثلاثة أماكن في وقت واحد ...

ولكن حدث أن استغني إحسان عن عمله بدار الهلال ، فأخذني وقدمني لأصحاب الدار .. الذين اشتروا مني مذكراتي التي كتبها في السجن

وبدأوا نشرها .. ويبدو أنهم أرادوا اختباري للتأكد من أن المذكرات بقلمي - فأتاني شكرى زيدان أحد أصحاب دار الهلال - وأشار إلي جزء من المذكرات وقال إنه بحاجة إلي تطويل بما يساوى عمودا ونصف ، فقلت بكل سرور .. قال إليك المكتب ولكن عليك أن تنتهي من الكتابة في خلال ساعة ونصف وهو الزمن الباقي علي إغلاق المطبعة.

فعلت ما طلبه و سلمته إليه قبل الزمن المحدد .. فقرأه و شكرني وانصرف .

لم يخامرني أي شك في أن هذا كان نوعا من الاختبار .. إلي أن أرسل في طلبي صباح اليوم التالي ، وطلب مني أن أعمل معهم في دار الهلال بصفة مستديمة وأن أحدد المرتب الذي أريده .. كان هذا أمراً مذهلا لي .. فقد كنت أعرف أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعا بالقطعة .

قبلت العمل علي الفور وأخذت مكان إحسان كمعيد للصياغة .. واستمر عملي هذا إلي نهاية ديسمبر ١٩٤٨ . كنت أثناءها – وعلي وجه التحديد في ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨ - قد تقدمت لخطبة جيهان من أبيها وتمت الخطبة .

كنت راضياً عن عملي بدار الهلال بل وسعيداً به ولكن حدث أن اختلف حسن عزت مع شركائه في السويس فانتقل إلي مصر ، وطلب مني أن أشاركه في الأعمال الحرة .. لم يكن من السهل أن أرفض طلبه فهو زميل كفاح - ثم إنه هو الذي خلصني من الأزمة المالية التي كنت أعاني منها عندما نفدت نقودي في حلوان وقبل هذا وذاك كانت عندي نقطة ضعف نحو حسن عزت كصديق يحبني ولا يخفي عني شيئا ويعتبرني ضميره .

طبعا لم يكن خروجى من دار الهلال أمرا سهلا فقد تصوروا أني أريد أجراً أكبر وعلي هذا الأساس بدأوا يساومونني ولكن فشلت كل محاولاتهم وبدأت العمل مع حسن عزت بعمليات مياه صغري في ٥٢ قرية من قري محافظة الشرقية باسم حسن عزت طبعاً وأنا شريكه ولكن بدون تسجيل ..

انتقلت إلي الزقازيق عاصمة الشرقية .. وكنت قد تزوجت جيهان في ٢٩ مايو 194٩م . فأخذتها معي حيث قضينا شهر العسل وما بعده في لوكانده متوسطة الحال من لوكاندات الأقاليم هناك .. التزمت بجدول زمني انتهينا بمقتضاه من العمليات في نصف المدة المقررة وفعلا تم هذا .. فقد كنت أخرج من الصباح الباكر لأعمل ١٠ أو ١٧ ساعة في اليوم .. ثم أعود في المساء إلي زوجتي في اللوكانده .

أتممت العمل في 6 شهور فخرجنا بربح يساوى 6 آلاف جنيه وأعطتنا الحكومة شهادة تقدير طبعا باسم حسن عزت .. فرست علينا ٨ عمليات مياه كبري في المنيا بمبلغ 60 ألف جنيه وكان هذا يعني بالمعدل الذي سرنا عليه .. ربما ما لا يقل عن 30 ألف جنيه..

كان من المقرر أن يبدأ عملنا بالمنيا في نوفمبر 194٩ . ولكن قبل أن نبدأ العمل قلت لحسن عزت إني أريد أن أستقر مالياً .. في المنيا لابد أن تكون الي شقة أعيش فيها مع زوجتي .. ثم إن علي التزامات مالية أخري نحو أولادي من زوجتي الأولي التي انفصلت عنها رسميا في مارس 194٩ . راوغ .. ثم وافق . ثم قال إنني أنفقت في الزقازيق ٢٠٠٠ جنيه طبعا لم يكن هذا صحيحاً أو قريباً من الصحة .. في الزقاريق لم تكن عندي أي تكاليف إلي جوار اللوكاندة المتواضعة سوي ثمن السجائر - ولكن حسن عزت أصر .. عرفته علي حقيقته وأشمأزت نفسي منه ومن السوق والعمل به فتركته وفي جيبي ١٢٠ قرشا وكان لي عنده ٣٠٠٠ جنيها هي نصيبي من عملية الزقازيق ولكني لم أطلبها منه .

كان كل همي أن أبتعد.. أن أنجو مما وقعت فيه .. فما قيمة المال إذا أصبح دنسا يهدد كيان الإنسان ويقوضه من داخله ؟ ثم أين أحلام الصبا و آمال الشباب والمعارك التي خضتها من أجل تحرير الأرض ؟ هل فعلت كل ما فعلت لكى أصبح في النهاية رجل أعمال كل همه أن يكسب من العمليات التي يقوم بها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر أو أقل ؟

طوال الفترة التي عشتها بعد أن بارحت السجن كنت أحس أني بعيد عن نفسي .. غريب عن ذلك الإنسان في داخلي الذي عشت معه - وعرفته - وارتحت إليه وكنت شديد الاعتزاز به في الزنزانة 54 ... كنت علي

ثقة من أنه لم يذهب بعيدا .. ربما لعبت الظروف دوراً في ابتعادي عنه .. ولكنني كنت شديد السعادة عندما وجدتني أقول لحسن عزت عند فراقنا .. « كم أتمني أن يكون عندك 100 ألف جنيه وأنا لا أملك شيئا .. لسوف أكون دائما أكبر منك بما لا أملك .. وأنت أقل مني بكل ما تملك »

لقد عادت ذاتي إلي ... وفي نفس اللحظة .. قررت أن أعود إلي الجيش .. الوسيلة الوحيدة لتحقيق الرسالة التي كانت بالنسبة إلي كل شيء .

هناك علي شاطىء البحر الأبيض بلاج في غاية الجمال كانت تشغله في سنة 1941 وحدات من الجيش المصري وكنت أنا ضمنها مبعداً بأمر المخابرات و هناك في الجراولة كما كانوا يسمونها .. تعرفت إلي ضابط طبيب اسمه يوسف رشاد كانت خيمته إلي جوار خيمتي وتصادقنا ... كان لابد من ذلك فهو دمث الأخلاق مثقف يقرأ كثيراً ولا يكاد غليونه يفارق شفتيه ولا يكاد الكتاب يفارق يده .. وبلغت بنا الصداقة حد التلازم فكنا لا نكاد نفترق إلا ساعة النوم - نطهو طعامنا معا - ونأكل معا .. ونتحدث و نفكر ونقرأ معا .. وما زلت أذكر اليوم الذي أعطاني فيه كتاباً ترك في نفسي أثرا عميقا وهو كتاب من تأليف « جون ستيوارت ميل » عنوانه : النظام الشمولي و الحرية والحكم النيابي وكان بالانجليزية .

ومرت الأيام وابتعد كل منا عن الآخر - ولكن صداقتنا ظلت كما هي - لم يخدشها شيء..

يوسف رشاد هو أملي الوحيد فقد أصبح طبيباً في الحرس الملكي ولا أعتقد أنه سيرد علي طلباً .. فاتصلت به تليفونياً وطلب مني زيارته في بيته ..

هناك شرحت له حالي – وكيف أن النيابة أستأنفت ، وأن الاستئناف قد نظر في أواخر عام 1949 وأيدت المحكمة الحكم بالبراءة فلم يكن هناك إذن ما يمنع عودتي إلي الجيش .

واستمع إلي يوسف رشاد و هو يدخن غليونه في هدوء وبدماثته المعهودة وعد بأنه سيتصل بي في أقرب وقت .. وما هي إلا أيام قليلة حتي اتصل بي يوسف رشاد .. وكان ذلك علي وجه التحديد يوم 10 يناير ١٩٥٠ وطلب مني أن أقابل حيدر باشا قائد عام القوات المسلحة .

كان حيدر باشا في انتظاري وما أن رآني حتي انهال علي بالسباب .. - أنت ولد مجرم .. تاريخك أسود .. و.. و.. .

حاولت أن أتكلم ..

- لا داعي للكلام .. لا تفتح فمك علي الإطلاق - وفجأة دق الجرس فدخل كاتم أسراره.

- أفندم يا باشا .. - الولد ده ترجعه الجيش النهارده .. وصدرت النشرة العسكرية بعودتي إلي القوات المسلحة اعتبارا من 15 يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشي - وهي الرتبة التي خرجت بها - وكان زملائي في الجيش قد سبقوني في ذلك الوقت برتبتين .. رتبة صاغ ورتبة بكباشى .

كان أول من زارني مهنئا جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر .. علمت من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشارا وأن قوته تشتد يوما بعد يوم .. وكأنما أراد أن يثبت لي مدي قوة التنظيم أو أن يختبر هذه القوة - طلب مني أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التي سوف تواجهي .. فمهما كان شأنها سيذللها التنظيم ويتخطاها .. وفعلا تم هذا .. وحصلت علي رتبة بكباشي في وقت قصير ..

طلب مني عبد الناصر أن لا أقوم بأي نشاط سياسى واضح ... لأني بسبب تاريخي النضالي لابد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً ولو أن هذا لم يمنع جمال من أن يكشف لي عن خريطة الضباط الأحرار في وحدات الجيش المختلفة ، فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميع أحاديث ودية لا علاقة لها بالسياسة .. فلم يكن من المفروض في التنظيم أن أكشف لهم عن نفسي أو أن أشعرهم أني أعرف أنهم ينتمون إلي الضباط الأحرار .

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدي عندما قبضوا علي في صيف ١٩٤٢ - وهي أن يظل تشكيل كل خلية سرا لا يعرفه إلا أعضاؤها .

كان الرجل الثاني بعدي في ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذي ظل علي اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين - والذي كان علي اتفاق تام معي في أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن

لا يخضع لأية هيئة أو لأي تنظيم حزبي لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأجمعها لا فئة معينة..

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر ما زال في السودان ولكن بمجرد نزوله بكتيبته ووصوله مصر أواخر 194٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف لضمه إلي التنظيم - فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين - وكانت هذه هي القاعدة التي أرسيتها .. أي أن لا ينضم إلي التنظيم إلا من كان متميزا في عمله بالقوات المسلحة .. فالضابط الممتاز موضع ثقة الجميع .. ومن السهل أن ينقاد إليه الآخرون ..

استجاب عبد الناصر علي الفور .. ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك أن يزيح عبد المنعم عبد الرؤوف من طريقه وأن يتولي هو قيادة التنظيم بدلا منه .

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتي ، فقد لجأ إلي تكوين خلايا سرية في الجيش ، كل خلية منها لا تعرف الأخري .. وتكاثرت الخلايا يوما بعد يوم ، حتي شملت القوات المسلحة بأجمعها وخاصة المناطق الحساسة فيها مثل إدارة الجيش .. .

في سنة ١٩٥١ ، شعر عبد الناصر أن التنظيم قد وصل مرحلة النضج وأنه لا بد له من قيادة خاصة وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلون عن قائد التنظيم أو قادته .. بينما كان بمصر في هذا الوقت خمس أجهزة سرية هي البوليس السياسي .. والمباحث الجنائية .. والمخابرات الحربية للجيش .. والمخابرات الخاصة بالإنجليز وال .C I . A الأميركية التي دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية .. هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة .

لذلك كان الحرص مطلوباً في تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر في اختيار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصياً في حرب فلسطين مثل كمال الدين حسين وصلاح سالم وممن له صداقة عمر معه - عبد الحكيم عامر - ثم ممن كانوا أصلا قادة التنظيم قبل أن يتسلمه وهم عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف بغدادى و حسن إبراهيم وخالد محي الدين وأنا ..

قد يبدو اختيار عبد الناصر لي دليلا علي الوفاء - صحيح أنني كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار - ولكنني بقيت بعيداً عن التنظيم ثماني سنوات وهي الفترة ما بين فصلي من الجيش سنة 42 إلي أن عدت إليه سنة 50 ، ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمي إلي ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر .. ورغم أننا تعارفنا إلي بعض وعمرنا لم يتجاوز ال 19 سنة .. إلا أنني لا أستطيع أن أقول سوي أن علاقتنا كانت علاقة احترام و ثقة من جانب كل منا .. وليست صداقة علي الاطلاق ..

فلم يكن من السهل علي عبد الناصر أن ينشىء علاقة صداقة بمعني الكلمة مع أي إنسان وهو المتشكك دائما - الحذر - المليء بالمرارة .. العصبي المزاج .

لا أقصد بهذا تجريد عبد الناصر في اختياره لي من عامل الوفاء ولكني أضيف إلي هذا عاملا آخر وهو الذكاء ... فمن خط سيري في القوات المسلحة ومن علمه منذ أن تقابلنا في مقتبل العمر أني رجل ذو مبادىء وقيم.. لم يكن من الصعب علي عبد الناصر أن يدرك أنه يمكنه الاعتماد علي وأن إضافته لي إلي الهيئة التأسيسية سوف تجعلني مدي العمر وفياً لهذا الوفاء من جانبه ..

ومما لا شك فيه أن عبد الناصر وهو الحذر دائما بتكوينه كان واثق كل الثقة أنني سأقف إلي جانبه باعتبارى قوة لها تجاربها وتاريخها.. قوة ستسانده في الصراعات التي بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتي قبل قيام الثورة .. ولذلك كان يهرع إلي عندما أعود إلي القاهرة في أجازة ليشرح لي المصاعب التي يلاقيها من بعض الأعضاء .. وعندما تعود بي الذاكرة إلي تلك الأيام البعيدة لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر كان يقضي معي خمسة أيام كاملة في كل إجازة من إجازاتي التي لم تكن تتعدي الأسبوع .. وكنا كل مرة نتدارس أحوال التنظيم والصعاب والمشاكل التي تواجهنا .. هذا إلي جانب أن عبد الناصر كان يضع تجربتى محل تقدير .. أذكر مثلا أنه في سنة ١٩٥١ طرأت له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة اغتيالات واسعة ، وسألني في هذا فقلت له : « غلط

يا جمال .. ما هي النتيجة.. إلي أين ستصل ؟ إن الجهد الذي يبذل في حركة الإغتيالات يساوى تماما الجهد الذي يبذل في قيام الثورة ولذلك دعنا نأخذ الطريق المباشر المستقيم .. وليكن هدفنا المباشر هو الثورة ».

وقد اقتنع بهذا الرأي فوراً وأخذ به .. ولم يكن هذا حال عبد الناصر بعد أن قامت الثورة وأصبح هو قائدها .. مثلا في سنة 1953 عندما بدأت الصراعات تشتد و تمتد داخل مجلس قيادة الثورة بحيث أصبحت تشكل خطراً علي الثورة وعلي مصر .. أذكر أني ذهبت إلي منزله في ذلك الوقت وقلت له :

- يا جمال الثورات تأكل نفسها وتأكل أبناءها .. ونحن لا نريد أن نصل إلي هذا المدي .. فلماذا لا تضع حدا لكل هذا .. لماذا لا تواجه الزملاء وتقول لهم .. فليبق معنا كل من هو من رأي وفكر واحد أما من يريد أن ينفرد برأي فليتركنا .. لقد أنجزنا المرحلة الأولي وهي قيام الثورة وهذا عمل تاريخى رائع يكن كل من ينسلخ عنا الآن فخرا أنه ساهم في قيام الثورة »

كان ينصت إلي بكل إمعان وتابعت كلامى : - بعد ما نصل إلي السلطة تتغير أمور كثيرة - ولكن يجب ألا يكون هذا علي حساب مصر - لقد انتخبتاك رئيس مجلس قيادة الثورة بالإجماع فلا خلاف عليك إذن .. ولذلك يجب أن يكون واضحاً لدي الجميع أن من يستطيع أن يسير معك يمكن أن يستمر أما من لا يستطيع فعليه أن يعزله

ولم أستطع أن أكمل حديني فقد فوجئت بعبد الناصر وهو يقاطعني محتدا - محتجا - غاضبا - ساخراً .. وكأني أقف ضده لا معه .. كانت ردوده كلها تشير إلي ذلك .. مليئة بالمرارة التي انفجرت فجأة في صدره وكأنها حمم بركان يقذفها في ثورته .. طائشة المرمى.. تلهب وتؤذي بلا سبب ودون أي اعتبار .. فالله وحده يعلم أن هدفي من الحديث معه كان تجنيب البلاد انعكاسات الصراع الذي كان يشتد كل يوم بين من بيدهم الأمر مما جعل ثورة ٢٣ يوليو رغم إنجازاتها الرائعة تصل بمصر إلي مرحلة رهيبة انتهت بهزيمة 67 التي كادت أن تمحو كل ما حققته الثورة .

لم يكن دوري في التمهيد لقيام ثورة يوليو قاصراً علي إسداء النصح لعبد الناصر كلما أمكن ذلك أو علي مساندته في مواقفه المختلفة من الصراعات القائمة في الهيئة التأسيسية أو علي توزيع منشورات الضباط الأحرار في المناطق المخصصة لي - فقد كانت الأحداث تسير بسرعة مذهلة .. وكان علي أن ألحق بركب الأحداث وأن أكيف نفسي وفقا لطبيعتها ..

في أكتوبر عام 1951 ألغي النحاس باشا المعاهدة المبرمة بين مصر وإنجلترا عام ١٩٣4 . وبدأت حركات الفدائيين والإخوان المسلمين في القنال واشتركت فيها بالتدريب وبالإمداد بالسلاح والذخيرة وأصبح الجو العام يبشر بأن الهدف الذي كنا نعمل من أجله لم يعد بعيداً فاجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار في أوائل يناير ١٩٥٢ و قررنا قيام الثورة في نوفمبر عام ١٩55 ... ولكن ما هي إلا أيام قليلة حتي فوجئنا بحريق القاهرة في ٢٩ يناير ١٩٥٢ . لم يعرف حتي الآن من الذي دبر حريق القاهرة ، ولكن الهدف كان واضحاً لدي الجميع . فمما لاشك فيه أن حريق القاهرة كان موجهاً ضد الملك كما كان تعبيرا عنيفاً عما يلاقيه أكثر من 95% من الشعب - وهي القاعدة العريضة التي حرمت في ظل نظام طبقي رأسمالي صارخ من كل شيء وأصبحت الأحزاب السياسية هي الأخري أداة في يد الملك والإنجليز وأصبح كل همها أن تتحالف مرة مع الإنجليز ومرة مع الملك لكي تحقق لنفسها المكاسب علي حساب الشعب . وكان حريق القاهرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت لهدمت وأحرقت كل شيء ، ورغم أن الفاعل كان مجهولا إلا أن الهدف قد أصاب فأضعف من مركز الملك .

في ضوء هذا الحدث الأخير كان علينا أن نراجع حساباتنا وأن نعرف أين نقف بالضبط - وهنا تذكرت يوسف رشاد الذي أصبح طبيب الملك الخاص . وصلة الصداقة التي تربطني به .. لقد آن الأوان لكي أستخدم هذه الصلة لمصلحة القضية التي نعمل من أجلها .. واتصلت بيوسف

رشاد وكان في ذلك الوقت صديقاً شخصياً للملك كما كان علي رأس جهاز المعلومات الخاص بالسراى .

وجدت يوسف رشاد يأخذ كل ما أقوله له أمرا مسلما به.. فلا جدال ولا مناقشة ولا شك من أي نوع .. الطريق مفتوح إذن لتضليل الملك و تخديره حتي يقوم تنظيمنا بالثورة .

والحقيقة أن هذا هو ما فعلت .. فكنت أقدم له معلومات خاطئة .. وعندما كان يعرض علي منشورات الضباط الأحرار ، كنت أوهمه أنها من صنع خيال ضابط معروف بحب التظاهر والعظمة ولكنه في الحقيقة لا حول له ولا طول .. وعندما كانت تصل إليه بعض الحقائق كنت أعمل جاهداً علي تصويرها في عينيه علي أنها أكاذيب ومبالغات لا نصيب لها من الصحة.

ولم يكن هذا كل دأبي .. فقد كنت دائم السعي للتحايل للتعرف علي أخبار الملك وخططه ونواياه .. ونجحت إلي حد كبير في تحقيق هدفي ، فبعد حريق القاهرة بأيام عرفت من يوسف رشاد أن الملك بات يشعر بأنه لم يعد له مكان في مصر .. بل وأعد قائمة بأسماء من سيصاحبونه في المنفي ومن بينهم يوسف رشاد طبعا .. كما أنه بدأ يرسل الذهب في طائرته الخاصة إلي بنوك جنيف الأمر الذي جعلنى أنا وعبد الناصر نقتنع بأن حركة الضباط الأحرار لن تجد مقاومة تذكر من جانب الملك .. فقد كان واضحا أنه قد بدأ ينهار فعلا وبناء عليه جمعنا الهيئة التأسيسية في فبراير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة في نوفمبر ١٩٥٢ بدلا من نوفمبر ١٩55 .. لماذا نوفمبر ؟

لأنه في نوفمبر يكون الملك والحكومة قد عادا من الأسكندرية وبذلك نستطيع تركيز ضربتنا في القاهرة .. باستثناء عبد الناصر لم يكن أحد يعلم باتصالاتي بيوسف رشاد الذي ظل سلاحا من أهم أسلحة معركتنا .. ولم نتوقف عن استخدامه إلي أن بلغنا هدفنا بالكامل .. أذكر أنه في أول يوليو ١٩٥٢ ، كنت أقضي إجازتي الشهرية بالقاهرة وفي حديث لي مع عبد الناصر طرأت له فكرة استطلاع أخبار الملك فركبت عربتى الفوكسهول وتوجهت إلي الإسكندرية حيث التقيت بيوسف رشاد في نادي السيارات بسيدي بشر وعلمت منه أن الملك قلق لزيادة

منشورات الضباط الأحرار .. طمأنت باله و نسبت المنشورات كما اعتدت أن أفعل إلي أحد الضباط الذي كان مولعاً بالتظاهر وإيهام الناس بأنه مهم .. وكنت قد ابتكرت بعض المعلومات الخاطئة المضللة .. فحكيها ليوسف رشاد و بعد أن أطمأن بالي إلي أنه نقلها إلي الملك .. ركبت عربتى و توجهت إلي القاهرة حيث أطلعت عبد الناصر علي نتائج رحلتي وكانت إجازتي قد انتهت فعدت إلي مقر عملي في رفح .

فوجئنا بعد ذلك في ١٨ يوليو بالملك يصدر أمرا بالغاء انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط وهي التي كان التنظيم قد كسبها من الضباط الموالين للسراى . . الملك قد بدأ يسترد أنفاسه إذن .. بل ويتحدي .. وفي نفس الوقت أبلغ أحمد أبو الفتح (الصحفي الوفدى) جمال عبد الناصر - وكان صديقاً شخصية له - بأن الملك يعتزم تغيير الوزارة و أن وزير الحربية في الوزارة الجديدة هو اللواء حسين سري عامر الذي يعرف الكثير عن الضباط الأحرار والذي سوف يكون أول ما يفعله بالتأكيد هو أن يقضي عليهم و يجهض كل مشروعاتهم بمجرد توليه الوزارة لكي يثبت للملك قوته و ولاءه .

وبتحليل بسيط وصل عبد الناصر إلي حقيقة تفرض نفسها علينا وعلي مستقبل الثورة والبلاد .. إما نحن وإما حسين سري عامر الوزير القادم والذي يعرف الكثير عنا بل ونحن أغلب أعضاء الهيئة التأسيسية الذين تحولوا فيما بعد إلي مجلس قيادة الثورة .

ولم يتردد عبد الناصر .

فقد أتخذ قرار قيام الثورة قبل تولي هذا الوزير لمهام منصبه وقبل أن يفلت زمام المباداه .

وكان معني هذا أن تقوم الثورة في يوليو بدلا من نوفمبر 5٢.

وفي يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ أرسل عبد الناصر رسالة إلي مع حسن إبراهيم تسلمتها في مطار العريش يطلب مني فيها أن أنزل إلي القاهرة يوم ٢٢ يوليو لأن الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و5 أغسطس .. وفعلا وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو .. ولكني لم أجد عبد الناصر في انتظاري علي محطة السكة الحديد كعادته ، فقلت في نفسي لابد أن

الوقت لم يحن بعد .. ولذلك توجهت إلي بيتي واصطحبت زوجتي إلي السينما ولكني عندما عدت إلي البيت في منتصف الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب مني فيها أن أقابله في منزل عبد الحكيم عامر الساعة 11 مساء .. وعلمت من البواب الذي سلمني هذه البطاقة أن عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتي إلي بيتى مرتين .. مرة في الساعة الثالثة مساء ومرة أخري في العاشرة.

غيرت ملابسي وأخذت مسدسي معي وتوجهت إلي منزل عامر وطبعا لم أجده فذهبت إلي ثكنات الجيش في العباسية .. لم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فمنعوني من الدخول وعندما تبينوا رتبي طلبوا مني أن ألزم بيتي .. فهذه هي الأوامر بالنسبة للضباط العظام .. ناورت وحاولت كثيراً ولكن دون فائدة ـ كدت أجن فكيف تقوم الثورة أمام عيني وأنا لا أشارك فيها ؟ لقد كرست كل حياتى لهذه اللحظة بالذات.. من أجلها كافحت و عانيت بل وكنت.. في كل مرحلة من مراحل العمر .. ففيم كان كفاحي وفيم كان كياني .. وأنا أقف موقف المتفرج ما أعطي لهذا الكيان مبررا لوجوده ؟ ناورت و حاولت مرة أخري وعدة مرات إلي أن التقيت بعبد الحكيم عامر وهو ينظم مرور القوات .. ناديت عليه .. لم يكن في موقف يستطيع فيه أن يراني ولكنه تعرف علي صوتي .. عرفت منه أن القيادة قد سقطت إذ اقتحمتها قواتنا القادمة من معسكر (هاكستب) (ومعسكر هاكستب كان معسكراً أمريكياً أثناء الحرب العالمية الثانية وسمي علي اسم أحد الأمريكيين) وعلي رأسها عامر ويوسف صديق وأن رئيس الأركان حسين فريد قد حددت إقامته أما بقية القادة فكان عامر يقودهم إلي المعتقل في مقر الكلية الحربية حينذاك .

أخذت عربتي وتوجهت إلي رئاسة الجيش حيث كان عبد الناصر الذي طلب مني أن أتصل تليفونيا بجميع وحداتنا لأري إذا كان كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعة .. نزلت إلي حجرة التليفونات بالطابق الأرضي .. ولكني وجدتها خالية .. ناديت علي العساكر عدة مرات ولكن لم يظهر منهم أحد ـ ألححت في النداء ورحت أطمئنهم فظهروا الواحد بعد الآخر وبعد أن تعرفوا علي وهدأت نفوسهم عادوا إلي عملهم

تحت إشرافي وبدأنا التتميم علي جميع وحدات الجيش في سيناء والصحراء الغربية والإسكندرية والقنطرة شرق والعريش ورفح .

وحدث أن اتصل بنا حيدر باشا وزير الحربية في ذلك الوقت يطلب توصيله بالضابط النوبتجي فأوصلته بعبد الناصر - لم أسمع المكالمة ولكن عرفت أنه لعب دور الضابط النوبتجي وقال لحيدر باشا ردا علي تساولاته أنه لا توجد أية تحركات في الجيش وأن كل شيء علي ما يرام .. بعد قليل اتصل حيدر باشا بنا مرة أخري وطلب توصيله بسلاح المدرعات (السوارى) فأصدرت أمري إلي العساكر بإهماله .

في الساعة الثالثة صباحا أتت جميع التمامات من جميع الوحدات فأبلغنا عبد الناصر والزملاء أعضاء مجلس قيادة الثورة .. وفي الحال اتصل عبد الناصر تليفونياً باللواء محمد نجيب في بيته بحلمية الزيتون وأرسل عربة مدرعة أتت به إلينا في الفجر ..

في شرفة القيادة و نسيم الصيف الرقيق يلفح وجهي .. وقفت أتأمل الشارع الفسيح الطويل الممتد بامتداد ثكنات الجيش وقواتنا تتدفق إليه من مصر الجديدة ومنشية البكري و تتجه إلي قلب القاهرة .. المدفعية - والمشاة - والدبابات . .

كل شيء هادىء في ساعات الصباح المبكر ولكن الثورة قد بدأت .

أخيرا تحقق الحلم الذي عشت به وله سنوات عمرى ... تحول إلي حقيقة ..

يزخر بها صدري .. تستولي علي كياني ... فيتضاءل إلي جانبها هذا الكيان ..

كل شيء في الواقع يتضاءل .. يصبح وهما .. إلا هي .. الحقيقة الوحيدة .. شامخة مهيبة تحجب الرؤية عن كل ما عداها ..

هكذا كانت فرحتي بها .. أكبر وأجمل من أن أتحملها وحدي .. ولذلك ما أن طلع صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتي هرعت إلي الإذاعة أعلن ميلاد الثورة ليشاركني الناس ما أنا فيه من سعادة ..

العجلة تدور .. لا تتوقف لحظة .. هذا أمر لا مفر منه ، ولكن المهم أن نديرها نحن .. نتحكم فيها .. نوجهها الوجهة السليمة .. وهذا ما فعلناه ، أو علي الأقل فعلنا كل ما بوسعنا لكي نحققه .

قبل أن أعلن قيام الثورة ، وفي فجر ليلة ٢٣ يوليو ، فكرنا في الاتصال بالأمريكان لنعطيهم فكرة عن أهداف الثورة وطبيعتها .. فقد كانت صورة أمريكا في أذهاننا مقترنة بحماية الحرية ومناصرة حركات التحرر .. وكنا نهدف من هذا الاتصال أيضا إلي تحييد الإنجليز .. ولكن كيف نتصل ونحن لا نعرف أحداً بالسفارة الأمريكية ؟ هدانا البحث إلي ضابط مسئول عن مخابرات الطيران اسمه علي صبرى ، وكان في ذلك الوقت صديقاً للملحق العسكري الأمريكى .. فأرسلنا في طلبه وحملناه رسالة إلي صديقه .. الذي نقلها بدوره إلي مستر كافري السفير الأمريكي في ساعة مبكرة من صباح ٢٣ يوليو .. اعتبر السفير الأمريكى كافري هذا لفتة طيبة منا وخاصة أنه كان صديقاً شخصية لفاروق أو هكذا كان يعتبره الملك ، وبالفعل كان اتصالنا به بداية علاقة طيبة بيننا وبينه .. حتي أنه في الوقت الذي كان فيه الإنجليز يبذلون كل جهدهم لمعرفة من هم رجال الثورة ، كان السفير الأمريكي قد دعانا إلي العشاء في بيته بالسفارة ، فلبينا جميعا دعوته .. أعضاء مجلس الثورة جميعاً ..

كان من الواضح أن البلاد كانت مهيئة للثورة ، فقد فقدت الناس ثقها في الأحزاب ، أما بالنسبة لشعور الشعب نحو الملك والإنجليز فقد بلغ قمة والكراهية .. ولذلك التفت الجماهير حول دباباتنا في كل مكان ترقص وتغني وهي في قمة السعادة .

كان علينا أن نواجه مسئولياتنا وأولها تكليف وزارة بإدارة شئون البلاد - ولكن من يكون رئيسها ؟

بعد مناقشة لم تدم طويلا، اتفقنا جميعا علي أن أصلح الموجودين هو علي ماهر باشا ، فهو بعيد عن الأحزاب ثم إنه معروف بالحسم.

« يا أنور » خاطبني جمال عبد الناصر قائلا : « دانت طول عمرك بتشتغل بالسياسة ، روح شوف لنا علي ماهر وكلفه علشان يشكل الوزارة » .

لم أكن أعرف بيت علي ماهر ، ولكن حدث أن إحسان عبد القدوس وهو صحفي مهد بحملاته الصحفية لقيام الثورة وصديق عملت معه في الصحافة كان قد أتي لزيارتي في القيادة ، ولما كان يعرف بيت علي ماهر توجهنا معا إليه .

استقبلنا علي ماهر بترحاب ، وجلسنا في شرفة الدور الثاني حيث كانت حرارة الجو محتملة بعض الشيء .. أبلغته بتكليف مجلس قيادة الثورة له برئاسة الوزارة .. اضطرب ولم يقل شيئا .. فهمت أنه محرج فالتكليف يأتي من الملك .. ثم إنه ليس واثقاً من أن حركتنا سيكتب لها النجاح ، قلت له إننا قد سيطرنا علي الموقف تماما .. وأثناء حديثنا مرت في الجو أربع قاذفات قنابل علي ارتفاع منخفض .. فسألني إذا كانت الطائرات تابعة لنا.. قلت « نعم ، ألم أقل لك إنا سيطرنا علي كل شيء ؟ منذ الفجر والقوات المسلحة في أيدينا ... وكذلك جميع المرافق الحيوية .. كل شيء أصبح في أيدينا .. نحن نطلب منك أن ترأس الوزارة .. هذا أمر مجلس قيادة الثورة الذي هو صاحب الكلمة الوحيدة في مصر الآن ». سألني ماذا سنصنع بالملك .. قلت له إنه حر يتصرف كما يشاء ، وعلي ضوء تصرفاته سنعامله .. في هذه اللحظة دق جرس التليفون في الحجرة المجاورة وتغيب علي ماهر بضع دقائق ثم عاد ليقول إن الملك قد اتصل به و إنه موافق علي تعيينه رئيس وزراء وسيستقبله مساء نفس اليوم بالإسكندرية ..« مبروك » قلت له وعدت إلي إخواني بالقيادة أبلغهم ما تم .

لقد كلفنا هذا السياسي بتشكيل الوزارة بدلا من أن نشكل وزارة من العسكريين لأننا لم نعد أنفسنا لتولي الحكم وكان هدفنا هو تطهير الحياة السياسية وإقصاء الملك والأحزاب والإنجليز

إلي هنا كنا قد كسبنا الجولة الأولي ، لكن ما زالت هناك جولات أخري أولها انتقال قوات عسكرية من القاهرة إلي الإسكندرية فقد كان الملك يقضي الصيف بها كعادته رسميا ، ولكن لكي يتم هذا لابد لنا من بعض

الوقت ، ولم يكن أمامنا من سبيل إلي هذا سوي أن نصطنع بعض المطالب من الملك ... كسباً للوقت أولا ولكي لا يشك في حقيقة نوايانا نحوه ثانيا ... فاتصلنا بعلي ماهر نطلب منه انتظارنا قبل سفره بعد ظهر ٢٣ يوليو لمقابلة الملك حتي يحمل مطالبنا إلي الملك .

كان مطلبنا الحقيقي الوحيد هو رحيل الملك عن البلاد . ولكن كان علينا أن نخفي هذا إلي أن يتم انتقال قواتنا إلي الإسكندرية في هدوء .. وبناء عليه اصطنعنا بعض المطالب التافهة - ست مطالب علي ما أذكر .. وذهبنا بها أنا وعبد الناصر ، إلي علي ماهر وسلمناها له ، وسافر الرجل إلي الإسكندرية بعد ظهر ذلك اليوم ليقابل الملك .

وفي الليل اتصل بي علي ماهر من الإسكندرية وقال إن الملك قد قبل طلباتكم كلها !.. وأسقط في يدنا فقد كنا نعتقد أن الحوار سيبدأ .. وبناء عليه فهو يري - أي علي ماهر رئيس الوزارة الذي فرضناه علي الملك - أن يحضر إلي الإسكندرية اثنان من مجلس قيادة الثورة ليسجلا اسميهما في دفتر التشريفات ..

«شكرا للملك علي الاستجابة إلي مطالب الجيش » قلت له : « سأدرس الموضوع مع زملائي »

جهزنا القوات يوم ٢٤ وفي صباح 25 يوليو بدأت تتحرك .. علي الملك فأبلغ علي ماهر الذي اتصل بي ليستفسر .. فقلت له إن هذه القوات قادمة إلي الإسكندرية لتأمين المرافق كما فعلنا في القاهرة .. ولا داعي للقلق ثم إني شخصياً سأحضر إلي الإسكندرية في المساء لتنفيذ ما اتفقنا عليه .

عبد الناصر قال لي في ردهة القيادة العامة للقوات المسلحة : « اسمع يا أنور خلصنا بقي من الجدع دا بسرعة .. اديله إنذار ومشيه .. عاوزين نخلص منه بسرعة علشان تستقر الأوضاع في البلد ». قلت له « طيب ». أثناء حديثنا مر بنا محمد نجيب فلما علم بموضوع الحديث طلب منا أن يذهب معي .. ووافقنا . أخذت مع محمد نجيب طائرة عسكرية من طراز دوف (Dove) صغيرة أوصلتنا إلي مطار النزهة بالإسكندرية ومن هناك توجهنا إلي بولكلي ، وهو مقر رئيس الوزراء

الصيني في الاسكندرية ، حيث دخلنا علي رئيس الوزراء علي ماهر .. وجدته مضطرباً بسبب القوات المتجهة إلي الإسكندرية .. طمأنت باله ، كما فعلت من قبل ، وأكدت له أن الغرض من القوات هو تأمين المرافق والأهالي والممتلكات .. خاصة و في الاسكندرية كثير من الأجانب ، فقد يفتعل بعضهم أشياء تعرض البلاد للخطر وبالذات كنا نحسب حساب أي عمل من جانب المخابرات البريطانية ..

عند خروجي وجدت مقر رئيس الوزراء مليئاً بالصحفيين من جميع الجنسيات ، الكل يهرع إلي متسائلا عن آخر الأخبار . فقلت لهم ، لا جديد ، وسوف ألتقي برئيس الوزراء مرة ثانية في السادسة مساء .

لا أعلم إذا كان من حسن حظي أو العكس ، أنني كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي كتبت عليه مواجهة جميع الأحداث ، منذ إعلاني قيام الثورة إلي خروج الملك من مصر . فقد تسبب هذا في خلق حساسيات كثيرة بيني وبين زملائي في مجلس قيادة الثورة خاصة وأنني كنت الاسم الوحيد المعروف بينهم لدي الجماهير نتيجة لنضالي السياسي الطويل وبعد أن خلقت منى الصحف والمجلات بطلا أسطورياً في قضية مقتل أمين عثمان .

لم أتنبه إلي هذه الحساسيات في بادىء الأمر ، فقد كنت أقوم بكل ما أفعله في عفوية وبفرحة مَن بدأ عملا كبيراً .. لا يهمه إلا أن يكتمل ، بصرف النظر عن شخصه أو أي شخص آخر .. هكذا كنت أري الأمور ، واتصرف وفقا لما أراه .. ولكن بعد ذلك عانيت الكثير من هذه الحساسيات التي لم يكن لي يد في إيجادها ، بل ولم أكن حتي علي وعي بها ولكن هكذا شاءت الظروف .

لا أعرف ما الذي عاد بذاكرتي إلي تلك الحساسيات ، فمن المؤكد أنها لم تترك أي أثر في نفسي حتي عندما تبينتها وأصبحت واضحة لي كل الوضوح ، ولكن من المؤكد أيضا أنها أثرت علي الآخرين بما كان يمكن أن يجعل الموقف يتفجر أكثر من مرة فيفسد العمل الجميل الذي قمنا به .. ولذلك أعتقد أننا ينبغي أن نشيء أبناءنا علي استبعاد الذاتية في كل ما يفعلون لتحل محلها الموضوعية الخالصة .

فليس المهم أن أكون أنا أو غيري الذي بني البيت ، الأهم من هذا كله ..
بل الشيء الوحيد المهم أن يوضع حجر أساس البيت وأن يكتمل بناؤه .

بعد أن تركت علي ماهر ، توجهت إلي قشلاق مصطفي باشا مقر قيادة القوات العسكرية بالاسكندرية ، حيث كان زكريا محي الدين .. كان جزء من قواتنا قد وصل والباقي في الطريق .. ولكن زكريا أخبرني أنه لن يكون مستعداً لمحاصرة قصر رأس التين وقصور الملك الأخري قبل أن نوجه له الإنذار إلا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ٢6 يوليو ، إذ أن الجنود بعد هذه الرحلة الشاقة من القاهرة إلي الاسكندرية ، لابد لهم من تناول وجبة ساخنة ، ثم إنه لن يكتمل وصولهم قبل الساعة السادسة مساء ٢5 يوليو ، وهو الميعاد الذي حددته لمقابلة علي ماهر ، وإبلاغه بإنذار مجلس القيادة .

لم يكن هناك مفر من التأجيل ، فاتصلت بعلي ماهر ، وطلبت منه تأجيل ميعادنا إلي الساعة التاسعة صباح ٢6 يوليو .. ولكن قبل أن يتم اللقاء كان زكريا قد حاصر بالجزء الأكبر من قواته مقر الملك حينذاك وهو قصر رأس التين حيث قامت معركة بين القوات وبين الحرس الملكي .. أصيب فيها عدد من الحرس .. انزعج الملك .. فسحب قوات الحرس ، واتصل بعلي ماهر ، كما اتصل بالسفير الأمريكي يستنجد به خوفا من القبض عليه وقتله ، ولكن كافرى كان حريصاً فأرسل له سكرتيره الخاص خوفا من خلق حساسية معنا ولمعرفته أن الملك مكروه وأنه قد خسر المعركة ..

في التاسعة من صباح ٢6 يوليو ، اتجهت ومعي اللواء محمد نجيب إلي بولكلي ، كان في البهو المؤدي إلي حجرة رئيس الوزراء عدد ضخم من الصحفيين والكل يتطلع إلي ويسأل ما الأخبار ؟ وفجأة تقدم مني رجل عرفت منه أنه مستشار السفارة الأمريكية . وسألني وهو في حالة انفعال لماذا حاصرت قواتنا الملك في قصر رأس التين وكيف حدث إطلاق النار ... إلخ .. نظرت إليه بلا مبالاة ، وقلت له إن هذا ليس من شأنه فانسحب ، وتقدم مني رجل آخر.. مصري هذه المرة .. وهمس في أذني « حاجة مهمة يا فندم ... الدكتور يوسف رشاد علي التليفون ويلح أنه يكلمك قبل ما تدخل عند علي ماهر» .

كان واضحا أن الملك يريد أن يطمئن ، وأنه كان ما زال يعتقد أني كصديق ليوسف رشاد يمكنني مساعدته ، فالتفت إلي الرجل وقلت :

« قل ليوسف رشاد ينتظر .. العجلة دارت ولن تعود مرة أخري إلي الوراء » .

لقد كان الدكتور يوسف رشاد صديقا عزيزا استخدمته في تضليل الملك ولذلك ولأن الأمر أكبر من الصداقة وهو مصلحة الوطن فقد رفضت أن أكلمه إلا بعد أن تنهي معركة التخلص من الملك .

أما بعد خروج الملك وبعد أن أصبح كل شيء في أيدينا فيوسف رشاد بالنسبة إلي هو الصديق الذي أحبه وأحفظ له وقوفه إلي جانبي في ساعة الشدة ، ولذلك فإنه بعد التخلص من الملك وحين طلب مني مجلس قيادة الثورة اعتقال يوسف رشاد ، فوجىء مجلس قيادة الثورة بي وأنا أدخل الإجتماع ، أحمل في يدي حقيبة ملابسي .. وأقول لهم « يوسف رشاد هذا الذي تتكلمون عنه أنا فعلت معه كذا وكذا وكذا ... عبد الناصر يعلم كل التفاصيل ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد فيجب أن تعتقلوني معه .. وأنا علي أتم استعداد لذلك كما ترون .. فمعي حقيبة ملابسي .. فهذا أمر خلقي ومبدئي بالنسبة لى» .. ولم يعتقل يوسف رشاد و تركوه وشأنه إلي أن مات .

بعد أن دخلنا حجرة علي ماهر .. لم أضيع وقتا ففتحت الحقيبة التي في يدي ، وأخرجت منها الإنذار الموجه من مجلس قيادة الثورة - وهو بخط يدي - إلي الملك وبدأت أقرؤه ، طلبنا فيه مغادرة الملك للأراضي المصرية في الساعة السادسة مساء يوم 26 يوليو ١٩٥٢ ، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسئولية كاملة .

كانت الصدمة واضحة علي وجه رئيس الوزراء ، ولكنه أفاق منها بعد لحظات ، وأخذ الإنذار ليبلغه إلي الملك .

وفي العاشرة والنصف أي بعد ساعة ونصف من تسليم الإنذار اتصل بي علي ماهر رئيس الوزراء من مقره في بولكي بعد عودته من مقابلة الملك ، وأبلغني أن الملك قد قبل الإنذار ورجاني أن ألحق به في مكتبه

للاتفاق علي صيغة التنازل . فقد كان مطلبنا في الإنذار أن يتنازل الملك عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد .

ذهبت إلي مكتب علي ماهر مع أحد الزملاء ، المرحوم جمال سالم ، حيث اطلعنا علي صيغة التنازل ، وفيها أن يوضع الأمير أحمد فؤاد تحت الوصاية ، فقد كان في ذلك الوقت طفلا صغيرة .. ووافقنا علي الصيغة ، ثم أرسلناها إلي الملك . فوقعها وعلي الفور اتصلت بقائد المحروسة يخت الملك الخاص وطلبت إعداده للابحار بالملك و أسرته في السادسة مساء علي أن يعود اليخت إلي مصر بمجرد أن ينتهي من مهمته .

في قشلاق مصطفي باشا جلست مع إخواني في القيادة ممن كانوا معي في الاسكندرية ، نتلقي التهاني من مواكب رجال الأحزاب وكبار البشوات والباكوات والإقطاعيين فإذا بنا نفاجأ بطلب المقابلة من القائم بالأعمال البريطاني وفي صحبته الملحق العسكري في السفارة البريطانية وطبعا كان الملحق العسكري يرتدي زيا رسميا علي طريقة مواكب الإمبراطورية القديمة التي كانوا يرهبون بها المستعمرات ، وكان السفير البريطاني في إجازة .. استقبلناهما .. قدم القائم بالأعمال لنا مذكرة ، فحواها أنهم باعتبارهم أصدقاء لنا ، فهم يطلبون معرفة موقف الثورة من أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية ، ويطلبون كذلك فرض حظر التجول حماية لأرواح الأجانب .

كان هذا أول اصطدام لنا مع الإنجليز بعد الثورة ، فقلت هذه فرصة لكي نلقهم درسا كنا نتوق إليه طوال عمرنا .. التفت إلي الرجلين وقلت - :

البند الأول ، أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية .. ما دخلكم أنتم في هذا ؟ هل هي أسرة إنجليزية، أمركم غريب والله ! أما عن حماية الأجانب، فيجب أن تعلموا أن هذه بلدنا .. وأنه منذ اليوم لا أحد مسئول عنها إلا نحن .. ونحن فقط .. أفهمتم ؟

ثم إننا نريد أن نعرف .. بأيه صفة تقولون هذا الكلام ؟ هل هي صفة رسمية ؟ إذا كان الأمر كذلك فنحن نريد كلامكم مكتوبا وموجها من الحكومة البريطانية حتي نستطيع أن نتخذ موقفا من حكومتكم .

تراجع القائم بالأعمال البريطاني علي الفور وقال إن الورقة التي قرأ منها الكلام ، ورقة عادية وإن حكومته لا تعرف شيئا عنها أو عن زيارته لنا ، وإنه قد أتي إلينا كصديق فقط ، وليس بأية صفة أخري ، ورجاني أن أعتبر الزيارة كأن لم تكن .. باختصار انسحب بكل الأساليب الناعمة التي يمكن تصورها .

بمجرد خروجه ، أبلغت إخواني في القيادة بالقاهرة بأن أول احتكاك لنا مع بريطانيا قد وقع في الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢6 يوليو ، وأنه انتهي بانسحاب بريطانيا وتراجعها تراجعا كاملا .

اتصلت بعد ذلك بالميناء ، فعرفت أن كل شيء علي ما يرام بالنسبة لليخت المحروسة ، واجراءات خروج الملك علي ظهرها - أصدرت أوامري لمدفعية السواحل بعدم التعرض للمحروسة ، كما أعطيت تعليماتى لسلاح الطيران بتجهيز بعض الطائرات لتحية الملك أثناء مبارحته المياه المصرية .

وهكذا في السادسة من مساء ٢6 يوليو ١٩٥٢ ، غادر الملك فاروق الأراضي المصرية .. وكان في وداعه من رجال الثورة علي اليخت محمد نجيب وجمال سالم وحسين الشافعي . أما أنا فقد وقفت علي ظهر البارجة إبراهيم في الميناء ، أكبر قطعة بحرية عندنا في ذلك الوقت .. أراقب الطائرات وهي تحوم فوق المحروسة تحي الملك مودعة .. لفتة بسيطة - هكذا قلت لنفسي - ولكنها تحمل من معاني الثقة بالنفس والكبرياء والسماحة ما يعبر عن روح مصر عبر الزمان .

الفصل الخامس: الثوار يحكمون

في مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ أي بعد خروج الملك بيوم واحد دعانا عبد الناصر - مجلس قيادة الثورة - إلي الاجتماع في القيادة .. وافتتح الاجتماع قائلا إن المرحلة الأولي من مراحل الثورة قد نجحت بخروج الملك أمس ، واليوم نحن المسئولون عن البلاد وبناء عليه يجب أن نتخذ قرارا في أمر مهم جدا ، ولكن قبل أن نتخذ هذا القرار .. يرى من واجبه أن يتنحي عن رئاسة الهيئة التأسيسية ، فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الثورة ونحن من اليوم اسمنا مجلس قيادة الثورة .

لم أري أي معني في كلام عبد الناصر ، فلماذا يستقيل ؟ وما الفرق بين رئيس الهيئة التأسيسية ومجلس قيادة الثورة ؟ لقد نجحت الثورة فماذا يهم بعد ذلك ، وما الداعي إلي تغيير الأوضاع والمسميات ؟

كان من الصعب علي في تلك المرحلة البعيدة إدراك ما يهدف إليه عبد الناصر.. بالنسبة إلي - بنجاح الثورة ودخولي مجلس قيادة الثورة - انتهي كل ما كنت أطمع فيه منذ أن كنت أستمع إلي موال زهران فوق سطح الفرن في ميت أبو الكوم وأثناء الاعتقال وبعد الفصل من القوات المسلحة وخلال سنوات السجن والجوع والتشريد .. عمر جيل بأكمله من الكفاح والحرمان في سبيل تحقيق رسالة ، لا أغالي إذا قلت إنه بدونها لم يكن في الإمكان أن يكون للحياة أي معي ..

والآن وقد تحققت الرسالة وشاركت أنا بالفعل في تحقيقها فأعلنت ميلاد الثورة وأخرجت الملك من البلاد ، وواجهت بريطانيا التي كانت تمثل عدو الشعب رقم 1، وعلمته درسا كنت أتوق إليه من زمن ، عندما أتي إلينا القائم بالأعمال البريطاني ومعه الملحق العسكري في قشلاق مصطفي باشا بالاسكندرية فأعلنت بكل وضوح و عزم وتصمم أن لا إرادة بعد اليوم إلا لمصر ، ومصر وحدها .. فماذا أريد بعد ذلك اليوم ؟ وأي شيء يهم ؟ حتي ولو لم أدخل مجلس القيادة وحتي لو لم يكن لي دور ملموس في قيام الثورة .. يكفيني أن الثورة قد قامت ونجحت فتحقق بذلك حلم حياتي ..

كانت هذه حقيقة مشاعري منذ البداية ، فالثورة قد قامت ولا يمكن أن يكون قيامها إلا لمصلحة مصر ولتحقيق قيم الخير والحق التي كنت أتوق إليها منذ الصبا .. فلتسر كما تشاء وليتخذ قادتها من القرارات ما يرون اتخاذه ، فالحصيلة في النهاية هي خير مصر والمصريين .

ولذلك دهشت عندما تقدم عبد الناصر باقتراحه بالتنحي واعترضت عليه ، ولكنه ألح وصمم علي أن يوضع اقتراحه موضع التنفيذ . وفعلا أعدنا انتخابه بالاجماع رئيسا لمجلس قيادة الثورة .. لم يكن عهدي بعبد الناصر أن يقول أو يفعل أي شيء اعتباطا ، فلماذا فعل ما فعل ؟ لم يكن عبد الناصر بالرجل الذي يمكن وصفه بالمثالية .. بل كان في الحقيقة عملياً إلي أقصي حد.. كثير الشك .. به مرارة تجعله يلتزم الحذر في كل خطواته .. فلا بد من سبب لإصراره علي تنحيه عن الرئاسة ، وإعادة انتخابه رئيسا لمجلس قيادة الثورة، وهنا تذكرت بعض الصراعات التي قامت بينه و بين بعض أعضاء الهيئة التأسيسية .. صراعات علي السلطة بطبيعة الحال .. ولكن بعد أن قامت الثورة لماذا الصراع ؟ سألت نفسي هذا السؤال أكثر من مرة إلي أن اهتديت لا إلي الحل - بل إلي طريق لإدراك ما يدور حولي .. لقد جاءت الثورة بالنسبة إلي بصورة تختلف اختلافا كلياً عما حدث لهم جميعا .. فالثورة بالنسبة إلي ومعذرة للتكرار ، كانت ثمرة كفاح عمر بأكمله ، ولذلك فبحكم ما أدين به من قيم ومثل ، ما أن نجحت الثورة حتي أصبحت لا أريد أي شيء، وأصبح أي شيء في نظري يساوي أي شيء آخر .. ولذلك كنت دائما أقف بعيدا عن أية معركة تدور بينهم ، وكان تفسيرهم لسلوكي هذا أني عديم الاهتمام والمبالاة بكل شيء، غير قادر علي البت في الأمور .. ولم يخطر علي بالهم أني أبتعد ترفع لا عجزاً.. وامتلاء بذاتي لا خواء ولا خوفا .. بل حرصا علي الثورة .. وحرصا علي أن تظل المجموعة مترابطة لأن هذا لابد أن ينعكس علي البلاد .. وتعالياً علي صغائر الأمور وفي مقدمتها السلطة .. واقتناعا مني بأننا ما دمنا قد صنعنا الثورة فلا شيء يهم بعد ذلك .. أما هم أي زملائي من أعضاء مجلس قيادة الثورة فمجموعة من الضباط الشباب كانوا منذ ثلاثة أيام فقط يجلسون إلي مكاتبهم في القاهرة كما يجلس الكثيرون غيرهم من أفراد القوات المسلحة، لم يعرفوا الجوع أو التشرد ، لم يتعرضوا للسجن

والاعتقال .. لم يعانوا مرارة الأمل واللهفة و الإحباط .. ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم يتنقلون فجأة من مكانهم ومراكزهم في الجيش إلي مركز السيادة ، فهم وحدهم يحكمون مصر بلا منازع ولا منافس ، ومن ثم كان الصراع علي السلطة ، وهو الشيء الذي لم يخطر ببالي في أي وقت من الأوقات .. ولذلك تجد كل أفعالي طوال مدة قيام مجلس قيادة الثورة ، وبعد ذلك ، بمنأى عن هذا النزاع ، أي الصراع أو الرغبة في السلطة أو المزاحمة علي المناصب . .

لو لم أر هذا بنفسي لما صدقته .. ولكن لم يكن الأمر كذلك مع عبد الناصر ، فقد كان علي وعي كامل بالصراع علي السلطة ، وكان يعد لكل أمر عدته ، فبعد أن اطمأن إلي انتخابنا له رئيسا لمجلس قيادة الثورة ، طرح علينا أمرا وصفه بأنه في غاية الأهمية ، وهو الاختيار بين حكم البلاد عن طريق الديمقراطية أو طريق الديكتاتورية .

ما هذا الذي يفعله عبد الناصر ؟ هل فقد عقله أم ماذا ؟ قلت في نفسي .. فقد كنت علي ثقة من أننا جميعا بل والشعب الذي أيد الثورة بهدير رهيب وأولنا عبد الناصر قد كفرنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعته بنا و بالبلاد ديمقراطية الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك و للإنجليز .. ثم إنا جميعا ضباط ، وقد تعودنا في العسكرية سرعة الإنجاز .. هذا إلي جانب الهدف الرئيسي الذي قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد في أسرع وقت .

طرح الموضوع للمناقشة ، وللحقيقة والتاريخ أصر جمال عبد الناصر علي رفض طريق الديكتاتورية لأنه كما وصفه هو طريق الدم ، والعمل الذي يبدأ بدم لابد أن ينتهي بدم .. وقال إنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان الحزبي القديم وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرفض المطلق لها من جانب الشعب ، علي أن نلجأ إلي أسلوب الديكتاتورية .. فكيف نخرج البلاد من ديكتاتورية الأحزاب لندخلها في ديكتاتوريتنا ؟

هذا إلي أن الأحزاب كانت تخاف من الملك و من الإنجليز .. أما نحن فلنا الآن مطلق السيادة ، ولن نخاف من أحد..

تكلم الجميع وربما كنت أنا أكثر هم حماسة ، فقد كان دفاعى من منطلق الحرص علي مصلحة مصر ، فالشيء الذي ننجزه بالطريق الديمقراطي في سنة يمكن انجازه عن طريق الديكتاتورية في يوم .. ولم يخطر ببالي مطلقاً في تلك اللحظات أن المسألة كلها ليست إلا اختبار للقوة من جانب عبد الناصر فهو يهدف في بداية رئاسته للمجلس إلي أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار .

احتدم الصراع وشعرت أننا سوف نواجه انقساما يضرب وحدتنا فتدخلت ، وبدأت ألخص الكلام الذي قيل بهدف تمييع الموقف ، وإذا بعبد الناصر يقاطعني بحدة وعنف قائلا : -

- أنت قاعد تلخص كلام الأعضاء وتتكلم كلاما لا معني له .. وتتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة .. ما هذا الذي تفعله؟

قلت له مندهشاً : « يا جمال أنا آسف .. أنا بأحاول أجد حل وسط .. أنا لا رئيس مجلس قيادة ثورة ولا شيء من هذا القبيل ..

وأخذت الأصوات فكانت النتيجة ٧ ضد واحد هو عبد الناصر .. سبعة أصوات منا مع الديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر .

عندها وقف محتجا وقال في حدة : -

« أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذي هو قرار الديكتاتورية .. هذا طريق خطر علي الثورة و علي البلاد ، وأنا مستقيل من جميع مناصبي ».

وبرغم إعادة فتح باب المناقشة للمرة الثانية وأخذ الأصوات في نهايتها فإن النتيجة لم تتغير سبعة للديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر وجمع جمال أوراقه وأعلن استقالته من جميع مناصبه متمنيا لنا التوفيق ولكنه كما قال طريق خطر علي البلاد سيثبت لنا خطوءه وغادر القاعة إلي منزله في الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو ١٩٥٢ وأسقط في يدنا جميعا بعد انصراف جمال ونحن حول منضدة الاجتماع ورانت فترة من الصمت .. .

ثم بدأت المناقشة هذه المرة بدون جمال وتغلبت روح الوحدة علي روح الصراع والإنقسام خاصة وأن جمال كان الدينامو الذي لم نتصور أبدأ

أن يبدأ العمل في إعادة البناء بدونه واتخذنا في نهاية المناقشة قرارا بأن يعود جمال ولنا فيه كل الثقة وذهب إليه في منزله اثنان منا ليبلغوه .. وفي الفجر عاد جمال منتصراً .. بتفويض منا .. وكان قراراً تاريخياً مهما اختلفت الآراء عليه .

كان أول قرار اتخذناه لتطبيق الديمقراطية هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وأصدر مجلس الثورة قانون تنظيم الأحزاب ثم طلبنا من الأحزاب القديمة أن توافق علي قانون الإصلاح الزراعي الذي هو مبدأ أساسي من مبادىء الثورة .. فبه وحده سوف يتغير هيكل المجتمع.. وهذا ما كنا نبغيه ..

وأصدر مجلس الثورة أيضا في نفس الوقت قرارا بإجراء الانتخابات العامة في فبراير ١٩٥٣ أي بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة وحينما هاجم علي ماهر - رئيس وزراء الثورة الذي فرضناه علي الملك - عندما هاجم الأحزاب في بيان لم يذكر فيه تاريخ الإنتخابات الذي حددناه في مجلس الثورة أي فبراير سنة 1953 أوقفنا مطابع الصحف و أصدرنا بيانا من مجلس الثورة يؤكد التزامنا بإجراء الانتخابات الديمقراطية في فبراير سنة ١٩٥٣ .

وكانت صفعة لرئيس الوزراء .

بالنسبة لتطهير الأحزاب فقد استغلت الأحزاب الفرصة فقام الأقوياء في كل حزب بطرد الضعفاء ، واعتبروا أن هذا هو التطهير المطلوب .. كانت طبعاً مسألة شكلية بحتة .. أما بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعي .. فقد رفضته الأحزاب جميعا كما رفضه علي ماهر رئيس الوزراء في أول حكومة للثورة

لم يكن هناك مفر من اتخاذ إجراءات جديدة وخاصة بعد أن صدر قانون تنظم الأحزاب .. ماذا كانت النتيجة ؟ تقدمت الأحزاب القديمة طبعاً وتقدم معها ٢١ طلب بتكوين أحزاب جديدة .. في نفس الوقت وبعد ثلاثة أسابيع من قيام الثورة كانت الصراعات داخل مجلس القيادة قد بلغت حدا يحتم ضم عناصر جديدة ومحايدة إلي المجلس عسي أن يخفف ذلك من حدة الصراع .. وفعلا ضممنا إلي المجلس خمسة أعضاء كان علي رأسهم محمد نجيب الذي عهدنا إليه برئاسة مجلس قيادة الثورة كطلب جمال نظرا لأنه كان أكبرنا سناً فأصبح أعضاء المجلس 14 وهو أكبر رقم وصل إليه .

كان من الواضح أننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولي الحكم - كانت أقصي أمانينا أن تنجح ثورتنا وأن تطهر الأحزاب نفسها وأن تقوم في مصر حياة ديمقراطية نظيفة وشريفة وأن يتولي زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم القديم في أسلوب العمل وفي نظرته إلي الأشياء ، أما نحن كجيش فنجلس في الخلفية ، نراقب سير الأمور إلي أن تصل البلاد إلي بر الأمان وتؤصل الحرية والاستقلال .. فلا ملك ولا مستعمر بعد الآن..

لم تكن الوزارات مطمعنا فنحن لم نعد أنفسنا لها بل ولم نعد برنامج حكم معين ، ولكن رغم هذا كله حدث أننا في أحد اجتماعاتنا قلنا لقد آن الأوان لكي نوزع أنفسنا لمتابعة أعمال الوزارات بمعني أن يصبح كل واحد منا مسئولا عن وزارة أو مجموعة وزارات لكي نعطي للعمل دفعة جديدة ..

كل واحد بدأ يتكلم ويستعرض قدراته بالنسبة لهذه الوزارة أو تلك .. إلي أن أتي دوري فقلت : - «لا أعتقد أني بحاجة إلي وزارة - فأنا لا أفهم إلا في السياسة ..»

وسألني صلاح سالم متهكما : - وما هي السياسة التي تفهم فيها ؟ قلت : - « أنا أقصد بالسياسة .. كيف نوصل مصر من أقصر وأسرع طريق إلي أمانينا .. وأن نكتب لمصر تاريخا جديداً .. هذه هي السياسة في عرفي ».

ما أن قلت هذا ، حتي خيل إلي أني ارتكبت جريمة ، فقد هاجمني صلاح سالم علي الفور و اشترك معه بعض الحاضرين وعلي رأسهم عبد الناصر .. لم يهمني هجوم صلاح سالم فقد كان معروفاً بحب الظهور والتهجم ، ولكن هالني أن ينضم إليه عبد الناصر وهو من كان يربطى به رباط من الاحترام المتبادل منذ أن كان عمرنا تسعة عشر عاما .. لم أجد مبرراً لهذا الهجوم المفاجئ ، فقد فعلت ما في وسعي منذ قيام الثورة وقبل ذلك للحفاظ علي عبد الناصر ، مهما كلفني الأمر.. فيم إذن هذا الهجوم والتهكم والسخرية وكأننى دخيل يريد أن يسلبهم حقوقهم أو غريب يتكلم لغة غير لغتهم ..؟

حزنت لا لنفسي .. ولكن لعبد الناصر ولهم ... ومنذ تلك اللحظة انسحبت إلي نافذة عالية أطل منها عليهم وأضحك علي صراعاتهم .. ففيم يتصارعون ؟ سألت نفسي أكثر من مرة إلي أن تكشف لي أننا لسنا إلا بشر ، وبشر من المرتبة العادية .. ولكن هذا الاكتشاف لم يمنعني من أن أفضل أي واحد فيهم علي نفسي لا لشيء إلا انطلاقا من مفهوم الصداقة ومفهوم العمل الذي قمنا به مجتمعين من أجل الملايين .. ولكن مهما حاولت أن أذيب ذاتي في ذاتهم مهتدياً بالقيم والمثل العليا التي نشأت عليها .. ظل السؤال حائراً في رأسي .. فيم الهجوم علي ومن عبد الناصر بالذات ؟ وفيم ارتياح الآخرين لهذا الهجوم ؟ لم أستطع أن أجد الإجابة في ذلك الوقت ولو أني أدركتها فيما بعد.. فعندما قامت الثورة وفي أيامها الأولي لم يكن الشعب يعرف أحد من رجالها سوي أنور السادات بطل قضية أمين عثمان كما صورته الصحف ووسائل الإعلام وحكت قصة نضاله الوطني الطويل ..

ولكن هل كانت مراحل الكفاح التي مررت بها جريمة استحق عليها أن يعاقبنى عبد الناصر وبعض الآخرين عليها ؟

لم أكن قد عرفت بعد كل جوانب شخصية عبد الناصر .. فقد كان حبي له بيحجب الحقيقة عن عيني ، ثم إنه من المعتاد أن نحكم علي غيرنا بما جبلنا عليه من طبائع وخصال ..

أنا مثلا أثق في كل إنسان إلي أن يثبت العكس ، أما عبد الناصر فقد اكتشفت فيما بعد أنه يشك في كل إنسان وفي كل شيء إلي أن يثبت العكس و في ظروف حياتنا المعقدة هذه قليلا ما يثبت العكس .. .

أنا أكتب هذا الكلام الآن بعد تجارب سنوات وسنوات ، أما في تلك المرحلة المبكرة فلم يكن من السهل علي أن أتقبل أو أتصور أن يشك جمال في وأنا الوحيد الذي لم يدخل معه معركة .. أو يطلب شيئا لنفسه .. ولذلك فبعد أن حدث ما حدث وفي الأيام الأولي للثورة دخلت برجا بعيدا وعشت فيه .. أراقبهم عن بعد فإذا قام خلاف بينهم أحاول الاصلاح ، وإذا لم يكن هناك خلاف فكل شيء يتساوي عندي مع أي شيء - حاولوا مراراً أن يعرفوا سر سلوكى هذا .. قالوا إنه ضعف

وعدم معرفة بالأمور أو عدم اهتمام ، ولكنهم لم يتوصلوا أبدا إلي الحقيقة.

لقد اكتشفت ذاتي داخل الزنزانة رقم 54 في سجن مصر العمومي ومن يومها عرفت أن نفسي أكبر من كل المراكز والمناصب والألقاب .. ففيم الدهشة إذن لابتعادي عن هذه الصراعات البشرية ؟.

إن ليلة ٢٢ - ٢٣ يوليو قد حققت كل آمالي .. فوجدت فيها نفسي .. وإذا ما وجد الإنسان نفسه فماذا يريد من الحياة بعد ذلك ؟

في 9 سبتمبر سنة 1952 ، كانت الصورة قد اتضحت أمامنا .. فقانون الإصلاح الزراعي مرفوض من رئيس وزراء الثورة علي ماهر ومن الأحزاب جميعاً .. وتطهير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط .. يجب إذن أن نتولي السلطة .. وهذا فعلا ما كان .. فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلي علي ماهر في مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء وقلنا له شكرا.. لقد أديت مهمتك علي أحسن وجه .. فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيسا للوزارة علي أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين .. هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة ..

كان الأصل في تعيين محمد نجيب رئيسا لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظرا لأننا جميعا من أعمار متقاربة .. أما هو فيكبرنا بكثير .. ولكن للأسف فإن الذي حدث هو العكس .. فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب .. وفوجئت أنا بحملة اشاعات ضدى يقودها محمد نجيب وصلاح سالم كما أخبرني عبد الناصر في ذلك الوقت ..

لم يكن هذا بالأمر الذي يهمني أو يشغل بالي ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أي ديسمبر سنة 1952 ، فإذا بنا نفاجأ باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطة .. وهو أن الأحزاب التي كانت تصارع علي الحكم بالتقرب إلي الملك تارة وإلي الإنجليز تارة أخري أو إلي الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة في الأيام الثلاثة الأولي لها قد عزلت الملك وعزلت أيضا في نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيدة وأصبحت سلطة السيادة في مجلس قيادة الثورة الذي يتكون من ضباط مصريين في القوات المسلحة المصرية ، أو بمعني آخر أصبحت القوات المسلحة هي مصدر السلطات فلماذا لا تحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز .؟

وعندما عرفنا ذلك في مجلس قيادة الثورة كان لابد من مواجهة الوضع الجديد لكي نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب

ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هي للوطن .. وكان لابد من اتخاذ إجراء فوري لتأكيد هذا المعني ..

وضعنا السياسيين في المعتقل، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكموا محاكمة عسكرية ،. وفي 16 يناير 195٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بإلغاء الأحزاب ووضع السلطة التنفيذية والتشريعية في مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهي في 16 يناير سنة 1956 .

هنا بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح .. فصدر قرار من مجلس الثورة بحل الجماعة ، ولكنهم ظلوا علي نشاطهم إلي مارس 54 ثم إلي أكتوبر 54 عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية .. المهم أن الأحزاب كلها ألغيت وأخذنا سلطة السيادة ولكننا وعدنا بالدستور في نهاية الثلاث سنوات.. وقد كان .. في 16 يناير سنة 56 أعلنا الدستور المؤقت... ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتا .

وعندما تعود بي ذاكرتي إلي تلك الأيام البعيدة ، أري نفسي وأنا أكتب استقالتي من مجلس قيادة الثورة .. وأطلب جوازات سفر لي ولزوجتي لكي نعيش في لبنان.. لماذا لبنان ؟ لأني كنت أسمع أنها بلاد جميلة .. غنية بمناظرها الطبيعية ، وأنا أحب الجمال .. ويسعدني أن أعيش مع الطبيعة .. أما سبب استقالتي فقد كان محمد نجيب .. والحرب المستمرة التي أخذ يشنها علي سرا و علنا .. وبدون مبرر من جانبي علي الأقل...

وقد عرفت فيما بعد من ضباط المخابرات الذين اشتركوا في الحملة ضدى أن السبب كان ما سبق أن حكيته عن معرفة الشعب لي بسبب كفاحي القديم و تصوير ذلك لنجيب علي أنه محاولة مني للتسلق عليه وقد أزكى ذلك عنده عضو أو أكثر كما اعترف هؤلاء الضباط إلي أمام جمال عبد الناصر بعد ذلك . أنا أكره الصراعات ولا أري في الحياة شيئا يستحق أن أتصارع عليه مع زملائي .. ولكن أن يجمعنا مجلس الثورة معا أصبح بالنسبة لي أمرا لا يطاق .. في العمل ؟

لقد عينا محمد نجيب رئيسا لمجلس الوزراء كما سبق أن قلت وتنازل له جمال بعد انتخابه كما أسلفت و قدمناه للناس كرئيس مجلس قيادة الثورة ، فلا سبيل إلي التراجع وخاصة في تلك المرحلة المتقدمة .. ولذلك

فضلت أن انسحب أنا وأعيش في هدوء .. اتصل بي عبد الحكيم عامر ثم عبد الناصر الذي أقنعنى بسحب الاستقالة . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد.

نفس الشيء للأسف حدث لرشاد مهني الذي كان من ضباط المدفعية وعين أحد الأوصياء علي الأمير أحمد فؤاد ، فقد تخيل هو الآخر أنه مادام وصياً علي العرش فهو صاحب السيادة .. ولقد انضم هو الآخر إلي عملية الصراع علي السلطة وأبلغنى جمال أنه عندما قابله للتفاهم معه اشترط خروجى من مجلس الثورة كشرط أساسي قبل أي تفاهم ومرة أخري تعجبت أنا الذي لم أزاحم أحدا أو أطلب منصباً ولا دخلت صراعاً كيف تغطي بصائر الناس غشاوة إلي الحد الذي يصبح الوهم فيه حقيقة والحقيقة وهما ؟ ثم ما هو السبيل إلي إعادة الأمور إلي نصابها السليم ؟ كان لابد من أن نفعل شيئا وشيئا حاسما لا رجعة فيه .. وهذا ما فعله عبد الناصر حين دعا مجلس الثورة للانعقاد ، وفي يوم واحد من شهر مارس سنة 195٣ رقي عبد الحكيم عامر من رتبة صاغ إلي رتبة لواء وعينه قائدا عاماً للقوات المسلحة وفي نفس اليوم أعلنا الجمهورية فتخلصنا من مجلس الوصاية وصادرنا أموال العائلة المالكة وقررنا تعيين محمد نجيب رئيسا للجمهورية بعد أن أرغم علي ترك القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة ..

ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية ، ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائدا عاماً للقوات المسلحة دخل بعضنا الوزارات .

هذا كله مجتمعاً كان الحدث الأول المهم في عام 1953 وفيه نري أنه في أقل من سنة من بداية الثورة ، اتضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما اتضحت حقيقة لم أكن أنا علي الأقل أدركها من قبل .. وهي أن للحكم بريقة يمكن أن يخلب لب الثوار ويلعب برؤوسهم .. هذا أمر بشري علي ما أعتقد ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأني فالإنسان عندما يكون في دخيلة نفسه أكبر من أي شيء يصبح في غني عن كل شيء .

أحداث سنة 1953 كثيرة ومتنوعة فهي وليدة الدفعة الثورية التي هي بطبيعتها شابة فتية .. أذكر من هذه الأحداث أننا طلبنا السلاح من أمريكا ، وكان السفير الأمريكي مستر كافرى صديقا لنا - فرحب واتصل ببلاده علي الفور .. وجاءنا الرد بأن أمريكا ترحب بأن تعقد معنا اتفاقية الأمن المتبادل

Mutual Security Pact

وهي صيغة ابتكرها الأمريكان بعد الحرب العالمية الثانية ، تمكنهم من ملىء الفراغ كما كانوا يسمونه (Vacuum) أي أن يحلوا محل إنجلترا وفرنسا في البلاد التي كانت تحت نفوذ هذين البلدين ..

قرأنا الصيغة فإذا بها تنص علي أن أمريكا علي استعداد لإمدادنا بالسلاح بدون مقابل ولكن بشرط أن يصاحب السلاح عدد من الخبراء الأمريكان وألا يستعمل السلاح ضد أي حليف لأمريكا ..

رددنا الورقة للسفير الأمريكي وقلت له : شكراً... نحن نريد أن نشترى السلاح بحر مالنا ولا نريده مجانا ونرفض أيضا اتفاق الأمن المتبادل لأنه ضد استقلالنا الذي نحرص عليه كالحياة تماما .

و سايرتنا أمريكا أول الأمر ولكن من غير حماس ووافقت علي استقبال بعثة عسكرية في واشنطون للتفاوض علي شراء ما نريد من سلاح.

وكان جارحا لنا جدا أن نري الأمريكان وقد تجاهلوا البعثة تماما بعد وصولها إلي واشنطون بما لا يدع مجالا للشك في أنهم لا يريدون بيع السلاح لنا وأن الأمر لم يكن إلا مناورة فقط .

حاول الأمريكان بعد ذلك أن يقنعونا بالانضمام إلي بعض الأحلاف التي بدأها جون فوستر دالاس فيما كان يسمي بسياسة احتواء الإتحاد السوفييتي بتطويقه بأحلاف وقواعد وهي السياسة التي أطلق عليها Containment والتي بدأت بحلف الأطلنطي و امتدت إلي جنوب شرق آسيا ثم ربط حلف بغداد فيما بعد بين الإثنين . ولكننا أفهمناهم بصراحة ووضوح أن إرادتنا قد تحررت منذ قيام الثورة وأصبحت

مصرية وحرة ١٠٠ ٪ولذلك فلا مجال للكلام عن قاعدة أو الانضمام إلي أحلاف .

كانت ميزانية مصر في ذلك الوقت ٢٠٠ مليون جنيه وهي اليوم ٥٠٠٠ مليون ، ومع ذلك فقد كان وضعنا الإقتصادي لا بأس به .. فبعد رفض الأمريكان لنا ، اتصلنا بالسوفييت في أوائل عام 1953 وكان ستالين في مرض الموت وقتذاك ولكنهم رفضوا هم أيضا بدورهم ، لأن مبادىء ستالين كانت تمنعه من إعطاء السلاح إلا للدول الشيوعية ، ولكن حدث أن التقي شواين لاى بعبد الناصر في مؤتمر باندونج في ربيع 1955 توسط لدي السوفييت ، وبناء علي توصيته عقدت أول صفقة سلاح بيننا وبين السوفيت، وتشيكوسلوفاكيا في سبتمبر 1955 .

أذكر بهذه المناسبة أنه لما مات عبد الناصر أرسلت أنا مبعوثين إلي جميع الدول .. كان مبعوثنا إلي الصين رئيس مجلس الشعب الذي بادره شواين لاى بالسؤال : -

« تعرف مين اللي قتل عبد الناصر وهو عنده 5٢ سنة ؟ »

واحتار رئيس مجلس الشعب .. ولكن شواين لاى قال ردا علي سؤاله :

- السوفييت وهذا صحيح علي ما أعتقد.. فعبد الناصر كان يحب رقعة واسعة للمناورة .. وعندما يجدها فهو مناور ممتاز ، ولكن الذي حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب ، والعرب وإيران - ولم يبق له إلا السوفييت .. وهذا لم يعطه حرية المناورة ، خاصة وأن السوفييت عاملوه معاملة أبعد ما تكون عن الكرم أو الكرامة .. وقد كان لهذه المعاملة أثرها علي صحته .. فقد كانت دون شك من أهم العوامل التي جعلت حالته النفسية سيئة مما ساعد علي اصابته بمرض القلب ومرض السكر وهما اللذان أجهزا عليه .. طبعاً الأعمار بيد الله .. ولكن شواين لاى كان علي حق .

ولقد كان تعليق عبد الناصر علي شخصياً يوم أن عاد من رحلة استغرقت٢١ يوما في الإتحاد السوفييتي قبل موته بشهرين وكنت أسأله عما تم فقال لي بالحرف الواحد و بالإنجليزية Hopeless Case وأخذ يشرح لي كيف أنه من شدة ضيقه أعلن القادة السوفييت في نهاية

مفاوضات فاشلة أنه سيعلن قبوله في الحال المبادرة روجرز التي كانت قد أعلنت من جانب أمريكا قبل ذلك بشهر ولم يعلن عبد الناصر موقفه منها إلا علي مائدة الاجتماع في الكرملين في يوليه سنة ١٩٧٠ وقال لي عبد الناصر أن بريجينيف انفعل لهذا الإعلان وقال لعبد الناصر بغضب هل معني هذا أنك تقبل حلا أمريكيا فرد عليه عبد الناصر « بعدما فعلتموه معي فإني أقبل حلا حتي من الشيطان » .

منعا للتعارض والازدواج بين مجلس قيادة الثورة وبين مجلس الوزراء ، شكلنا ما أسميناه بالمؤتمر المشترك من الاثنين للبت في الأمور .. وقد تبدو هذه صورة مثالية ، ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فقد كان العدد كبير وأخذت المناقشات تطول وتتشعب .. كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته وفي أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا يصل إلي قرارات . وهكذا كانت تتعطل الأمور في وقت كنا فيه بحاجة إلي كل يوم وكل ساعة لإنجاز ما لدينا من مشروعات تهدف إلي اصلاح حال البلاد والانتقال بها إلي مرحلة أكثر تقدماً. وقد دعاني هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة في إحدى الاجتماعات وأشير صراحة إلي المناورات المستديمة التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتي تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا الأسلوب المعوق والبحث عن أسلوب آخر .

كانت حصيلة أراضي العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه .. أنفقناها علي بناء الوحدات المجمعة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبني ٣ مدارس كل يومين - وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بني في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذاك مجلسين ، أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات .. أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع (كيما) للسماد .. وعندما تعود بي الذاكرة إلي تلك الأيام .. أري أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر ، الزائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسية في أي وقت وبدون سابق ميعاد .. كان اسمه علي ما أذكر (دانينوس) ، وكان في كل مرة يقتحم مقرنا يتفوه بعبارات محمومة .. فحواها دائما فكرة واحدة .. وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال .

كان تمسكه بالفكره وإلحاحه عليها . والبريق الذي يشع من عينيه يوحي إلينا بأنه مجنون دون شك ، ولكن التعبير الذي كان يعلو وجهه دائما لم يدع مجالا للشك بأنه مؤمن بفكرته إيمان العابد بالله عز وجل .. مما دعانا إلي أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها .. وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يري

ابتداء أنها فكرة رائعة ، إذ أثبتت الأبحاث علي قاع النيل في تلك المنطقة صحتها وطلب لذلك الموافقة علي بدء الأبحاث مع بيوت الخبرة العالمية .

وهكذا نشأت فكرة السد العالي .. وليدة للإيمان والحماس والبصيرة .. كما تنشأ عادة كل الأفكار العظيمة .

في سنة 195٣ بدأنا أيضا إنجاز مشروع قديم ظل يتلكأ بين حكومات الأحزاب المختلفة ، وهو مشروع كهربة خزان أسوان ، الذي انتهينا منه في سنة 1960 مما أعطانا فرصة بدء السد العالي اعتمادا علي الكهربة التي زودنا بها .

ولكن لعل المشروع الذي غير وجه المجتمع المصري ، والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقية لا مجرد انقلاب عسكري .. هو مشروع الإصلاح الزراعي .. فبعد أن ترك علي ماهر الحكم في سبتمبر سنة 195٢ وتولي رئاسة الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية ب ٢٠٠ فدان . وللتاريخ فإن الذي صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعي رئيس مجلس الشعب الآن .. وكان سيد مرعي في ذلك الوقت من نجوم الحزب السعدي اللامعين ، ولكنه علي أساس هذا المشروع دخل الوزارة و ظل متابعاً له كوزير زراعة وري، وكنائب رئيس وزراء ، وهو أيضا الذي صنع لنا القانونين الثاني والثالث للإصلاح الزراعي ، وفي كل مرة كان القانون يهدف إلي المزيد من تحديد الملكية الزراعية . وبطبيعة الحال إلي المزيد من المساواة والعدالة الاجتماعية .

من الناحية السياسية ، كان لابد نتيجة حل الأحزاب ما بين 5٢ ، 195٣ ، أن ينشأ فراغ ، وكان علينا طبعا أن نملأ هذا الفراغ ، فانشأنا ما يسمي بهيئة التحرير ، وكان شعارنا الاتحاد والنظام والعمل ..ثم تلاها اتحاد قومى أول وبعد ذلك اتحاد قومى ثان . ثم اتحاد إشتراكى أول وبعده اتحاد إشتراكى ثان ، ولابد أن أقرر هنا أن هذه الصيغ كلها كانت مستعارة من يوغوسلافيا بعد أن توطدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتو، وكان عبد الناصر يمضي وقتا طويلا معه في المناقشة ويعجب بآرائه .

كانت صيغة الاتحاد القومي بمرحلتيه تشبه تماما صيغة اتحاد الاشتراكيين الذي أقامه تيتو بعد أن أنتصر في حرب التحرير بحركة البارتيزان Partisan التي جمعت كل يوغسلافيا وليس الشيوعيين وحدهم أي كل الأحزاب التي كانت قائمة في الصرب و مختلف جمهوريات يوغوسلافيا الخمسة مع بقاء عصبة الشيوعيين كنواة لهذا الاتحاد .

ثم عدل عبد الناصر بواسطة مؤتمر قومى عقد بعد انفصال سوريا والنكسة التي سببها في مصر والتي حفزت الشعب علي النقد العلني العنيف إلي صيغة الاتحاد الاشتراكي الذي يقوم علي تحالف قوي الشعب العامل وهي خمسة كما أقرها المؤتمر عندما تقدم بها عبد الناصر فيما سمي بالميثاق .

وهذه القوي هي الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسمالية الوطنية .

ولم يكتب لهذا الاتحاد الاشتراكي النجاح كما حدث من قبل للاتحاد القومى فهو ببساطة صيغة الحزب الواحد في الحالتين .

وازدادت الحالة سوءا عندما أصبح الاتحاد الاشتراكي (الحزب الواحد) أداة سيطرة كاملة حتي علي أرزاق الناس .. حين استعار الملتفون حول جمال والذين يفلسفون له الماركسية كأسلوب فبدأ فرض الحراسات والمصادرة والاعتقال ومنع النشاط الخاص بحجة ضرب الرأسمالية مع أن الميثاق الذي قامت عليه النظرية يقرر غير ذلك بل ويضع الرأسمالية الوطنية كإحدي قوي التحالف الخمس .

وبدأت مرحلة التخبط الاقتصادي .

وجاءت هزيمة 5 يونيو بأبعادها المهينة.

وبعد أن أفاق الشعب من هول الصدمة بدأ النقد العنيف مرة أخري ، وفي هذه المرة جاء الانفجار في فبراير سنة 196٨ بعد صدور أحكام مخففة علي قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقوي أسباب الهزيمة المهينة .. ثم اكتشف الشعب أيضا أن ما سمي بالميثاق لم يطبق و أنه لم يكن إلا لامتصاص نكسة الانفصال بين مصر وسوريا وعندئذ

أصدر عبد الناصر ما سمي بعد ذلك بيان ٣٠ مارس سنة 196٨ بواسطة نفس الملتفين حوله والذين لم يكن لهم من هم إلا السلطة الديكتاتورية المطلقة لكي يبقوا في مناصبهم واكتشف الشعب مرة أخري أن بيان ٣٠ مارس سنة 196٨ لم يغير من القبضة الديكتاتورية شيئا و أنه قد أرجأ الدستور الدائم إلي ما بعد إزالة آثار العدوان وكرس حق الاعتقال وكانوا يظنون أنه سيقودهم إلي الديمقراطية ..

لقد اكتشفوا أن هذا البيان لم يكن إلا لإمتصاص آثار هزيمة يونيه و انفجار الجماهير وكم عانيت أنا من سياسة الامتصاص هذه بعد ذلك ..

فأنا أحب أن أغير .. لا أمتص .. وأن أعالج .. لا أحذر .. وفي نظر الناس أريد أن يكون كل شيء واضحاً كما هو في نظري تماما.. وعندما ألجأ إلي حل بعض المشكلات ، أفعل كل ما بوسعي لكي يكون الحل جذرياً ... لا مؤقتا .. ولكن الناس طبائع وخصال ..

مثلا كان من الواضح أن هناك صراعاً داخل مجلس قيادة الثورة منذ أوائل 195٣ .. وبطريقة الحلول المؤقتة لجأ عبد الناصر إلي تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة في الوزارة واحداً بعد الآخر ، حتي أنه قبل أن تنهي سنة 15 كان جميع الثوار يحكمون .. ما عدا واحداً هو أنا .

ولكن هل استطاع عبد الناصر بهذا أن يغلق دائرة الصراع حقاً ؟

في سنة 1954 وصل الصراع إلي مرحلة عنيفة ، خاصة بيني وبين محمد نجيب ، و بيننا وبين الأخوان المسلمين وبعض فلول السياسيين الذين ألتفوا حول نجيب وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا شيئا .

في مارس من تلك السنة كان الصراع قد طفا علي السطح بحيث أصبح لا يمكن تجاهله فاجتمعنا في مجلس الثورة ، وأعلنا التنحي ، وتوالت الأحداث خلال بضعة أيام عدل بعدها مجلس الثورة عن التنحي..

ثم تطور الصراع فشمل إلي جانب محمد نجيب خالد محي الدين - وهو شيوعى ماركسى - حاول أن يستخدم سلاح الفرسان تحت ستار عودة الديمقراطية والأحزاب معتقداً بذلك أنه يستطيع فرض ديكتاتورية اليسار تلك التي تحيل البشر إلي عجلات في آلة ، لا هم لها إلا طحن

الإنسان ، والقضاء عليه وسلبه أخص مقوماته التي خلقها له الله سبحانه وتعالي ..

قضينا علي فتنة الفرسان وتكفل الضباط الأحرار بالكشف عن مزايدات المزايدين من الضباط والسياسيين ، وأقلنا محمد نجيب ثم أعدناه بعد ذلك . وكنا في ذلك الوقت قد بدأنا المفاوضات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن القناة . وصاحبت المفاوضات حركة مقاومة ضد الإنجليز في القناة . ورغم هذا كله حاولت كل العناصر المضادة استغلال الانشقاق مع محمد نجيب ليس حباً في نجيب وتأييدا له بل في محاولة لانهاء الثورة وتسلم السلطة . فكانت مظاهرات الأخوان وهي تجوب شوارع القاهرة و تتوجه إلي قصر عابدين ، يحمل أفرادها مناديل ملطخة بالدماء وينادون بسقوط الثورة .

لم يكن هناك بد ازاء كل هذا من حسم الوضع مع نجيب فعزلناه نهائيا في أكتوبر 1954 بعد توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا في نفس الشهر تلك الاتفاقية التي انهت الاحتلال البريطاني لمصر لأكثر من خمسة وسبعين عاما .

كان عبد الناصر رئيس وفد المفاوضات ، وكان قد وصل مع الإنجليز إلي أنهم علي استعداد للجلاء عن القاعدة خلال ٢4 شهرا، علي شرط أن يحتفظوا بمخازن و ١٢٠٠ خبير من المدنيين ، يتم انسحابهم بعد 7 سنوات ، وتصبح المخازن وكل ما بالقاعدة ملكا لمصر ، وجزء لا يتجزأ منها..

جمعنا عبد الناصر في استراحة الهرم . وعرض علينا المشروع بأكمله وطلب من كل منا رأيه مسجلا .

طبعا كانت هناك معارضة من بعضنا . مجرد مزايدات وصراعات كالعادة ، أما أنا فكنت مذهولا لما يحدث ولذلك عندما جاء دوري لإبداء الرأي انفجرت قائلا : -

« أنا موافق علي المشروع بدون مناقشة - فما الذي يمكن مناقشته ؟ ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يخيفنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير - وليبقوا بدلا من السبع سنوات

عشرة - ما قيمتهم وقد حصلنا علي استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرة ؟ أي سياسي أبله يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة وسبعين سنة ؟». .

وقعنا اتفاقية الجلاء في أكتوبر 54 وهكذا وضعنا أقدامنا علي أول طريق الاستقلال .. وكنا قبل ذلك قد وافقنا علي حق تقرير المصير للسودان فإما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، وقبل الموعد المحدد انسحبنا وتركنا السودان يقرر مصيره بنفسه مما اضطر إنجلترا أن تحذو حذونا فنال السودان استقلاله قبل أن يتم جلاء الإنجليز عن مصر .

كانت فترة الانتقال ما بين ١٩٥٣ و 1954 ، فترة مليئة بالأحداث الهامة التي يمكن اعتبار أغلبها بمثابة نقط تحول في تاريخ مصر والثورة .. فكما رأينا وقعنا اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر في أكتوبر 1954 وفي ١٨ يونيو 1954 تم جلاء آخر جندي بريطاني ورفع علم مصر علي القاعدة البريطانية بالقناة بعد كفاح ونضال يزيد علي الخمسة وسبعين عاما.

في هذه الفترة أيضا عزلنا محمد نجيب ، وبذلك تخلصنا من الصراعات التي حاول السياسيون المحترفون استغلالها لعودتهم ، وجنبنا البلاد آثارها ، وتولي عبد الناصر رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة في نفس الوقت ، وبهذا تركزت السلطة كاملة في أيدي من قاموا بالثورة .

ورغم عزوفي فترة طويلة عن أي منصب تنفيذي إلا أني دخلت الوزارة التي شكلها جمال في سبتمبر سنة 1954 كوزير دولة بعد أن بقيت أكثر من سنة العضو الوحيد الذي لم يتقلد منصبا وزاريا وكان جمال يصف هذا الموقف بيني وبينه بأني رجل الدورية الذي يبقي في الخارج لكي يضمن سلامته وهو تعبير عسكرى عندنا Get Away Man

ومن أهم ملامح تلك الفترة أيضا ، حلف بغداد الذي نادى به مستر إيدن بعد وقت قصير من اتفاقية الجلاء بدعوي أن منطقة الشرق الأوسط قد نشأ بها فراغ لابد من أن يملأ .. وقد انضمت إلي الحلف كل من تركيا والباكستان والعراق .. كان موقف الثورة من الحلف معاديا بطبيعة الحال فكيف نقبل أن ننضم إلي حلف كهذا في حين أن من سبقونا قد رفضوا إقامة اتفاقيات ثنائية ، ثم نحن قد تخلصنا من الاحتلال البريطاني بمعاهدة الجلاء فكيف نرضي أن ترتبط مصر بعجلة بريطانيا أو بأية قوة أجنبية مرة أخري ؟.

ولم تقتصر مقاومتنا لحلف بغداد علي رفض الانضمام إليه بل شملت جهودا مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان و فعلا نجحنا في ذلك .. مما أوغر صدر بريطانيا

وأمريكا فأوعزتا إلي إسرائيل بالانتقام منا - وكانت النتيجة غارة مفاجئة علي غزة في ٢٨ فبراير 1955 و هو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مصر والثورة والمنطقة ودول العالم الثالث لأنه جعلنا نشعر بحاجتنا الملحة للسلاح - مما أدي في النهاية إلي عقد أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهرو وشواين لاى كما أسلفت لإقناع روسيا بذلك .. وقد كان لهذا أثره في كسر الحاجز وإذابة الثلوج بيننا و بين السوفييت ، كما كان من العوامل الفعالة في رفع الروح المعنوية لدول العالم الثالث التي شعرت بأن هناك من يمكن أن تلجأ إليه لاسترداد إرادتها من قبضة الاستعمار الذي ظل جاثما فوق صدرها قرون طويلة حتي ولو كان طريقها إلي ذلك هو طريق البيع والشراء ..

من أهم انجازات تلك الفترة علي المستوي العالمي والمحلي مؤتمر باندونج الذي كان أول مؤتمر دعم دول عدم الإنحياز وجعلها قوة ثالثة يحسب لها حساب وفي نفس الوقت الملاذ الوحيد الذي تلجأ إليه الدول الصغري ومثلها الأعلى الذي تحذو حذوه .. أما بالنسبة للأثر المحلي لمؤتمر باندونج فقد أضاف الكثير إلي شعبية عبد الناصر الذي استطاع أن يقف جنبا إلي جنب مع بعض الشخصيات العالمية أمثال نهرو وشواين لاي وأن يستحوذ علي اعجابهما رغم أنه كان في ذلك الوقت دونهما بكثير سنا وتجربة .

أين كنت أقف من أحداث تلك الفترة ؟ إلي أي مدي شاركت فيها وكيف كنت أنظر إليها ؟ .

في ديسمبر 195٣ ، انشأت جريدة الجمهورية وتوليت رئاسة تحريرها وكانت تعتبر لسان حال الثورة ، وقد قامت بدور ملحوظ في إحباط حلف بغداد .. ورغم عزوفي عن السلطة فترة طويلة، إلا أنني قبلت العمل كوزير دولة في الوزارة التي شكلها عبد الناصر في سبتمبر 1954 تضامنا معه في دفع عجلة الأمور .. وفي يناير 1955 تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامي وتوليت منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا إلي زيارة بلاد المنطقة لجمع شمل الدول العربية والإسلامية ، وكذلك العمل من أجل تحقيق أهداف سياسية وقومية تخدم قضايانا .. فلست أبالغ إذا قلت إني قمت بدور فعال في إحباط حلف بغداد .. في الأردن مثلا .. تسني لي إقناع الملك بعدم الإنضمام إلي الحلف .. وكان من الآثار الجانبية لهذا طرد جلوب باشا قائد عام الجيش الأردني البريطاني الجنسية ..

وفي لبنان ألتقيت بالرئيس شمعون ونجحت في إبعاد لبنان عن الحلف معتمداً في ذلك علي العداء القديم المستحكم فيها بين شمعون و عائلته من ناحية وبين الأتراك من ناحية أخري ..، وفي بغداد اجتمعت مع نوري السعيد لمحاولة اقناعه بالعدول عن الإشتراك في الحلف .. ودام اجتماعنا طويلا فما كان من الداهية إلا أن أبلغ الصحفيين أن أنور السادات مجتمع به للتفاوض بشأن دخول مصر حلف بغداد .. فعندما انتهي الاجتماع وخرجت فاجأني الصحفيون بهذا الخبر - فقلت إن شيئا من هذا لم يحدث علي الاطلاق وإن هذه حيلة من حيل نوري السعيد المعروفة عنه .

هكذا كان موقفي من أحداث سنوات الانتقال .. ولكن هل تكتمل بهذا صورة تلك الفترة من حياتي ؟ لا أعتقد.. فهناك جانب من الصورة لا تكتمل بدونه رغم أنه قاتم اللون .. ألا وهو الصراع الداخلي بين أعضاء

مجلس قيادة الثورة الذي تكشف و احتدم بعد عزل محمد نجيب والشعبية التي نالها عبد الناصر في مؤتمر باندونج .

أذكر مثلا أنه في غياب عبد الناصر أناب عنه جمال سالم وكان رحمه الله حاد المزاج .. عصبياً إلي حد غير طبيعي .. غير متزن في جميع نواحى شخصيته .. فلما وجد الناس منصرفة عنه لسوء معاملته ، بدأ يثير المعارك هنا وهناك .. وفي كل مجال .. إلي أن عاد عبد الناصر فازدادت المعارك حدة خاصة وأن جمال سالم في غياب عبد الناصر كان قد اتخذ إجراء ما ضد عم عبد الناصر .. وكانت لدي عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله .. فكان يكفي أن يبلغه أن أحدا من الناس قال شيئا ما عن أحد أقاربه حتي يضعه علي الفور في المعتقل ويتخذ ضده من الاجراءات ما يحلو له .. وهذه إحدي نقاط الضعف التي كان يستغلها فيه أصحاب مراكز القوي وأتباعهم لينالوا حظوة عنده ، وفي نفس الوقت ينالون من أعدائهم .. وفي رأيي أن عبد الناصر كحاكم كان يجب أن يدرك أن هذه هي طبيعة الحكم وطبيعة البشر أيضا .. والحكمة العربية تقول إن نصف الرعية ضد الحاكم – هذا إن عدل !، وهذا في رأيي أمر طبيعى .. فالحاكم هو الوحيد الذي علي المسرح .. كل الأنظار تتجه إليه ولا تري سواه ولذلك فكل من لديه مشكلة أو أمر ينغص عليه حياته أو حتي يعكر مزاجه ولو قليلا لابد وأن ينسبه إلي الحاكم حتي ولو كان الحاكم أعدل الناس وأبعدهم عن مسئولية ما تشكو منه الرعية فما بالك إذا كان الحاكم عبد الناصر - قد جمع زمام الأمور كلها بين يديه فأصبح في نظر الناس - ولعلهم علي حق – المسئول الوحيد عن كل ما يصيبهم ؟

أنا شخصيا علي نقيض تام من عبد الناصر في هذه الناحية . بل إني في وقت من الأوقات راودتنى رغبة شديدة في أن أقول للناس : بما أني قد ألغيت بالنسبة لكم المعتقلات إلي الأبد وأعدت سيادة القانون فأرجو أن تمنحوا رئيس الجمهورية الحق في أن يعتقل أهله .. وأهله فقط .. صحيح أن نشوة الحكم والمظهر لا تدير رأسي اطلاقا ولكن من يضمن لي أنها لا تدير رؤوس أهلي وأقاربي فيظلمون الناس من حيث لا أدري ؟ .. ومن هنا كان أمر الاعتقال الوحيد الذي أصدرته طوال مدة ولايتى

خاصة باعتقال شقيقي الأكبر وهو من ساعدني ووقف من خلفي في السجن والمعتقل وجميع الأزمات التي مرت بي ..

ليس معني هذا أني أتنكر لأهلي أو لا أدين لهم بالوفاء فهذا يتنافي مع قيم الأسرة التي نشأت عليها والتي ما زالت تسري في عروق وتشكل وجدانى كما لا يشكله أي شيء آخر .. علي العكس فإن إيماني بهذه القيم يزداد يوما بعد يوم .. حتي أصبحت أري في التمسك بهذه القيم الخلاص الوحيد للمجتمع لا كأسر متفرقة بل كأسرة واحدة كبيرة .

أذكر أني في إحدي جولاتي في المنطقة كسكرتير عام للمؤتمر الإسلامى زرت الهند وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج بفترة قصيرة .. واستقبلني نهرو استقبالا وديا خالصا وأقام حفل استقبال تكريما لي .. وقدم لي ضمن من قدم من ضيوفه نائبا في البرلمان الهندي وزوجته وهي أيضا نائبة مثله وكلاهما شيوعى و من أشد المعارضين لنهرو - هذا ما كنت أعلمه علم اليقين فقد سبق أن تعرفت بهما في القاهرة ونشأت بيننا صداقة ولذلك ذهلت عندما رأيت الرجل يقبل نهرو من خديه ونفس الشيء تفعله زوجته من بعده .. لم يكن نهرو يعلم أني أعرفهما فقال لي مداعبا وهو يشير إليهما « كن علي حذر يا مستر سادات فهما شيوعيان وأرجو أن لا يتمكنا من بلشفتك »

قالها بروح أبوية خالصة وهو يبتسم في سماحة وحب فضحكا وقالا بنفس روح المحبة واحترام الأبن لأبيه : -

- ولا بأس ولكنا سنرد عليك في البرلمان .

أخذت بما رأيت وسمعت ، فلا شيء يستطيع أن يستولي علي أو يأسرني بالفعل مثل الجمال .. وقد كانت الصورة جميلة بكل ما تحمل من حب ولمسات انسانية وقيم نشأت عليها في قريتي الصغيرة .. حيث الكل عائلة واحدة يحترم فيها الصغير الكبير مهما اختلف معه في الرأي لأنه كبير العائلة .. وبالمثل يقود الكبير الصغير ولا يغضب منه إذا اختلف معه لأنه أولا وقبل كل شيء أب ولا يمكن للأب أن يتخاصم مع إبنه .

خرجت من الاستقبال ذلك اليوم وأنا في قمة السعادة بالصورة الجميلة التي رأيتها والتي ظلت عالقة بوجداني تسعدني كلما استدعيتها .. إلي أن وصلت مصر .. فإذا بكل شيء علي نقيض تام مع صورتي الجميلة.. صراع وتشاحن لا علي شيء معين بل علي كل شيء مهما بلغت تفاهته ..

لم أشترك طبعا في هذه المشاحنات - فقط كنت أراقبها من برجي العالي و أسخر حينا وأدهش حينا آخر ولكني في جميع الأحيان كنت أتألم لها..

آه للنفس البشرية ما أضعفها وأتفهها عندما تطغي المصلحة الشخصية فتحجب عنها رؤية الأشياء علي حقيقتها . إنهم يحقدون علي عبد الناصر لأنه قد حقق نجاحا كبيرا في باندونج وارتفعت مكانته في عيون العالم .. أليست مكانته هي مكانة مصر ؟ ونجاحه أليس نجاحا لنا جميعا ؟ ولكنهم لا يبصرون ...

بعنوان « الحبيب العائد » كتبت مقالا صغيرة بجريدة الجمهورية بمناسبة عودة عبد الناصر من باندونج .. ولو أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الظروف لفعلت ما فعلت مرة ثانية - فتكويني الأساسي قوامه الحب ولذلك عندما ألجأ إليه أرتاح وأجد الحل لأية مشكلة وعندما يبتعد عني يختل توازني ويستولي علي إحساس بالعجز مرير .. ومن هنا كانت قوتي لا تتجلي بأكملها إلا من خلال الحب .

بهذا التكوين الذي فطرت عليه - وبالصورة الجميلة التي عدت بها من عند نهرو من الهند .. وفي جو الحقد والصراع علي السلطة الذي سيطر بشكل واضح علي مجلس قيادة الثورة في سنة 1955 أصبح من الصعب علي أن أحتفظ بمركز المتفرج من البرج البعيد كما اعتدت .. فقد ضاقت نفسي بما تري من صراعات لا تكفي لحظة ولا تنتهي ، فكتبت استقالتي وقدمتها لإخواني بمجلس القيادة ونقلت فيها إليهم اللوحة الجميلة التي شاهدتها بالهند عسي أن يتعظوا ..

كانت هذه هي الاستقالة الثانية بعد استقالة سنة 195٣.

والآن وأنا أعيش تلك الأيام البعيدة في ذاكرتي مرة أخري ، أستطيع أن أري بكل وضوح أن الاستقالة الثانية كانت مثل الأولي تنبع من نفس

المنبع فكلاهما احتجاج صريح علي جو الصراعات الذي كان يسود المجلس وهما في نفس الوقت دعوة لا تقل صراحة إلي تصحيح مسار الثورة بعد أن بدأت الأحقاد تعصف بها و تحرفها عن أهدافها التي قامت من أجل تحقيقها ..

كان التصارع علي السلطة قد صرف الاهتمام ولو جزئياً عن مصالح الشعب ، مما أدي إلي إشاعة جو يصعب فيه التمييز بين من يصلح ومن لا يصلح. فأصبح الإنسان يؤخذ بجرم غيره أو بدون جرم علي الاطلاق .. وكانت الإشاعات وحدها كافية للقضاء علي أي إنسان .. وكان يساند هذا الجو الرهيب اعتقاد القادة بأن لهم الحق في أن يفرضوا علي البلد ما يشاؤون بحجة المستبد العادل .. ولم لا .. أليسو هم الذين صنعوا الثورة ؟

كان من الواضح أن نشوة الحكم قد بدأت تلعب برؤوسهم فقسموا البلاد إلي مناطق نفوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب وأصدقاء .. ومن الأمثلة الحية علي ذلك .. مثال وزارة الخارجية التي جنت الثورة عليها .. فقد اتخذها عبد الحكيم عامر مقرا يرسل إليه الضباط المتقاعدين حتي يتسني لهم أن يتموا بها سن المعاش الخاص بالمدنيين وهو سن الستين .

علي هذا المنوال سارت الأمور في كل اتجاه ، فليست العبرة بما يفيد البلاد بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتباع الحكام .. وهكذا

فقدت القيم واستولت الحيرة علي الناس فأصبحوا لا يعرفون ماذا سيأتي به الغد أو كيف سينتهي اليوم ..

انتهي مجلس الثورة في ٢٢ يونيو 1956 ، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالاستفتاء .. ولكن قبل أن ينهي المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد .. وهذا في رأيي أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان .. فالخوف يقتل الشخصية ويشل الإرادة و يمسخ تصرفات البشر .

هل كان أعضاء مجلس الثورة يدركون ما فعلوا بشعب مصر ؟ لا أعرف .. ولكن الذي أعرفه أن الشعب كان يدرك تمام الادراك ما يفعله

حكامه به وبأنفسهم .. وليس أدل علي ذلك من النكتة التي انتشرت في تلك الأيام عبر البلاد معبرة أحسن تعبير عن رأي الشعب في قادته ...

« كان فيه مرة تعلب علي الحدود ودخل ليبيا ـ مسكوه هناك وقالوا له : أنت جاى هنا ليه : قال لهم : أصلهم في مصر بيمسكوا الجمال .. قالوا له : لكن أنت تعلب .. قال لهم : حلني علي ما يعرفوا اني تعلب »

انتقلت إلينا النكتة ونحن في مجلس الثورة فضحكنا طويلا .. وكان الأجدر أن نعي ما تتضمنه من إدانة الشعب لنا .. فنتدبر أمورنا قبل فوات الأوان ..

ولكن هل كان هذا في الإمكان بعد أن تغلبت العوامل البشرية علي المثالية التي بدأت بها الثورة فحجبت الرؤيا حتي عن ذاتنا ؟ لا أعرف .. ولكن الذي أعرفه جيدا هو أنني كنت سعيداً بانتهاء مجلس قيادة الثورة ـ ولذلك هرعت إلي عبد الناصر صبيحة اليوم التالي لانتخابه رئيسا لأطلب منه عدم اشتراكى في الحكومة التي كان بصدد تشكيلها .. ومع ذلك فأنا تحت أمره في أية مشورة أو رأي .. فنحن أصدقاء وسنظل دائما كذلك ..

لقد ضقت بما شهدته من صراعات علي مدي أربع سنوات كانت حملا ثقيلا ناءت تحته نفسي حتي كادت تتحطم .. هكذا اكتشفت فيما بعد. فحيث لا يوجد الحب لا مكان علي الاطلاق لي .

الفصل السادس :عجز القوة

(مصرفي حكم عبدالناصر من يوليو56 الي يونيو 67)

بانتخاب عبد الناصر رئيسا للجمهورية في ٢٢ يونيه سنة 56 حل مجلس قيادة الثورة وأصبح عبد الناصر المسئول الأول والأخير عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية أو السياسة الخارجية ..

في 19 يوليو من نفس السنة أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلاس الاقتصاد المصري وتراجع أمريكا والبنك الدولي عن تمويل السد العالي ، وفي ٢٣ يوليو شارك في الإحتفالات بذكري قيام الثورة شيبولوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي .. وكان وقتها نجما صاعدا في سماء الإتحاد السوفييتي واتصل بعبد الناصر ليعلن استعداد السوفييت لتنفيذ السد العالي ..

رفع هذا روح عبد الناصر المعنوية بينما كان يستعد للسفر إلي الإسكندرية للإحتفال بذكري ٢٦ يوليو كعادته فاتصل بي في صبيحة ذلك اليوم يدعوني للسفر معه .. حيث كان ينوي إلقاء خطابه في ميدان المنشية ... كنت مريضا بنزلة معوية حادة فاعتذرت له .. فقال - وما دام الأمر كذلك أرجو أن تستمع إلي خطابي في الراديو).

قلت له طبعا سأفعل ، واندهشت لطلبه ، فقد كان أمرا طبيعيا أن أستمع إلي خطابه دون أن يطلب مني ذلك . فما الذي جعله يطلب هذا الطلب الغريب ؟

لم أعر الأمر كثيرا من الاهتمام إلي أن جاء وقت الخطاب .. ففتحت الراديو وجلست إلي جواره .. كان خطاب طويلا كالعادة ولم يكن به شيء يلفت النظر إلي أن جاء نصف الخطاب تقريبا .. فسمعته يتحدث عن (فرديناندى دى ليسبس) .. ساعتها أدركت ماذا ينوي فعله .. ولم تمض دقائق بعد ذلك حتي تحقق ما أدركت .. فقد سمعت عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس ردا علي جون فوستر دالاس ..

الحقيقة أني شعرت بالفخر... فها هي مصر الدولة الصغيرة ترفع صوتها أخيرا لتحدي أكبر قوة في العالم .. كانت هذه نقطة تحول في تاريخ ثورتنا بل وفي تاريخ مصر بأجمعه .. فقد أحدث القرار دويا هائلا في خارج مصر وداخلها وأصبح عبد الناصر منذ تلك اللحظة

بطلا أسطوريا من أبطال الشعب المصري الذي كان تواقا إلي أن يرفع رأسه ويشعر بذاته بعد ما ذاقه من هوان وقهر علي أيدي الاستعمار البريطاني طوال قرن تقريبا .

في اليوم التالي استقل عبد الناصر القطار عائدا إلي القاهرة فوجد الشعب المصري كله في استقباله - ذهب إلي مجلس الوزراء ومن الشرفة هناك القي خطابا زاد نار الحماس اشتعالا .. ودخل بعد الخطاب مكتبه فقلت له : اسمع يا جمال ..

قال : نعم

قلت : أنت ما قلتليش علي هذا القرار وأنت خلاص أخذته .. لكن أنا عاوز أقول لك حاجة . قال : إيه ؟

قلت : لو سألتني كنت حأقول لك حاسب .. لأن هذه الخطوة معناها الحرب واحنا مش جاهزين .. دا احنا لسه واخدين السلاح من روسيا - في سبتمبر من السنة الماضية (١٩55) انعقدت الصفقة ولم يبدأ التوريد إلا في أكتوبر ونوفمبر ولسه ما اتدربناش عليه بالقدر الكافي ، لأن كل تدريبنا كان إنجليزي غربي .. فلم يأت الوقت بعد الذي يسمح لنا بتغيير العقيدة العسكرية بتاعتنا من غربية إلي شرقية .. لو كنت سألتني عن رأيي كنت حأقول لك حاسب يا جمال .. ولكن بما أنك أتخذت القرار خلاص فيجب أن نقف جميعا إلي جانبك وأنا أولهم ...

وفعلا من يوم ٢٧ يوليو أخذت أهاجم في مقالاتى بجريدة الجمهورية دالاس وأمريكا بضراوة وعنف .. الإتحاد السوفييتي سعد بكل هذا أعظم سعادة لأنه وجد من يحارب له معركته - من يوقظ له دول العالم الثالث و المستعمرات بينما لم يدفع السوفييت مقابل هذا كله إلا أسلحة يتقاضون ثمنها بالكامل .. ويبدو أن الإتحاد السوفييتي استمرأ هذا فقد دأب علي أن نحارب نحن معركته في كل مكان ، وهو يعطينا السلاح ويأخذ ثمنه - دون أن يخسر شيئا .. بل كما تبين فيما بعد كان هو الرابح أولا وأخيرا .. فالسلاح الروسي أغلي من السلاح الغربي لأن عمره أقل من عمر السلاح الغربي وإذا أضفنا إلي هذا فائدة ال٢'٥ ٪التي يتقاضاها السوفيت لاتضح لنا أن السلاح الغربي أرخص علي المدي الطويل ..

سمع إيدن بخبر تأميم القناة أثناء مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك العراق ونوري السعيد رئيس وزرائها ففض المأدبة وبدأ يتصل بجي موليه في فرنسا وبن جوريون في إسرائيل - في ذلك الوقت كان الإنجليز قد جلوا عن القناة ، ولكن نصف أسهم القناة كانت ملك الإنجليز والنصف الآخر لفرنسا ..

لم يكن هذا وحده الذي أغاظ إيدن فالموقف الذي اتخذه عبد الناصر بعد أن أفسد عليهم حلف بغداد ثم قام بتأميم القناة لم يكن من السهل علي (إيدن) بعقليته الاستعمارية التقليدية أن يتقبله .. فاتفق مع جى موليه وبن جوريون علي استخدام القوة ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك .. بل قاموا بمحاولات متعددة مثل المؤتمر الذي عقده إيدن في لندن وجمعية المنتفعين وغير ذلك .. إلي أن أحيل الموضوع في النهاية إلي الأمم المتحدة .. واتفق علي أن يجتمع الدكتور محمود فوزي وكان في ذلك الوقت وزير خارجيتنا مع وزير خارجية إنجلترا سلوين لويد وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر ليضعوا سويا الحل السلمي والتعويضات المالية ..

لم يحدث طبعا شيء من هذا ، إذ أن يوم ٢٩ أكتوبر كان هو اليوم الذي اختاره إيدن و جى موليه وبن جوريون لتنفيذ خطتهم .. وفعلا هاجمت إسرائيل سيناء وأطلقت صفارات الإنذار في القاهرة في آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر (الذي كان محددا للتسوية السلمية في الأمم المتحدة !) وكان عبد الناصر في بيته فطلع إلي سطح المنزل وشاهد بنفسه الطائرات وهي تقصف مطار ألماظة القريب من منزله وهي تحمل علامات إنجليزية وفرنسية - فأدرك عبد الناصر أن المؤامرة قد تمت .. وذهب إلي القيادة في مساء نفس اليوم وأصدر أمره بانسحاب قواتنا فورا من سيناء تفاديا للفخ الذي كانت ستقع فيه .. إسرائيل في المواجهة في سيناء والإنجليز والفرنسيين من الخلف .. ونفذ الأمر بمنتهي الدقة وعلي مدي ثلاثة أيام .. حيث حفظ لنا أكثر من ثلثي قواتنا المسلحة .. ولذلك يجب أن نذكر هذا القرار لعبد الناصر كقرار عبقرى - صحيح أن جميع طائرتنا قد دمرتها فرنسا وإنجلترا بضربة واحدة وهي ما تزال علي الأرض - وكنا قد اشتريناها من الاتحاد السوفييتي منذ أقل من سنة و نعتز بها غاية الاعتزاز .. ولكن لم يكن عبد الناصر أو غيره

يستطيع أن يفعل شيئا وقد باغتتنا إنجلترا وفرنسا بالعدوان و بالإنذار الذي وصفته بأنه قذر في مقالاتي في جريدة الجمهورية إذ أرسلوه إلينا في نفس اليوم الذي اعتدوا فيه علي مطاراتنا .

كانت مدة الإنذار ١٢ ساعة وقد أحدث بلبلة عند بعض السياسيين القدامى في مصر ، فقرروا أن يتجمعوا فيرسلوا رسالة إلي عبد الناصر لإقناعه بقبول الإنذار تحت شعار إنقاذ ما يمكن إنقاذه .. سمع عبد الناصر بهذا فأرسل في طلب كتيبة ضرب نار من الحرس الجمهوري ووقفت في ساحة مجلس الوزراء وأقسم أن يعدم رميا بالرصاص أي إنسان يأتي ليقترح عليه قبول الإنذار .. .

طبعا كانت الخطوة التالية أن أعلن عبد الناصر علي العالم رفض مصر للإنذار البريطاني الفرنسي وتصميمها علي القتال وليكن ما يكون .. وكان ذلك في خطاب ألقاه في الأزهر يوم ٢ نوفمبر .. والشعب كله ملتف حوله بعد أن خرج إليه في عربة مكشوفة .. وفي نفس اليوم كان الشعب الإنجليزي يضرب مقر رئيس وزراء بريطانيا (١٠ داو ننج ستريت) بالطوب والحجارة احتجاجا علي العمل اللاأخلاقي الذي قام به ...

بعد رفض الإنذار أرسل عبد الناصر في طلب سفير أمريكا رايموند هير وبعث رسالة لأيزنهاور يقول له فيها .. «أرجو أن تتكفل أنت بحلفائك بريطانيا وفرنسا واترك لي أنا إسرائيل أتكفل بها ».. رد إيزنهاور وقال إنه سيفعل كل ما يمكن فعله..

ونحن في أوج المعركة بين يومي ٢٩ أكتوبر و ٢ نوفمبر 1956 كان شكري القوتلي رئيس سوريا في ذلك الوقت في زيارة رسمية للإتحاد السوفييتي فتحدث إلي الزعماء السوفييت بشأن معركة القناة وطلب منهم مد يد المساعدة لمصر ، ولكن السوفييت تخاذلوا تخاذلا تاما .. فأرسل القوتلي إلينا بذلك و نصحنا بالاعتماد علي أنفسنا فلا أمل أطلاقا في السوفييت - وهذا ما جعلني منذ تلك اللحظة أؤمن بأن من يتغطي بالسوفييت فهو دائما مكشوف وفي 5 نوفمبر تدخل أيزنهاور وطلب من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل الانسحاب فورا . .

عندما علم السوفييت باستجابة هذه الدول لطلب الرئيس الأمريكي أرسلوا الإنذار المعروف باسم خروشوف وبولجانين إلي إنجلترا وفرنسا .. والذي لم يكن في الواقع إلا مجرد استعراض عضلات و محاولة للظهور بمظهر المنقذ.. مع أن الذي أنقذ الموقف حقيقة كان أيزنهاور فقد استجابت لأوامره كل من إنجلترا وفرنسا فانسحبتا في ٢٣ ديسمبر سنة 56 وتلتهما إسرائيل في مارس سنة ٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قد أعلنت رسميا في الكنيست ضم سيناء وإعطاء اسم جديد لشرم الشيخ مما جعل بن جوريون يقول مقولته المشهورة «لابد من الخوف مما لابد من الخوف منه » .. يعنى أمريكا بطبيعة الحال .. فلم يكن في استطاعة اسرائيل أن تفقد تأييد أمريكا وهي القوة العظمي في العالم ...

وهنا يجب أن نتوقف للعودة إلي الوراء قليلا حتي نتبين خط إسرائيل منذ أن نشأت. فقد كانت دائمة الاستناد إلي القوة العظمي في العالم في أي وقت من الأوقات .. كانت بريطانيا ما بين الحربين العالميتين الأولي والثانية هي القوة العظمي في العالم ولذلك استندت إسرائيل إليها ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تقهقرت بريطانيا وفرنسا وتقدمت أمريكا فأصبحت القوة الأولي .. ولذلك نجد بن جوريون يلجأ إلي نقل نشاط الحركة الصهيونية كاملا إلي أمريكا - بل ويسعى جاهدا إلي أن ينفرد بتأييد أمريكا فلا يسمح للعرب بأن تكون لهم صداقة قوية مع أمريكا .. كما حاول أن يبني سياسته بعد قيام ثورتنا علي ضرورة الإيقاع بين مصر وأمريكا .. ولذلك انزعج بن جوريون عندما وطدنا علاقتنا بأمريكا في بداية الثورة كما رويت .. فاتفق مع لافون وزير الدفاع في حكومته علي عملية سرية وهي أن يرسلوا إلي مصر بعض العملاء ليضربوا المصالح أو المراكز الأمريكية في مصر .. وفعلا حدث في سنة 53 اعتداء علي سينما مترو الأمريكية بالقاهرة والقنصلية الأميركية في الاسكندرية .. ولكن البوليس المصري تمكن من الإمساك بالجناة وكانا شابين من شباب إسرائيل اعترفا بالمؤامرة فحوكما ولكنهما انتحرا في السجن وهما في انتظار حكم الإعدام .. وكانت فضيحة أبلغنا بها الأمريكان . وقد اختلف لافون مع بن جوريون بعد ذلك واستقال بفضيحة تعرف في التاريخ الإسرائيلي بفضيحة لافون .

كان علي عبد الناصر أن يتعلم درسا مما حدث فيدرك أن استراتيجية إسرائيل هي أن نكون علي خلاف مع أمريكا .. ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك فعل العكس تماما فنجده بعد عدوان سنة 56 يشيد بالإنذار الروسي وينسب إلي السوفييت كل شيء ويهمل الإشارة إلي قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من مجافاة للحقيقة ، فالذي جعل هزيمتنا تنقلب إلي نصر كان القرار الأمريكى وليس الإنذار الروسي ... هذا إلي جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السياسي المحترف ، كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا - ولو من باب ضرب استراتيجية إسرائيل التي كانت تسعي إلي العكس .

ولكن هكذا كان عبد الناصر ... تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جدا بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصح له فقد كان كل همهم أن يضخموا ذات عبد الناصر حتي تبقي لهم مناصبهم ونفوذهم .

إلي يوم 31 ديسمبر سنة 56 كانت المعاهدة المصرية البريطانية ما زالت قائمة .. كنا قد قمنا أثناء المعركة بوضع الخبراء الإنجليز البالغ عددهم ١٢٠٠ تحت الحراسة وأصبحوا معتقلين .. وكانت المعاهدة تنص علي بقاء الخبراء بالقناة لمدة سبع سنوات ونصف ابتداء من عام 54 وهو تاريخ عقد المعاهدة .

انسحبت القوات البريطانية المعتدية في ٢٣ ديسمبر 1956بناء علي أوامر أيزنهاور وفي أول يناير سنة 57 أعلن عبد الناصر سقوط المعاهدة المصرية البريطانية وانتهي بذلك ما علينا من التزامات وأصبح الخبراء أسري فتبادلناهم بعد ذلك في عملية تبادل الأسري بيننا وبين بريطانيا - وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر قرارا آخر أهم من القرار الأول وهو تمصير الاقتصاد المصري كرد فعل للتخريب الذي أحدثته الغارات الجوية البريطانية والفرنسية .. كانت هذه ضربة كبري فإلي ذلك الوقت كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبري إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أي أوروبية بصورة أو أخري .

تلت ذلك عملية تصفية ديون القناة لمستحقيها من حملة الأسهم فدفعناها بالتقسيط وكانت في مجموعها لا تزيد علي دخل القناة في سنة واحدة .. وفي مقابل هذا أفرجت إنجلترا عن 400 مليون جنيه استرليني كانت قد جمدتها نتيجة لتأميم القناة ..

وهكذا بدأنا سنة 57 ونحن نملك اقتصادنا بالكامل .. بالإضافة إلي أرصدتنا من الاسترليني أي الي 400 مليون جنيه التي أفرجت عنها بنوك إنجلترا .

كان يجب أن تكون هذه مرحلة انطلاق فالأرصدة متوفرة .. وكذلك الاحتياطي .. كان كل شيء في الواقع معدا لكي نخطط ونبدأ بناء أنفسنا من الداخل بناء ضخما يعوض علي مصر ما فاتها في سنوات التخلف والاحتلال .. ولكن للأسف لم يتم شيء من هذا فقد كان عبد الناصر مشغولا بالخرافة التي أصبح اسمه مقترنا بها .. خرافة كبيرة جدا في

مصر والعالم العربي فهو البطل الذي حقق النصر علي إمبراطوريتين كبيرتين « بريطانيا وفرنسا » فبعد أن أغفل عبد الناصر الدور الحقيقي الذي لعبه أيزنهاور في هذا المجال مما حول الهزيمة العسكرية إلي نصر سياسي أصبح كما يبدو أول المصدقين لأنه انتصر .. لا للحقيقة وهي الهزيمة العسكرية .

تلت بعد ذلك محاولات من جانب دالاس لإضفاء البطولة علي الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وجعله الرجل الأول في المنطقة حتي يقضي بذلك علي عبد الناصر ويعزل مصر تمهيدا للاجهاز عليها ..

ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل رغم ما بذله دالاس من جهود لتخويف سعود من عبد الناصر وكل من يلوذ به ، فمثلا أطلعني سعود علي تقرير للمخابرات المركزية الأمريكية عني يقول إنني العميل الأول للسوفيت في مصر ، لا لشيء سوي أني كنت أكتب مقالا يوميا بالجمهورية أهاجم فيه أمريكا لمحاولاتها تعويق سير ثورتنا ، وكان هجومي مركز علي دالاس وزير خارجية أمريكا وكان مدير المخابرات هو شقيقه ألان دالاس .. وإن دل ذلك علي شيء فإنما يدل علي أن المخابرات المركزية كانت تستقي معلوماتها من مصادر تافهة تشبه المصادر التي يستقي السوفييت اليوم معلوماتهم منها .

لم ييأس دالاس بعد أن فشلت مساعيه في عزل مصر والقضاء علي عبد الناصر .. فأوعز إلي تركيا بحشد جيوشها علي حدود سوريا وبدأوا في تصعيد الوضع هناك تصعيدا سريعا ـ في هذا الوقت كانت بيننا وبين سوريا اتفاقية دفاع مشترك ، وهكذا صحا العالم ذات صباح علي خبر وصول سفن حربية مصرية إلي ميناء اللاذقية و إنزال حوالي خمسة آلاف جندي بعتادهم وعدهم مما فاجأ الأمريكان والأتراك معا إذ أن القوة قامت من الاسكندرية بحرا إلي اللاذقية دون أن يشعر بها أحد مع وجود الأسطول السادس والقوات الإسرائيلية في شرق البحر الأبيض .

طبعا كان لهذه الحركة أثرها في إشعال العالم العربي ، فقد أصبح عبد الناصر بطلا قوميا لا يمكن لأحد أن يقف في طريقه ومن هنا نشأت فكرة الوحدة بين مصر وسوريا .. بعد ذلك أخذنا في الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة - وراعينا في هذا شيئين .. أولهما حق الاعتراض لمجلس قيادة الثورة .. وفعلا بعد أن تمت الترشيحات اعترضنا علي أعداد كبيرة ، وكان المقياس في الاعتراض الانتماء إلي الأحزاب القديمة أو عداء المرشحين للثورة ـ أما الإجراء الثاني فقد كان إغلاق بعض الدوائر علي الضباط الأحرار الذين تركوا الجيش وخرجوا إلي الحياة السياسية والمدنية .. وفعلا أغلقنا ٦٠ دائرة من الـ ٣٥٠ ، ثم أجريت الانتخابات .. واجتمع فعلا أول برلمان في ظل الثورة في سنة 57.. أي بعد خمس سنوات من قيامها.

قبل الاجتماع بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر في استراحة برج العرب .. فإذا بي أفاجأ بطلب منه بأن أستعد لرئاسة المجلس وقبلت .. ولكن قبل افتتاح المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به في القاهرة .. وقال إنه يفكر في إسناد رئاسة المجلس إلي عبد اللطيف بغدادى بصفته أقدمنا .. كيف غير عبد الناصر رأيه في خلال يومين فقط .. وما الذي دعاه إلي ذلك؟.. لا أعرف إلي الآن .. ولكن الذي يعرف جمال عبد الناصر يعرف أنه كان يمكن أن يغير رأيه في آخر

لحظة ، ولذلك كان بعضنا يحرص علي ألا يذيع رأيا أو قرارا لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر بنفسه علي الناس أجمعين .

طبعا لم أهتم أنا برجوع عبد الناصر عن قراره في مسألة تعييني رئيسا لمجلس الأمة ، فأنا عضو به علي أي حال - ولم أكن في حياتي أسعي إلي منصب أو مركز ما .. ويكفي أني عندما انتخب عبد الناصر رئيسا للجمهورية كنت أول من اعتذر له عن الاشتراك معه في الوزارة .. بل وطلبت منه صادقا أن لا يعهد إلي بمنصب من مناصب الدولة...

كان لابد علي أي حال أن يتولي منصب وكيل المجلس أحد الضباط الأحرار فعرض عبد الناصر هذا علي أكثر من واحد ولكن الجميع رفضوا.. فلم يجد مفرا من أن يتقدم بهذا الطلب إلي ... وقبلت.. وقد تعجب إخوانى كيف أقبل العمل تحت رئاسة البغدادي وقد كنا - علي الأقل - زملاء في مجلس الثورة لا يتميز أحدنا عن الآخر في شيء .. طبعا لم يكن هذا تفكيري .. فلم يحدث في حياتي أن ميزت عملا عن آخر - مادام العمل من أجل مصلحة مصر - وسواء كنت عضوا بالمجلس أو رئيسا أو وكيلا له .. فالعمل عندي يتساوى والعبرة بالعمل لا بالمنصب . .

في أواخر سنة ٥٧ جاءتنا دعوة من البرلمان السوري الذي كان يرأسه أكرم حوراني لزيارة دمشق .. قبلنا الدعوة واتفق جمال مع البغدادى

علي أن أرأس الوفد المسافر إلي سوريا - وفعلا سافرنا في نوفمبر سنة ٥٧ ووجدنا المسائل تتصاعد بسرعة مذهلة - كان شكري القوتلي في ذلك الوقت رئيسا للجمهورية ولكن كان الجيش مختلفا عليه - والجيش ممزق إلي فرق وكل فريق عليه أن ينام في المعسكر الخاص به خشية حدوث أي انقلاب فالجميع يتربصون بعضهم البعض .. المهم .. فوجئنا في أوائل فبراير سنة 1958 بخمسة من قادة القوات السورية يصلون إلي القاهرة ويلتقون بعبد الناصر في نفس الليلة التي وصلوا فيها و يطلبون الوحدة مع مصر .. حاول عبد الناصر جاهدا أن يثنيهم عن عزمهم إذ لا يمكن أن تتم الوحدة هكذا فجأة وبدون تمهيد ... خاصة وأن البلدين مختلفين في أوجه كثيرة .. ولكن عبثا حاول ليلة بعد أخري إلي

أن كانت الليلة الثالثة فلم يجد أمام اصرارهم مناصا من الموافقة علي الوحدة - فعقدت في ٢٢ فبراير سنة 195٨ .

معظم البلاد العربية لم تستقبل الوحدة بارتياح .. فالسعودية علي وجه الخصوص كان يهمها أن تظل سوريا محايدة لا تنضم إلي أحد، فبين البلدين حدود مشتركة .. ولذلك كانت السعودية تصرف رواتب منتظمة لبعض رؤساء الأحزاب والحكومات والوزراء في سوريا حتي يظل الوضع القائم كما هو .: و بانضمام سوريا إلي مصر بدأ الخوف يتزايد في البلاد العربية الأخري خشية أن يفعل بها عبد الناصر ما فعل بسوريا .. وهكذا كان أيضا وضع الملك حسين في الأردن والملك فيصل في العراق وشمعون في بيروت .. الكل يخشي القوة الحديدة التي ظهرت بالوحدة بين مصر وسوريا فقلبت الموازين في المنطقة ليس فقط بالنسبة للبلاد العربية بل بالنسبة لإسرائيل أيضا و الإمبريالية الغربية .. بالصدفة ، وقبل أن تتم الوحدة بأيام ، كان الملك فيصل رحمه الله (وكان وليا للعهد) في زيارة مصر .. كان في ذلك الوقت ما زال أميرا وكنا أصدقاء اعتدنا في زياراته المتكررة لمصر أن نتناول طعام عشائنا البسيط في بيتي بالهرم .. وفي هذه المرة قال لي فيصل علي مائدة العشاء :

«أنتم رايحين فين ؟».. مشيرا بذلك إلي الوحدة مع سوريا .. فقلت له :

« العملية انتهت خلاص ».. قال : - « أنا في عرضك قل للأخ جمال آن البلاد دي عشائر واحنا أدري بيها منكم .. هذه الوحدة لن تستمر ولن تتمشي مع التيارات السياسية هنا وستضركم .. أنا واثق من هذا وأنا باكلمك كصديق وأخ .. الوحدة دي حتاخدوا فيها ضربة »..

أنصت طبعا إلي كلام فيصل فقد كان مخلصا في نصيحته .. وكان دائما شخصية متزنة عاقلة.. ثم هو قبل هذا وذاك صديق حقيقي فعلا .. ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟

قلت له : يا فيصل دي انتهت خلاص .. بعد غد سيأتي القوتلي وستعلن الوحدة ولا رجوع فيها الآن ..

قال : أنا باكلمك علشان أريح ضميري .. ولكن ثق - وسوف أذكرك - هذه الوحدة ستنتهي بكارثة .. وقد حدث فعلا ..

المهم .. جاء يوم ٢٢ فبراير ووقف جمال والقوتلي في شرفة مجلس الوزراء حيث ألقي كل منهما خطابا يعلن فيه قيام الوحدة .. وقبل ذلك بدقائق كان جمال و القوتلى قد وقعا علي وثيقة الوحدة وكنت أنا ضمن الموقعين أيضا نزولا علي رغبة عبد الناصر برغم أني لم أكن في ذلك الوقت أشغل أي منصب رسمي في الحكومة ..

بعد ذلك حل مجلس الأمة في مصر ونظيره في سوريا .. تمهيدا لتشكيل مجلس موحد بين البلدين .. ثم أعددنا طائرة كوميت عادية من طائراتنا استقلها عبد الناصر وأنا بصحبته وسافرنا بها في منتهي السرية إلي دمشق خشية أن يتسرب خبر السفر إلي إسرائيل ، فقد كان وقع الوحدة عليها كالكارثة تماما. . حتي أن بن جوريون لم يستطع أن يخفي هذا فكان من تصريحاته المشهورة أن مصر وسوريا قد وضعتا إسرائيل في كسارة البندق .. .

وصلنا دمشق وقضينا أسبوعا بقصر الضيافة هناك ، من الصعب علي أن أصفه - فقد كان عبارة عن هذيان لا ينقطع ليل نهار ولا يتوقف لحظة واحدة -

كان عبد الناصر يخطب إلي أن يصيبه التعب .. ثم يخطب القوتلي - ثم أخطب أنا .. وهكذا واحدا بعد الآخر نواصل الخطابة ومعنا بعض الزملاء من قادة الشعب السوري لا نتوقف.. والشعب السوري ينصت إلينا ويطلب المزيد .. لا يمل ولا يشبع وكل ما كان يقال مقبول وعظيم يلهب الحماس وترتفع له الحناجر بالهتافات ولا تكل الأيدي عن التصفيق إعجاب و استحسان تطلب المزيد ... أسبوع بأكمله لم تتزحزح فيه جماهير الشعب المختلفة حول قصر الضيافة شبرا واحدا ... فكانوا يأكلون ويشربون و ينامون و هم وقوف أو جلوس في أماكنهم بالميدان الذي يطل عليه القصر .. ومن نفس هذا الميدان في نهاية الأسبوع أعلنا الدستور المؤقت .. أعلنته أنا بصوتي فقرأت مواد الدستور مادة مادة .. والناس تحت شرفة القصر سكارى بالحماس يهللون ويكبرون لكل فقرة وكلمة و مقطع من كلمة .

في يوم 14 يوليو سنة 58 كان عبد الناصر في طريق عودته من جزيرة بريوني حيث كان في زيارة للمارشال تيتو ، عندما تلقي رسالة من عبد الحكيم عامر نائبه في مصر يخبره فيها أن الثورة قد قامت في العراق ، وفي نفس الوقت تلقي رسالة أخري من تيتو ينصحه فيها بأن يقطع رحلته . ويعود إلي بريوني ، فالأسطول السادس في البحر الأبيض وقد يعتدي عليه الأمريكان نتيجة لثورة العراق .. اتصل عبد الناصر بتيتو فورا ليجهز له طائرة في مطار (بولا) ثم استقل الطراد الذي كان يحرس يخته و انطلق عائدا إلي بريوني في حين واصل اليخت وعليه عائلة عبد الناصر رحلته إلي الإسكندرية .

من مطار (بولا) في يوغوسلافيا أخذ عبد الناصر الطائرة واتجه إلي موسكو حيث التقي بخروشوف وطلب منه مساندة ثورة العراق ضد ضغوط الغرب وتآمره وشراسته التي بدأها بعدوان سنة 56. .

وكما قال لي عبد الناصر شخصيا - استمر الحديث بينه وبين خروشوف 16 ساعة كاملة حاول فيها عبد الناصر إقناع خروشوف بنجدة الثورة العراقية ولكن عبثا ذهبت كل محاولاته .. فقد رفض خروشوف تقديم أي نوع من المساعدة .. نفس ما حدث في سنة 56 عندما حاول شكري القوتلى حث السوفييت علي مساعدتنا ضد العدوان الثلاثي ..

خرج عبد الناصر من هذا اللقاء وهو حزين حزنا عميقا لم يطلع عليه أحدا إلا أنا وعامر ثم توجه إلي دمشق حيث أعلن علي الشعب السوري والعربي في كل مكان أن الاتحاد السوفييتي يقف إلي جانب ثورة العراق وذلك تغطية لموقف السوفييت ومحاولة منه لإيهام الغرب بأن ثورة العراق لها من يساندها ..

بقي عبد الناصر في دمشق فترة إلي أن استتبت ثورة العراق ثم عاد إلي القاهرة ولكنه أثناء زيارة أخري لدمشق عام 59 فوجيء بهجوم عنيف من جانب خروشوف علي الوحدة بين مصر وسوريا .. فكلنا نعرف أن النظرية الشيوعية لا تعترف بالوطنية ولا بالقومية .. تصدى جمال

لهجوم خروشوف وهو في دمشق واتصل بي من هناك لشن حملة مماثلة وكنت وقتها سكرتير الاتحاد القومي (التنظيم السياسي الوحيد) فألقيت خطابة في ميدان عابدين - ثم ذهبت إلي الإسكندرية حيث ألقيت خطابا كان مشهورا في ذلك الوقت بعنفه عبأت فيه الشعور ضد السوفييت كما لم يعبأ من قبل - وقد روي لي جمال بعد عودته من دمشق أنه لما بدأ المعركة ضد السوفييت ، اتصلت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقالت إن الأمريكان يضعون كل إمكانياتهم تحت أمره وإنهم علي استعداد لتقديم أية معونة يطلبها فقال لهم إنه سيحارب معركته وحده وإن كل ما يطلبه من أمريكا هو أن تعينه بالنسبة للقمح والزيوت وما شابه ذلك .: وفعلا كانت المعونة الأمريكية تقوم بدور هام فقد كانت توفر لنا الكثير من الميزانية بحيث أنها لما توقفت في سنة 65 كان لذلك أثر علي الاقتصاد المصري . .

بعد قيام ثورة العراق بفترة استولي علي الثورة عبد الكريم قاسم .. وهو عميل شيوعى مسجل بالحزب الشيوعي فألقي السوفييت بكل ثقلهم وراءه .. وكان هذا أحد العوامل التي دعتهم إلي تصعيد حملتهم ضدنا وضد الوحدة مع سوريا .. وهي الحملة التي قابلناها بالمثل - فكلما صعدوا صعدنا ، مما جعل خروشوف يقول مقولته المشهورة وهي مثل روسي شعبي قديم مؤداه «لا تبصق في بئر لأن مصيرك أن تشرب منه مرة ثانية». يقصد بهذا نصح عبد الناصر بأن لا يعكر علاقاته مع السوفييت لأنه سيضطر إن عاجلا أو آجلا إلي أن يعود إليهم .

بانتهاء الخمسينات ودخول الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام و الهزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا .. وكما أقول دائما ـ كما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها في الخمسينات فإنها كانت عملاقة في أخطائها في الستينات ..

الشيء المضيء الوحيد في سنة 60 كان إتمام كهربة خزان أسوان القديم ثم التفجير الأول لبدء السد العالي بحضور الملك محمد الخامس ملك المغرب الله يرحمه.. فيما عدا ذلك بدأت الصراعات تطفو علي السطح فيما بين أعضاء ما كان يسمي بمجلس الثورة ويجب أن أقرر هنا أني إلي هذه اللحظة لا أستطيع أن أدرك لماذا كان عبد الناصر يترك خلفه كمية رهيبة من الأحقاد .. أما بالنسبة لي فلم يكن هذا حالي في يوم ما فلا أذكر أني حقدت يوما علي عبد الناصر رغم أن بعض تصرفاته معي كان يمكن لغيري أن يفسرها تفسيرا سيئا .. ولكني لم أكن أريد شيئا لنفسي ولذلك لم أعرف الحقد... أما بالنسبة للآخرين فأنا أعرف أن كلا منهم كان بل وما يزال يحمل في نفسه كمية هائلة من الحقد علي عبد الناصر .. حتي عبد الحكيم عامر صديق العمر الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته بعبد الناصر في أواخر أيام حياته إلي عملية حقد رهيبة .

المهم .. بدأنا الستينات بأحقاد تطفو علي السطح وفي نفس الوقت فوجئنا بالوحدة مع سوريا وقد بدأت تتفكك .. كان قد انقضي علي قيام الوحدة عامان وضح بعدهما أن الأمور غير مستقيمة .. كنا قد ألغينا الأحزاب في سوريا وكان من ضمنها حزب البعث الذي قبل مع الأحزاب الأخري عملية الإلغاء آملا أنه (أو أي حزب سورى آخر) سوف يستطيع أن يحقق ما يريد من خلال الوحدة ... فلما اتضح أن هذا غير ممكن بدأوا يتندرون بالاتحاد القومي ويتآمرون علي الوحدة .. أحس عبد الناصر بهذا في سنة 60 ولكنه لم يكن يستطيع أن يمنعه .. كان يشعر أنه أمام طريق مسدود وأن أمرا ما سوف يحدث ليدمر هذه الوحدة بل ربما دمر الأوضاع في مصر نفسها ..

في نفس هذه السنة أصيب عبد الناصر بمرض السكر نتيجة لحالة اليأس والعجز التي وجد نفسه يواجهها ويشاء الله أن أصاب أنا أيضا بنوبة قلبية في ١5 مايو من نفس السنة .. نتيجة الإرهاق سنوات عديدة متتالية وللإرهاق الذي أصابني في تلك السنة بالذات عندما ذهبت إلي كوناكرى كرئيس لمؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي حيث طفا علي السطح لأول مرة الخلاف بين الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية .

قبل أن أذهب إلي كوناكرى كنت قد تركت الاتحاد القومي لأني شعرت أن عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفا مني ربما نتيجة لوشايات مغرضة وصلته - فقد كانت لديه عادة الاستماع إلي الوشايات وعندما تمس شخصه أو بيته أو أمنه يصبح من السهل التأثير عليه .. المهم أني كالعادة في مثل هذه الأحوال كنت أنا أيضا آخذ موقفا منه فأعتكف أو أبتعد عنه إلي أن يعود الصفاء إلي نفسه فيتصل بي .. وتزول الجفوة ..

وكان هذا ما حدث هذه المرة فبعد عودتي من كوناكري ومرضي جاء لزيارتي .. وكان صلاح سالم قد أشاع في تلك الأيام أن سبب إصابتي بالقلب كان عبد الناصر فسألني إذا كان ما يشيعه صلاح سالم صحيحا .. فقلت له : لا.. غير صحيح فالسبب علي ما أرجح هو تراكم سنوات عديدة بأكملها من الإرهاق والتعب الشديد قبل الثورة وبعدها ثم مناخ كوناكري الحار الشديد الرطوبة الذي عانيت منه كما لم أعاني من شيء في حياتي

في صيف سنة 60 طلب مني عبد الناصر أن أرشح نفسي لرئاسة مجلس الأمة الإتحادي الذي كان أعضاؤه مصريين وسوريين أي كان بمثابة برلمان للوحدة ففعلت وانتخبت رئيسا للمجلس وكان هذا أول عمل أباشره بعد فترة نقاهتى من النوبة القلبية التي أصابتني .. وفي نفس الوقت تقريبا عين عبد الحكيم عامر قائداً عامة للجيشين الأول والثاني - أي الجيش السوري والجيش المصري - برتبة مشير وخلع عليه عبد الناصر لقب نائب رئيس جمهورية ..

دخلنا سنة ٦١ والطريق المسدود الذي سلكته الوحدة يزداد انسدادا، فالأحزاب كلها قد بدأت تنشط و التذمر السياسي أخذت رقعته تتسع.. فقد كان عبد الناصر يعتمد في سوريا علي شخص واحد هو عبد الحميد السراج - وكان الشعب السوري قبل الوحدة يعاني مما كنا نعاني منه في مصر إلي وقت غير بعيد من كبت للحريات وسجن وتعذيب وإهانات وتصفيه جسدية تبلغ حد القتل - فبعد أن تمت الوحدة كان أملهم كبيرا في أن تتغير الأحوال ولكن هذا لم يحدث للأسف ، فلما استمر الحال علي هذا المنوال بدأت الناس في سوريا تضج وتضيق وتزداد شقاء وسخطا ، وفكر عبد الناصر وتشاور معنا في أن يرسل إلي سوريا عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثاني في الدولة الجديدة وقائد عام قواتها المسلحة عسي أن تستقيم الأمور هناك وتجتاز الوحدة الطريق المسدود الذي وصلت إليه .. ووافقناه علي رأيه .. وفعلا سافر عامر إلي سوريا رغم أن عبد الناصر كان قد ترك بها عبدالحميد السراج كما هو .. وكان هذا خطأ فاحشا لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا ..

كانت لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح.. وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة فهو يساند من يعاونه علي حق كان أم باطل

ونتيجة لكل هذا نشب صراع خفي بين عامر والسراج .. ثم أخذ يتصاعد إلي أن نزل إلي رجل الشارع في دمشق .. بينما كان عبد الناصر كعادته يناصر عامر ظالما أو مظلوما .. فإذا أضفنا إلي هذا أن

الملك سعود دفع سبعة ملايين جنيه أوصلها الملك حسين ملك الأردن للمتذمرين والمتآمرين في سوريا ثم القوانين الإشتراكية التي أصدرها عبد الناصر في ٢٣ يوليو سنة 6١ وأثرها علي المجتمع السوري الذي هو بطبعه تجار لأدركنا مدي سخط الشعب السوري علي عبد الناصر والوحدة وهو السخط الذي بلغ أقصاه عندما صحا الناس في دمشق في يوم 26 سبتمبر سنة 6١ علي وحدات من الجيش السوري وهي تحاصر القيادة العسكرية هناك .. كان عبد الحكيم يعيش في فيلا ملاصقة فهرع إلي القيادة .. ولكن الجيش السوري ضيق الحصار عليه وبدأوا يكلمونه عن طريق الميكرفون مهددين متوعدين ثم بدأوا في إصدار بلاغات حربية - بلاغ رقم 1، بلاغ رقم ٢... إلخ .. وكأن البلاد في حالة حرب - علم عبد الناصر بهذا فحاول إنقاذ الموقف .. ولكن عبثا ذهبت كل محاولاته بعد أن ألقوا القبض علي عامر وشحنوه في طائرة إلي مصر .. وبهذا تم الانفصال وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن .. وتحققت نبوءة فيصل لي .

علي مستوي رجال الثورة كان الانفصال شماتة كبيرة في جمال عبد الناصر و عبد الحكيم عامر - أما علي المستوي الشعبي فقد بدأت الناس تتململ وتسأل : لماذا حدث هذا ؟ ومن المسئول ؟ صحيح أن الانفصال قد سبقته بفترة وجيزة القوانين الاشتراكية (صدرت في ٢٣ يوليو 196١ ووقع الانفصال في ٢٩ سبتمبر 196١) تلك التي صدرت من أجل مصلحة الجماهير .. ولكن مجموع الشعب كان ما زال يفتقد شيئا هامة في حياته .. وهو الحرية .. فعندما لا يكون الإنسان آمنا علي نفسه لا يمكن أن يعوضه شيء عن هذا ..

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلي يوم أن مات .. كان يتصور أن الشعب مرتاح وسعيد وراض عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له وتهلل وتصفق .. ولكنه نسي أن في ضمير كل مواطن - حتي في الطبقات التي كان يعتقد أنه يخدمها- حقيقة أساسية تطغي علي كل حقيقة أخري .. وهي الإحساس بالحاجة إلي الحرية والأمن .

بعد عودة عامر من سوريا بعد أن عومل معاملة مهينة التقي بعبد الناصر وقال إنه لا يستطيع أن يستمر كقائد عام للقوات المسلحة بعد الإهانات التي وجهت إليه من جيش سوريا فكرامته كقائد عام لا تسمح له بالاستمرار في عمله .. رحب عبد الناصر بهذا أشد الترحيب فقد كان ينتظره أو يتمناه منذ معركة سنة 56 وبعد الموقف المتخاذل الذي وقفه عامر آنذاك والحالة التي كانت فيها القوات المسلحة في ذلك الوقت وعند الانفصال ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لعامر ترحيبه باستقالته حتي لا يتراجع فيها فقد كان كل منهما يعرف الآخر حق المعرفة و يتربص بالآخر في غيابه وحضوره ...

انقضي أسبوع بعد ذلك وعامر لا يذهب إلي القيادة وعبد الناصر يجهز الخطاب الذي سيلقيه ليعلن أن هذا هو الطريق الذي اختارته سوريا فليحفظها الله ويبارك خطواتها وعلي الجميع أن يحترموا إرادتها وما اختارته .. وفعلا ألقي عبد الناصر خطابه وكان له صدي طيب في البلاد العربية ، ولكنه لم يمض يوم أو يومان بعد ذلك إلا ويفاجأ بعبد الحكيم عامر يطلب منه سد حاجات النقص في القوات المسلحة وغير

ذلك مما يشير إلي أنه مستمر في عمله كقائد عام .. حينئذ أسقط في يد عبد الناصر ولم يدر ماذا يفعل .. طبعا كان وراء تراجع عبد الحكيم مستشاروه من أمثال شمس بدران و بعض خاصته وأهله وكان لهم تأثير سيء عليه .. وإحساسه بأنه شريك عبد الناصر فما دام عبد الناصر يحكم ، يجب أن يظل عامر قائدا عاما للقوات المسلحة .. .

حينما سمع عبد الناصر هذا من عامر جن جنونه ، ولكنه أخفي شعوره و دعانا جميعا للاجتماع به وطرح الأمر علينا .. قلنا له ببساطة إن هذا الأمر لا يحتاج إلي مناقشة فرأينا يا جمال أن عبد الحكيم كان يجب أن يترك القيادة منذ 56 لا في 61 .. صحيح أنه شهم ولطيف إلي آخره .. لكنه لا يصلح من ناحية العمل العسكري .. باختصار قلنا جميعا وفي نفس واحد لجمال إن استبعاد عامر من الجيش مسألة مفروغ منها ولا تقبل الجدل .

لم يمنعنا هذا بطبيعة الحال من أن نتساءل فيما بيننا بعد خروجنا من الاجتماع لماذا استدعانا جمال عبد الناصر ؟ فقد كان من الطبيعي وهو رئيس للجمهورية أن يصدر بعد الانفصال مباشرة قرارا بتعيين قائد عام جديد للقوات المسلحة والاكتفاء بأن يكون عامر نائبا لرئيس الجمهورية كما كان .. اتضح لنا فيما بعد أن عبد الناصر كان يريد أن يأخذنا كرأي عام ضد عامر .. بينما لم تكن المسألة في نظرنا تحتاج إلي هذا .. فنحن لسنا الشعب... أما الشعب فقد كان يطالب برأس المسئول عن السبب في كل هذا ..

بعد خروجنا قام عبد الناصر باستدعاء عامر وجعلا يناقشان الأمور فيما بينهما .. وبعد عدة اجتماعات بينهما اختفى عامر فاستدعانا عبد الناصر مرة أخري وقال لنا إنه أبلغ عبد الحكيم بالقرار الذي اتخذناه ولكنه رفض الاستجابة له .. ثم اختفي حيث لا يعلم أحد ولو أنه عرف بعد ذلك أنه كان في مرسي مطروح .. كان ردنا علي عبد الناصر أنه لو تراجع في القرار الذي اتخذناه بالإجماع فهو بصراحة يتنكر لمصلحة مصر .. ثم لماذا يسألنا الرأي .. إنها مسئوليته وحده كرئيس للجمهورية .

في هذه الأثناء - وإغاظة في عبد الناصر - قدم عامر له الاستقالة المشهورة التي طبعها بعد ذلك في سنة ٦٧ وقال فيها إنه استقال من أجل الديمقراطية في سنة ٦٢ وغير ذلك من أمور كان يعلم جيدا أنها تثير حنق عبد الناصر . فمثلا قال إنه لا يقبل أن تحكم البلد هكذا بدون أحزاب وبدكتاتورية مطلقة ..

كان عامر يعرف جيدا أن عبد الناصر لن يقبل أن تخرج هذه المسائل إلي البلد لأن الشعب كله كان يريد الديمقراطية .. فإذا قبلت هذه الاستقالة .. ستجعل من عامر بطلا قوميا .. فاستدعانا عبد الناصر مرة أخري وعرض علينا الاستقالة – وكان ردنا عليه أنه هو الرئيس المسئول وما كان بحاجة إلي أن يستدعينا قبل ذلك أو في هذه المرة ..

أرسل عبد الناصر في طلب عامر والتقيا .. وهنا تظهر علامة استفهام كبيرة في علاقات عبد الناصر وعامر .. فقد حدث عكس ما كنا نتوقعه تماما .. إذ اتفقا علي أن يترك عامر منصب قائد عام القوات المسلحة ويتسلم منصة آخر اسمه نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة .. فالقائد الأعلى هو دائما رئيس الجمهورية - وهذه وظيفة شرفية حسب الدستور ولكنها ليست كذلك في وقت الحرب .. فالقائد الأعلى عليه أن يوقع أمر القتال كما عليه أن يوقع الأمر الاستراتيجي لقائد القوات المسلحة الذي يحدد فيه استراتيجيته للمعركة ، ومع ذلك أصر عامر علي أن يتولي القيادة الفعلية – فلا يعين قائد عام بدلا منه ... وقد سلم له جمال بذلك بينما كان ينوي أن يعين محمد فوزي قائدا عاما في ٢٣ يوليو سنة ٦٢ (وكنا في ذلك الوقت في ديسمبر سنة 61) فلما أتي ٢٣ يوليو ، وجدنا أن الوضع ما زال كما كان .. فما زال فوزي رئيس أركان حرب وجميع الضباط الكبار الذين كانوا مع المشير عامر كما هم لم يتغيروا - فبدأنا نتساءل فيما بيننا .. فم كان إذن استدعاء عبد الناصر لنا وأخذه مشورتنا المرة بعد الأخري ؟ لقد عادت المياه إلي مجاريها بين عبد الناصر وعامر وكأن شيئا لم يكن .. كل ما حدث هو أن رقي عامر من منصب قائد عام القوات المسلحة إلي نائب القائد الأعلى بسلطات القائد العام ..

واستمر الحال علي ما هو عليه حتي وقعت كارثة 67 ...

ولما كان عبد الناصر قد أبلغ عبد الحكيم بأن الذي اتخذ قرار تنحيته عن القوات المسلحة هم إخوانه أعضاء مجلس الثورة - بدأت المياه بيننا وبينه تتعكر .. ولكنه بعد أن فكر في الأمر مليا اهتدي إلي أننا لم نتخذ هذا القرار وحدنا فلابد أن عبد الناصر هو الذي دعانا إلي اتخاذه - أضف إلي هذا أنه عرف بالاجتماع الذي تم بيننا وبين عبد الناصر في بيته ، ولذلك نجد أن عبد الحكيم عامر بدأ منذ ذلك الوقت - أي أول سنة ٦٢ - يأخذ احتياطه من عبد الناصر كما بدأ عبد الناصر يأخذ احتياطه من عبد الحكيم بدلا من أن يحسم الأمور كرئيس للجمهورية وهكذا نشأ أول مركز قوة في مصر يباشر عمله بصراحة .. فقد أصبح هم عامر الأول أن يؤمن نفسه ضد عبد الناصر بعدما تأكد لديه المعني الذي كان دائم الاحساس به وهو أن هناك صراعا وعدم ثقة وفجوة بينه وبين عبد الناصر وبينه وبين الباقين من مجلس قيادة الثورة ..

و هكذا نجد أن الصراع الذي بدأ في أول الستينات قد ازداد اتساعا وازداد معه التمزق لأن الحقد أصبح دفينا بين عبد الناصر وعامر ، وعامر وحده والباقين ، وعبد الناصر وحده والباقين وأنا واقف أتأمل موكب الصراع هذا وقلبي يتمزق ألما..

كان هذا الموقف هو المقدمة الأولي لهزيمة 67 .. فقد انصرف عبد الحكيم عامر إلي تثبيت مركزه ليس فقط داخل القوات المسلحة بل في البلد كلها .. وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلها ..

فالقوات المسلحة التي فاجأها الانفصال وهي في حالة عدم استعداد زاد فيها الإهمال ثم جاءت حرب اليمن فبدلا من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال .. ولم يكتفي عامر بهذا فلكي يثبت أقدامه في جميع المجالات سعي إلي أن يعهد بالمؤسسات المدنية إلي الضباط وكذلك كان لابد أن يكون رؤساء المؤسسات من الضباط السابقين - و نفس الشيء بالنسبة لروساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد حتي الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها..

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذي حدث .. فقد زادت هذه

التصرفات من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه .. وفي أعقاب الإنفصال كانت البلد ممزقة نتيجة لكبت الحريات وعدم وجود الديمقراطية بأي شكل من الأشكال .. مما شجع العناصر الغير راضية علي أن تتحرك و هكذا ازداد تململ الشعب وقلقه .. وقد صور كل هذا إلي عبد الناصر علي أنه ثورة مضادة و بناء عليه فرضت الحراسات علي السياسيين القدامى .. ولكن لم يكن هذا الإجراء كافيا لامتصاص غضب الناس وتذمرهم بل علي العكس ربما زاده وعمقه. .ولذلك لجأ عبد الناصر إلي إجراء آخر وهو إنشاء لجنة تأسيسية أو كما أسموها لجنة حوار مكونة من أكثر من مائي شخص أغلبهم من المثقفين .. عهد بأمانتها إلي وكنا نجتمع في قاعة مجلس الأمة وكان عبد الناصر يحضر أغلب جلسات هذه اللجنة ويشترك في مناقشاتها التي نشرت علي الناس في الصحف فقد كان الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس همومهم ويسعي إلي حل مشاكلهم ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأي اللجنة في النهاية وهو إصدار ما يسمي بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها و سياستها فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصبة علي عدم وجود أي منهج وفعلا وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلي المؤتمر القومي الكبير الذي عقدناه .. وقرأه مادة مادة وصدق عليه الحاضرون وحقق بعض الغرض من صدوره فقد شغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم النواحي الأيديولوجية التي كان يحتويها .

في هذه الأثناء كان التنظيم السياسي موجودا ولكنه كان بالتعيين لا بالانتخاب فهو أعرج لا يملك من أمر نفسه الكثير .. لذلك نجده لا يقوي علي أن يضع الميثاق موضع التنفيذ .. لقد صدر الميثاق فعلا وأصبح يدرس في منظمات الشباب و الجامعات ولكن شيئا مما نص عليه لم ينفذ..

في صيف سنة ٦٢ عقد في لبنان مؤتمر شتورة الذي ضم السعودية وسوريا والأردن والعراق ولبنان بقصد مهاجمة مصر وعزلها ثم ضرب النظام .

موقف مؤسف للغاية - ولكن يشاء الله أن تقوم ثورة اليمن بعد ذلك بفترة وجيزة في 6 سبتمبر سنة ٦٢ (وهو تاريخ الانفصال قبل ذلك بسنة) فكانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذي مول الإنفصال والذي كان في ذلك الوقت يدعم الحملة ضدنا ، فاليمن علي حدوده مباشرة .. ولذلك عندما اجتمع مجلس الرئاسة هنا للنظر في طلب ثوار اليمن للنجدة كنت أول المتحمسين وأقنعت المجلس بضرورة مساندة الثورة - وفعلا تم هذا .

كنت أنا المسئول عن الجانب السياسي في الثورة اليمنية وكان عامر هو طبعا المسئول عن الناحية العسكرية - ولكنه كعادته أساء التصرف فبدلا من أن يجعل من حرب اليمن ميدانا لتدريب قواتنا علي حرب العصابات وعلي تكتيكات جديدة ، انقلبت الحرب إلي تجارة ومنفعة وأصبحت مسرحا جديدة يثبت عليه عامر أقدامه وينشر نفوذه بحيث لا يستطيع أحد أن يزحزحه عن مكانه كمركز القوة الأول في مصر .. هذا إلي جانب أنه تورط في المعونة العسكرية من لواء إلي لوائين إلي أن أصبح لنا في يوم من الأيام ٧٠ ألف جندي هناك لم يتم سحبهم إلا بعد هزيمة 67 عندما اتفق الملك فيصل مع عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم علي ذلك ..

فشلت حرب اليمن عسكريا فقد كنا نحارب بجيش نظامى عدوا متمرسا في حرب العصابات ، ولكن رغم كل شيء لا أستطيع القول بأن تضحياتنا ذهبت هباء ، فاليمن قد تخلصت من حكم الإمام الذي كان أسوأ من أي حكم في العصور الوسطي .. ثم إن عدن نالت استقلالها كنتيجة طبيعية لمعركتنا في اليمن .. صحيح أن الحرب قد استنفدت جزءا كبيرا من رصيدنا من العملات الصعبة ، وأنها عاقت فرقتين من أكفأ الفرق العسكرية عندنا عن الاشتراك في حرب 67 .. ولكن هذا كله لا ينفي أن التدخل في ثورة اليمن كان ضربة سياسية لابد منها .. فقد

كانت من العوامل الهامة التي كبحت جماح سعود وهزت مكانته بين أهله وعائلته مما أدي في النهاية إلي أن يحل الملك فيصل مكانه .. وكان هذا مكسبا رائعا لا للسعودية فحسب بل للقومية العربية كلها .

في سنة 1965 كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلي مرحلة يرثي لها فعلي صبرى كرئيس للوزراء لا يتخذ قرارا في أي شيء .. لأنه بطبعه يخشى المسئولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه .. فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب.. وهكذا كان علي صبرى .. فإذا أضفنا إلي هذا ميله الطبيعي إلي التجسس علي الناس و تدبير المؤامرات والعمل في الخفاء لأدركنا سر تبرم الناس به .. فماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها .. ومما جعل الحالة تزداد سوء أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات و مواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجل ابتداء من سنة ٦2 علي أساس حلها بخطط طموحه لم تكن قابلة للتنفيذ .. مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد أخري .. بحيث أصبح من العسير حلها.. وكان العذر الذي يتذرع به المسئولون في هذا أن الخدمات والمرافق يمكن التضحية بها في سبيل إقامة مصانع للانتاج بالاشتراك مع السوفييت .

في نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر .. فوضعنا في موقف حرج. إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين علي أمريكا في القمح الذي كنا نستورده منها بالجنيه المصري فيوفر لنا حوالي 80 مليون استرليني نستفيد منها في مشاريعنا .

لم نجد إزاء قطع المعونة الأمريكية سوي أن نلجأ إلي الاتحاد السوفيتي فذهبنا إلي موسكو في سبتمبر 1965 .. عبد الناصر وأنا وزكريا محي الدين ..

كان قد حدث تغيير في القيادة السياسية للاتحاد السوفييتي سنة 64 عندما عزل خروشوف .. الرجل الذي كان يدرك قوة مصر بعد معركتين لنا معه في سنة ٥٩ ثم سنة 61 وبدأ يستجيب لمطالبنا واتخذنا منه صديقا - إن لم يكن لأي سبب - فلأنه كان حاسما صادقا معنا لا يراوغ مثل من سبقوه .. لذلك حملنا حملة شديدة علي السوفييت فأرسلوا لنا شيليبين الذي قام بالإنقلاب ضد خروشوف .. ليمهد الحو للمصالحة بيننا وبين السوفييت فلما ذهبنا إلي موسكو في سبتمبر 1965 وجدناهم

- أي القيادة الجديدة - حريصين كل الحرص علي إرضائنا لكي يصلحوا ما تركته عملية عزل خروشوف في نفوسنا من ناحية ومن ناحية أخري لكي يعادلوا أو يمحوا أثر زيارة (شواين لاى) لمصر التي استغرقت أسبوعين كان ينتظر فيها ما سوف يحدث بالنسبة لمؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي الذي كان من المفروض أن يعقد بالجزائر ثم قام بومدين بالانقلاب علي بن بيللا قبيل انعقاد المؤتمر مباشرة .

كان هدفنا من زيارة موسكو أن نقنع السوفييت بتأجيل الأقساط التي علينا حتي يمكننا بما عندنا من مال تعويض قطع المعونة الأمريكية عنا وكذلك استكمال خططنا الطموحة ، وقد استجاب السوفييت لمطالبنا بصورة لم نكن نتوقعها.. وكانت الديون التي علينا تعادل 4٠٠ مليون جنيه استرليني - فقرروا حذف نصفها بحيث يكون ما يتبقي لهم من ديون ٢٠٠ مليون جنيه فقط .. ونتيجة لهذا تخفض الأقساط بطبيعة الحال ..

استجاب عبد الناصر لمشاعر الجماهير في نهاية سنة 1965 فعزل علي صبرى من رئاسة الوزارة وعين بدلا منه زكريا محي الدين .. ولكن زكريا لم يمكث في منصبه إلا شهور قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر .. ولو أن وراء هذا الخلاف كان عبد الحكيم عامر الذي كان يكره زكريا ويفضل أن يرأس الوزارة رجل من أتباعه .. وقد تحقق له ما أراد فعين صدقي سليمان رئيسا للوزارة بدلا من زكريا .. ولكن هذا لم يمنع عامر من استمرار زحفه علي السلطة

حتي أصبح كل شيء في البلد يعهد به إلي القوات المسلحة أو البوليس الحربي .. النقل العام مثلا في حالة سيئة فيتبع للقوات المسلحة لاصلاحه - الثروة السمكية تشرف عليها القوات المسلحة وفي سنة 65 عندما قيل إن هناك مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمون تولي أمرهم البوليس الحربي وشمس بدران أهم معاوني عامر .. وكما اتضح بعد ذلك كان هناك تعذيب وإهانة وامتهان لكرامة الإنسان .

لا أستطيع أن أجزم بأن عبد الناصر كان علي علم بما حدث .. ولكني في الوقت نفسه لا أستطيع تبرئته من المسئولية فالرئيس دائما هو المسئول مهما كانت أخطاء معاونيه ومساعديه و مهما كانت نواياه هو .

وكالعادة فقد كان عبد الناصر يعتبر أن أي احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتي محاولة لتقصي الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصدور ثورة مضادة .. ولابد من إجراءات لمواجهتها .. ولذلك فإنه بعد عملية الإخوان كان لابد في نظره من إجراء مضاد ، وكان الإجراء هذه المرة أقسي وأعنف ما شهدته مصر في تاريخها، فقد شكلوا لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع وطبعا تولي رئاستها عبد الحكيم عامر.

كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكبت والإذلال .. فقد اعتدوا علي كرامة الإنسان وهو ما لا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأي سبب .. فالشعب المصري يقبل الجوع والفقر والحرمان .. ولكنه لا يقبل امتهان الكرامة .. ولقد وضعوا تحت نظري في ذلك الوقت عدة

حالات تدل علي ما كانوا يفعلون ولكني لولها لم أصدق إلي أن مارست التجربة بنفسي ..

في يوم وأنا في زيارة لقريتي ميت أبو الكوم وكان ذلك في سنة 66 التقيت بأحد أبناء القرية وهو مهندس زراعى فسألني إذا كنت قد اطلعت علي قرار لجنة الإقطاع بالنسبة لمركز تلا وهي بلدة قريبة من قريتي .. فقلت لا لم أقرأ شيئا بهذا الصدد فأطلعي علي إحدى الصحف اليومية فإذا بي أفاجأ بأن عددا من العمد وأهل المنطقة قد وضعوا جميعا تحت الحراسة وعزلوا من مراكزهم ... كنت أعرفهم واحدا واحدا .. وكنت أعلم علم اليقين أنهم من خيرة الناس وأنهم جميعا يؤيدون الثورة بما لا يقبل الشك ..

لم أكن أتصور أن الأمور قد وصلت إلي هذا الحد .. فأخذت سيارتي وعدت في الحال إلي القاهرة وأنا غاضب كل الغضب .. وبحثت عن عبد الحكيم عامر إلي أن وجدته ، فاتصلت به تليفونيا وقلت له كيف يحدث هذا ؟ إنه عبث بمقادير الناس و.. و.. فرد علي بهدوء : وفيم الغضب ؟ نلغي القرار .. وفعلا ألغي القرار في نفس اليوم الذي صدر فيه .. وكان هذا هو القرار الوحيد الذي تراجعت عنه لجنة تصفية الإقطاع في نفس يوم صدوره .. .

كانت هذه تجربتي مع لجنة تصفية الإقطاع - ولكني سمعت بعد ذلك قصص رهيبة تدل كلها علي مدي امتهان السلطة للإنسان المصري والقيم التي نشأ عليها .. فمثلا كانوا يقتحمون البيوت بالليل ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن في الطرقات والأزقة يبحثن عن مأوي يسترهن .

هكذا كان حال مصر داخليا في سنة 66 .. أما من الناحية الخارجية فقد كنا في حالة مواجهة كاملة مع أمريكا وكان عبد الناصر عنيفا في خصوماته لا يعرف لها حدة فاندفع في هذه الخصومة إلي نقطة اللاعودة معتمدا علي مساندة السوفييت له - ولكن حدث في هذه الأثناء أن وجهت الحكومة الأمريكية الدعوة إلي لزيارة أمريكا بصفتي رئيسا لمجلس الأمة - رغبة منهم في أن يحققوا شيئا من الهدنة أو التقارب ..

رحب عبد الناصر بالفكرة فقد بدأ يشعر أنه أخطأ في حق الأمريكان أكثر من اللازم عندما وجه الكلام إلي أمريكا في إحدى خطبه قائلا : « فلتشرب من البحر الأبيض و إذا كان هذا لا يكفيها فهناك البحر الأحمر .. فقبلت الدعوة و سافرت مع زوجتي إلي أمريكا حيث استقبلونا أحسن استقبال .. وعندما زرت الكونجرس أجلسوني علي مقعد الرئيس وهو نفس الكرسي الذي جلست عليه عند زيارتي لأمريكا عام ١٩٧٥ ..

ولكن في عشاء رسمي أقامه هاريمان أكبر مستشاري الرئيس الأمريكي فاجأت صحفية أمريكية بسؤال لم يكن يخطر علي بالي .. قالت وفي يدها إحدى الصحف : ما رأيك في هذا التصريح ؟ قلت : أي تصريح ؟ فقرأت من الصحيفة الي معها تصريحة لعبد الناصر يهاجم فيه أمريكا بأعنف الألفاظ . قلت لها وقد وجمت :

ليس عندي أي تعليق .. وتساءلت في نفسي لماذا يفعل عبد الناصر ما فعله ؟ بعد أن اتفقنا علي أن نبذل مجهودا لتحسين العلاقات وبعد تشجيعه لي علي اتمام الزيارة ؟

وإذا كان هذا قصده فلماذا وافق علي الزيارة أصلا ..؟

أمور غريبة لا يمكن فهمها أو تبريرها .. ولكنها لم تؤثر علي زيارتي لأمريكا .. فقد بذل الأمريكان أقصي جهدهم لإنجاح الرحلة .. وأذكر أننا في زيارتنا لسان فرانسيسكو كانت مديرة المراسم يهودية فحاولت أن تعتذر لمرضها عن استقبال ومصاحبة زوجتي .. ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تمكنها من ذلك .. فقد أمروها بأن تؤدي واجبها أولا ثم تدخل المستشفى بعد ذلك ..

انتهت سنة 66 والصراع بين عبد الناصر وعامر علي أشده فكل منهما متربص بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يوم يوسع رقعة سلطانه . فعن طريق لجنة الإقطاع والتعلل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبقي من يشاء في مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما في ذلك النوادي الرياضية بل إن شكاوي الهيئات العامة أو الأفراد كانت تحال إلي القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يتراءي لها.. وهكذا تراكمت السلطات في يد عامر حتي أصبح الآمر الناهي والمتحكم في مصير الناس وفي كل ما يتعلق بالبلد من أحداث .

هذه هي الصورة التي كانت عليها مصر في مستهل سنة 196٧ فكيف كانت في عيون من تبقي من رجال الثورة في الحكم ؟

خرج زكريا محي الدين من رئاسة الوزارة وفي حلقه غصة .. ولكنه من النوع الكتوم لا يتكلم كثيرا .. أما عبد الناصر فكان يراقب ما يفعله عامر وهو أيضا مليء بالمرارة ، عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئا – بينما كان عامر يزيد كل يوم من رقعة سلطته بل كان يسعي إلي رئاسة الوزارة ليضع السلطة في يده كاملة ..

هكذا دخلنا سنة 6٧ والكآبة تخيم علي مصر فالبلاد مفلسة لأن الخطة طموحة ولا يوجد المال الكافي لتمويلها ومشاكل الخدمات التي أجل علي صبرى حلها منذ سنة 6٢ تتراكم يوما بعد يوم وذلك حتي يتظاهر أمام عبد الناصر بأنه يبني صناعات لم تكن تقوم في الحقيقة علي أي أساس وأخطر من هذا كله الصراعات التي بلغت أشدها بين من يحكمون من رجال الثورة وأذنابهم .

في يوم جمعة في فبراير سنة 6٧ ذهبت لزيارة عبد الناصر علي غير موعد كعادته معي .. فسألت الضابط المختص إذا كان عبد الناصر قد استيقظ من النوم فأجابني بأنه استيقظ منذ مدة وهو الآن في حجرة مكتبه فدخلت الحجرة ورأيت عبد الناصر يجلس وقد وضع رأسه بين يديه حزينا مهموما .. وقفت أراقبه حوالي دقيقتين ثم فاجأته بسؤالي : «

جري إيه يا جمال ؟ مالك ؟» التفت إلي في دهشة فقد كان واضحا أنه لم يحس بدخولي الحجرة وقال : - إيه اللي جابك النهارده يا أنور ؟

قلت : النهارده الجمعة - وأنا لي مدة لم أرك - قلت أفوت عليك أدردش معاك شوية و أنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقي لوحدك ..

قال لي : والله عملت طيب .. اقعد.

جلست وسألته مرة أخري : مالك شايل الدنيا علي دماغك ليه يا جمال ؟ واضح أنك شايل الدنيا علي دماغك ..

قال : أيوه .. فعلا أنا شايل الدنيا علي دماغى .. يا أنور البلد بتحكمها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل .. أني أبقي الرئيس المسئول واللي بيحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللي عاوزه .. طيب أخرج أنا أحسن و أروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي .. ويتولي هو رياسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللي قعدتها لغاية ما حأخرج .. أجاوب عن أي شيء..

كان واضحا أن عبد الناصر كان علي معرفة بما يجري في البلد، المشاكل المتراكمة منذ سنة ٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس - وضراوة مراكز القوي سواء من ناحية عامر أو شعراوي جمعة وسامى شرف أو علي صبري أو مستشاره الصحفي .. وحجرهم علي الحريات واحتكارهم لجميع الإمتيازات ..

قلت له : مش معقول يا جمال تسيب رياسة الجمهورية وتقعد في الاتحاد الإشتراكي عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكموا مصر .. أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه - هم اللي تسببوا في فشل الوحدة مع سوريا - ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى تقول له نشيل صدقي قائد الطيران يقول قبل ما تشيلوه شيلوني أنا .. خلقته كده .. ولذلك أعتقد أنه أفضل شيء إنك تجيبه وتكلمه بينه و بينك وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا داخلين علي كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لي إن عنده ضيفا وانتظرت في حجرة مكتبه إلي أن يخرج الضيف .. وبعد فترة جاء عبد الناصر وبادرني بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللي كان عندي دلوقتي ؟ قلت : مين ؟ قال : شمس بدران - فاكر حديثنا اللي قلت لك فيه علي حكاية العصابة ؟ قلت له : آه.

قال لي : يا سيدي الحكاية كملت .. شمس بدران جاى لى دلوقتي بيطلب رسمى إن المشير يأخذ رئاسة الوزارة .. وحجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى .. مش عارف أن معظم الحاجات اللي بتشتكي منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات أتباعه ؟

قلت له : طيب أنت قلت إيه ؟

قال : والله أنا خدت الموضوع ببساطة .. قلت له أنا ما عنديش مانع .. قل له أنا موافق بس يترك القوات المسلحة وياخد رياسة الوزارة - أنا حلاقي مين يمسك الوزارة أحسن من عبد الحكيم ؟

قلت له : أنا ما زلت عند رأيي إنك تقابله و تتكلموا مع بعض وأنت عارف أنه بيقبل منك ما لا يقبله من أي شخص آخر - بالشكل ده ممكن الموضوع يتلم والمسائل تتحل .

عبد الناصر قال : لا يا أنور .. العملية ماشية في اتجاه غلط .

طبعا كان رد عامر علي رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلي عنها لأي سبب من الأسباب فهي مركز القوة الأول .. بعد ذلك تطورت الأمور في لجنة الأقطاع فبلغت أقصي الضراوة في مارس وإبريل ومايو حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة في تلك الفترة بالذات إلي تصفيه العائلات .. وهي في رأيي مسألة خطيرة .. في تقديري - والله أعلم- أن مستشارو جمال كانوا يغذون هذا الاتجاه في نفس عبد الناصر .. وكان أهمهم وهو مستشاره الصحف فهو يمقت العائلات ويتحين الفرصة للشماتة فيها .. ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الإنسان .. حتي أن أهل الصعيد عندما

كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجا « آخد نفقه زى الست » ؟

فقد كانوا يطلقون علي المبالغ الضئيلة التي يدفعونها لمن تفرض عليه الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة (نفقة) وهي نفس الكلمة التي تطلق علي المبلغ الذي يدفعه الزوج ليعول مطلقته ..

استمر الحال علي هذا النمط إلي منتصف مايو حيث كان من المقرر أن يتم القضاء علي العائلات جميعها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة .. ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبة القاتمة في أواخر مايو و أوائل يونيو فأوقفت تلك الإجراءات فكل كارثة لها جانب آخر .. يقول المثل الإنجليزي «كل سحابة داكنة لها شريط فضي يبرق وسط العتمة»..

سافرت في ذلك الشهر وهو مايو سنة 196٧ إلي كوريا الشمالية ثم إلي موسكو ، حيث استمعت هناك إلي عبد الناصر وهو يلقي خطابه في أول مايو .. كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . ويستشهد بحادث وقع في قرية مجاورة لقريتي وسمعته يذكر اسمي فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلي عبد الناصر ثم تصدر الأحكام بدون فحص هذه الحقائق .

القرية كانت هي كمشيش وقد كانت مسرحا فعلا لإقطاع لم تشهد له البلاد مثيلا ، ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا في الواقع أسوأ من الإقطاع الذي نشهد به جميعا في المنطقة . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلي تطبيق الماركسية وفي هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع ولم يكن هناك ما يدعو لذلك لأننا صفينا الاقطاع في هذه القرية ووزعت الأرض علي الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة ..

لقد كانت هذه القرية في ذلك الوقت مركزا من مراكز النشاط الشيوعي في الدلتا حتي أن الشيوعيين أخذوا بجان بول سارتر إلي كمشيش تفاخرا بما صنعوا

تضايقت وأنا أستمع للخطاب فعبد الناصر كان معي منذ سنتين ونحن نمر بهذه البلدة ضمن بلاد المنوفية الأخرى وذلك أثناء انتخابات الرئاسة ، وقد أفهمته حينذاك حقيقة الضجة التي أثارتها العناصر الشيوعية وعنف مساعديه علي ذلك في ذلك الوقت .

علي أي الأحوال فإنه بعد ١5 مايو 67 لم تنعقد لجنة الإقطاع إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة 5 يونيو 196٧ .

في عودتي من موسكو كان يرافقني إلي المطار سيمينوف نائب وزير الخارجية ومعه رئيس البرلمان السوفييتي .. وتحدثنا طويلا إذ تأخرت الطائرة ساعة أو أكثر وكان حديثهما معي يدور حول موقف سوريا وكيف حشدت إسرائيل عشر لواءات علي حدودها .. وعندما عدت إلي مصر وجدت أنهم قد أبلغوا عبد الناصر نفس الخبر وبعدها صرح أشكول رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا اقتضي الأمر فسوف تحتل القوات الإسرائيلية دمشق .

في ذلك الوقت كانت بيننا وبين سوريا إتفاقية دفاع مشترك .. وإلي جانب هذا كان الروس علي طريقتهم يمارسون لعبة ضرب الزعماء العرب بعضهم البعض .. كما حدث أثناء حكم عميلهم قاسم في العراق .. وفي هذه المرة استثاروا عبدالناصر وضربه بالقيادة السورية علي أنها أكثر تقدمية ولذلك أعطي الأوامر لعبد الحكيم عامر بحشد قواتنا في سيناء وكان الهدف الحقيقي من هذا تخويف إسرائيل ..

ولكن ما لبث زمام الأمور أن أفلت من يديه في ذلك الوقت كان الكثيرون من إخواننا العرب يعايرون مصر بأنها تركت مضايق تيران مفتوحة حتي أن عامر وهو في زيارة لباكستان تضايق من المزايدات العربية بالنسبة لمضايق تيران فأرسل برقية يطلب فيها إغلاق المضايق .. علي أي الأحوال جمعنا عبد الناصر علي هيئة لجنة تنفيذية عليا في أواخر مايو سنة 196٧ كان فيها عامر وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وأنا وعلي صبري وصدقي سليمان رئيس الوزارة في ذلك الوقت .. وقال لنا: «إن حشودنا في سيناء تجعل الحرب محتملة ... أما إذا أقفلنا المضايق فالحرب مؤكدة مائة في المائة » .. ثم التفت إلي عامر وقال له :

هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فوضع عامر يده علي رقبته

وقال : - « برقبتي يا ريس .. كل شيء علي أتم استعداد » .

كنا نعلم أن تسليحنا كامل دون شك .. وقد كان سلاحنا بالفعل حينذاك أقوي عشرات المرات من سلاحنا في حرب أكتوبر ٧٣ ولذلك عندما

سألنا عبد الناصر عن رأينا وافقنا بالإجماع علي اغلاق المضايق ما عدا صدقي سليمان رئيس الوزراء في ذلك الوقت الذي طلب التروي وأن نأخذ في الاعتبار حالتنا الاقتصادية والخطط الطموحة التي لم تستكمل وأكثرها لم ينفذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكية . لم يعر عبد الناصر اعتراض صدقي سليمان أي اهتمام فقد كان ميالا إلي إغلاق المضايق حتي يوقف مزايدات العرب عليه وحتي يحتفظ بمكانته الكبيرة في الأمة العربية - وبهذا أصدرت الأوامر بإغلاق مضايق تيران وسحب قوات الطواريء الدولية .

وقد صنع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع في حين كان السوفييت لا يكفون عن التنبيه بأن توقيت الأحداث أسرع مما يجب و لكن عبد الناصر كان مصرا علي اندفاعه وأنزل الستار علي هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفي

الذي عقده علي مستوي عالمي وكان قمة في التحدي و العنف . .

ارتبك الموقف الدولي نتيجة لهذا .. وساعد السوفييت علي بلبلة الرأي العالمي كما هي عادتهم في مثل هذه المواقف خوفا من أن نورطهم في شيء أو آخر وبدأت إسرائيل في نفس الوقت تستخدم سياسة الاستكانة والصراخ والاستنجاد .

بعد إغلاق مضايق تيران أصبحت الحرب موكدة ولذلك كنا نتوجه للاجتماع في القيادة العامة يوميا .. كانت هذه الاجتماعات تضم جميع قادة القوات المسلحة بينما كانت قواتنا كلها محتشدة في سيناء .. وأرسل السوفييت في طلب أحدنا فسافر إليهم شمس بدران بصفته وزيرا للحربية .. وفي الكرملين سألوه كيف سيكون تصرف مصر لو تدخل الأسطول السادس الأمريكي فأجاب بلا تردد : «عندنا ما يدمره» مشيرا بذلك إلي الطائرة تي يو 16 حاملة الصواريخ وسرعتها وهي تحمل الصاروخ ٥٠٠ كيلو أي نصف سرعة البوينج التجارية .. وكانت نكتة تندروا بها في الكرملين كما تندرنا بها نحن هنا كثيرا .. المهم عاد وزير الحربية من روسيا بعد أن عقد مع السوفيت صفقة أسلحة غير مقيدة بزمن محدد كما هي عادتهم ، فهدف السوفييت دائما وفي كل الظروف أن يزيدوا الموقف ارتباكا ولكن الأهم من هذا أن يكون التوقيت في

أيديهم هم حتي تكون لهم السيطرة وهذا ما جعلني أتخذ ما أخذت من قرارات بالنسبة للخبراء السوفييت أو غير هذا فأنا أدري بمصلحة بلادي منهم .. ثم إنني أرفض أن يكون لنا ولي أمر بتولي عنا شئوننا .

في يوم الجمعة ٢ يونيو صدق جمال عبد الناصر علي الخطة بصفته رئيسا للجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة .. هذا إلي جانب أنه كان عسكريا ممتازا وخدم وحارب في سيناء ويعرفها شبرا شبرا .. وأذكر في ذلك اليوم أن عبد الناصر قال لقائد الطيران صدقي محمود إن أول ضربة ستقع علي الطيران .. فالتفت هذا إليه وقال في عصبية واضحة : يا فندم احنا عاملين حسابنا ولن تزيد الخسارة علي عشرة في المائة ...

في نفس اليوم قال عبد الناصر إن الهجوم سيقع يوم السبت أو يوم الأحد أو علي أكثر تقدير يوم الإثنين 5 يونيو فقد تغيرت الحكومة الإسرائيلية وشكلت وزارة ائتلافية دخلها موشي ديان وزيرا للدفاع واشترك مع أشكول وجونسون في عملية تعمية متعمدة حتي يوهموا العرب أنه ليس في نيتهم دخول الحرب ولكن المسألة كانت أوضح من أية تعمية .

عندما وقعت الكارثة يوم 5 يونيو علمت أن الخطة التي صدق عليها عبد الناصر غيرها بعد ذلك عبد الحكيم عامر بالكامل .. وكان هذا واضحا كل الوضوح فقد احتلت إسرائيل العريش مساء 5 يونيو مع أنها لم تستطع ذلك في سنة 1956 بينما كانت قواتنا في ذلك الوقت أضعف عشرات المرات مما كانت عليه في سنة ٦٧.

وفي يوم الإثنين 5 يونيو وبناء علي تغييره للخطة أخذ عامر جميع القادة معه في طائرة وراح يفتش علي سيناء - ومن الطبيعي أنه عندما يكون القائد العام في الجو تصدر الأوامر للصواريخ بالتوقف عن العمل وفي هذه الأثناء ضربت إسرائيل جميع مطاراتنا وطائراتنا وهي علي الأرض .. وهكذا يمكن أن نقول إن الحرب بدأت وانتهت و عامر في الجو.

كيف علمت أنا بالكارثة وكيف استقبلتها ؟ في صباح الإثنين 5 يونيو عرفت من الراديو أن إسرائيل قد بدأت الهجوم فقلت في نفسي .. حسنا .. سوف يتعلمون درسا لن ينسوه مدي الحياة - كنت مطمئنا كل

الاطمئنان .. فحلقت ذقى وارتديت ملابسي علي مهل وتوجهت بسيارتي إلي القيادة - كنت قد حضرت إعداد الخطة بالكامل وكانت ثقتي بالنصر أكيدة .. فعدتنا أكثر من كافية والخطة محكمة للغاية .. وصلت القيادة حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا وشاهدت سيارة السفير الروسي تتقدم سيارتي فقلت لابد أن السفير قد أتي ليقدم تهانيه .. سألت ما الأخبار .. فقال بعض الضباط إننا أسقطنا 4. طائرة إلي تلك اللحظة .. قلت : عظيم !.. دخلت مكتب عبد الحكيم عامر فوجدته واقفا يتطلع حواليه بعينين زائغتين .. قلت له : صباح الخير فلم يرد - أعدت التحية فردها بعد دقيقة - علي التو أدركت أن في الأمر شيئا .. سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكمله و هو علي الأرض .. وبعد قليل رأيت جمال عبد الناصر يخرج من الصالون - ثم بدأ عامر يلقي باللوم كله علي الأمريكان قائلا إن سلاح الطيران الأمريكي هو الذي ضربنا وليست إسرائيل.. ورد عبد الناصر :

« أنا لست مستعدا لتصديق هذا الكلام ولا لإصدار بيان رسمي بأن أمريكا هي التي اعتدت علينا إلا إذا أتيت إلي بجناح طائرة واحدة عليها العلامة الأمريكية » .

كان إصرار عبد الناصر علي موقفه هذا قويا لا يقبل الشك أو التردد - ولكنه بعد ذلك عندما أدرك مدي الكارثة تراجع وأصدر بيانا يتهم فيه أمريكا بالعدوان علينا وكان هدفه من هذا تغطية الموقف سياسيا أمام الشعب ..

من الأمور العجيبة أيضا التي حدثت يوم 5 يونيو المشئوم أنه بمجرد هبوط طائرة عامر وإدراكه ما حدث أرسل في طلب السفير السوفييتي لكي يطلب منه وقف إطلاق النار بعد بدء الحرب بساعة واحدة .. وكان هذا سر وجود السفير السوفييتي في غرفة العمليات صباح ذلك اليوم ... ماذا كان بيدي أن أفعل ؟ عدت إلي بيتي وبقيت به إلي يوم 9 يونيو وهو اليوم الذي حدده عبد الناصر لإعلان بيان منه في الراديو والتلفزيون الساعة السابعة مساء – كنت وأنا في البيت دائم الاتصال بعامر وعبد الناصر - فاتصلت بعامر في الساعة الخامسة مساء فقال لي في خشونة وضيق إن إسرائيل قد وصلت إلي العريش واستولت عليها .. لم أكن

أعرف ماذا أفعل بنفسي .. كنت معتادا علي أن أخرج للمشي أربعة كيلومترات يوميا .. ولكن بعد 5 يونيو كنت أسير وحسب .. لم أكن أدري كم من الزمن أسير ـ عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف .. فقد استولي علي ذهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتي المكان نفسه في بعض الأحيان .

ومما كان يزيد في ذهولي وتمزق نفسي ما كنت أشاهده يوميا من جماهير الشعب وقد امتلأت بها اللوريات قادمة من مديرية التحرير أو وهي تسد شارع الهرم الواسع العريض .. كانت تسير متراصة والجميع يهتفون ويهلون ويرقصون فرحا بالنصر المزعوم الذي تذيعه عليهم أجهزة الإعلام ساعة بعد ساعة .. .

كانت فرحتهم بالنصر تثير في نفسي إحساسا قويا بالإشفاق عليهم والأسي لهم والحنق علي من كانوا السبب في خداعهم وخديعة مصر بأكملها.. لقد تمنيت علي الله وأنا أراقب مواكب النصر هذه ، الصادقة الزائفة معا ، أن يصيبني بأزمة قلبية كالتي أصابتني سنة 60 حتي لا أعيش لأري حال هذا الشعب الطيب الكريم عندما يفيق علي الحقيقة ويعرف أن هذا النصر الذي زينوه لهم ليس إلا كارثة رهيبة نزلت بهم .
في يوم 7 يونيو اتصلت تليفونيا بعبد الناصر فوجدته في بيته يتابع سير المعركة عن طريق القيادة .. الحقيقة أني ذهلت .. لماذا لم يتول عبد الناصر القيادة بنفسه يوم 5 يونيو؟ صحيح أننا كنا قد فقدنا الطيران ولكن كان في إمكاننا أن نقف في خط المضايق .. ثم لماذا وقف مكتوف الأيدي أمام القرار الذي أصدره عامر للقوات بالإنسحاب غرب القناة ؟ فليس هكذا يكون الإنسحاب ـ أي عسكري يعرف أن الذي يبلغ بقرار الإنسحاب هو مدير العمليات الذي عليه بدوره أن يضع الخطة اللازمة والجدول الزمني المناسب لتنفيذ الانسحاب ويعطيه للوحدات لتنسق كل وحدة انسحابها حسب الجدول والخطة .. ولكن هذا لم يحدث ولذلك كان أمر الانسحاب الذي أصدره عامر هو في الحقيقة أمرا بالانتحار .. هذه الصورة كانت واضحة عسكريا أمام عبد الناصر فلماذا لم يتصرف ولماذا لم يتدخل وأقول مرة أخري لماذا لم يعزل عامر يوم 5 يونيو ويتولى هو القيادة أو يعهد بها إلي قائد آخر ؟ لا إجابة .. فقط علامة

الاستفهام التي تظهر في الأفق كبيرة واضحة كلما كان الأمر عند عبد الناصر يختص بعبد الحكيم عامر!

لم أكتم تساؤلاتي هذه عن عبد الناصر فقلت له علي التليفون : -

« يا جمال ما تحاول تنقذ ما يمكن انقاذه .. المسألة في وشك علي أي حال فلماذا لا تطلب من عامر أن يبقي في بيته وتقعد أنت في القيادة وتشتغل ؟ »

قال : والله يا أنور أنا عرفت أنه أعطي أمر بالانسحاب وقلت له إزاى تعمل كده يا عبد الحكيم - ليه ما تقفش في خط المضايق قال لي الخط مش جاهزه .

وكان اليهود قبل هجومهم قد أنشأوا ثلاث خطوط دفاعية للرجوع إليها إذا تطورت المعارك ضدهم وكانت الصور الفوتوغرافية تعرض علينا ونحن نزور القيادة قبل 5 يونيو ..

أما نحن فلم يكن حتي خط المضايق - خط وسط سيناء - وهو المفروض أن يكون مستعدا في حالة السلم وفي حالة الحرب - لم يكن في الحسبان أن يعمل ..

عاودت الاتصال بعبد الناصر يوم 8 يونيو فقال لي : « إن الوضع قد انتهى فقوات إسرائيل في طريقها إلي القنطرة شرق بعد أن احتلت العريش والطريق ممهد ولا مقاومة علي الإطلاق .. المسألة كلها مسألة ساعات قليلة وتحتل القنطرة هي الأخري وقواتنا في شرم الشيخ صدر لها الأمر بالانسحاب حتي لا تدمر - وبذلك بدأت إسرائيل تزحف علي سيناء من الجنوب أيضا ،.. »

وفي نفس اليوم علمت من عبد الناصر أيضا أن الفرقة الرابعة المدرعة وهي أفضل الفرق عندنا قد عبرت من الغرب للشرق حسب أوامر عامر فدمرت .. وبذلك انهت قواتنا المسلحة وحلت الفوضي ... ترك الجنود الدبابات والعربات و فروا إلي غرب القناة بل وصل بعضهم أسوان تطاردهم طائرات العدو فتزيدهم رعبا علي رعب ..

وفي يوم الجمعة 9 يونيو بينما أنا جالس إلي جانب الراديو في حالة الشرود التي كنت فيها سمعت بيان من القيادة العامة يقول إن اليهود قد

عبروا الضفة الشرقية إلي الضفة الغربية ويشهد العالم علي ذلك - كان بيانا كله استخذاء واستسلام ومهانة مما جعل الدم يغلي في عروقي فقمت للتو وارتديت زي المقاومة الشعبية وأخذت بندقيني ذات التلسكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من المخابرات ومضيت لأحارب معركتى - فقد كان من الأشرف لي أن أموت وأنا أقاتل العدو من أن أقبع في داري بلا عمل .. توجهت إلي مجلس الأمة وكنت في ذلك الوقت رئيس المجلس فأصدرت تعليماتي إلي أمين عام المجلس بأن يخطر جميع النواب وخاصة الذين لهم ثقافة عسكرية بأن يجمع كل واحد منهم من مائة إلي مائتي رجل .. كل في دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليين في المكان الذي أحدده لهم .. ذهبت بعد ذلك للقاء عبد الناصر فوجدته جالسا في حجرة مكتبه في بيته بمنشية البكري فقلت له : -

- «أنت قاعد هنا مستني ايه ؟ لازم يا جمال تقوم علشان نوديك الصعيد لأن أحنا حنكمل المقاومة من هناك .. وحتي لوسقطت القاهرة ضرورى نقاوم لغاية آخر نفس فينا ».

رويت له ما فعلته في مجلس الأمة وكيف أعددت النواب للمقاومة الشعبية

ثم سألته : -

- أنت سمعت البيان الأخير بتاع القيادة ؟

كل ذلك وعبد الناصر ينظر إلي دون أن يرد.. وأخيرا أشار إلي كرسي بجانبه و قال لي :

« أقعد يا أنور .. أقعد»

قلت له : - أقعد إزاى يا جمال ؟ دانت قعادك هنا غلط - أنت ضرورى تكون في الصعيد دلوقت عشان أنت حتكون رمز للمقاومة وزي ما قلت لك ضرورى نحاربهم لغاية ما نفني كلنا أو نفنيهم كلهم وما تنساش أن الكثافة السكانية سلاح في أيدينا وسلاح قوي جدا ...

قال لي : « والله أنت مسكين يا أنور .. زيك زي الشعب تمام .. أنت صدقت البيان ؟ أنا عارف البيانات بتصدر إزاى .. دي كلها كلام فارغ

.. اليهود ماعدوش إلي غرب القناة ، أنا سمعت البيان زيك و قلت لزكريا يا زكريا روح القيادة وشوف لي إيه الحكاية لأني أنا عارف القيادة انفلت عيارها وانهارت وانتهت خلاص - زكريا راح القيادة ورجع قال لي ضباط من ضباطنا هم اللي عبروا القناة من الضفة الشرقية إلي الغربية لما شافوا اليهود قدامهم علي الضفة الشرقية .. ما تمالكوش أعصاهم وراحوا ضاربين فيهم بالمورتر فردوا اليهود بغارة جوية علي مصنع بويات في الإسماعيلية - أقعد يا أنور أقعد - أنت مش محتاج تحارب -العملية خلصت خلاص - الدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو اتنفذ تمام .. يقعدوا علي الضفة الشرقية لكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة السكانية - وعلي العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده أيه ؟ أقعد أقعد معايا : أخلص البيان اللي هأذيعه الليلة دي

جلست وقرأت البيان قبل أن يقرأه أي إنسان آخر - وفي هذه الأثناء اتصل عامر بعبد الناصر وقال له علي التليفون : -

- حطني في الخطاب معاك .

رد جمال قائلا : - « سيبني يا عبد الحكيم أعمل آخر عملية لوحدي .. أنا بأخلص مسئوليتي وبعد ذلك إذا كنت عاوز تقدم استقالتك ابقي قدمها .. »

لم أفهم الدافع وراء طلب عامر الغريب هذا .. ولكن بعد فترة أدركت أنه كان يخشي أن يبرئ ناصر نفسه في البيان فيصبح عامر المسئول الوحيد ..

لكن لم يكن ما توقعه عامر صحيحا فالبيان واضح وفيه يقول عبد الناصر إن هناك قوة واحدة تريد أن تحكم مصر والعالم وهي أمريكا وأنه لا يستطيع أن يجيبها إلي ما تطلب ولذلك فليس أمامه سوي أن يتنحى ويعهد برئاسة الدولة إلي زميله زكريا محي الدين ...

بمجرد أن انتهي عبد الناصر من إلقاء خطابه القصير كانت شوارع القاهرة قد امتلأت بجماهير الشعب بحيث لم يعد هناك موضع القدم - نساء ورجال وأطفال من جميع الطبقات و مختلف نواحي الحياة ..

وحدت بينهم المحنة فأصبحوا كتلة واحدة تتحرك بإيقاع واحد وتتكلم بلسان واحد.. الكل يطالبون ببقاء عبد الناصر - فالكارثة عظيمة .. إذ فجأة عاد الزمن إلي الوراء في غمضة عين .. فبدلا من الاستعمار الإنجليزي سوف يكون هناك استعمار أمريكي .. هكذا أوحى خطاب عبد الناصر إلي الشعب فحرك لواعجه وألهب شعوره وأعاد إليه إرادة الرفض التي هي من أمضي أسلحته عبر آلاف السنين .. فخرج يتحدى الهزيمة ويعلن رفضه للانصياع لأية إرادة أجنبية مهما بلغت قوتها - لقد ضربت قواته المسلحة ولكن إرادة الشعب لم ولن تضرب ..

سبع عشرة ساعة كاملة وجموع الشعب ترفض أن تترك أماكنها في شوارع القاهرة.. وقد نسيت كل شيء.. الطعام والشراب والمبيت والمأوي .. نسيت كل شيء إلا شيئا واحدا فقط وهو التمسك بوحدتها و تحدي إرادة الدولة العظمي التي تريد أن تتحكم فيها ...

اتصلت بعبد الناصر أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أجده أسوأ حالا عن ذي قبل .. كنت أشعر أن صوته صوت رجل يتكلم من غياهب الماضي ..

لابد أنه في الفراش وأنه يعاني كثيرة ، فأهم ما لدي عبد الناصر هي كبرياؤه ولقد طعن فيها كما لم يحدث له من قبل .. فبعد أن كان العالم يلهث وراءه عندما عقد مؤتمره الصحفي المشهور أصبح الناس الآن في كل مكان في العالم يتهكمون عليه ويسخرون منه ، ولذلك كان 5 يونيو طعنة أصابته في الصميم فانتهي .. ومن يعرف عبد الناصر لابد أن يدرك أنه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ بل مات يوم 5 يونيو سنة 6٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة ..

هكذا كان يبدو بل وظل يبدو لفترة طويلة.. الميت الحي .. صفرة الموت تغطي وجهه ويديه رغم أنه كان يسير ويتحرك وينصت و يتكلم ..

الفصل السابع: فترة انتقالية الكفاح من أجل البقاء

لم تكن الفترة ما بين يونيو 6٧ وسبتمبر ٧٠ غنية بالأحداث ولكنها كانت فترة معاناة رهيبة لا أعتقد أن مصر شهدت مثلها- فقد كانت المعاناة وليدة الإحباط علي المستوي القومي والسياسي والعسكري مما جعل الكفاح من أجل البقاء السمة المميزة لهذه الفترة .. فليس مثل الإحساس بالإحباط شيء يحفز الإنسان إلي أن يكافح من أجل البقاء.

صحيح أن هذا الكفاح أخذ أشكالا متعددة ولكنها كانت تهدف جميعا إلي شيء واحد وهو تخطي العقبات التي تعترضها حتي تسترد كيانها وتستعيد وجودها فتبقي ..

وكثيرا ما نجد هذه المحاولات تتشابك وتتصارع بحيث يصعب تميز خطوطها بعضها عن البعض .. فمثلا نجد أن كفاح عبد الناصر من أجل البقاء بطلا عظيما - كما كان قبل هزيمة يونيو يتصارع مع إصرار عبد الحكيم عامر علي البقاء قائدا عاما للقوات المسلحة - يتشابك مع الرغبة في إعادة بناء القوات المسلحة ويتشابك بشكل أو بآخر مع تعمد السوفييت أن يظلوا هم سادة الموقف يمنحون ويمنعون كما يشاؤون..

فخروج الشعب في ٩ و ١٠ يونيو وإصراره علي عودة عبد الناصر إلي الحكم لم يكن في الواقع إلا صورة من صور الكفاح من أجل البقاء .. بقاء مصر الأرض والشعب والإرادة .. رغم كل شيء .. فإلي أي مدي حققت مصر عزيمتها علي البقاء وإلي أي مدي تصارعت هذه العزيمة مع عزائم أخري كانت هي أيضا تكافح من أجل البقاء ؟

يوم 10 يونيو وأنا بمكتبي بمجلس الأمة سمعت صوت قنابل تفجر قريبة منا ـ كانت الساعة الثانية عشرة ظهرة ، فلما سألت قالوا لي إن البوليس يفجر قنابل دخان علي السفارة الأمريكية ليفرق جموع الشعب التي التفت حولها لتحرقها .. فاتصلت فورا بعبد الناصر وجعلته يستمع إلي الإنفجارات وحكيت له القصة .. ثم قلت : -

- الجموع دى بقى لها دلوقي. أكثر من 17 ساعة في الشوارع .. هل تحب يا جمال أن تحترق القاهرة تانى زى يوم ٢6 يناير سنة 195٢ ؟ إحنا علي وشك كده دلوقت ـ لازم ترجع يا جمال لأن إرادة الشعب هي الصمود ومفيش هروب من هذه المسئولية النهارده ...

اقتنع جمال فرد علي بالموافقة .. ولكن صوته كان بعيدا كأنه يأتي من أعماق القبر .. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتي اتصل بي مستشاره الصحفي ليبلغنى بيان عبد الناصر الذي يقرر فيه العودة فكتبته وأمرتهم في المجلس بدق الأجراس للإجتماع ..

كنا قبل ذلك قد قررنا عدم قبول استقالة عبد الناصر فلما اكتمل الاجتماع أعلنت للأعضاء أن عبد الناصر قد قرر العودة بناء علي رغبة الشعب وأنه كان بوده لو يستطيع أن يقرأ عليهم القرار بنفسه .. وكان هذا أثر رائع علي النواب فتملكتهم فرحة مفاجئة صفقوا معها وهللوا وصرخوا وبكوا ..

بعد ذلك بفترة وجيزة اتصلت بزملائي في القيادة جميعا و طلبت منهم أن يجهزوا استقالتهم ومن ضمنها استقالتي حتي نعطي الفرصة لعبد الناصر لاختيار معاونيه في هذه المرحلة الحرجة وكفانا الصراعات وما أدت إليها من هزيمة وإحباط.. فوافقوا جميعا ..

اتصلت بعبد الناصر وأخبرته بما حدث وأن الاستقالات كلها جاهزة ما عدا استقالة عامر (التي وعد بإرسالها إلي عبد الناصر مباشرة) فطلب إلي عبد الناصر تأجيل إعلان الاستقالات لأنها لو أعلنت فسوف يحس هو بأن الدنيا كلها انهارت وسوف يكون هذا إحساس الشعب نفسه أيضا

.. لم أقتنع بكلامه فناقشته فيه ولكنه عاود الرجاء بتأجيل إعلان الاستقالات حتي يهتدي إلي نقطة البداية .. .

فكما قال لي لم يكن يعرف - بعد كل ما حدث - من أين يبدأ ..

في يوم 11 يونيو اتصل بي عبد الناصر وقال إنه قد اهتدي أخيرا إلي نقطة البداية وهي إعادة بناء القوات المسلحة ، ولكنه فوجيء بعدد كبير من الضباط في بيته يطلبون منه عودة المشير عامر .

حاول عبد الناصر الاتصال بعامر ولكنه كان قد اختفي فأمر بصرف الضباط ... جاءت إليه بعد ذلك أخبار بأن البوليس الحربي يتحرك من قشلاق الحلمية في طريقه إلي بيت عبد الناصر ليطالب بعودة عامر - في ذلك الوقت لم يكن لدي عبد الناصر أي حرس ، فالحرس الجمهوري كان قد اشترك في المعركة وعاد إلي الإسماعيلية ولكنه لم يصل إلي القاهرة بعد...

كان عبد الناصر كما هو معروف كثير الشك بطبعه وخاصة إذا كان الموضوع يتصل بأمنه الشخصي .. وربما كانت هذه النظرة إلي الأمن الشخصي وراء كل الإجراءات الاستثنائية التي حدثت وتطورت من مرحلة إلي مرحلة حتي ناء كاهل الناس بثقلها.. فلما سمع بأن البوليس الحربي قادم إلي بيته - وهذه روايته لي - أخذ طبنجة ووضعها جوار فراشه وجلس ينتظر .. وفي هذه الأثناء حاول الاتصال بعامر مرة أخري ولكن دون جدوي فاتصل بمحمد فوزي رئيس أركان حرب القوات المسلحة في القيادة الذي أخبره بأن هناك ٦٠٠ ضابط وأربعة فرقاء متجمعين في القيادة ويطالبون بعودة عامر - علي الفور أصدر عبد الناصر أمره إلي فوزي بأنه قد عينه قائدا عاما للقوات المسلحة وعليه أن يبلغ الفرقاء الأربعة بأن عبد الناصر قد استغني عن خدماتهم ثم يتصرف مع الستمائة ضابط فيصرفهم أو يلقي القبض عليهم .. نفذ فوزى الأوامر وأبلغ عبد الناصر بذلك فطلب منه الحضور لمقابلته ومعه عبد المنعم رياض مساء نفس اليوم .. حيث وضعوا الجدول الزمني الذي بمقتضاه يعاد بناء القوات المسلحة .. وكان ذلك أول عمل يباشره عبد الناصر بعد عودته .. ويعبر به عن الكفاح من أجل البقاء .

دهم إحساسي بالهزيمة نفسي بحيث استغرق شعوري فكنت أعيش الهزيمة في يقظتي ومنامي .. وكنت في كل يوم يمر أتكشف أبعادها فيتمزق صدرى ولكني لا أعرف ماذا أفعل .

حبست نفسي في بيتي بالهرم ثلاثة أسابيع كاملة عشتها في عزلة تامة عن الناس أتأمل ما حدث وأتحمل علي مضض حملة التشكيك في قواتنا المسلحة وهي الحملة التي كانت تشن علينا بضراوة من العدو والصديق علي حد السواء ..

كانوا يقولون إن الجندي المصري لا يصلح للقتال وأنه لن تكون هناك معركة أخري نسترد بها أرضنا وكرامتنا وهذا معناه الموت والدمار لشعبنا إلي آلاف السنين بحيث ننتهي كما انتهي الهنود الحمر في أمريكا .. أي هوان هذا ؟ وأية مذلة ؟ لقد نشأت علي حب مصر والإيمان المطلق بالإنسان المصري فهل يذهب كل هذا في لحظات ؟ وإذا ذهب فسوف أذهب أنا الآخر .. لن أعرف بعد ذلك من أنا ولن أتعرف أبدأ علي ذاتى بل سأعيش فاقد الكيان أهيم علي وجهي غريبا بين غرباء .. ففيم الحياة إذن ؟!

كان لابد من الخروج من السجن الذي وجدت نفسي فيه فجأة .. وهنا تغلب حبي لبقاء مصر علي كل شيء آخر فقررت أن أري بنفسي بعض من اشتركوا في الحرب وأسألهم هل استطعنا أن نحارب أم لم نستطع ؟

اتصلت فورا بمستشفي المعادي العسكري .. رد علي القائد فسألته إذا كان عنده أحد ممن حاربوا في سيناء فأجاب إن عنده لواء اسمه كمال حسن علي ... كان قائدا للواء دبابات حارب في سيناء ومعه بعض ضباطه وهم في المستشفي علي وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم ... قلت للقائد : انتظر سأكون معكم حالا وأخذت سيارتي وتوجهت إلي مستشفي المعادي .. سألت كمال حسن علي .. قل لي يا كمال بصراحة : أنت حاربت في سيناء ؟ قال لي : أيوه يا افندم و عملت هجوم مضاد يوم 7 يونيو قلت له : «طيب طمني .. سلاحنا كان ناقص؟ » قال لي :

« أبدا ! الطلقة بتاعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة . .دى كانت من عنفها بتقلبها ».. قلت له : «طب احكي لي علي الهجوم » فقال - مشيرا إلي ضابطين صغيرين كانا في انتظاري معه قبل إجراء العملية لهم - : « دعهم يقصون عليك ما رأوا وما حققوا .. فهم الذين فعلوا كل شيء أما أنا فكان عملي يقتصر علي إصدار الأوامر .. »

كنت قد سمعت عن الهجوم المضاد الذي قام به لواء مصري يوم 7 يونيو .. صحف العالم كلها أشادت به ، وحتي موشي ديان كتب عنه ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهودا فرديا - أمرا شاذا لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها علي القتال ..

ولكنني بعد أن أدرت حوارا طويلا مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة وهي أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة وكل ما عداه الاستثناء لولا تخبط القيادة وضعفها .. فقد اتضح أنه بناء علي أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء في الثلاث أيام الأولي ١٠٠٠ كيلو في عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة علي السير . ولكن هذا لم يمنعهم من إسقاط 7 طائرات للعدو .. ورغم السيادة الجوية المطلقة الإسرائيل لم يفقد هذا اللواء إلا ٢٠ دبابة علي مدي ثلاثة أيام – أي خمس قوته فقط ..

« إذن في حرب 6٧ لم يكن ينقصنا التدريب أو التكتيك أو السلاح أو القدرة علي القتال .. الحمد لله .. فالمسألة كلها كانت مسألة إهمال من القيادة ، .. هكذا وجهت كلامي إلي الضباط وقائدهم وتركتهم لأطباء المستشفى وانصرفت لأقضي يوما من أسعد أيام حياتي وهي قليلة جدا بعد حرب 5 يونيو سنة 6٧ و قبل 6 أكتوبر سنة 73.. وكان مصدر سعادتي أني عرفت الحقيقة .

بعد ذلك وفي يوم ٢١ نوفمبر سنة 196٧ علي وجه التحديد عرفت أن جنودنا قد استوعبوا الأسلحة التي أرسلها لنا السوفييت بعد الهزيمة في 5 شهور وكان مقدرا لها أن تستوعب في ثلاث سنوات تكون فيها الأحوال قد هدأت ، فلم يكن في نية السوفييت أن تكون هناك معركة ثانية وإنما كانوا يجاملون عبد الناصر لوقفته ضد أمريكا والإمبريالية ويحرصون علي بقاء الوجود السوفييتي في المنطقة - هذا كل ما في

الأمر .. ولكن خاب ظنهم كما خاب ظن الكثيرين غيرهم فبعد أن عين عبد الناصر محمد فوزي قائدا عاما للقوات المسلحة وعبد المنعم رياض رئيس أركان حرب وأحمد إسماعيل قائدة للجبهة فتحت مراكز التدريب علي الفور وعملت علي أحسن صورة - وهذا مجد يكتب لأولادنا في التاريخ فليس من السهل أن تجد جيشا يهزم هذه الهزيمة ثم ينهض ليستوعب كمية ضخمة من الأسلحة فيما لا يزيد عن خمسة شهور ويقف بها علي خط دفاعى كامل طوله ١٨٠ كيلو متر من بورسعيد شمالا إلي السويس جنوبا علي استعداد لرد أي عدوان .

كم فرحت بما رأيت فقد أكد إيماني بأن قواتنا المسلحة ذهبت ضحية لهزيمة يونيو سنة 6٧ ولم تكن أبدأ أحد أسبابها .. ومما يدل علي ذلك عمليا أن مواتنا العسكري لم يستمر أكثر من شهر وبضعة أيام .. في أغسطس سنة 6٧ وقعت معركة رأس العش التي تصدت فيها قوات الكوماندوز المصرية لقوات إسرائيلية من القوات الخاصة وأبادتها ومنعتها من التقدم نحو بور فؤاد وهي شاطيء بورسعيد الشرقي ، وشهد هذه المعركة جمع من محطات تلفزيون أمريكية استقدمهم اليهود معهم لتصوير دخولهم بور فؤاد ثم لم يلبثوا بعد الضرب العنيف من قواتنا والخسائر الشديدة التي لحقت بهم أن احتموا برجال التلفزيون الأمريكى لوقف الضرب .

طبعا لم نكن بعد قد استعدنا قواتنا بالكامل ولكن كانت الجذوة ما زالت متقدة .. في ٢١ أكتوبر من نفس السنة (198٧) قامت زوارقنا الخفيفة بضرب المدمرة الإسرائيلية إيلات فشطرتها نصفين وأغرقتها في مياه بورسعيد حيث ما زالت ترقد في الأعماق ...

ولكن حتي قبل معركة رأس العش وقبل إغراق إيلات كنت قد تيقنت أني ما زلت بين أهلي في مصر الأرض الطيبة التي لا وجود لي بدونها .. وأن واجبى في الحياة هو الكفاح من أجل بقائها .. ليس فقط لأنها بلدي .. بل لأنها فعلا تستحق البقاء ..

من صور الكفاح من أجل البقاء في تلك الفترة صورتان كل منهما تختلف عن الأخري ولكنها تحمل طابعا مميزا له مغزاه ..

الصورة الأولي وهي خاصة بالسوفييت تروي قصة مساعداتهم الحربية لنا بعد الهزيمة فقد أرسلوا لنا من الأسلحة ما استوعبه الجندي المصري في خمسة شهور كما سبق أن رويت .. ولكن لم يكن في هذا الكفاية فقد كنا مقدرين ثلاث سنوات علي الأقل لكي نؤمن بلدنا ونرد العدوان .. فأرسل عبد الناصر إلي السوفييت يطلب المزيد من العون .. أرسل مرة ومرات ولكن لا استجابة بأي شكل من الأشكال .. فقد كانت خطتهم أن يسدوا رمقنا بالقدر الذي يكفل لهم الوصاية علينا ويحقق لهم البقاء في المنطقة وهذا هو الأهم .

كنا في أغسطس وكان تيتو قد أتي لزيارتنا زيارة ودية ليواسينا ويشد أزرنا وقد كان صديقا شخصيا لعبد الناصر ولذلك ذهلت عندما رأيت عبد الناصر يفقد أعصابه مع تيتو ويقول له بعد أن كفر بالسوفييت : روح للسوفييت أرجوك وقل لهم أنا مستعد أقبل الهزيمة وأقبل أي شيء ولكني لا أقبل هذه المعاملة منهم أبدا ..

لا أعرف ماذا فعل تيتو بعد ذلك ولكن الذي أعرفه أن القادة السوفييت لم يغيروا موقفهم فكل ما كان يهمهم هو الحفاظ علي البقاء في المنطقة وقد تحقق لهم ما أرادوا ..

الصورة الأخري وهي أكثر إشراقا هي صورة مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالخرطوم في نفس السنة .. لم يكن عندي أمل كبير في المؤتمر ولكنني فوجئت كما فوجيء العالم بنتائجه .. فقد خرج الشعب السوداني لتحية عبد الناصر بصورة لا تقل عما حدث في مصر يومى ٩ و ١٠ يونيو ..

طبعا خرج الشعب لتحية باقي الملوك والرؤساء العرب ولكن استقبال الشعب لعبد الناصر كان يفوق كل وصف حتي أن مجلة التايم أو النيوزويك لا أذكر وضعت صورة عبد الناصر علي الغلاف وكتبت تحت الصورة (تحية المهزوم) غير مدركين سر ارتباط الشعوب

العربية بعبد الناصر فقد كان في نظرهم رمزا للحفاظ علي الأمة العربية ضد أي تدخل أو عدوان خارجى ..

كانت علاقتنا مع أكثر الدول العربية حينذاك علاقة خصومة وخاصة مع الملك فيصل عاهل السعودية الذي هاجمه عبد الناصر وندد به في أكثر من خطاب له ولذلك كان الموقف حرجا بالنسبة لعبد الناصر .. فها هو في النهاية يلجأ إلي إخوانه العرب وهو في حالة هزيمة و انكسار ..

لم تفت فيصل هذه الحقيقة فعندما بدأوا الحديث عن الدعم المالي لمصر مقابل إغلاق قناة السويس .. أخذ فيصل المبادرة فقرر أن تدفع السعودية 50 مليون جنيها سنويا كما تقرر أن تدفع الكويت 55 مليون سنويا وليبيا ٣٠ مليون سنويا ..

أما قرارات المؤتمر فيما عدا ذلك فكانت لا صلح ولا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات معها فإرادة الأمة العربية كلها هي الصمود ..

وكانت هذه هي المرة الأولي في التاريخ الحديث التي تجتمع فيه الأمة العربية علي الكفاح من أجل البقاء ..

كان تعيين محمد فوزي قائدا عاما للقوات المسلحة القرار الوحيد الذي استطاع عبد الناصر أن يتخذه بعد سنوات عديدة من الصراع مع عامر .. طبعا لم يستقبل عامر هذا القرار بأي ترحيب ، في أول لقاء له مع عبد الناصر بعد ذلك رفض منصب نائب رئيس الجمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر و تمسك بأن يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة الأمر الذي لم يقبله عبد الناصر علي الإطلاق ..

تدخل بعض وسطاء الخير في الموضوع وأقنعوا عامر بأن يذهب إلي (أسطال) بلدته في الصعيد ويقيم بها إلي أن تستريح أعصابه وفعلا أخذ عامر بالوصية وذهب إلي بلدته ولكنه عاد بعد أسبوع إلي منزله بالجيزة و بدأ الاتصال بالضباط وتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة معارضة لعبد الناصر ، وليته اكتفى بهذا ولكنه جمع الكثير من الأسلحة في بيته وراح يعقد الندوات مع الضباط يتحدث فيها عن الهزيمة وكيف أنه ليس مسئولا عنها كما أنه ليس مسئولا عن الأوضاع الداخلية والإجراءات الإستثنائية التي أدت إلي إذلال الناس وضيقهم بالنظام كله .. لم يكن من السهل تصديق ذلك فالجميع يعرفون أنه كان وراء لجنة تصفية الإقطاع والبوليس الحربي وهي أجهزة أهدرت كرامة الإنسان و استفحل شرها إلي أن جاءت الهزيمة فخلصت الناس منها ولو إلي حين ، ولكن هذا لم يمنع الناس من الاستماع إليه أو إلي مجاملته فازداد إمعانا في الإتصالات بالضباط وبأعضاء مجلس الأمة الذين كانوا ينقلون ما يدور بينه وبينهم إلي شاكين متبرمين فلم أجد بدأ من الاتصال به ونصحه بأن يكف عما يفعل حفاظا علي مصر ووحدة الصف وإشفاقا بعبد الناصر وما هو فيه من محنة .. فدعوته إلي العشاء عندي في البيت ورحبت به و استقبلته أسرتي أحسن استقبال كما كنا نستقبله دائما عندما يأتي لزيارتنا .. ولكني لاحظت أنه قد تغير تغيرا كاملا .. كان قد فقد الثقة في نفسه وفقد معها استقباله للحياة وأصبح شخصية مهتزة تكاد تكون مفقودة الكيان ، وقد آلمني هذا كثيرة وخاصة عندما التفت إلي وأبنائي يداعبونه كعادتهم وقال : « أنتم بتكرموني قوي يا جماعة .. لسه لغاية دلوقتي بتكرموني ؟» فقلت له : دلوقتي يعني ايه يا

عبد الحكم ؟ علشان أنت ما بقتش قائد عام ؟ هو أنا كنت صاحبك عشان أنت كنت قائد عام ؟ ده برضه كلام حد يقوله ..؟ »

في نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس جمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر ولكنه قال بجفوه : لا.. طول ما جمال عبد الناصر بيشتغل رئيس جمهورية أنا لازم أشتغل قائد عام للقوات المسلحة .. لا كده لا بلاش ..

بعد ذلك في أغسطس أثناء زيارة تيتو لنا استدعاني عبد الناصر ونحن في قصر رأس التين بالإسكندرية فذهبت إليه .. ووجدت علامات الحيرة علي وجهه قال : «والله أنا عايز أقول لك علي موضوع يا أنور .. أنا مشغول قوي بحكاية عبد الحكيم وأنا اتكلمت مع تيتو وحكيت له الحكاية كلها.. تيتو قال لي ضرورى تأخذ إجراء في العملية دي وإلا البلد مجروحة وبعدين أي صراع داخلي وخصوصا إذا كانت فيه القوات المسلحة .. حيتوسع وينقلب إلي صراع كبير ، قلت له : يا جمال أنت سمعت مننا كلنا رأينا في الموضوع ده و فعلا ضرورى أنت بالذات تواجه عبد الحكيم باللي بيعمله و تحسم الموضوع نهائيا قال : فعلا أنا لازم آخد إجراء ..

كان ذلك في 13 أغسطس ولم يفصح عبد الناصر عن نوع الإجراء الذي سيتخذه - كل ما حدث أن الإجراء تأجل إلي يوم ٢٠ أغسطس .. لماذا تردد رغم خطورة الموقف ؟ هنا مرة أخري تظهر علامة الاستفهام الكبيرة في كل ما يختص بالعلاقة بين عبد الناصر وعامر ..

كان عامر يعرف جيدا أن لا شيء يغيظ عبد الناصر مثل الحديث عن الديمقراطية وأنه ديكتاتور .. فلجأ إلي طبع الاستقالة التي كان قد قدمها لعبد الناصر سنة 61 في شكل كتيب ووزعها علي أوسع نطاق ليعلن فيها أنه لا يؤمن بحكم الفرد وأن لابد من إعادة الأحزاب .. كلام لا يؤمن به عامر بل ولا يطرأ علي فكره .. ولكن كانت آثاره علي الناس غير حميدة فانتشرت الإشاعات بأن الأحوال الداخلية غير مستقرة وأنه من المتوقع حدوث انقلاب في أي وقت.. لدرجة أن (جاكوب مالك) مندوب روسيا في مجلس الأمن كان في زيارة لمصر فطلب مقابلة عبد الناصر ليحذره من أن غدا سيحدث انقلاب عسكري في مصر ..

في هذه الأثناء كان عامر قد جعل من بيته المطل علي النيل في الجيزة قلعة بكل معني الكلمة مما جعل عبد الناصر يقرر أخيرا تحديد إقامة عامر في بيته بعد أن تسحب منه جميع الأسلحة وبناء عليه أرسل إليه يطلب حضوره للقائه في منزله مساء الجمعة ٢5 أغسطس .. وقال لنا : «اسمعوا يا جماعة أنا عاوزها جلسة مواجهة وأنتم تكونوا موجودين » وفعلا أنا وزكريا محيي الدين وحسين الشافعى كنا موجودين في هذه الجلسة ..

وكانت ترتيبات عبد الناصر أنه بمجرد وصول سيارة عامر و نزوله منها ودخوله إلي الصالون تنزع منها الأسلحة في هدوء ويلقي القبض علي من فيها من حراس ثم تستبدل بسيارة أخري تقله إلي بيته حيث يبقي فيه تحت الحراسة .

وفي نفس الوقت كان عبد الناصر قد كلف محمد فوزي القائد العام وعبد المنعم رياض رئيس الأركان بإخلاء بيت عامر من الأسلحة والضباط والجنود المرابطين فيه بحيث يجد البيت عند عودته خاليا إلا من أسرته والضباط المكلفين بحراسته .. وفعلا تم ذلك .. أتي عامر في الساعة التاسعة إلا ثلث فوجىء بوجودنا .. وبدأ الحوار الذي لم يشترك فيه طول المدة لا زكريا ولا حسين الشافعى ـ طبعا أنكر عامر كل شيء ، ورغم أن عبد الناصر واجهه بالمنشورات التي كان يصدرها وبعدد الضباط المقيمين عنده في البيت وأنواع الأسلحة وغير ذلك من الحقائق التي لا تقبل الجدل إلا أن المناقشة استمرت من التاسعة تقريبا إلي الثانية صباحا ..

قبل ذلك بدقائق أحس عامر أن في الأمر شيئا فقرر العودة إلي منزله ولكنه فوجىء عند البوابة بالحرس يمنعونه من الخروج ووجد عند باب البيت سيارة أخري غير سيارته التي حضر بها .. وبها بعض الحرس .. فأدرك أنه مقبوض عليه وعاد إلي حيث كنا ..

أحس عبد الناصر بالإعياء أو خشي أن يتراجع في قراره فانسحب إلي حجرة نومه ولحق به زكريا والشافعي علي ما اعتقد فوجدت نفسي وحدي وجها الوجه مع عامر الذي قال لي إنه ذاهب إلي دورة المياه فصاحبته ثم عدنا إلي الحجرة فإذا به يفاجئني بقوله إنه تناول سيانور

لينتحر.. ودهشت فأنا أعرف من قراءاتي أن السيانور إذا لمس الفم يموت من يتناوله في أقل من الثانية .. ومع ذلك أرسلت في طلب الأطباء لإسعافه و فعلا حضروا وأسعفوه ..

كان الموقف عصيبا للغاية فقد آلمني أن أري عامر علي هذه الحال والي أكثر إحساسي بأنه يحاول أن يفلت من المأزق الذي شعر أنه سعي إليه بنفسه علي أمل أن يعود إلي بيته ويتحصن فيه فهو لم يكن علي علم بالإجراءات التي تمت أثناء تغيبه عنه في جلستنا هذه ..

كانت ليلة مؤلمة للشعور تعذبت فيها كما لم أتعذب في حياتي فقد طلع علينا الصباح وأنا وحدي مع عامر أشاهده يعاني ولا أستطيع أن أمد إليه يد المساعدة .

في الساعة السادسة والنصف صباحا نزل زكريا والشافعي من منزل عبد الناصر وأخذا عامر إلي بيته حيث تحددت إقامته .

لماذا استجاب عامر لدعوة عبد الناصر وذهب للقائه في منزله ؟ سؤال كان ينبغي أن يطرح نفسه علي أي إنسان ولكن لم تكن الإجابة عليه صعبة أو مستحيلة .. علي العكس فقد تصور عامر أن عبد الناصر يريد أن يلقاه ليصالحه كعادتهما عقب أي سوء تفاهم يحدث بينهما .. كان عامر واثقا من هذا وأن عبد الناصر سوف يستجيب لطلبه ويأخذه معه إلي مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انعقد بعد ذلك اللقاء بيومين .. وكان عبد الناصر يعرف هذا كله مقدما من مكالمات تليفونية بين عامر وبعض أصدقائه كان عبد الناصر قد أمر بتسجيلها..

في سبتمبر كانت التحقيقات التي أجريت مع أعوان عامر قد بدأت تأخذ شكل القضية ثم وصلت عبد الناصر بعض التقارير التي تقول إن عامر كان ما زال يجري بعض الإتصالات مع أعوانه وأتباعه عن طريق أبنائه فكلف عبد الناصر محمد فوزي وعبد المنعم رياض بنقل عامر إلي مكان بعيد عن بيته .. وفعلا ألقي القبض علي عامر في منزله ولكنه كان يشكو بعض الألم فأخذاه إلي مستشفى المعادي حيث وجد الأطباء بفمه مخدرا - كما يقول التقرير الطبي - فأخرجوه وذهبا به إلي فيلا علي ترعة المريوطية كانت قد جهزت كمعتقل فأحيطت بالأسلاك الشائكة ووسائل الحراسة المختلفة . .

بعد أن اطمأن عبد الناصر إلي أن عامر قد استقر في المعتقل انتقل إلي الإسكندرية حيث أقام في المعمورة وانتقلت أنا كذلك إلي شقتي بشاطىء ستانلي .

في يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر اتصل بي عبد الناصر تليفونيا ليقول لي إن عامر يريد أن يراني اليوم أو في الغد الأربعاء علي أكثر تقدير - قلت له لازم أشوفه .. لازم أروح له قال لي : طيب ما تفكر .. قلت له : لأ أنا في هذا قاطع.. بس أنا رأى ندي أمر للناس اللي بيعملوا التحقيق يبعتوا الي صورة من التحقيق بكرة الصبح أقراها وأعرف ايه الأقوال علشان أواجه عبد الحكيم بيها وبعدين أروح له المعتقل يوم الجمعة .

وافق عبد الناصر وأرسل إلي ملفات القضية صباح الأربعاء وكانت في ذلك الوقت قد وصلت إلي آلاف الصفحات فتوفرت علي دراستها واستغرقت منى الأربعاء بأكمله ونهار الخميس أيضا ..

كل هذا وأنا أعد نفسي للقاء عبد الحكيم عامر في المعتقل يوم الجمعة حيث كان في نيتي أن أنصحه بالتصالح مع عبد الناصر وكفانا تصارعا فالمصيبة التي نحن فيها أكبر وأخطر من أي شيء، كما كنت مصمما علي أن أبقي معه في المعتقل إلي أن تحل الأمور إما بالصلح أو بالمحاكمة ..

وفي مساء الخميس 14 سبتمبر سنة 196٧ تناولت طعام العشاء ورأسي ما زال مشغولا بلقاء يوم الجمعة فإذا بجرس التليفون يدق وعبد الناصر يتكلم ..

قال : أنور

قلت : أيوه يا ريس خير .

قال : « أنور »

وسكت لمدة دقيقة.. دهشت

فقلت : جمال .. أنت علي الخط ؟

قال : آه

قلت : أمال سكت ليه ؟ فيه ايه ؟

قال : عبد الحكيم عامر انتحر ومات الساعة 7 مساء وبلغوني دلوقت من المعتقل ..

قلت : والله إذا كان ده حصل فعلا يبقي ده أحسن قرار اتخذه عبد الحكيم عامر كقائد خسر معركة .. لأني لو كنت مكانه كنت عملت كده يوم 5 يونيو ..

جمال سكت قليلا ثم قال : إزاى بتاخد الموضوع بالشكل ده ؟

قلت له : في التقاليد العسكرية أي قائد بينهزم بيعمل كده ..

طلب مني عبد الناصر في نهاية الحديث أن اتصل بحسين الشافعي وعلي صبرى وأطلب منهما الذهاب إلي المعمورة معي لكي نسافر جميعا إلي القاهرة وكان زكريا محيي الدين في القاهرة .. ولكن دون أن أذكر لهما الأسباب ..

وصلنا القاهرة بعد منتصف الليل فتركت جمال في منشية البكري و توجهت إلي معتقل عامر الذي لم يكن يبعد عن بيتي في الهرم بأكثر من خمس دقائق .. هناك وجدت النيابة و الطبيب الشرعي وشقيق عبد الحكيم عامر وكان مستشارا في القضاء - حضرت التحقيق وأثبتوا ذلك في المحضر ثم بدأت أسأل الطبيب الذي كان يصاحبه في المعتقل و هو الدكتور بطاطا الذي ما زال إلي يومنا هذا طبيي الخاص ..

كانت إجابة الطبيب أن عامر وهو في الحمام أصيب بما يشبه أزمة فوقع علي الأرض - حملوه إلي فراشه حيث كان يرقد أمامي .. وحاولوا إسعافه ولكن عبثا فقد مات بمجرد أن وقع علي الأرض .. لم يكن هناك أي شيء غير عادي في جسمه سوي ما لاحظه الطبيب الشرعي عندما كشف عليه فوجد عند مفصل فخذه الشمال مع جسمه بلاستر وتحته حبتان .. ماذا كانا ؟ أعتقد أن هذا جاء في تقرير الطبيب الشرعي ..

تأملت وجه عامر قبل أن أغادر المكان .. فلم أشاهد عليه صفرة الموت - بالعكس كان وجهه يبدو طبيعيا وكأنه مستغرق في نوم عميق فلا انفعال ولا تقلصات ولا أي شيء من هذا القبيل - بالعكس عادت السماحة إلي وجهه فرأيت أمامي عبد الحكيم الأسمر اللون العادي

الهادئ اللطيف الذي رأيته أول ما رأيته في رفح.. وهو في مقتبل عمره منذ سنوات وسنوات ..

عندما دخلت بيتي في الصباح المبكر سمعت جرس التليفون يدق كان عبد الناصر علي الطرف الآخر للخط يحاول أن يطمئن علي ما حدث رويت له ما رأيت وقلت إني سأغير ملابسي لكي ألحق بالجنازة في بلدة عامر (اسطال) فستشيع الجثة هناك بعد خروجها من المشرحة.

ولكن عبد الناصر لم يوافق .. فقد كان يخشي أن يخرج أولاد عامر عن حدودهم عندما يعلمون بالخبر - وليس هذا من المصلحة في شيء فالوقت الذي نمر به يحتم علينا الحفاظ علي هيبة الحاكم ..

ختم عبد الناصر حديثه معي بقوله ورنة الأسي في صوته : -

« تصور يا أنور عبد الحكيم وأنا وأنت - أحنا الثلاثة أصدقاء لكن تصور يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا واثق أن ما حدش حا يمشي في جنازته هناك واحنا كمان مش قادرين نمشي في جنازته .. تصور ».

لم أكن أتصور فعلا أن شيئا من هذا يمكن أن يحدث وأن الصراع من أجل البقاء يمكن أن ينهي بين الأصدقاء بمأساة ولكن يبدو أن هذا هو شأن الحياة ..

كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمرا لا مفر منه .. فقد بدأت الناس تفيق بعد ٩ و ١٠ يونيو وتتساءل من المسئول عن الهزيمة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدأوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر و ناصر لعبت دورا رئيسيا في الكارثة التي حلت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعي وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعا حاول المتهمون إنقاذ رقابهم فحولوا القضية إلي محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفي الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الإستثنائية وكبت الحريات وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأي الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح الهزيمة كانت ما زالت تدمي في قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا إنفجار الطلبة في فبراير سنة 68 الذي ما لبث أن عم جميع فئات الشعب .

حاولنا حصار الإنفجار وانهت عملية الحصار عندي في مجلس الشعب عندما أرسلت في طلب الطلاب وكانوا معتصمين في الجامعة وجلست معهم خمس ساعات ذهب بعدها كل منهم إلي منزله ..

لجأ عبد الناصر كعادته إلي احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذي

حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمعالجته لكل الأمور التي تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة - ولم يكتف عبد الناصر بإصدار البيان بل طلب من الشعب الاستفتاء علية فخرجت البلد بأكملها لتأييده مما أذهل المراسلين الأجانب فقد كانوا مؤمنين بأن أحدا من الناس لن يذهب للاستفتاء وهم ما زالوا جميعا يعانون من الهزيمة وآثارها ...

صورة أخري من صور فترة الانتقال هذه كانت حرب الاستنزاف التي بدأناها في سبتمبر ٦٨ بعد أن كان اللواء أحمد اسماعيل قد انتهي من بناء خط الدفاع المصري وكنا قد سرنا شوطا لا بأس به في تدعيم

قواتنا المسلحة ... بدأنا الحرب بالمدفعية فردت علينا إسرائيل بضرب محطة المحولات في نجع حمادى و قناطر نجع حمادي وكوبري قنا في الصعيد .. فاضطررنا إلي التوقف من سبتمبر ٦٨ إلي مارس ٦٩ حيث استطعنا في تلك الفترة من حماية جميع المنشات ثم أستأنفنا في سنة ٦٩ رغم أن الاتحاد السوفيتي كان ضد هذا ولم يعوضنا عن الذخيرة التي استنفدناها حينذاك إلا مع الكوبري الجوي عند بدء معركة : أكتوبر سنة ٧٣ . وكان هذا عقابا لعبد الناصر لأنه بدأ حرب الاستنزاف واستمر فيها ضد رغبة السوفييت ..

من أحداث تلك الفترة التي كانت ذات أثر بعيد فيما بعد أن عبد الناصر في ساعة صفاء وإلهام قال لي وكان ذلك يوم 19 ديسمبر 69 : أنا مسافر يا أنور لحضور مؤتمر القمة العربي في المغرب يوم ٢٠ ديسمبر .. وزى ما أنت شايف المؤامرات حولي كثيرة ومحتمل جدا أن أصاب في إحدي هذه المؤامرات وأنا مش عايز البلد تبقي تايهه و مش عايز أسيب البلد في فراغ .. ولذلك قررت أن أعينك نائب رئيس جمهورية وتحلف اليمين قبل ما أمشي .

كنت أعرف أن مؤامرات عملاء الإتحاد السوفييتي قد بدأت بعد أن أتي الطبيب الروسي شازروف إلي مصر ورأي عبد الناصر وأسر إلي وإليهم دون شك بأن الأزمة القلبية التي أصابت عبد الناصر من النوع الخبيث وأنه لن يعيش بها طويلا .. تمعنت ما قاله لي عبد الناصر وأجبته : -

- فكرت يا جمال ورسيت ؟ أنا مش عاوز يا جمال أبقي نائب رئيس جمهورية .. أنا حاكمل معاك وأشتغل وإذا كان لابد من لقب كفاية علي مستشار رئيس الجمهورية .

قال : « .. بكرة تفوت علي عشان تحلف اليمين ..» وفعلا ذهبت إليه في اليوم التالي ومعي حسين الشافعي كعادتنا لاصطحابه إلي المطار .. في المنزل طلب أن أحلف اليمين وكان ذلك في وجود حسين الشافعي ففعلت وحينما ذهبنا إلي المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر علي الجميع ..

من أوضح مظاهر الصراع من أجل البقاء في هذه الفترة صراع عبد الناصر مع السوفييت من أجل بقاء مصر وصراع السوفييت مع عبد الناصر من أجل بقائهم في المنطقة ..

في أول يناير سنة ١٩٧٠ حينها ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من 70 عاملا بريئا استدعي عبد الناصر السفير السوفييتي وكبير الخبراء وأخبرهما أنه ليس في إمكانه الانتظار إلي يونيو وهو ميعاد تسلم بطاريات الصواريخ سام ٣ وخاصة بعد أن وصلت إسرائيل إلي العمق وضربت التجمعات العمالية والسكانية ، فحدد له القادة السوفييت ميعادا في ٢٢ يناير وسافر إلي موسكو في زيارة سرية استغرقت أربعة أيام عاد بعدها وهو في قمة السعادة ..

قلت له : خير يا جمال ..

قال : الدور ده الظاهر حيصدقوا معانا .. فأنا لما قلت أن الأمر عاجل وملح وطلبت منهم يبعتوا لنا صواريخ سام ٣ بأطقم سوفيتية إلي أن يتم تدريب أطقمنا في أغسطس جمعوا القيادة السياسية وأخذوا قرارا بإرسال سام ٣ ابتداء من شهر مارس سنة ٧٠.

كنا منذ الهزيمة نلح علي السوفييت أن يعاونوننا في الدفاع الجوي حتي أن عبد الناصر طلب منهم حينذاك أن يتولي الدفاع الجوي عن مصر قائد سوفييتي .. فقد كان الدفاع الجوي عندنا نقطة ضعف بارزة كما ثبت في عامى 69 ، ٧٠ عندما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر البقر للأطفال .. ولذلك اعتبرنا دخول سام 3 مصحوبا بجنود سوفييت نقطة تحول في تعامل السوفييت معنا ..

ولكن جاء إبريل موعد وصول الطائرات تى يو 16 التي كانوا قد وعدوا

بإرسالها مع الصواريخ ولم يظهر لها أثر وسألنا مرة ومرات أين الطائرات التي وعدتم بها ؟ ولكن لا اجابة .. نفس الأسلوب القديم الذي كنا قد تصورنا أنهم غيروه .. ضاق عبد الناصر بالموقف كله وقال لي :

- اسمع يا أنور أوراق اللعبة كلها في أيدي أمريكا شئنا أم أبينا ولقد آن الأوان عشان نتكلم وندخل أمريكا في العملية .

وكنا في ذلك الوقت قد فوضنا الاتحاد السوفييتي بالتحدث مع أمريكا لإزالة شكوكهم الرهيبة ..

ولذلك في أول مايو سنة ٧٠ و هو عيد العمال وجه عبد الناصر أغلب كلامه في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة عيد العمال إلي نيكسون وقال له .. هل أنت غير قادر علي حل المشكلة أم غير راغب في هذا ؟... كانت لهجة الخطاب رقيقة أو علي الأقل خالية من العنف كما كان بها قدر كبير من الدبلوماسية التي تفصح عن رغبة عبد الناصر في أن يفتح باب الحوار مع أمريكا ..

وفعلا بدأت أمريكا الحوار في يونيو سنة ٧٠ بمبادرة روجرز التي تنص علي نقطتين هما الانسحاب ووقف اطلاق النار لمدة 90 يوما يجري فيها وسيط من الأمم المتحدة المفاوضات بين الأطراف المعنية من أجل تسوية مشكلة الشرق الأوسط .. كان الوسيط جونار يارنج منذ أن صدر قرار مجلس الأمن ٢42 في نوفمبر 196٧ وكنا نعرف أن مهمته محكوم عليها بالفشل بسبب تعنت إسرائيل ، وفعلا لم يستطع أن يحقق شيئا وانتهت مهمته في سنة ٧١.

بعد إعلان مبادرة روجرز بقليل قام عبد الناصر بزيارة إلي موسكو أعددت لها أنا مع السفير السوفييتي فينوجرادوف إعدادا كاملا حتي يقتنع القادة السوفييت بضرورة إرسال سلاح الردع لنا ، ولكن رغم كل الجهود التي بذلت رفض السوفييت الاستجابة لمطالب عبد الناصر . فاضطر إلي أن يعلن قبوله لمبادرة روجرز و هو علي نفس المائدة مع القادة السوفييت في الكرملين .. جن جنون بريجنيف وسأل عبد الناصر كيف تقبل حلا أمريكيا فأجابه عبد الناصر أنه علي استعداد لقبول الحل من أية جهة ..

استغرقت رحلة عبد الناصر هذه ٢٠ يوما فقد أدخلوه غرفة الأوكسيجين الخاصة برجال الفضاء ليجدد خلايا جسمه كله حتي أنني عندما التقيت به في مطار القاهرة عند عودته من موسكو دهشت .. فقد بدا أصغر من سنه بعشرين سنة علي الأقل وما زلت أذكر قولي له وأنا

أرحب به « ما شاء الله يا ريس .. ايه الشباب ده !» وما زالت صورته أمام عيني وهو يسير في أرض المطار بخطي واسعة منشرح الوجه وصدره إلي الأمام كفتي في الثلاثين من عمره .. ولكن ماذا تفيد غرفة الأكسجين رجلا يعلم أنه مكتوف الأيدي نتيجة موقف السوفييت معه ؟

في أثناء غيابه في موسكو جمعت اللجنة السياسية للإتحاد الإشتراكي وأوصينا برفض مبادرة روجرز .. ولكنه عندما عاد وشرح لي ما حدث في الكرملين وأخبرني أنه قبل المبادرة قلت له : « معاك حق لأن السوفييت حيودونا في داهية» فنظر إلي وقال : « السوفييت يا أنور حالة ميئوس منها تماما ..»

كانت هذه آخر زيارة قام بها عبد الناصر للقادة السوفييت وقد كان تأثيرها علي صحته سيئا للغاية - فلأول مرة أحس عبد الناصر بأنه ليست هناك أرض للمناورة ، وعبد الناصر مناور ممتاز ولذلك فهو بدون أرضية مناورة يساوي صفرا وهو لا يحب أن يكون صفرا .. وكان الوحيد الذي كان يقف إلي جانبه في ذلك الوقت الاتحاد السوفييتي .. فعلاقاته مع أمريكا وغرب أوروبا والبلاد العربية مقطوعة أو ممزقة فلا مجال للمناورة ولا مجال بالتالي للصراع من أجل البقاء ..

منذ هزيمة سنة ٦٧ لم يسلم عبد الناصر من المرض إلي أن مات .. ففي 5 يونيو 196٧ إنفلت السكر ولم يتمكن من السيطرة عليه إلا في نوفمبر سنة 196٧ .. خمسة شهور متتالية كانت كفيلة بأن تدمر الجهاز الداخلي لعبد الناصر علي صورة أمراض متوالية أولها أصيب به في ديسمبر سنة ٦٧ علي هيئة بثور في بعض أجزاء من جسمه وكان أي احتكاك للملابس بها يسبب له آلاما رهيبة فأرسلنا في استدعاء الأطباء من مختلف أنحاء العالم إلي أن اكتشف المرض طبيب إنجليزي و أوصي بعلاجه عن طريق الهرمونات المضادة واضطر عبد الناصر إلي أن يخضع لهذا العلاج الذي كان يسبب له أزمات عصبية شديدة مدة شهرين كاملين إلي أن شفي من المرض فتلقفه علي الفور مرض آخر .. إذ بدأ يحس في ساقيه بآلام عنيفة أخذ عنفها يزداد يوما بعد يوم إلي أن وصلت إلي درجة لا يمكن احتمالها أو وصفها ومما زاد الحالة ضراوة أن عبد الناصر كان عليه أن يكتم آلامه ليظهر أمام الناس بكل هيبته و بالهالة الضخمة التي كانت تحيط به حتي إذا ما خلا إلي نفسه أغلق حجرة النوم عليه وعلي - فقد كنت ألازمه - وراح يصرخ بأعلى صوته كالأسد الجريح الذي لا يملك من أمر نفسه شيئا .. ظل علي هذه الحال شهورا متوالية إلي أن سافر للعلاج بالمياه المعدنية في (سخلطوبو) في روسيا.

وفي سبتمبر سنة 69 أصيب بنوبة قلبية أخفيناها وأعلنا أنها أنفلونزا . . فبعد أن فحصه الأطباء المصريون أسروا إلي بأنها أزمة قلبية .. وطلبني عبد الناصر وقال لي : «والله يا أنور شوف حتعمل ايه وصرف الأمور كما تري » قلت له : « أنا حابعت أجيب لك الدكتور شاز وف ».

كان شازوف طبيب القيادة السوفيتية وقد سبق له أن تولي علاج عبد الناصر في موسكو ، فأتي علي وجه السرعة وأكد تشخيص الأطباء المصريين وأوصي بأن يلتزم عبد الناصر بالراحة التزاما كاملا لأن هذه النوبة القلبية بالذات كانت من نوع خبيث للغاية فإذا تعرض

صاحبها لأي إجهاد بدني أو نفسي فسوف تودي بحياته بدون أن يشعر بأي ألم .. وهذا ما حدث لعبد الناصر بعد ذلك بسنة بالضبط ..

في خلال تلك السنة حدثت بعض الأمور التي أنهكت عبد الناصر صحيا وكان أولها قبوله لمبادرة روجرز فبمجرد أن سمع الفلسطينيون بهذا شنوا عليه حملة شرسة هوجاء دون أن يتريثوا أو يسألوه عن سبب قبوله لمبادرة روجرز وهو الذي وقف إلي جانب القضية الفلسطينية كما لم يقف أي رئيس أو حاكم عربي آخر .. بل لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر بتبنيه لقضية فلسطين قد أضفي علي القضية كل أبعادها السياسية التي لولاها لظلت مجرد قضية لاجئين .. فهو الذي ملأ العالم العربي والعالم كله باسم فلسطين .. وكان يهاجم بعنف أي حاكم عربي لا يقف إلي جانب القضية الفلسطينية .. بل وكرس كل جهده واستخدم الثورة نفسها للدفاع عن حق الفلسطينيين في وطنهم ...

كان من الطبيعي أن يتأثر عبد الناصر بموقف الفلسطينيين منه وأن يكون تأثره شديدا وعميقا .. فهاهم الذين أفني صحته في الدفاع عنهم يتنكرون له بالمزايدات والشعارات والانفعالات الطائشة الهوجاء والسفاهات الصبيانية !

كيف يتحمل رجل مريض بأقسى أنواع المرض أن يطعن كبرياؤه هكذا وليس علي أيدي الغرباء كما حدث في آخر زياراته لموسكو بل علي أيدي الأقرباء الأصدقاء .. الإخوة الذين كثيرا ما فضل مصالحهم علي مصلحته الشخصية ؟

كان من الطبيعي أن يؤثر كل هذا علي صحة عبد الناصر فيعجل بنهايته ولكن ليت الأمور توقفت عند هذا الحد.. ففي سبتمبر دعا عبد الناصر إلي مؤتمر قمة عربي في القاهرة من أجل مذبحة أيلول (سبتمبر) سنة ٧٠ بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية .. وكان السبب في هذه المذبحة أن الملك حسين قرر تصفية المقاومة في الأردن فاشتبك معها في صدام مسلح مما أدي إلي مذبحة بين أفرادها بالمعني الكامل للكلمة ..

لم يستطع عبد الناصر السكوت علي هذا فدعا إلي المؤتمر في القاهرة برغم كل ما ناله من أذي و حضر جميع الملوك والرؤساء العرب ما

عدا الملك حسين .. أما أنا فقد كنت قد شفيت لتوي من الأزمة القلبية التي انتابتي للمرة الثانية سنة ٧٠ وحضرت إلي القاهرة للإشتراك في المؤتمر

حضر المؤتمر معمر القذافي وكان ظاهرة تلفت النظر بالطبنجة التي لا تفارق حزام سترته كما كان دائم السباب في الملك حسين .. كان يصفه بأنه رجل مجنون ولابد له من دخول مستشفى المجاذيب .. وكنت أنا إلي ذلك الوقت أفسر سلوكه علي أنه نوع من اندفاع الشباب والحماس الزائد عن اللازم .. المهم انقسم الأعضاء إلي مؤيد لمجيء الملك حسين ومؤيد لعدم مجيئه ولكنهم انتهوا إلي اقتراح عبد الناصر من ضرورة اشتراك الملك حسين في المؤتمر .. وفعلا جاء الملك حسين وسار المؤتمر، ولكنه أصبح يشكل ثقلا رهيبا علي الأعصاب لا من ناحية الملك حسين بل من ناحية معمر القذافي وتصرفاته هو وياسر عرفات من خلف الكواليس ...

كنا مجتمعين ذات صباح في جناح عبد الناصر في فندق هيلتون أثناء انعقاد المؤتمر وكان معنا ياسر عرفات وكان جمال حريصا علي أن يصل إلي صيغة يحل بها المشكلة وكان من رأيه أن يتنازل كل من الطرفين قليلا فكلاهما مخطىء .. فإذا بياسر عرفات ينفعل ويبدأ سلسلة من الانفجارات لا نهاية لها .. ضاق جمال بالموقف فقال له : « أنا ما أعملش ده كله عشانك ويتحرق دمي بالشكل ده عشانك وانت يبقي موقفك كده ... »

وترك عبد الناصر الجناح عائدا إلي بيته بعد أن أعلن تصميمه علي عدم العودة إلي المؤتمر .. لحقنا به و هو يهم بركوب المصعد فأقنعناه بالعودة معنا وبعد محاولات عديدة ابتدأ ياسر عرفات يستجيب ..

المهم أن المؤتمر كان حملا ثقيلا علي أعصاب عبد الناصر ، فقد أجهد فيه أعنف إجهاد بسبب القذافي وتصرفاته من ناحية ومن ناحية أخري بسبب ياسر عرفات الذي كان عبد الناصر قد دعا إلي عقد المؤتمر ليحل له مشكلته .. انتهي الموتمر بالإتفاق علي ما اتفقوا عليه وعاد الملوك والروساء العرب إلي بلادهم وكان عبد الناصر في وداعهم جميعا .. كان آخر من سافر الملك فيصل وأمير الكويت .. وعند توديع

الملك فيصل نبهني كبير الياوران إلي أن قدمي الرئيس جمال قد لفت علي بعضها ، وهو يسير فطلبت من عبد الناصر أن يذهب إلي بيته ليستريح وأقوم أنا نيابة عنه بتوديع أمير الكويت ولكنه رفض .

كان من الواضح أنه يتحامل علي نفسه فعندما ركب أمير الكويت طائرته

لم يتحرك عبد الناصر من أمام الطائرة بل وقف مكانه والعرق يتصبب من وجهه وقد امتقع لونه بصفرة رهيبة .. فطلب أن تأتي السيارة إلي حيث كان .. وتركته علي اتفاق أن نسافر في الغد إلي الإسكندرية للإستجمام والراحة وذهبت إلي منزلي لأستريح قليلا فاتصل بي سكرتيره الخاص ليقول لي إن عبد الناصر سيحضر عندي لتناول العشاء معي .. وذهبت لأنام قليلا ولكنهم أيقظوني في السابعة مساء وقالوا إن بيت الرئيس جمال اتصلوا وقالوا إنك مطلوب في البيت لأمر هام .. .

ارتديت ملابسي بسرعة و ذهبت إلي منشية البكري حيث وجهوني إلي حجرة نوم عبد الناصر فوجدته علي فراشه والأطباء يحيطون به قالوا لي إنه مات منذ ساعة .. كشفت عن وجه جمال فوجدته طبيعيا جدا وكأنه يستغرق في نوم عميق .. ألصقت خدي بخده فلم أحس بالبرودة التي تصاحب الموت.. التفت إلي الأطباء وقلت : « مش ممكن .. الكلام اللي بتقولوه ده مش ممكن يبقي صحيح ..» قالوا لي إنهم قاموا بجميع الإسعافات اللازمة واستعملوا جهاز القلب الذي يعطي صدمة توقظ القلب ... قلت لهم : « حاولوا .. حاولوا مرة أخرى.. » فانفجروا بالبكاء وعلمت منهم أنهم حاولوا كل جهدهم

لمدة ساعة كاملة قبل وصولي ولكن قضاء الله وقدره كان قد نفذ..

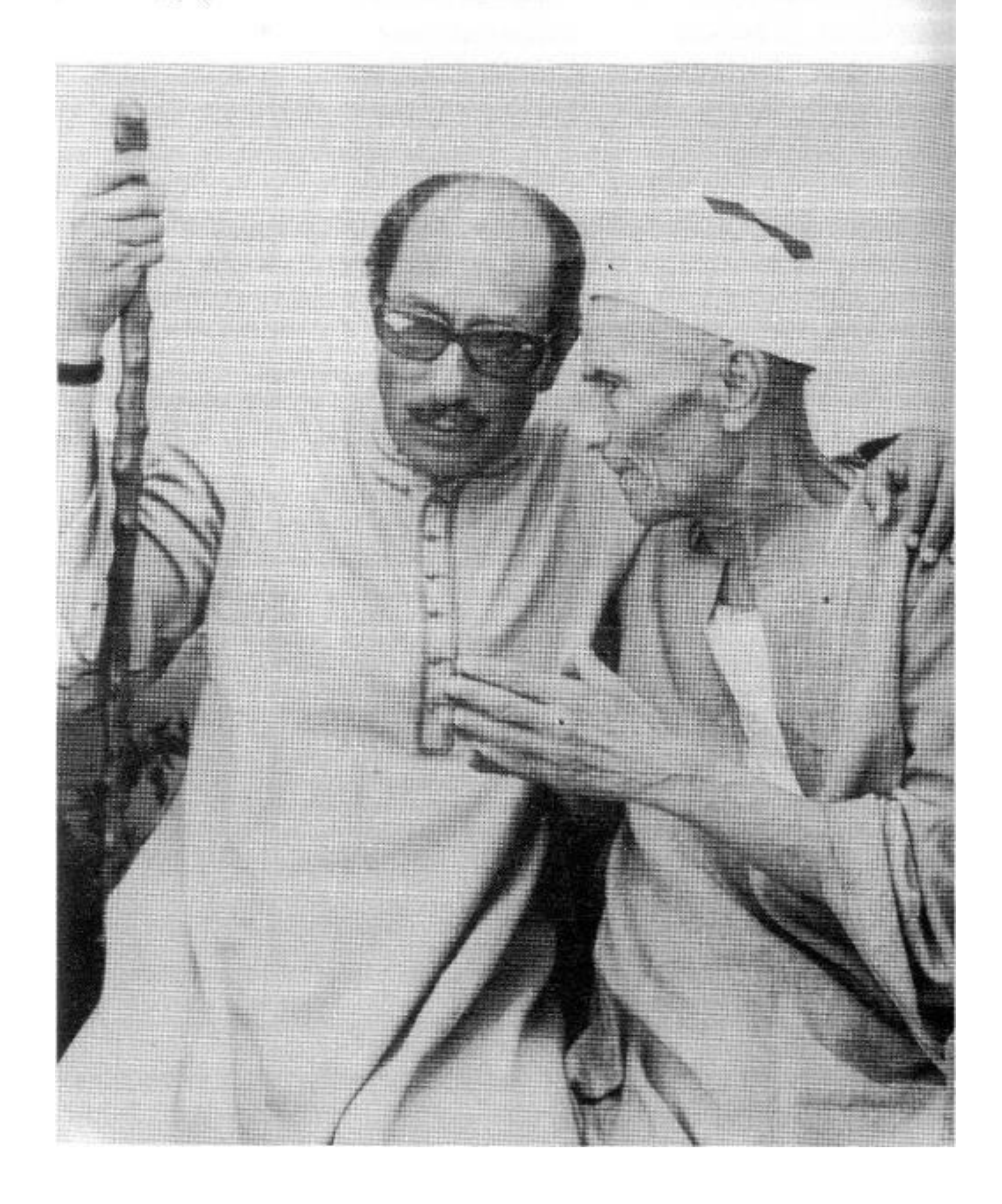
أمرت بنقل الجثمان إلي سراي القبة وكنا في يوم الإثنين فجمعت مجلس الوزراء واللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي وقررنا أن يكون ميعاد الجنازة يوم الخميس حتي يتمكن المعزون من الملوك والرؤساء من تشييع الجنازة .. وطلبت من الأطباء العمل علي حفظ الجثمان بطريقة سليمة إلي يوم الخميس ... ومكثت بقصر القبة حيث جثمان عبد الناصر إلي أن أتي وقت تشييع الجنازة فخرجت لعمل الترتيبات لسير الجنازة

التي كانت تبدأ من مجلس قيادة الثورة ولكن بعد أن وصل الجثمان والجنازة علي وشك الابتداء أصبت بانهيار مفاجىء .. فحملوني إلي مجلس قيادة الثورة وأعطاني الأطباء خمس حقن لم أفق منها إلا حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ..

كان أول سؤال سألته : هل دفن عبد الناصر ؟ فقد كنت أخشي أن تحمل جماهير الشعب التي كانت تقدر بالملايين النعش وتسير مندفعة به .

فموت عبد الناصر كان فاجعة مفاجئة للجميع ..

« أنا فلاح من قرية ميت أبو الكوم »





• على أثر تخرجي في رتبة الملازم الثاني من الكلية الحربية



• في مدينة العريش في سنة ١٩٥٠



• في قفص الاتهام أثناء نظر محكمة الجنايات لقضية مقتل أمين عثمان



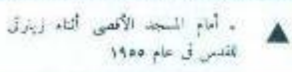
• على شاطىء البحر في بورسعيد
سنة ١٩٥٢



• مع ابني جمال في سنة ١٩٦٢

إحدى زياراته لى فى منزلى فى شهر مايو
سنة ١٩٦٢



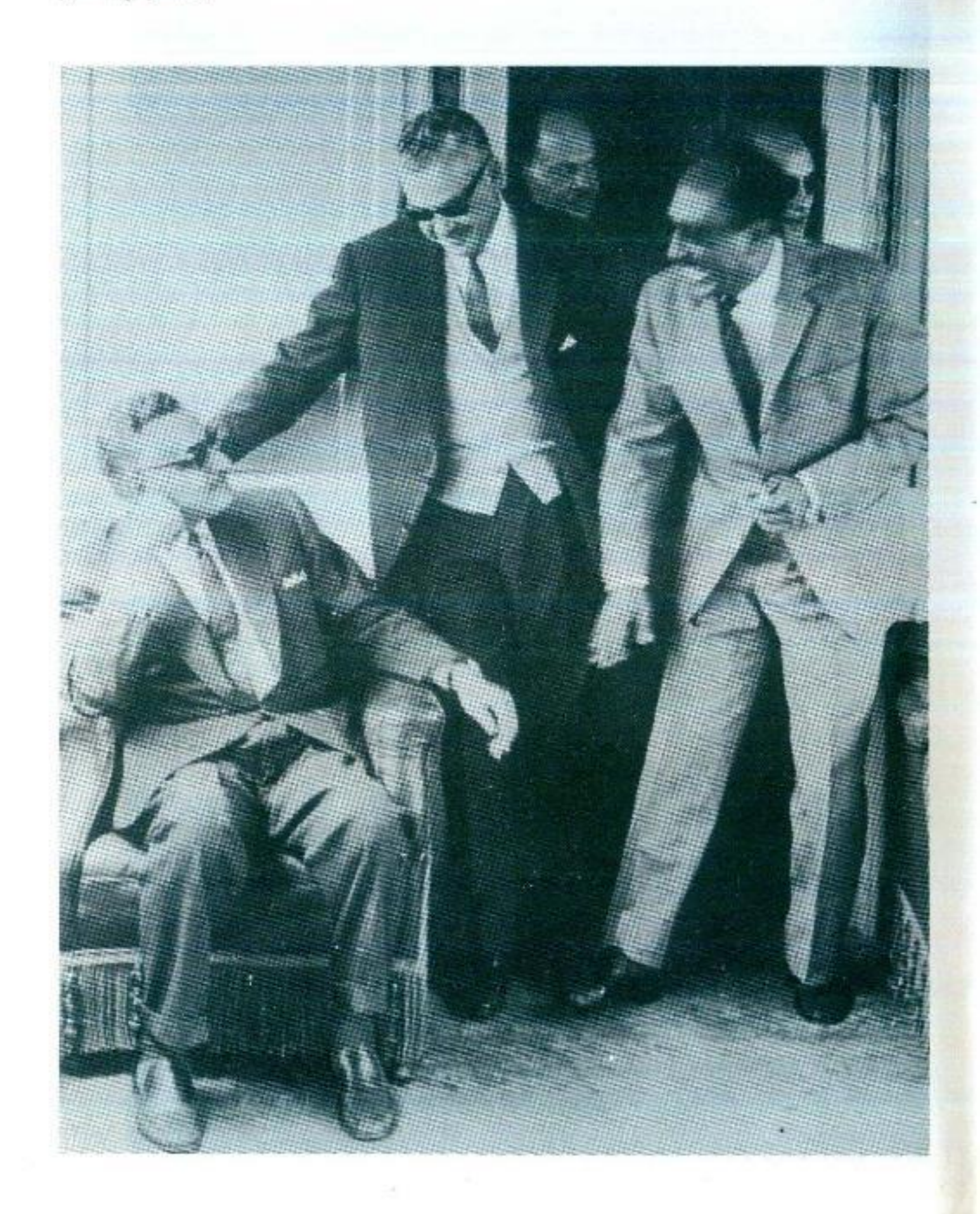


▲ • أمام المسجد الأقصى أثناء زيارتي للقدس في عام ١٩٥٥

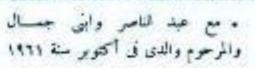
• مع المرحومة أم كلثوم في عـام ١٩٧٢ ▼



• في القطار مع عبد الناصر







▲ • مع عبد الناصر وابني جمال والمرحوم والدي في أكتوبر سنة ١٩٦١

▼ • مع أسرتي في حديقة بيتي بالجيزة في سنة ١٩٧٢



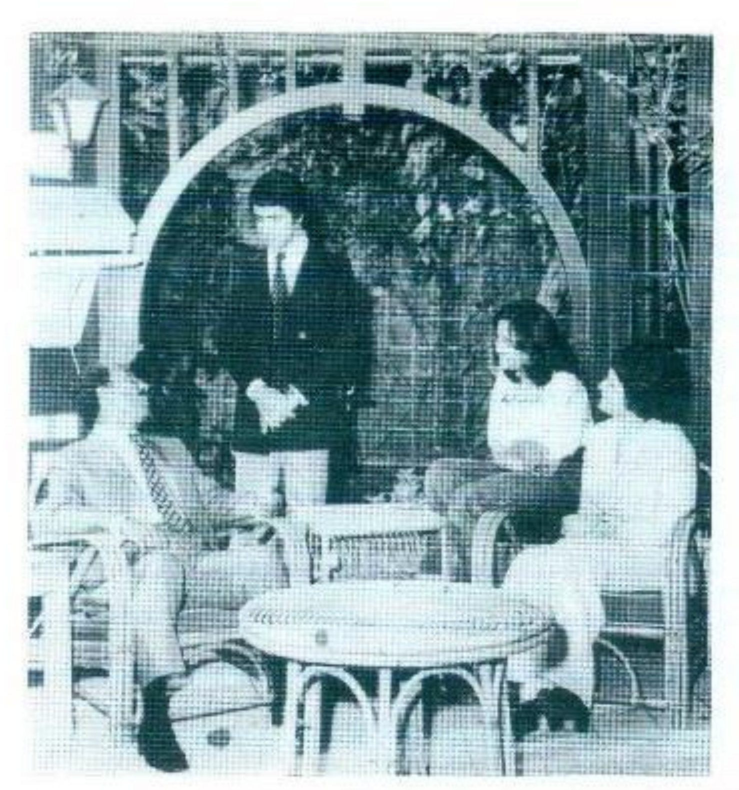


▲

• في جلسة هادئة داخل واحدة من الخيام بالقرب من مرسى مطروح في عام ١٩٧٢



• مع افراد أسرتي في استراحة القناطر الخيرية عام ١٩٧٢

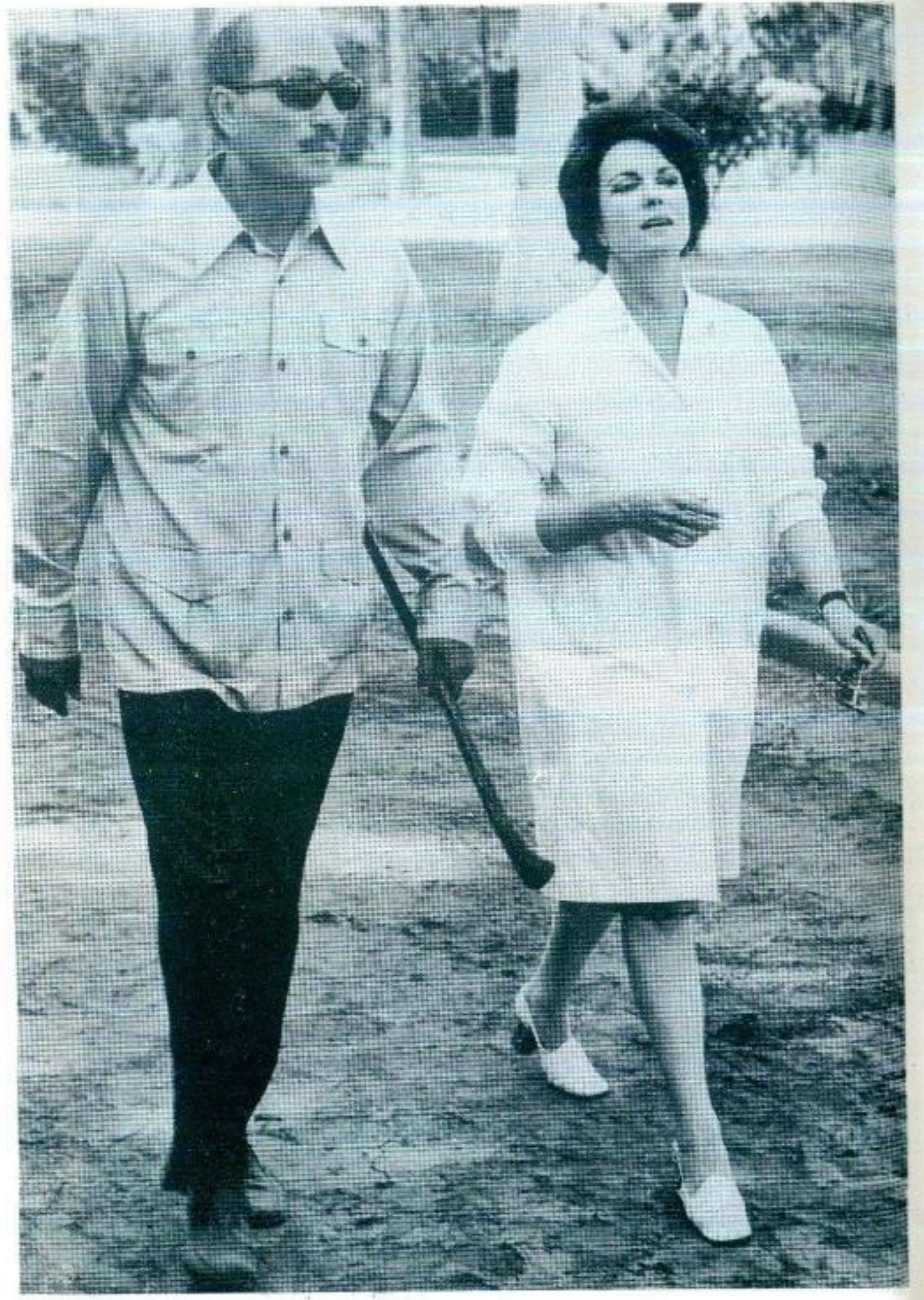


• مع شريكة حياتي وابني جمال وابنتي جيهان في عام ١٩٧٤

• مع أفراد أسرتي في صورة تذكارية



أكتوبر ، والصورة مع شريكة حياتي في حديقة بيتي بالجيزة على أثر عودتها من إداء واجبها الإنساني في رعاية هؤلاء الأبطال .





▲ • فى القيادة العامة للقوات المسلحة يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣

▼ • تكريم أبطال حرب أكتوبر





• تكريم المشير أحمد إسماعيل في مجلس الشعب



• تكريم أبطال أكتوبر في مجلس الشعب

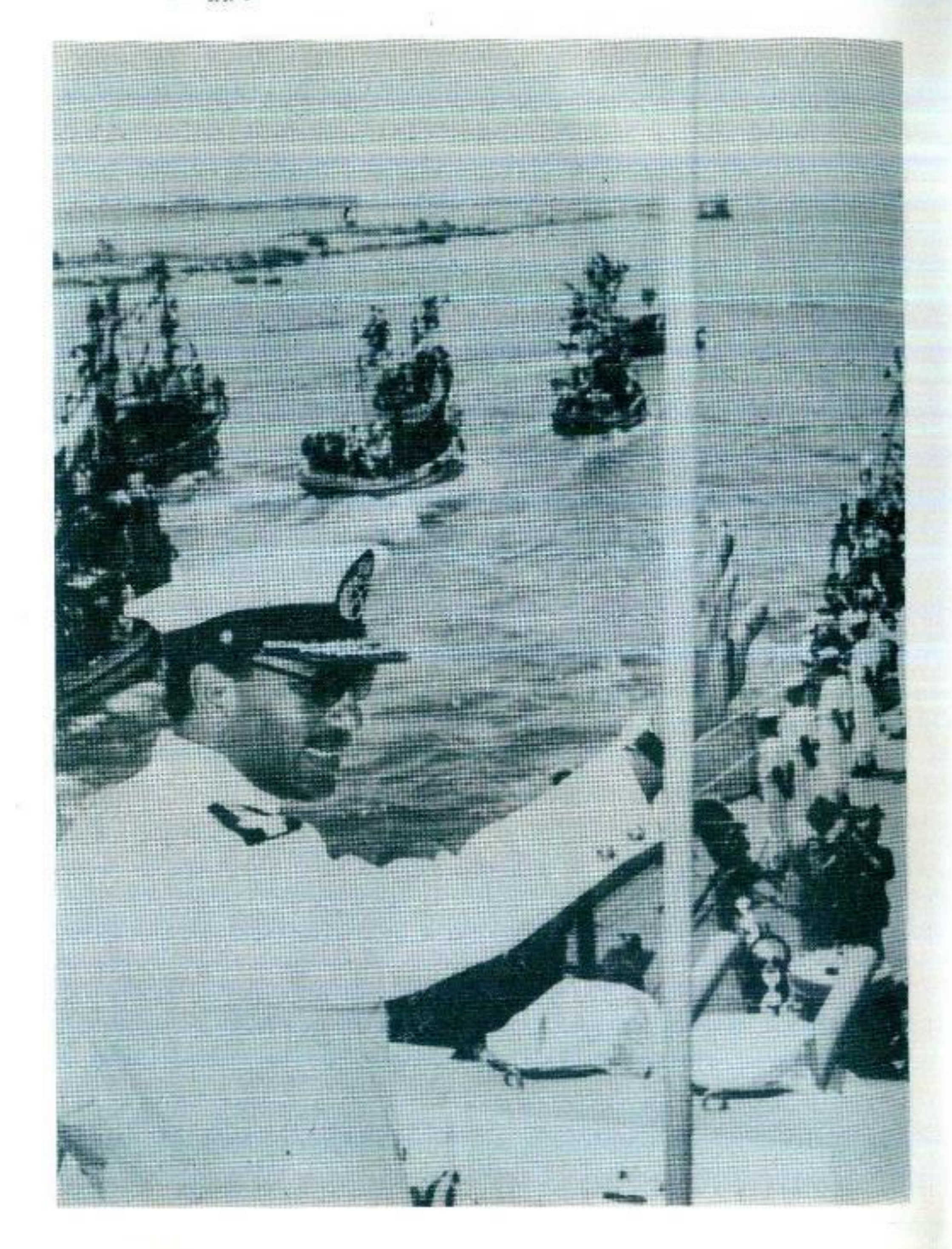


• فى إحدى مناورات القوات البحرية فى مايو سنة ١٩٧٥



• فى الاحتفال بافتتاح مدينة العاشر من رمضان فى مايو سنة ١٩٧٧

• من بورسعيد إلى الإسماعيلية في الاحتفال بعودة الملاحة إلى قناة السويس في يونيو ١٩٧٥



• غرس أول شجرة فى أرض سيناء فى
ديسمبر ١٩٧٥



الفصل الثامن :الثورة الثانية

بعد موت عبد الناصر مباشرة لم تكن بي رغبة في أن انتخب رئيسا للجمهورية ولما كان عبد الناصر في خطاب العودة يوم 10 يونيو سنة 196٧ قد أعلن أنه سوف تجري انتخابات الرئاسة بعد إزالة آثار العدوان فقد قلت إنني سأعمل نائبا لرئيس الجمهورية إلي أن أزيل آثار العدوان وبعد ذلك تجري الانتخابات ..

ولكنني بدأت أراجع نفسي لما أحسست من تيارات و مناورات من جانب مراكز القوي وأغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية العليا التي تركها إلي عبد الناصر وهي المكتب السياسي .. كما أني لاحظت أن البلد رغم حالة الحزن الشامل الذي كان يخيم عليها كانت في حالة ترقب .. فالشعب يريد أن يعرف إلي أين يسير وهو كله مجمع علي شيء واحد وهو ضرورة أن تضمد جراحنا و نلم شملنا بأسرع وقت ممكن لنكمل المسيرة .. وهذه ميزة الشعب المصري الأصيل الذي يستند إلي حضارة سبعة آلاف سنة .. إنه لا يفقد إحساسه بكيانه مهما كانت الظروف ..

وشيء آخر كان له وزنه في مراجعتي لنفسي ، فقد وصل الرئيس بومدين رئيس الجزائر قبل الجنازة واجتمع بي ولما علم أني سأعمل نائبا لرئيس الجمهورية إلي أن تتم إزالة آثار العدوان اعترض بشدة وقال إنه لا يجب أن يكون هناك أي شك أو اهتزاز في صورة مصر في عيون العالم .. وإنه يجب أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية فورا حفاظا علي مكانة مصر ومسئولياتها التاريخية بالنسبة للمعركة والأمة العربية كلها..

ولكن لعل ما جعلني أحسم الأمر ، مذكرة أرسلتها إلي القوات المسلحة تقول فيها إن الظروف التي تمر بها مصر صعبة ودقيقة للغاية .. وإن أمام القوات المسلحة واجبا لابد من إنجازه ولذلك فهم بحاجة إلي وجود قائد أعلي مسئول يتمكنون تحت رئاسته من تحقيق هدفهم ...

كانت المناورات قد بدأت بالفعل من جانب بعض مراكز القوي وكان المركز الذي أراد استغلال هذا الموقف أولئك الذين كانوا يستندون إلي الاتحاد السوفييتي ، وكان هناك آخرون ..

ولكن المركز الأول الذي كان يضم عملاء الاتحاد السوفييتي أخذ يرتب نفسه ، وتعهدوا فيما بينهم علي أن يكونوا الورثة الشرعيين لعبد الناصر بدعوى أنهم الأمناء علي خطه ..

في يوم الخميس بعد تشييع الجنازة استدعيت المسئولين وقلت لهم إني عدلت عن البقاء كنائب لرئيس الجمهورية وإنه لابد من الإنتخاب ولذلك طلبت انعقاد اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الإشتراكي (المكتب السياسى) فكل شيء يجب أن يسير وفقا للدستور .

طبعا كانت هناك صراعات و مناورات أثناء انعقاد اللجنة ـ فأحدهم مثلا وكان العضو الباقي معي من أعضاء مجلس الثورة طلب أن يظل الوضع كما هو وقال لي : « أنا أخشي لو قدمنا اسمك أن تكون محرجا فالبلد ترفضك وإذا حدث هذا فسيكون معناه أن البلد بترفض ثورة ٢٣ يوليو ».

قلت له : أنا عندي من الشجاعة الكافية ـ إذا عرضتم اسمي ورفضه الشعب ـ أن أجمعكم مرة أخري وتختار مرشحا آخر وإذا رفض الشعب المرشح الآخر فسنعاود الكرة ونختار مرشحا جديدا .. فلن أسلم البلد إلا لرئيس منتخب من الشعب مهما كلفني هذا من معارك ..

انتهت المناقشات بالموافقة علي تسميتي رئيسا للجمهورية وذهبنا إلي اللجنة المركزية التي وافقت علي اختياري كما وافق مجلس الشعب .. وبعد ذلك أجريت الانتخابات وانتخبني الشعب رئيسا للجمهورية وكان ذلك في 15 أكتوبر سنة ١٩٧٠

بمجرد انتخابي أصدرت قراري بتعيين الدكتور محمود فوزي رئيسا للوزراء و عبد المحسن أبو النور أمينا عاما للاتحاد الاشتراكي فأنا أؤمن أن العمل بفرد واحد خطير جدا لأنه يؤدي في النهاية إلي أن هذا الفرد لا يستطيع أن يلم بكل شيء فينتهز بعض معاونيه الفرصة ويأخذون الأمور في أيديهم كل يتصرف كما يشاء وبذلك توجد مراكز القوة ـ تماما كما حدث بالنسبة لعبد الناصر ..

أرادت مراكز القوة أن تصعد الصراع ، بحجة أننا لابد أن نسير علي خط عبد الناصر .. فقلت لهم إني لا أستطيع أن أصرف الأمور كما كان يصرفها عبد الناصر - فكل منا يختلف عن الآخر .. صحيح نحن لا نختلف في المبادىء أما الوسائل فنختلف عليها مائه في المائة .. وقد كانت لي جلسات مع عبد الناصر في بيته وفي بيتي خلال السنة السابقة لوفاته إذ كنا نتبادل الزيارات فنلتقي يوما لديه ويوما لدي .. وكنت دائم الحديث معه عن ضرورة تغيير منهج الحكم والأساليب التي كانت الناس تحكم بها إذ كان الشعب بعد الهزيمة وبعد الصمود الذي أبداه في حاجة ملحة إلي التغيير ..

أذكر أنه في أول يوم تسلمت الحكم أي في يوم 17 أكتوبر سنة ١٩٧٠ جاءني سامى شرف وكان هو كاتم سر عبد الناصر ووزير شئون رئاسة الجمهورية ومعه أوراق كثيرة لعرضها علي .. سألته : « ايه دي » ؟ قال لي : « دى مكالمات تليفونيه لأشخاص موضوعين تحت المراقبة » قلت له : « آسف .. أنا ما أحبش أقرأ الكلام الفارغ ده .. إذا كان فيه شيء خاص بأمن الدولة أشوفه وأحكم فيه .. أما ناس بتتكلم مع بعضها - أنا دخلي ايه ؟ وأنتم بأي حق تحطوهم تحت المراقبة ؟ شيل » وأزحت الأوراق من أمامى فجمعها وخرج ولكن قبل خروجه كنت قد أصدرت أمري إليه بإلغاء جميع المراقبات التليفونية وأن لا تتم أي مراقبات إلا بأمر القضاء وفعلا تم هذا . .

منذ أول يوم توليت فيه استيقظت في إرادة التحدي .. صحيح أنها لم تنم يوما طوال السنوات السابقة فهي إحدي مقومات شخصيتى ولكنها لم تكن بهذه اليقظة والحدة الآن .. بعد أن تسلمت الحكم .. فقد صارت مسئوليتي أن أسلم الشعب الأمانة سليمة .. رغم كل الظروف المحيطة به من هزيمة عسكرية كاملة الأبعاد ووضع اقتصادى منهار و عزله سياسية قاتلة ، فعلاقاتنا مع الدول العربية وأمريكا و غرب أوروبا ممزقة تماما .. بل لم تكن لنا علاقة إلا مع الاتحاد السوفييتي الذي لم يفكر حتي في أن يعوضنا عن قطع علاقتنا مع جميع دول العالم .. فإذا أضفنا إلي كل هذا بعض الحقائق التي لمستها بنفسي والتي تقطع بأن

أحدا من المسئولين الذين كانوا يحيطون بعبد الناصر لم يكن يأخذ في حسابه إلا مصلحته الخاصة وبقاءه في منصبه وسلطته المطلقة بغض النظر عن مصلحة مصر (فقد أصبحت الحسابات كلها شخصية كما أصبح الجميع يعيشون بالحقد والبغضاء) .. لأدركنا أن كل هذه الصعاب قد شحنت إرادة التحدي عندي فدعمتها وأيقظتها بحيث لم تضعف أو تغفل لحظة واحدة منذ أن توليت حتي الآن ..

قلت لجميع أعضاء مجلس الثورة ومراكز القوة في بداية حكمي إنني لن أقبل هذا الكابوس والحمل الرهيب ذا الأبعاد غير الواضحة .. وسأعيد تصحيحه بالحب و بالقوة الداخلية التي أعتز بها دون أن أقف علي أشلاء أي إنسان أو أجرح أي شخص ..

كنت أعرف أني بهذا أتحدي الكثير من الأوضاع والأخلاقيات القائمة ولكني كنت أعرف أيضا أنني قادر علي هذا التحدي فأنا في أي وضع مليء بقوة ذاتية أكبر بكثير من المنصب الذي أشغله - ولكن ها أنا الآن أملك قوة مادية أعطاها إلي الله وهي منصب رئيس الجمهورية فلابد أن استخدمها للخير .. كان هذا خطى طول عمري .. فأي عمل أقوم به يصدر عن مبادىء معينة هي إسعاد وحب مصر ولكن لم تكن الفرصة مواتية لي في أي وقت مضي مثلما أصبحت بعد أن اختارني الشعب رئيسا للجمهورية ..

وعندما أراجع خط سيري في الحكم في تلك المرحلة المتقدمة أجد أنني في ديسمبر سنة ١٩٧٠ أصدرت قرار تصفية الحراسات .. كانت للشعب آمال تراوده وكان هذا أحدها ولذلك لم أدهش عندما علمت أن القرار قد استقبل بحماس شديد ليس فقط من جانب أولئك الذين كانوا قد وضعوا تحت الحراسة بل أيضاً لدي جماهير الشعب العريضة التي لن يفيدها القرار في شيء مثل سائق التاكسي وغيرهم .

بالنسبة للوضع الخارجي فقد تقدمت بعد 4 شهور من بدء ولايتي بالمبادرة المصرية التي كان لها وقع شديد خارج مصر و داخلها فكنت أري أنه ما دامت المعركة العسكرية مستحيلة فلابد أن تحل محلها معركة دبلوماسية لأن القاعدة العريضة من الشعب تتطلب دائما الحركة المستمرة ..

عندما تسلمت الحكم كانت التركة التي تركها إلي عبد الناصر مهمة بالنسبة لي أول الأمر - ولكن أيا كان الوضع الذي كانت مصر فيه فقد قبلت التحدي لأصححه .. كنت أعرف أن القيم قد ضاعت ولكني استطيع أن أصحح هذا بقيمى و مبادئي .. وليس بضرب الناس .. كانت مراكز القوة تحكم أمام عيني فقلت لهم : أنا أتسامح ولكني لا أسمح بالعيب ..

لم يكونوا يعرفون أني لا أسمح لنفسي بالحكم علي مصائر الناس بتقارير تقدمها مراكز القوي كنت أعلم أنها مزورة وليست إلا شهوات انتقام أو تخويف .. وكانوا يجهلون أيضا أني لا يهمني أن أبني نفسي في الخارج .. فالصورة يجب أن تكون في مصر أساسا .. ولعلهم كانوا يجهلون أيضا أن أبشع ما واجهت هو جبل الحقد الذي بناه عبد الناصر علي كل المستويات حتي علي مستوي الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإبن أن يتجسس علي أبيه أو أخيه كما كان يحدث في الأنظمة الفاشية .. وهذا في تقديري أقبح ما يمكن أن نصل إليه .

فعندما قامت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت ترتكز علي أساس خلق ومثالي .. وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلا من أن تبدأ بالثقة و تعطى الفرصة إلي أن يثبت العكس (كما أومن أنا وكما تعودت أن أمارس في حياتى) بدأت بالشك في كل إنسان إلي أن يثبت العكس وهو الثقة وهو نادرا ما يثبت لأسباب كثيرة .. من أجل هذا أوغرت النفوس ضد الثورة .. ولذلك في الأربع سنوات الأولي وهي حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانتهاكات في حق الإنسان المصري ولكنها كانت في دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد .. في سنة 56 كان يجب علي عبد الناصر أن يواصل الانتصار بعد انتصاره في معركة القناه بأن يعطي للشعب المصري بعد معركة 1956 حريته كاملة ولكنه لم يفعل فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصري سلبيا مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات علي السطح بالنسبة للشعب .. لأنه يعرف في أعماقه جيدا أنه لم يشارك بل ولم يؤخذ رأيه

في أمر ما .. وعندما كان الشعب يتململ من هذا كان تململه يفسر علي أنه ثورة مضادة فتقع الحراسات والاعتقالات وكل هذا هو التطبيق الفعلي لامتهان كرامة الإنسان ..

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب في حق الإنسان المصري كان هو زرع الخوف.. فبدلا من أن نبني الإنسان أصبح كل همنا أن نخيفه .. والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب، فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكا للحاكم إن شاء منح وإن شاء منع وكان المنع مصحوبا في أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم .. .

وهكذا تحول الناس إلي « مساخيط » أو أصبحوا دمي في أيدي حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون.. فلم يعد مسموحا للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا في أرزاقهم .. ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسيروا إلي جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأي شيء مما يدور حولهم وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون .. من أجل ذلك قلت وما زلت أقول إنه بقدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها فإنها كانت أيضا عملاقة في أخطائها .. ولكن مع الزمن انتهت الإنجازات أو ذهبت أو أصبحت أمراً و اقعا مجردا من الهالة ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة تشيع الحقد والخوف بين الناس ولكنهم لا يملكون منها فرارا ..

ولكن رغم هذا كله ، يخطىء من يظن أن شعب مصر يمكن أن يموت فهو عملاق دائما قد يتحمل أشد أنواع الأذى من الداخل والخارج ولكن هذا الأذى لا ينال منه أبداً .. فبمجرد أن ينكشف عنه الغبار تجده عملاقا كما هو .. قد تجده مجروحا ينزف دما .. ولكنه يعلم أنه سيأتي الوقت الذي يقف فيه النزيف و يضمد جراحه .. هذا هو الشعب المصري الذي آمنت وما زلت أؤمن به وأدعو الله أن يمكنني من أن أزيل من طريقه جميع المعوقات وأن أجعل الكلمة الأولي و الأخيرة له فأنا أعرف أنه عند ذاك سوف يحقق المعجزات . .

كانت التركة التي ورثتها من عبد الناصر في حالة يرثي لها.. فمن الناحية السياسية وجدت أن علاقتنا مقطوعة مع جميع انحاء العالم ما عدا الاتحاد السوفيتي .. وفي العالم العربي ساد ما نادي به عبد الناصر وسمي بالتقدمية والرجعية وبناء علي هذا التقسيم التعسفي كان يقيم أو لا يقيم علاقاته بدول الأمة العربية .. وقد أخذ درسا حين رأي أن الذي وقف إلي جانبه بعد هزيمة سنة 196٧ كانوا من ظل طول حياته يصفهم بالرجعية مثل السعودية والكويت والملك السنوسي ملك ليبيا فهم الذين دعموه بالمال بعد الهزيمة .

كانت السياسة عند عبد الناصر تخضع لانفعالاته ، وقد أدرك هذا أولئك الذين يحيطون به ولذلك كانوا يستطيعون تطويعه كما يريدون إذا أحضروا إليه في الوقت المناسب المعلومات المناسبة التي يفجرها فتحدث في العالم دويا هائلا ..

أذكر أنه في سنة 1964 كان عبد الناصر علي وشك أن يلقي خطابه بمناسبة عيد النصر في ٢٣ ديسمبر في بورسعيد كما اعتدنا كل سنة بعد عدوان سنة 1956 .. وقبل الخطاب بخمس دقائق قال له علي صبري وكان رئيسا للوزراء إن وزير التموين سأل السفير الأمريكي عن موعد وصول معونة القمح فرد السفير بما أهان مصر وقال للوزير إن الكونجرس لم يوافق بعد - وبعد أن سمع عبد الناصر هذا « التقرير ، مباشرة ألقي خطابه فجاء مليئة بالسباب و الطعن في أمريكا .. وعندما سمع السفير الأمريكي الخطاب ذهب مباشرة إلي المسئولين وقال إن شيئا مما نسبه إليه عبد الناصر لم يحدث وأيد السفير وزير التموين المصري نفسه فقد بادر بعد سماعه الخطاب إلي الإتصال بمستشار عبد الناصر الصحفي ونفي هذه المعلومات وطلب إبلاغ ذلك إلي عبد الناصر . وأسقط في يد عبد الناصر فقد أدرك أن أقدار الشعوب لا يمكن أن تكون رهينة الانفعالات وهكذا اضطر إلي أن يطلب مني ومن عبد الحكيم عامر أن نصلح هذا الأمر فاجتمعنا مع السفير الأمريكي علي مائدة عشاء في منزل المستشار الصحفي المذكور وحاولنا بكل المحاولات أن نصلح هذا الخطأ .. ولكن لم يلبث الأمر أن تكرر .. إذ أن

ما حدث مع أمريكا حدث أيضا مع إيران فقد أسر أعوان عبد الناصر إليه بكلمات نسبوها إلي شاه إيران خطأ قبل أن يلقي خطاب ٢6 يوليو في الاسكندرية (وكان هذا تقليدا منذ خروج الملك من الإسكندرية في ٢6 يوليو سنة 195٢) فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلن قطع العلاقات مع إيران في هذا الخطاب ، رغم أنه ثبت فيما بعد أن حديث الشاه كانت قد حرفته وكالات الأنباء.. ومرة أخري طلب منى عبد الناصر أن أصلح الأمر مع شاه إيران في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الرباط حيث مثلت عبد الناصر لإصابته في ذلك الوقت بأزمة قلبية وطلب منى أن أوسط الملك حسين في ذلك وقد فعلت ذلك ولكن المصالحة لم تم.. كانت هذه هي التركة التي ورثتها سياسيا .. لا وجود لوزارة الخارجية أو سياسة مدروسة ومخططة.. لم يكن هناك سوي الرئيس نفسه الذي ينفعل فيصدر قراراته بناء علي هذا الانفعال وهو راض سعيد ما دام كل ما يقوله يصفق له الشعب ..

أنا اختلف عن عبد الناصر في هذه الناحية اختلافا تاما ، فعندما أردت أن ألغي المعاهدة مع السوفييت بعد ما فوتوا علي سنة الحسم بعدم الوفاء بالتزاماتهم .. و مناوراتهم التي لم تكن لها نهاية .. اتصلت بطرف ثالث من دول عدم الانحياز وهي الهند وطلبت منها أن ترسل إلي بعض الأسلحة التي تصنعها بموافقة السوفييت لأنها أسلحة سوفيتية واتصلت الهند بالاتحاد السوفييتي تستأذنه في إرسال الأسلحة ولكن رفض السوفييت لأنهم كانوا يأملون في أن يصبح السلاح الذي عندي خردة يباع لمجمع الحديد والصلب ..

كان هناك طرف ثالث يقوم بدور الشاهد وهي الهند.. ولذلك وجدت الفرصة مناسبة لكي أخلص البلاد من آخر التزام عليها وهو المعاهدة السوفيتية وخاصة بعد مسلك الاتحاد السوفيتي وأيضا كنت لا أريد أن أترك من خلفي التزاما قد يستغل من بعدي و أيضا لأنني كنت الذي عقدها وقبلها الشعب علي مضض لثقته في ..

وفي رأيي أنه ليس من حق أي إنسان أن يحتكم إلي انفعالاته عندما يتعلق الأمر بمصير الوطن .. بل يقتضي الواجب في نظري أن أبحث

عن كل مصدر لخير وسعادة الشعب وأن أفتح كل الأبواب التي أغلقت في وجه مصر مهما كلفنى هذا من جهد و عناء ..

واليوم وبعد أن أصلحت كل هذه الأخطاء فإني أفخر أن علاقات مصر بإيران و بالعالم كله تقوم علي الثقة والاحترام المتبادل ولن أنسي أبدأ يوم أن كان احتياطي البترول في مصر قد أصبح في مرحلة الخطر بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأن حقول بترولنا كانت مغلقة وأرسلت إلي شاه إيران فبادر في الحال بإرسال أكثر من نصف مليون طن وأمر ناقلات البترول في عرض البحر أن تغير طريقها لكي تتوجه إلي مصر لنجدتها وهو يقول :

«السادات أخ لي - و الذي يريده سأستجيب له في الحال » .

كانت التركة التي ورثتها اقتصاديا أسوأ بكثير من التركة السياسية فاستقلال أي بلد حر هو في حقيقته الاستقلال الاقتصادي وليس الشعارات السياسية .. فماذا كان حالنا سنة ٧٠؟

كنا قد نقلنا بغباء شديد النمط السوفييتي ونحن نسير علي الخط الإشتراكى رغم أننا كنا نفتقر إلي الموارد والإمكانيات وتراكم رأس المال . ففي سنة 195٢ عندما استلمنا البلد كانت ميزانية مصر ٢٠٠ مليون جنيه تركها لي عبد الناصر ٢٠٠٠ مليون ، ولكن لم تكن هذه الزيادة إلا علي السطح فقط أما في الأعماق فالمسألة تختلف تماما .. فعندما تم تمصير البيوت الأجنبية في مصر بعد معركة العدوان الثلاثي في أواخر سنة 1956 انعكس هذا الحال علي الوضع الاقتصادي لمصر .. وكان لنا في هذا الوقت أيضا أرصدة مقدارها 400 مليون جنيه استرليني ودائع في إنجلترا من متخلفات الحرب العالمية الثانية فأفرج عنها بعد أن كان إيدن قد جمدها بعد تأميم قناة السويس .

وهكذا .. في أول يناير سنة 5٧ بعد الإفراج عن ودائعنا في لندن و تأميم جميع البيوت الأجنبية عندنا كنا في أروع أوضاعنا الاقتصادية .. ومن هنا بدأ القطاع العام بالأموال والمؤسسات التي مصرت ولم تكن تقل في مجموعها عن ألف مليون جنيه .. ولكن لو كان البدء سليما لكنا الآن دولة عظمي .. في سنة 61 صدرت قوانين التأميم .. وكان من الممكن أن ينطلق اقتصادنا بالقطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص إلي آفاق هائلة لأن المنافسة بين الإثنين في صالح بناء أكبر واندفاع أعظم ، ولكن الذي حدث هو أن التطبيق الاشتراكي بدأ يتجه إلي الماركسية فأصبح أي عمل حر رأسمالية بغيضة وأصبح القطاع الخاص استغلالا ولصوصية فاختفي تماما نشاط الأفراد مما استتبع سلبية رهيبة من جانب الشعب أعاني منها إلي اليوم وصلت إلي أن أصبحت الدولة مطالبة - إلي جانب التخطيط وإدارة السياسة الخارجية والداخلية - بتوفير البيض والدجاج و مئات من الحاجات التي كان يمكن أن يوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردي .

ولقد كان من نتيجة هذا أن أصبح الشعب حسب النظرية الجديدة يعتمد علي الدولة في كل شيء .. الأكل والوظيفة والسكن والتعليم ، فما دامت الدولة قد أصبحت اشتراكية فعليها أن توفر للمواطن كل ما يتطلبه دون أي جهد إيجابي من جانبه .. وهذا الانكماش هو زاوية الهبوط إلي الهاوية ..

في سنة ٧٠ قرأت تقريرا صدر في أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادي يقولون فيه : « اتركوا عبد الناصر يصرخ فسوف يركع علي ركبتيه اقتصاديا في القريب العاجل ».

كنا في ذلك الوقت نعتمد فقط علي أنفسنا فلا معونة أمريكية أو سوفيتية أو عربية أو غربية فكل ما كنا نأخذه من الغرب والشرق والعرب كان الشماتة .. فقد ضاع اقتصادنا في حرب اليمن والانفصال عن سوريا و التطبيق الماركسي للاشتراكية وهزيمة يونيو المنكرة ...

قرأت التقرير مرة ومرات واستلفت نظري ما جاء فيه من أن زيادة السكان بمصر وبالتالي زيادة الاستهلاك سوف يجعل الاقتصاد المصري يصل إلي مرحلة الصفر في خلال سنتين من سنة ١٩٧٠ علي الأكثر ففزعت ولكني اعتبرته دعاية من الغرب وأنه ضمن الحملة النفسية التي تشن علينا لكى نسلم لإسرائيل ولكن بعد أن توليت اكتشفت الحقيقة المرة - فقد استدعيت وزير المالية والاقتصاد - د. حسن عباس زكى وسألته عن الموقف الاقتصادي فقال ببساطة: إن الخزينة فاضية .. وإننا نكاد نكون في حالة إفلاس ... قلت له : «كيف وصل الحال إلي هذا ؟ ألم تخبر جمال ؟، قال : « أنا قعدت أليس طاقية ده لده ولكن دلوقتي خلاص ».

أرسلت واقترضت ٢٠ مليون جنيه ولكن حسن عباس زكي قال لي إن هذا المبلغ لم ينفع كثيرا .. وكنت أذعر فعلا .. عندما أدركت أننا علي وشك أن يأتي اليوم الذي لا نملك فيه رواتب الجنود المرابطين علي الجبهة ومرتبات الموظفين فإذا جاء يوم ولم يقبضوا رواتبهم وعرفوا أن أهلهم في مصر لا يجدون ما يأكلونه فسوف يتركون الجبهة وتنهار مصر ..

طبعا كافحت واستعنت بكل مدد يمكن الإستعانة به .. ولم أشعر طوال سنة ٧١ و سنة ٧٢ بحقيقة الكارثة ولكن قبل المعركة بخمسة أيام واجهت مجلس الأمن القومي بحقيقة اقتصادنا وبأنه تحت الصفر وهذا أمر لو صادف غيري أو أي إنسان لابد أن يخيفه ولكني فكرت وقررت .. ولا اعتقد أن أحدا مكاني كان سيجد الشجاعة لإصدار أي قرار ولكني كنت علي ثقة أن مفتاح كل شيء سياسيا واقتصاديا وعسكريا هو أن نصحح هزيمة سنة 196٧ لكى نستعيد ثقتنا في أنفسنا وثقة العالم بنا فلم يكن الوضع الاقتصادي سوي بعد واحد من أبعاد المشكلة.

لقد كان محو عار ومهانة هزيمة سنة 196٧ هو الأساس ، وكان تقديرى أني حتي لو دفنت مع أربعين ألف من أبنائي في القوات المسلحة ونحن نعبر القناة فسيكون ذلك أشرف لنا ألف مرة من أن نقبل هذا الإذلال وتلك المهانة و ستأني الأجيال القادمة من بعدنا لتقول إنهم ماتوا بشرف في المعركة ولا بد أن يكملوها بعدنا .

في وفاة عبد الناصر أرسلت أمريكا أحد وزراء نيكسون وهو ريتشاردسون للتعزية وعندما عاد إلي بلاده كتب تقريرا بأن السادات لن يبقي في الحكم لأكثر من أربعة أسابيع إلي ستة أسابيع .. وفي الداخل بدأ عملاء الاتحاد السوفييتي في القيادة السياسية الصراع .. وظهر هذا واضحا بعد أن أصدرت قرار إلغاء الحراسات بعد شهرين فقط من ظهور نتيجة الانتخابات .. في هذه الأثناء كنا قد بدأنا نجتمع - مصر وليبيا والسودان وسوريا - من أجل تحقيق وحدة بين البلاد العربية .. لم يكن السودان علي استعداد للدخول في أي عمل وحدوي في هذه الفترة حتي يتمم إقامة مؤسساته الدستورية وكان القذافي يتظاهر بأنه وحدوي متطرف .. أما حافظ الأسد فقد كان حريصا علي الوحدة من أول لحظة .. واتفقنا علي الصيغة التي نبدأ بها الوحدة وهي صيغة الجمهوريات العربية المتحدة علي أن تكون لكل جمهورية شخصيتها بنظامها ورئيسها حسب أوضاعها وظروفها وبعد ذلك يتكون ما يسمي مجلس الرئاسة ويجتمع رؤساء جمهوريات الوحدة لكي ينسقوا عملية الوحدة و الخطوات إليها. . وكان هذا الأسلوب هو ما اتفقنا عليه في حياة عبد الناصر كدرس مستفاد من الانفصال الذي وقع للوحدة بين مصر وسوريا عام 1961 والتي لم تستمر إلا ثلاث سنوات فقط .

وجد مركز القوة الأول الذي يتكون من علي صبرى و شعراوي جمعة وسامى شرف و جميعهم عملاء للاتحاد السوفييتي - وجد هذه فرصة للتصارع وكان معى ضمن وفد مصر للوحدة علي صبرى فصرح بأن ظروف مصر لا تسمح بالدخول في أي نوع من الوحدة .. وكان هذا أول محك للصراع بيني و بين مراكز القوة .. في مراحل الوحدة المختلفة كان علي صبري ومعه بقية وفد مصر من القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر يحاولون تلغيم الطريق إلي الوحدة مع كل من ليبيا وسوريا .. لم يقل لي القذافي أنهم يتصلون به ليضعوا العقبات في طريق الوحدة أما الأسد فقال لي : « أنت في وضع غريب جدا .. أنت بتتكلم كلام والوفد اللي معاك بيتكلم كلام مختلف تماما من وراك ».

وفي اليوم الأخير لاجتماعاتنا قال نميري : « أنا زي ما قلت لكم مش جاهز للوحدة وكل ما تتخذه من خطوات وحدوية بينك وبين سوريا أنا أؤيده ١٠٠ ٪ لأنه أمر يخص معركتنا القومية » ، وكان في اليوم التالي سيسافر إلي موسكو .. وهكذا انتهت المحادثات بالفشل فذهبت إلي القذافي قبل أن يعود إلي ليبيا في الصباح وقلت له : « يا معمر لعلمك أن حافظ الأسد رئيس سوريا لن يغادر مصر هذه المرة إلا وقد أقمت أنا وهو الجمهورية العربية المتحدة .. هذا قدرنا فمعركتنا واحدة ».

قال : « أنا مستعد أدخل معاكم ....» مع أنه في الليلة السابقة كان له رأي مخالف تماما لما يقول فهو يريد إما أن تقوم الوحدة علي ما يراوده من آمال وأحلام وإلا فهو يضع في طريقها العقبات...

قلت له : « الوضع حيكون شاذ لأن نميري سافر النهارده علي أساس أن الاجتماع الرباعي فاشل .. فإذا كنت عايز تخش معانا نرجع لاجتماعنا الذي كان مقررا في بنغازي اللي كنا متفقين عليه قبل الاجتماع الرباعي .. أنت تسبقنا علي بنغازي وأحنا نيجي بعدك بكذا ساعة ».

وكان هذا الاجتماع الرباعي بين مصر والسودان وليبيا وسوريا قد تم عقب اتفاقنا علي اجتماع ثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا في بنغازي ولكنه عُدل إلي اجتماع رباعي في القاهرة بإضافة السودان كطلب الرئيس السوداني نميري ..

طلبت وفدا للذهاب معي إلي ليبيا وكونته من حسين الشافعي وعلي صبرى و هما نائبا رئيس الجمهورية في ذلك الوقت .. ذهب علي صبرى مبكرا إلي المطار ومعه شعراوى جمعه بصفته وزيرا للداخلية - وهما اللذان كانا يمثلان القيادة بالنسبة لمركز القوة الأول العميل للاتحاد السوفيتي - فعليه أن يكون في وداع القذافي .. انفرد علي صبرى و شعراوي جمعة بالقذافي في المطار وبدأوا عملية التخريب فاستجاب لهم وقال لهم : « والله الرئيس السادات هو اللي أحرجني ».. وعندما وصلت المطار قال شعراوي جمعة لي : « القذافي بيقول إن سيادتك ضغطت عليه وهو مش عاوز الوحدة» .

ووجدت علي صبري يقول لي نفس الكلام ... فقلت أنا أرفض الاستماع إلي هذا اللغو ..

وفي بنغازى جلسنا حول مائدة الاجتماع وكان هناك مجلس قيادة الثورة الليبي كله والرئيس الأسد والوفد السوري وأنا والوفد المصري .. أخبرت المجلس بما حدث بيني وبين القذافي وأن الوحدة التي نجتمع من أجلها ليست حرجا لأحد وذكرت قول القذافي أنه أحرج فلم يتكلم القذافي ولم يعلق علي صبري فبدأنا المناقشة ولكن بعد يومين فقط كان من الواضح أننا لن نستطيع أن نتفق وقررنا السفر وأرسلنا الحقائب إلي المطار وأعددنا البيان الذي سيعلن عقب الاجتماع وفيه أننا لم نتفق وسبقنا الصحفيون إلي المطار وإذا بسوريا تتصل بالقذافي وتعرض عليه تعديل صيغة معينة كنا متفقين عليها فيوافق و يعرضها علي فأوافق فأرسلنا لاستدعاء الصحفيين ووقع اتفاق بنغازي .. فإذا بعلي صبري يأتي إلي ويقول إنه غير موافق .. فقلت له : « أجل معارضتك هذه إلي أن نعود إلي القاهرة »..

في القاهرة جمعت اللجنة التنفيذية العليا وكانت مكونة من ثمانية أشخاص عرضت عليهم الاتفاق علي الوحدة الذي وقعته عن مصر في بنغازي و بعد مناقشات طويلة وضح فيها أن الأغلبية وهم مركز القوة الأول من عملاء روسيا كانوا متكتلين لإسقاط الاتفاق وجاهزين في أول اختبار قوة معي لكي يفرضوا الوصاية علي قراراتي ، أخذت الأصوات فكانت النتيجة خمسة من ثمانية هم عملاء الاتحاد السوفييتي في القيادة للرفض ضد ثلاثة هم أنا والدكتور فوزى رئيس الوزراء وحسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية .. فكان واضحا أن الصراع في أوجه فإما أن يجهزوا علي وإما (علي الأقل) أن يحدوا من سلطتي نهائيا بحيث لا أستطيع أن أتخذ أي قرار إلا بموافقتهم ...

وفوجئوا إذ لم يكونوا جاهزين للمفاجأة من جانبي حين طلبت عرض الموضوع و نتيجة التصويت علي اللجنة المركزية ، ولم يكونوا جاهزين لهذه المفاجأة كما قلت فحاولوا كسب الوقت بإعادة الدراسة ولكني أصررت علي عرض الأمر كله علي اللجنة المركزية التي لم يستطيعوا بكل الجهود اليائسة التي بذلوها كسبها إلي جانبهم .. ووافقت اللجنة المركزية بالإجماع علي الاتفاق .. وهكذا انتهي اختبار القوة معي إلي انتصاري المطلق و تسليمهم .. ولكن إلي حين .

في يناير سنة ١٩٧١ كان علي أن اتخذ قرارا بالنسبة لمبادرة روجرز فدعوت إلي اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الحربية ووزير الخارجية - وكان واضحا من المناقشة أن الرأي الغالب وهو رأي مراكز القوة وهم الأغلبية في القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر بأن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل في الوقت الذي كان فيه نصف الوطن و هو الصعيد معرضا لإغارات إسرائيل كما حدث خلال عام 196٨ ، 196٩ ورغم أن الاتحاد السوفييتي كان يماطل في إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشأتنا في الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف في إرسالها بمختلف الحجج .. وكان واضحا أيضا من مناقشاتهم أنها مناورة لإحراجي وإحراج البلد فانتهيت من الاجتماع بأن قلت لهم إني لن أدخل حرب

استنزاف أخري حتي تصلني بطاريات الصواريخ وأؤمن المنشآت في الصعيد نصف مصر كما أني سأجدد مبادرة روجرز بشهر واحد فقط ينتهي في 7 مارس ١٩٧١ حتي أعطي آخر فرصة للعالم و لأمريكا وإسرائيل ليتحملوا مسئولياتهم ...

وفي 4 فبراير سنة ١٩٧١ أعلنت أمام البرلمان للعالم كله ولشعبنا وللأمة العربية مبادرة مني أساسها أنه إذا انسحبت إسرائيل من ضفة القناة إلي المضايق فإننا علي استعداد لفتح قناة السويس بعد أن تعبر قواتنا إلي شرق القناة وسوف أمد الثلاثة شهور الواردة في مبادرة روجرز إلي ستة شهور بدلا من ثلاثة وسيكون هناك وقف إطلاق نار رسمى و أيضا سوف أعيد العلاقات مع أمريكا ...

لم أخبر أحدا من مراكز القوة بمبادرتي هذه ففوجئوا بها يوم أعلنتها في خطاب 4 فبراير في مجلس الشعب فأصيبوا بوجوم شديد .. في حين أن العالم الخارجي استقبلها أحسن استقبال .. فلأول مرة ينتبه العالم لنا لأن كلامنا قبل ذلك لم يكن موضوعيا .. مجرد حماس و انفعال ..

أما الشعب المصري فبأصالته وحسه المرهف أدرك المبادرة ورحب بها كل الترحيب .

في فبراير سنة ١٩٧١ أيضا فكرت في السفر إلي الاتحاد السوفييتي لأول مرة بعد انتخابي رئيسا للجمهورية لأطالبهم بتنفيذ الجزء الثاني من الإتفاقية التي عقدوها مع عبد الناصر وهو إمدادنا بسلاح الردع .. كذلك استعراض الذخيرة التي استهلكناها في حرب الاستنزاف ولتزويدنا ببطاريات الصواريخ من أجل حماية المنشآت في الصعيد .. فأرسل إلي السوفييت أنهم علي استعداد لمقابلي في ١، ٢ مارس وطلبت منهم أن تكون الزيارة سرية ، وسافرت وجلسنا علي مائدة المفاوضات في الكرملين وشرحت لهم متاعبنا منذ عهد عبد الناصر و مطالبنا الحيوية و بدأت حديثي بتقرير النقطتين الأساسيتين اللتين قررتهما في كل اجتماعاتي التالية مع قادة الكرملين .. الأولي هي أنه لن يحارب لنا معركتنا جندي سوفييتي و الثانية أننا لا نسعي إلي المواجهة بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا .. وكنت في شدة الانفعال والحماس فاشتبك معي كوسيجين رئيس الوزراء السوفييتي كما اشتبك معي المارشال

جريتشكو وزير الدفاع السوفييتي ورددت عليهما بعنف مما جعل بريجنيف يتدخل ويعلن لي أن الحكومة السوفيتية قد وافقت علي تزويد مصر بعدة أصناف من الأسلحة .. لم تكن هي المطلوبة فعلا ولكن قبلناها لحاجتنا الماسة إلي أي سلاح - كان هذا أسلوب السوفييت معنا دائما ولكني قلت لهم في هذا الاجتماع : -

- نحن نشكركم ولكن لابد أن أسجل هنا في محضر الاجتماع أننا مختلفون .

أثناء اشتباكي معهم في هذا الاجتماع قالوا إنهم علي استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصواريخ و يدربوا عليها المصريين علي أن لا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفيتية.. عندئذ اشتد غضبي وقلت لهم :

« مفيش قرار في مصر إلا لي كرئيس لمصر وأنا بارفض هذه الطائرات » بعد ذلك أخذني بريجنيف وقال لي بيني و بينه و أنت عارف الطيارة الميج ٢٠ اللي عندك منها 4 ؟ قلت : «دى طيارة ممتازة ».. قال لي : - « سأرسل لك منها ثلاثين تستخدمها قاذفات ».. قلت له : « عندئذ يبق أنا تنازلت عن كل خلاف علي شرط أن الطيارين يأخذوا أوامرهم مني أنا » ..

طبعا لم يرسل بريجنيف ما وعد به فأصدرت أمري بأن الأربع طائرات ميج ٢٠ (مثل التي طار بها طيار سوفيتي إلي اليابان) والتي كان يعمل عليها طيارون سوفييت لا تطير .. فإما أن يعودوا إلي بلادهم .. وإما أن أشترى هذه الطائرات .

كانت لدي هذه الطائرات الأربعة ميج ٢٠ وقد قبلت وجودها علي الأرض المصرية لأداء الخدمات المطلوبة للاستطلاع للقوات المصرية ولكنها لم تقم سوى مرتين بهذه المهمات ورفض الطيارون أن ينفذوا ما نأمرهم به .

واتضح أن وجودهم كان للاستطلاع لحساب الأسطول السوفييتي الخامس في البحر الأبيض ضد الأسطول السادس الأمريكي في هذا البحر ..

وقد سحب الاتحاد السوفييتي هذه الطائرات ورفض أن يبيعها لي .. وفي اجتماع اللجنة التنفيذية العليا رويت لهم ما حدث في موسكو وقلت « أنا رفضت قبول هذه الطائرات لأن الشرط كان أن آخذ موافقة موسكو عند استخدامها وليكن واضحا لكم جميعا أنه ليس في مصر قرار إلا لي أنا كرئيس جمهورية وأنا لا أريد سلاح الردع هذا إذا كان بهذه الشروط » .

لم يستطع المتآمرون وهم أغلبية القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر أن يتفوهوا بكلمة أمامي ولكنهم خرجوا من الاجتماع ساخطين علي فكيف لا أوافق علي أخذ الإذن من الاتحاد السوفييتي وهو دولة عظمي ...!!

لم يرسل لي السوفييت بطاريات الصواريخ إلا في شهر إبريل سنة ١٩٧١ أما الذخيرة فقد أرسلوا شيئا منها ولم يرسلوا بقيتها إلا أثناء حرب أكتوبر سنة ٧٣ .. أما الطائرات وسلاح الردع الذي وعد به بريجنيف فقد كان مجرد كلام .. هكذا كان السوفييت معنا دائما .. يضعوننا في موقف لا نملك فيه أن نتخذ قرارا .. ففي 7 مارس أعلنت في خطابي أننا غير ملتزمين بوقف إطلاق النار كما أعلنت انتهاء مبادرة روجرز وكان المفروض أن أبدأ بعد هذا مباشرة حرب الاستنزاف ولكن عدم وفاء السوفييت بوعودهم جعلي غير قادر علي الحركة في ذلك الوقت ..

كانت مبادرتي التي أعلنتها في 4 فبراير سنة ١٩٧١ نقطة بدء لمعركة سياسية لأنه لم يكن في مقدوري في ذلك الوقت أن أفتح معركة عسكرية وكنتيجة لمبادرتي اتصلت بنا أمريكا واقترحت أن يزورنا روجرز فرحبت ..

وكانت صدمة للاتحاد السوفييتي وعملائه و خاصة من كان منهم في مراكز القوى.

كان قد أصبح واضحا لمراكز القوة هذه والمتآمرين أني بدأت أكسب أرضا في مصر وخارج مصر ولكن صراعهم كان تحت السطح مما جعلهم يعجلون بعملية التآمر للخلاص مني ..

طلبوا مني في أول الأمر أن أعين وزير الداخلية وهو أحد كبار المتآمرين وعملاء السوفييت رئيسا للوزراء ولكني رفضت .. وكنت قبل ذلك قد قررت تصفية علي صبري عميد العملاء السوفييت في مصر .

وفي لقاء بيني وبين السفير السوفييتي قلت له : « أنا حريص علي العلاقات معكم ولكني أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أني قررت تصفية علي صبرى من القيادة السياسية وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شئوننا الداخلية التي لا أقبل فيها تدخلا من أحد ولكني أخشي عندما أصفيه أن تتحدث صحف الغرب عن تصفيه رجل موسكو الأول في مصر وأن يسبب هذا لكم شيئا من الحساسية ، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل في مصر فأنتم تتعاملون مع الحكومة لا مع أفراد .. وأنا أصفي علي صبري لأني أقبل الخلاف في الرأي ولكن لا أقبل الصراع علي الاطلاق» ..

بدأت مراكز القوي أو علي التحديد مركز القوة رقم واحد الاجتماعات والتحريض وبدأ الناس يرسلون لي شكاوي ضدهم موقعة ويخبرونني بالتعليمات التي صدرت إليهم من الاتحاد الاشتراكي الذي كان تحت سيطرتهم فكنت أحيل هذه الخطابات إلي المتآمرين أنفسهم وكنت أرقب حتي إذا اعتدي أحدهم علي واحد من أصحاب الشكاوي طالبته بالمبرر

وفتحت المعركة .. وفي أواخر إبريل أصابهم الحمي فأكثروا من الاجتماعات والتحريض وأطلقوا المزيد من الإشاعات وكان عندهم جهاز إشاعات يفخرون بكفاءته إذ كانوا يقولون إنه باستطاعتهم أن يطلقوا الإشاعة من القاهرة فتشيع في جميع أنحاء البلاد ثم تعود إليهم في زمن قياسي .. وهو تكتيك معروف في روسيا بما يسمونه مراكز التهييج ..

كنت قد وقت معركتي معهم علي أن تكون في عيد العمال وهو أول مايو سنة ١٩٧١ .. وقد حاولوا إفشال هذا الاجتماع بكل الوسائل .. ولكنهم فوجئوا بأن خطابي استولي علي اهتمام الناس فكان اجتماعا من أنجح الاجتماعات .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ ، أقلت علي صبرى من جميع مناصبه في سطر واحد صدر في الصحف .. ففرح الشعب بذلك فرح عظيما وفي نفس الوقت زادت عند المتآمرين حمي التآمر والتحريض والاجتماعات والمناقشات وهم يظنون أني لا أعرف شيئا مما يدور .. أردت أن أكمل المعركة التي فتحتها فعقدت عدة اجتماعات في القوات المسلحة و قلت في آخر خطبة لي : «لن أسمح بمراكز القوة ولا بالصراع وأي واحد حيعمل حاجة ضد مصر أنا حافرمه ..» وكان يجلس بجاني محمد فوزي وزير الحربية وقتذاك وهو واقع تحت تأثيرهم .. .

كان المفروض أن أذهب في يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلي مديرية التحرير ولكني علمت أنهم قد دبروا كمينا هناك لاغتيالي فأجلت الرحلة معتذرا بأني مجهد .. وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بينة ..

منذ تاريخ توليتي في 16 أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلي 11 مايو سنة ١٩٧١ ، كانت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنقصني البينة .. إلي أن أتي يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءني ضابط بوليس شاب لم تكن لي به سابق معرفة .. وهو يحمل معه شريط تسجيل عليه مكالمة تليفونية بين اثنين من مراكز القوة يتضح فيها تآمرهم علي وعلي الدولة وكيف كانت الإذاعة محاصرة يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء

علي مشروع الوحدة .. حتي إذا لجأت إلي الإذاعة لأخاطب الشعب أحاصر هناك ويغتالوني .

عندما وصلني هذا الدليل قلت يجب أن أصفيهم علي الفور فلم يعد هنالك شك في تآمرهم علي مصر - بدأت بإقالة وزير الداخلية زعيم التآمر .. وفي الساعة الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق من مساء نفس اليوم 13 مايو سنة ١٩٧١ جاءني أشرف مروان (وهو زوج كريمة عبد الناصر) وكان يعمل مديرا لمكتب سامى شرف ، وهو يحمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحربية ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة المركزية وأعضاء من اللجنة المركزية العليا .. وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث انهيار دستوري في البلد.. قبلتها جميعا وأعلنتها علي الشعب في الحال وحددت إقامتهم في بيوتهم . . وفي نفس الليلة أجريت تعديلا وزاريا وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أي انهيار دستورى مما كانوا يحلمون به بل علي العكس خرج الناس إلي الشوارع و هم يهللون فرحين بما تم لا يعرفون ماذا يفعلون فقد كانت الفرحة أكبر من أن تحتويها صدورهم .. .

وهكذا تخلصت مصر من كابوس مركز القوة الأساسي الذي شل حركتها سنوات طويلة ..

ولكن كان من الضروري أن نتخلص من آثار هذه المراكز التي ظلت جاثمة فوق الصدور سنة بعد سنة تعبث بأقدار الناس تزرع الخوف في الإنسان المصري وتعطل العدالة و تشيع الحقد و تذيق الناس من ألوان القهر والتعذيب ما لا طاقة لهم به وتحرمهم من أهم مقومات الحياة وهي الحرية .. فأمرت بحرق جميع شرائط التسجيل الموجودة في وزارة الداخلية .. وكان هذا رمز لإعادة الحرية إلي الناس .. فقد أمرت علي الفور بإغلاق جميع المعتقلات وتحريم الإعتقال وأعلنت أن لكل مواطن الحق في أن يفعل أو يقول أي شيء في ظل سيادة القانون.

كان ما حدث في 15 مايو سنة ١٩٧١ والأيام التي تلته تصحيح لمسار ثورة ٢٣ يوليو سنة 195٢ ولكنه كان في نفس الوقت بمثابة اللبنة الأولي في بناء المجتمع الاشتراكي الذي نعيشه اليوم والذي يتسم بالعدل

الاجتماعي الحقيقي لا بالشعارات ، و بالعمل الإيجابي والأهداف الساطعة في وضح النهار لا التفسيرات الملتوية أو الفلسفات الدخيلة علينا البعيدة عن قيمنا العربية ، وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماوية وتمسكه بتراث وتقاليد العائلة المصرية الأصيلة ..

جاء بودجورني لزيارتي في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وكانت صحف الغرب كما تنبأت فيما مضي قد نشرت أن رجل موسكو الأول في مصر بل رجال موسكو كلهم قد وضعوا في السجن ..

وفعلا نشرت بعض صحف الغرب صورة بودجورني في زيارته لمصر وهو يستعرض عملاء موسكو في ملابس السجن ..

اجتمعت به وطلب مني أن تعقد مصر معاهدة مع الاتحاد السوفيتي .. لم أعارض ولو أنني قلت إن التوقيت ليس سليما فمراكز القوة رجالكم في مصر ما زالوا في السجن ولم يحاكموا بعد فأنتم بعقد المعاهدة تسيئون إليهم أمام الشعب لأنكم بهذا تؤكدون للشعب أنهم هم الذين كانوا يحمون مصالحكم ولكنه كان متلهفا علي عقد المعاهدة وقال إن المكتب السياسي قد اجتمع في موسكو وأصر علي المعاهدة .. قبلت وكان هدفي أن أطمئنهم فقد كنت أعرف أن من طبعهم أن يتركوا أنفسهم فريسة للشكوك في كل علاقتهم مع الغير .

والشك في نفسية الروسي طبيعة ثانية معروفة سواء وقت القيصرية أو الشيوعية ..

وفي اليوم التالي عقدنا المعاهدة وذهبت مع بودجورني لأودعه في المطار وطلبت منه وهو يهم بركوب الطائرة أن ينقل للقادة السوفييت رسالة مني وهي .. الثقة.. الثقة.. الثقة ، فقد شعرت أنهم مهتزون وكنت أخشي من هذا علي معركتنا ..

أثناء اجتماعي مع بودجورني قلت له إننا غير سعداء بهذه المعاملة التي تعاملوننا بها ومع ذلك فنحن نعقد معكم هذه المعاهدة لنثبت لكم حسن نوايانا فقال لي : « بعد أربعة أيام من وصولي إلي موسكو سنرسل إليك كل ما طلبته من سلاح فورا بما في ذلك سلاح الردع » .

كان هذا في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ولكن فات يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ولم يحدث شيء مما وعد به بودجورني .. أسوأ ما كان يضايقني من الاتحاد السوفييتي أنهم كانوا في أغلب الأحيان

يصمتون كالقبر .. كنت استدعي السفيرالسوفيتي مرات ومرات و أبعث إلي السوفييت بالرسالة بعد الأخرى .. ولكن لا إجابة وكأنك تتصل بأشخاص لا وجود لهم إلا في خيالك .

في يوليو سنة ١٩٧١ حدثت ثورة السودان الشيوعية فاتخذت موقفا حاسما من هذه الثورة وقلت نحن نشجب هذا الذي حدث ولا أقبل أن يقوم حكم شيوعي علي حدودي وما هي إلا أيام قليلة فعلا حتي سقطت هذه الثورة وعاد نميري رئيسا للجمهورية بعد أن تخلص من أعدائه.

اتسعت الفجوة بيني وبين السوفييت بعد موقفي من ثورة السودان فانقضي يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أي رد من السوفييت سوي أن القادة السوفيت في مصيفهم بالقرم ..

وأخيرا في أواخر سبتمبر سنة ١٩٧١ جاءتني رسالة منهم بأنهم علي استعداد لاستقبالي في 11 أكتوبر سنة ١٩٧١ - وكنت قد وصلت في هذه المرحلة إلي درجة التشبع وكان لابد لأي إنسان في موضعي أن يفقد أعصابه نتيجة لهذا الإهمال المتعمد من جانب السوفييت سنة كاملة تقريبا - ومع ذلك كظمت غيظى وسافرت إلي موسكو وبدأنا المباحثات .. أعدت نفس الكلام الذي قلته لهم في ٢ ، ١ مارس سنة ١٩٧١ ... « يا جماعة أنا أقبل أن تضعونا خلف إسرائيل بخطوة ولكن أن تكون المسافة بيني وبين إسرائيل عشرين خطوة فهذا أمر لا يحتمل» .

كانوا كعادتهم يتركوني أتكلم كما أشاء وأحيانا يشتبك بعضهم معي فيما عدا بريجنيف الذي يقف دائما موقف المتفهم ولا يدخل في أي اشتباك .

وعدوني في هذه المرة أن يرسلوا إلي الطائرات بالصواريخ ومعها المدربون الذين سيدربون طيارينا المصريين عليها .. ولكنهم تنازلوا هذه المرة عن الشرط الذي ينص علي أن لا تطير هذه الطائرات بالذات إلا بإذن من موسكو.. وفي نهاية اجتماعنا قلت لهم : «نحن الآن في ١٢ أكتوبر .. كل ما أرجوه أن ترسلوا هذه الأسلحة بأسرع ما يمكن حتي نستطيع قبل نهاية السنة أن نكون في وضع يمكننا من تحريك الموقف ».

وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فإما حل سلمي وإما معركة وافقوا وعدت إلي مصر وأنا علي ثقة أن الأسلحة التي وعدوا بها سوف تكون قريبا في الطريق إلينا ...

انقضي أكتوبر ونوفمبر ولكن كل شيء كما هو .. استدعيت السفير السوفييتي وأرسلت إلي الكرملين عدة رسائل ولكن لا إجابة .. وإذا بي أفاجأ في 8 ديسمبر سنة ١٩٧١ بالمعركة بين الهند وباكستان وبأن الاتحاد السوفييتي طرف فيها .. استدعيت السفير السوفييتي يوم ١٢ ديسمبر وقلت له إنه لم تصلي قطعة سلاح واحدة إلي الآن ولذلك أرجوك أن تبلغ القادة السوفييت أنني أطلب مقابلتهم في موسكو حتي نبحث عن وسيلة نغطي بها الموقف الذي كشفوني فيه عن سنة الحسم.. وقبل أن ينهي ديسمبر بأربعة أو خمسة أيام جاءني السفير ليبلغني أن القادة السوفييت مواعيدهم مشحونة ولكنهم علي استعداد لاستقبال في ١، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ ..

كنت أعرف أني سأواجه حملة مسعورة لأنني سبق أن أعلنت أن سنة ١٩٧١ هي سنة الحسم . وفعلا حدث هذا .

في أول يناير ١٩٧٢ حاول روجرز وزير خارجية أمريكا أن يكفر أمام الرأي العام اليهودي عن موقفه إلي جانبي ذات يوم بعد أن أنبته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علنا أمام الكنيسيت في خطاب مشهور فأعلن أنه قد انقضت سنة ١٩٧١ ولكن بلا حسم أو خلافه وأن أمريكا ستعطي إسرائيل المزيد من العتاد والسلاح وكل شيء .

بل وأعلن أيضا أن الولايات المتحدة قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ في تصنيع الأسلحة مع إسرائيل .. وأن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق علي العرب مجتمعين وليس علي مصر وحدها ..

كانت حربا نفسية شرسة كما توقعت ، ولكن الشعب المصري بحسه الصادق أدرك أن المسئول عن هذا هو الاتحاد السوفيتي ..

في يناير سنة ١٩٧٢ كان الشعب هنا في أوج غضبه علي الاتحاد السوفييتي رغم أني لم أطلع الناس علي الحقائق بل علي العكس كنت أدافع عن الاتحاد السوفييتي في جميع أحاديثى و خطبى ..

ذهبت إلي موسكو في ١ ، ٢فبراير سنة ١٩٧٢ وسألتهم عن المسئول عن تأخير الأسلحة التي وعدوني بها - فرد بريجنيف وقال إنه المسئول نظرا للإجراءات المكتبية والروتينية ... إلخ .. فقلت : « أنا لست مقتنعا بهذا الكلام وإذا تكرر ما حدث مرة أخري فسوف أتخذ قرارا ما .». ثم أعدت علي مسامعهم وأنا في قمة الغضب نفس الكلام الذي سبق أن قلته في زياراتي السابقة وخاصة النقطتين الأساسيتين وهما أننا لا نريد جنديا سوفيتيا ليحارب معركتنا وأننا لا نسعي إلي مواجهة بينهم وبين أمريكا .. فأنهوا المناقشة بقراءة قائمة بالأسلحة التي وعدوا بإرسالها فورا .. ولم تكن أيضا الأسلحة الأساسية .. ولكنها كانت علي أي حال أحسن من لا شيء..

فعدت إلي مصر ولكن صبري كان قد نفد..

في ذلك الوقت تحدد أول لقاء قمة بين بريجنيف و نيكسون من أجل الوفاق في ٢٠ مايو سنة ١٩٧٢ . وبدأ السوفييت يرسلون لنا الأسلحة التي يريدون هم إرسالها، أما التي نريدها نحن فيحجبونها عنا .. وفي 15 مايو سنة ١٩٧١ جاءني المارشال جريتشكو ومعه قائد الطيران السوفييتي وأحضروا معهم طائرة جديدة اسمها سوخوى ١٧ وأقاموا عرضا للطائرة ..

كان جريتشكو يحمل معه بيانا مكتوبا كالعادة في اللجنة المركزية وطلبوا أن نصدره وفيه أننا قد تسلمنا قاذفات بعيدة المدي (وهو غير صحيح)... فأصدرناه بل ومنحتهم نياشين وسافروا ..

كنت أعلم أن الهدف من زيارة جريتشكو لنا قبل خمسة أيام فقط من وصول نيكسون إلي موسكو هو أن يقوم السوفييت باستعراض نفوذهم في الشرق الأوسط ومع ذلك لم أمانع بل منحت جرينتشكو ومن معه نياشين ..

نسيت أن أقول إن السفير السوفييتي فاجأني برسالة عاجلة من القادة السوفييت في أواخر ابريل سنة ١٩٧٢ وقبل زيارة نيكسون المحدد لها ٢٠ مايو ١٩٧٢ يطلبون فيها أن أزورهم في أواخر ابريل ..

طبعا كان هدفهم من كل هذا أن يثبتوا للولايات المتحدة أن أقدامهم ثابتة في منطقة الشرق الأوسط وبرغم «قرفي» سافرت و اتفقنا في هذا اللقاء ـ القادة السوفييت وأنا ـ أنه بعد أن تنتهي زيارة نيكسون في ٢٠ مايو ، عليهم أن يرسلوا إلي تحليلا للموقف ثم يبدأوا فورا في توريد الأسلحة المتأخرة التي تعاقدنا عليها ... وذلك في خلال خمسة شهور أي من يونيو سنة ١٩٧٢ إلي أكتوبر سنة ١٩٧٢ ميعاد الإنتخابات في أمريكا ..

وكانت الفكرة أن نكون مستعدين في نوفمبر سنة ١٩٧٢ بعد إنتخاب الرئيس الأمريكي فإذا لم يكن هناك طريق إلي الحل السلمي استطعنا أن نتحرك عسكريا .. وافقوا علي هذا وعدت إلي مصر .

تمت زيارة نيكسون للاتحاد السوفيتي في مايو سنة ١٩٧٢ ، ثم صدر أول بيان وفاقي بين موسكو وواشنطون يقول بالاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط .. .

وكان صدمة عنيفة لنا لأننا كنا كما سبق أن قلت خلف إسرائيل عسكريا بعشرين خطوة ومعني الاسترخاء العسكري في هذا الوضع هو التسليم من جانبنا لإسرائيل ..

ثم جاءني التحليل السوفييتي بعد اللقاء مع نيكسون ولكن متأخرا أكثر من شهر .. في 6 يوليو سنة ١٩٧٢ .. وكان التحليل السوفييتي يوضح أنه لم يحدث أي تقدم بالنسبة لقضية الشرق الأوسط مع أمريكا .. تماما كما تنبأت لهم في زيارتي لموسكو في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وخاصة لأنها سنة الانتخابات في أمريكا ..

والأغرب من هذا أن التحليل السوفييتي الذي حمله علي السفير السوفيتي متأخرة شهرة عما اتفقنا عليه في لقاء آخر إبريل سنة ١٩٧٢ لم يذكر شيئة علي الإطلاق عن إرسال الأسلحة المطلوبة كما اتفقنا ..

بل إن هذا التحليل الذي كان يقع في أكثر من صفحتين ونصف لم يتعرض للمعركة والأسلحة المطلوبة كما اتفقنا في إبريل إلا في خمسة سطور أخيرة تقول ببساطة إننا لا نستطيع أن نبدأ معركة وإن لهم خبرة

في هذا الموضوع وكيف أنهم بذلوا مجهودا خارقا في إقناع نيكسون بتنفيذ قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن .

قلت للسفير السوفييتي : هل هذه هي الرسالة .. قال نعم .. قلت لقد كنت معنا في موسكو في أبريل الماضي وسمعت اتفاقنا بارسال الأسلحة قبل موعد الإنتخابات الأمريكية .. قال نعم .. قلت إن هذه الرسالة لم ترد علي ذلك ... قال إن هذه هي الرسالة التي تلقيتها ..

قلت إنني لا أقبلها .. بل وأرفض أسلوب القادة السوفييت في التعامل معنا .. أرجو أن تبلغ القادة السوفييت كل ما سأقوله لك كرسالة رسمية ..

ا- إني أرفض هذه الرسالة التي أبلغتها لي من القادة السوفييت شكلا وموضوعا ولا أقبلها وأرفض هذا الأسلوب في التعامل ..

٢ - إني أقرر الاستغناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفييت (وهم

حوالي 15000) وأن يعودوا إلي الاتحاد السوفييتي في فترة أسبوع من اليوم وسأعلن وزير الحربية غدا بهذا الأمر ..

٣- هناك معدات سوفيتية وهي أربع طائرات ميج ٢٠ وهناك محطة للحرب الإليكترونية ويعمل عليها طاقم سوفيتي فإما أن تبيعوها لنا أو تسحبوها إلي الاتحاد السوفيتيي .

4 - كل هذا لابد أن يتم في بحر أسبوع .

ولم يصدق السفير السوفييتي واعتقد أنها عملية ابتزاز BLACKMAIL

في اليوم التالي استدعيت وزير الحربية وأبلغته بقراراتي لينفذها ، وفي يوم 16 يوليو سنة ١٩٧٢ كانت جميع قراراتي قد نفذت ورفضوا أن يبيعوا لنا الطائرات وأجهزة التشويش فسحبوها معهم .

من أسباب هذه القرارات موقف الإتحاد السوفيتي منا طبعا ولكن كان هناك سبب آخر مهم وهو أني قد بنيت استراتيجيتي علي أساس أن لا أبدأ المعركة وعلي أرض مصر خبراء سوفيت .

حلل السوفيت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت ووصلوا في النهاية إلي قرار خاطىء أفادني كما توقعت في استراتيجيتي. وهو أنني قد استقر رأيي علي أن لا أدخل المعركة .. وقد أسعدني هذا التحليل لأن هذا ما كنت أود أن يتوهموه .. ومن الأسباب الأخري لطرد الخبراء السوفيت ، أن السوفيت كانوا قد بدأوا يشعرون أن لهم وضعا ممتازا في مصر لدرجة أن السفير السوفيتي بدأ يأخذ لنفسه وضعا أشبه ما يكون بوضع المندوب السامي البريطاني أيام الإحتلال .

وقد حدثني مدير العمليات العسكرية وكان الجمسي في ذلك الوقت عن عمليات التشويش والأربع طائرات والمعدات التي يعمل عليها خبراء سوفيت فقال إنهم كانوا يرفضون تنفيذ أي أمر إلا بعد أن تأذن لهم موسكو .

وكان من أهم الأسباب لقراراتي هذه أني أردت أن أضع السوفيت في حجمهم الطبيعي كدولة صديقة لأنهم ظنوا في مرحلة من المراحل أن مصر أصبحت في جيبهم ، وظن العالم أن الإتحاد السوفيتي هو ولي أمرنا فأردت أن أقول للسوفيت إن مصر إرادتها تنبع فقط من ذاتها وأن أقول للعالم إن أمرنا بيدنا وحدنا فمن يرغب في الكلام عن مصر ، يأتي إلينا ويتكلم معنا لامع الإتحاد السوفيتي .

الفصل التاسع : حرب أكتوبر

لم أذهب إلي الإسكندرية كما كانت عادتي في كل صيف منذ هزيمة يونيو ٦٧ إلي سنة ٧٢ ، ولكن بعد أن اتخذت قرار إخراج الخبراء السوفييت أحسست بشيء من الراحة فقلت أذهب إلي الإسكندرية للاستجمام وأصدرت أمرا إلي مكتبي بأنه إذا حاول السوفييت الاتصال بي أن يقولوا لهم إني في المصيف بالإسكندرية كما اعتاد السوفييت أن يقولوا لنا إن قادتهم في القرم ولذلك فلا وسيلة للإتصال .

وبمجرد وصولي إلي الإسكندرية بدأت الإعداد للمعركة رغم أن العالم كله بما فيه مصر فسروا طردي للخبراء السوفييت بأنه قرار بعدم الحرب فاستدعيت حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي وقلت له إن أمريكا بعد هذه القرارات التي اتخذتها لابد أن تتصل بنا و عليه أن يعد نفسه للبدائل المختلفة لمناقشتهم، كما استدعيت وزير الحربية وأبلغته أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اليوم التالي ويخطره بأني قد قررت أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، استدعيت بعد ذلك سيد مرعي وكان وقتها أمين الإتحاد الإشتراكي وطلبت منه أن يجتمع بأمناء الإتحاد الإشتراكي ويبلغهم أن معني هذه القرارات هو أننا سوف ندخل الحرب لا العكس ، وطلبت من ممدوح سالم وكان وقتها نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية و مسئولا عن الدفاع المدني أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها .

قبل أن ينقضي أسبوع علي وجودي بالإسكندرية اتصل كسينجر وطلب تدبير لقاء علي أي مستوي فاتفقنا علي أن يلتقي بحافظ إسماعيل في سبتمبر أو أكتوبر من نفس السنة ولكن اللقاء تأجل عدة مرات فلم يتم إلا في فبراير سنة ١٩٧٣ .

وفي أوائل أغسطس سنة ٧٢ خرج القذافي فجأة علي العالم بما يسمي الوحدة الإندماجية وكنت قد وعدته بزيارة ليبيا في ذلك التاريخ فذهبت إلي ليبيا لأرى ماذا يريد ووجدته مصمما علي هذه الوحدة بل وقطع شوطا كبيرا في تعبئة الجماهير عن طريق الراديو والتليفزيون دون أن يتصل بي علي الإطلاق .. وفوجئت بعد وصولي إلي بني غازي بأنه قد

أعد مشروع الوحدة الإندماجية ولم أكن متحمسا للسرعة التي أراد بها القذافي أن يتم هذا الموضوع ولكني في النهاية آثرت أن أغطي موقف القذافي كطلب بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة الليبي ووافقت علي اجتماع وفدين لمناقشة هذا الموضوع .. كان المشروع قد أعده القذافي وتعجبت عندما وجدت أن هذا المشروع يقضي بأن أتولي رياسة الدولة الجديدة التي ستتكون من مصر وليبيا وأن القذافي سيتولي منصب نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة للدولة .. وقد أوضحت للقذافي وزملائه أني لا أوافق علي هذا المشروع وبالذات علي تعيين القذافي لقيادة القوات المسلحة فقد كانت لنا تجربة في هذا انتهت بالفشل عندما يتولي من يعمل بالسياسة القيادة الفعلية للقوات المسلحة في تجارب مريرة لنا في معركة ١956 ثم في حرب اليمن وأخيرا في معركة 196٧ وأن القوات المسلحة يجب أن تكون محترفة وأن لا تتدخل في السياسة .. ولم يعترض القذافي .. والسبب الثاني لإعتراضي كان أن إتمام وحدة كاملة في هذا الوقت سوف يسبب متاعب اقتصادية للشعب الليبي لا داعي لأن يتحملها وسنكون مسئولين عن هذا وأخذ المجتمعون باقتراحي و هو أن تسير هذه الوحدة بالتدريج .. وعدت إلي مصر.

وفي يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٢ كتبت رسالة للإتحاد السوفيتي ، وأنا أعتبر أن هذه الرسالة من العلامات الأساسية في تاريخنا فقد كانت تحمل توصيفا كاملا لكل ما بيننا وبين الإتحاد السوفيتي .. في هذه الرسالة أعلنهم أني أمنحهم فرصة إلي شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢ بعد أن شرحت الموقف كاملا بيننا وبين السوفييت فإذا لم تحدث أية استجابة لمطالبنا سأكون حرا في اتخاذ ما أري من قرارات ولكني كنت في واد والسوفييت في واد آخر ، فقد كانوا يعدون لافتتاح الجامعات المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٢ (إذ جاءني المخطط الصادر من الأحزاب الشيوعية العربية - وهو صادر طبعا عن موسكو - عن كيفية تحرك العملاء داخل الجامعة .)

كان المفروض أن يقدم لي وزير الحربية تقريرا عن الخطة والهيكل العام لها فقد كلفته كما أسلفت بجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لهذا الغرض .. بل إنه عاد لي بعد يومين وقال إنه جمع المجلس الأعلى

وأبلغهم رسالتي وإن القوات المسلحة المصرية ستكون جاهزة ليس في 15 نوفمبر ١٩٧٢ كما طلبت وإنما ستكون جاهزة في أول نوفمبر ١٩٧٢ ...

وهنا أريد أن أفسر لماذا اخترت ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ لتكون القوات جاهزة فقد كانت الانتخابات لرئاسة الجمهورية الأمريكية ستمر في الأيام الأولي من نوفمبر سنة ١٩٧٢ وأردت أن أعطي الرئيس المنتخب فرصة لمحاولة حل المشكلة سلميا فإذا لم يتم ذلك كان لا بد أن نكون جاهزين للتحرك عسكريا .. من أجل ذلك فإنى دعوت المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلي اجتماع في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ لاستوثق من استعداد القوات المسلحة و طلبت أن يدلي القادة لي بتقاريرهم عن استعداد القوات وخاصة أننا كنا نقترب من نوفمبر ١٩٧٢ الذي حددته مع وزير الحربية .. وحينها ذكرت القادة برسالتي التي كلفت وزير الحربية بنقلها إليهم في الصيف .. فوجئت بالجنرال نوال المسئول عن الشئون الإدارية للقوات المسلحة يرفع يده ويسأل : « أنا لم أسمع أي رسالة من قبل و أريد أن أسأل ما هي هذه الرسالة الي سيادتك بعثتها لنا ؟ أنا ما عنديش فكرة عن أي رسالة جت من سيادتكم .. نظرت إلي وزير الحربية وقلت له أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة « إزاى ده يحصل ؟ احنا مش اتفقنا في الصيف إنك تجمع المجلس وتبلغهم يكونوا مستعدين للمعركة في 15 نوفمبر ؟ ألم تعد إلي بعد يومين لتقول إنك جمعت المجلس وإنهم سيكونون مستعدين اعتبارا من أول نوفمبر .. أي قبل الميعاد الذي حددته ؟ » فهمس في أذني « أنا ما رضيتشي يا أفندم أقول للكل ... أنا قلت بس لقادة الجيوش عشان السرية » .

سرية ؟ سرية علي الناس الذين سيحاربون؟ وضع غريب .. قلت في نفسي .. إزاى يقدر قادة الجيوش يحاربوا من غير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؟ ثم إن الجنرال الذي سأل هذا السؤال كان هو المسئول عن الشئون الإدارية التي عليها أن ترعي الجيوش بإمدادها بالطعام والماء والذخيرة والبنزين .. الخ .. وبدونها لن تتمكن أي وحدة من القوات المسلحة من تنفيذ مهامها القتالية ..

عندئذ تأكدت عندي الشكوك التي كنت أحسها إزاء وزير الحربية فهو لا يريد أن يحارب لأنه يخشي المعركة فبدأت أسأل قادة الجيوش .. سألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل : - أنت حالك إيه ؟ قالي لي : - « يا أفندم احنا مكشوفين .. وأي حشد حنعمله حيكشفوه اليهود ويضربوه قبل ما يعدى .. ليه ؟ لأن اليهود مقيمين ساتر ترابي ارتفاعه ١٧ متر علي جانب القناة وإحنا تحت هذا المستوي .. حوالي 3 أمتار فقط .. وهذا جعل العساكر تنشأ عندهم فكرة أن اليهود عاملين وراء هذا الساتر الكترونات وأشياء لا قبل لهم بها » .

ما معني هذا الذي أسمعه ؟ إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التي استلمتها من عبد الناصر قد انهارت .. فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعانى و ذهبنا سويا إلي مبني القيادة العامة للقوات المسلحة في مدينة نصر وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفييت ومحمد فوزي وزير الحربية في ذلك الوقت ووقف الخبراء السوفييت والقادة المصريون لمدة 7 ساعات أمام عبد الناصر وأمامي يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التي أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكري الذي تسلمته من عبد الناصر .. خطة دفاعية سليمة ١٠٠ ٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية .

كان محمد فوزي وهو وزير الحربية دائم المحافظة علي الخطة الدفاعية ٢٠٠ فإذا ارتفع اليهود مترا ارتفعنا نحن متر ونصف فلما جاء من بعده وزير الحربية الجديد و اسمه صادق ألغي ما كان يفعله سلفه فوزي فلم يرتفع مرة واحدة .. وهكذا وصل اليهود إلي ١٧ متر و ظللنا نحن 3 أمتار فقط .

سألت الجنرال سعد مأمون قائد الجيش الثاني (وهو الآن محافظ القاهرة) فقال نفس كلام قائد الجيش الثالث قلت له : « آسف - أنا جاي النهارده و فاكر أنكم جاهزين لتنفيذ أي خطة نضعها .. أقوم ألاقي الخطة الدفاعية منهارة ؟ إزاى نهجم واحنا مش جاهزين حتي دفاعيا .. عاوزينا نكرر هزيمة 196٧ ؟ »

أنهيت الاجتماع وخرجت وقد استقر رأيي علي تغيير وزير الحربية المتخاذل الذي كذب علي ، واستدعيت الجنرال أحمد إسماعيل الذي

كان مديرا للمخابرات في ذلك الوقت وهو الذي أنشأ أول خط دفاعي في سنة 1967 من بور سعيد للسويس ، وطلبت منه أن يعمل قائدا عاما للقوات المسلحة علي أن يأتي في اليوم التالي لحلف اليمين كوزير الحربية ، وفي نفس الوقت أرسلت سكرتيري الخاص إلي وزير الحربية المتخاذل ليبلغه أني قبلت استقالته .. وأعطيت أوامرى لرئيس أركان حرب القوات المسلحة بأن يتولي القيادة إلي أن يحلف الجنرال أحمد إسماعيل اليمين فلم يكن في إمكاني أن أترك أي فراغ في القوات المسلحة مهما كان بسيطا ولو للحظات .

طلبت من الجنرال أحمد إسماعيل بعد أن تسلم عمله تصحيح الخطة الدفاعية ٢٠٠ وإعادتها إلي ما كانت عليه فإذا كان الساتر الترابي لليهود ١٧ متر) فلابد أن نكون نحن ٢٠ متر) واعتمدنا لهذا ٢٠ مليون جنيه . .

ولكن رغم هذا لم أستطع أن أنام ليلة واحدة بعد اجتماعي بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة في أكتوبر سنة ١٩٧٢ .. كيف تتكرر مأساة سنة 1967 ؟ ثم إن القوات المسلحة هي أمل البلد فكيف يحدث فيها هذا التقصير ؟ وإذا حدث أي تحرك من جانب إسرائيل فكيف نرد عليه ؟ واستمر حالي هكذا .. هواجس وقلق إلي أن جاءني الجنرال أحمد إسماعيل في 30 نوفمبر سنة ١٩٧٢ وكان قد تم تعيينه في 30 أكتوبر ليبلغني أن الخطة الدفاعية أصبحت كاملة .. وأنه بصدد إعداد تجهيزات الهجوم .

في أوائل يناير سنة ١٩٧٣ كان الجنرال أحمد إسماعيل قد وضع الهيكل الأساسي للخطة وقد قام بشيء لم يحدث في العسكرية من قبل إذ طلب من كل ضابط علي امتداد القناة أن يتسلق الساتر الترابي الذي أصبح ٢٠ متر) - وينظر أمامه علي امتداد ١٠ كيلو داخل سيناء و أن يحدد علي الأرض خطته التي يستطيع أن ينفذها بعد العبور .. مما أعطي للضباط ثقة في أنفسهم وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة ليس فقط في العمل بل وفي التخطيط أيضا.

وعلي ذلك نستطيع أن نقول إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعتها القوات المسلحة بأجمعها علي كل المستويات .

نعود للإتحاد السوفيتي مرة أخري .. في أكتوبر سنة ١٩٧٢ كان الرئيس حافظ الأسد في موسكو وعاد منها إلي القاهرة ليبلغني أن السوفييت قد حددوا 16 أكتوبر ١٩٧٢ للقاء يتم بينهم في موسكو و بين وفد مصري يرأسه رئيس الوزراء وكان هذا طبعا تنفيذا لما قلته في خطابي للقادة السوفييت في ٢٩ أغسطس سنة ٧٢ وسافر وفد من عندي برئاسة رئيس الوزراء عزيز صدقي .. وقد علمت أن الجلسة من جانبهم كانت كلها انفعالات رهيبة إثر القرارات التي أصدرتها وكيف أن هذه القرارات وتنفيذها قد وضعهم في وضع صعب أمام العالم .. وعاد عزيز صدقي رئيس الوزراء المصري بلا شيء.. مجرد وعود ولم تنفذ .

كان بيننا وبين الإتحاد السوفيتي اتفاقية للتسهيلات البحرية في البحر الأبيض كان عبد الناصر قد وافق عليها سنة 1968 لمدة خمس سنوات وكان الباقي منها إلي ذلك الوقت ثلاثة شهور فقط فطلبت من الجنرال أحمد إسماعيل في ديسمبر سنة ١٩٧٢ أن يستدعي السفير الروسي في القاهرة ويبلغه أن قرار مصر هو تجديد الإتفاقية لمدة 5 سنوات أخري تنتهي في سنة ١٩٧٨ وكان هدفي من هذا أن أثبت لهم أنه برغم قرار خروج الخبراء السوفييت فإني لا أرغب في مقاطعتهم ...

أذكر بعد ذلك زيارتين قام بهما حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومي والجنرال أحمد اسماعيل وزير الحربية في نفس الوقت ، الأولي هي لقاء مستشار الأمن القومي المصري بكيسنجر في باريس و الثانية هي ذهاب الجنرال أحمد اسماعيل في أواخر فبراير إلي موسكو .. وكان قد مضي أكثر من ثمانية شهور علي صدور و تنفيذ قرار إخراج الخبراء السوفييت .. وكان قد ثبت للسوفييت أنني لم أتصل بأمريكا قبل هذا القرار كما قررت مرارا وثبت أيضا أني كما قلت وكررت ألتزم بالجانب الخلقي في معاملتي مع الأعداء والأصدقاء .. ولقد عقد السوفييت مع أحمد اسماعيل أكبر اتفاقية عقدت بينهم وبين عبد الناصر أو بينهم وبيني .. ولأول مرة في تاريخهم بدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة في زمن قياسي علي غير عادتهم وقد توقف السوفييت بعد ذلك

عن إتمام الجزء الباقي منها باستثناء بعض المواد التي أرسلوها عام ١٩٧٥ وقد أعلنا عن ذلك .. وأريد أن أقرر هنا أنه حتي بدون هذه الصفقة كنا سندخل المعركة لأننا كنا قد قررنا ذلك وكان تخطيطنا كله مبنيا علي ما كان لدينا من أسلحة قبل تلك الصفقة . وبهذه المناسبة عندما زار وزير خارجية مصر الإتحاد السوفييتي في ١٩٧٦ قرر السوفييت إلغاء جميع الصفقات المتفق عليها معنا كما رفضوا إعادة جدولة الديون المصرية .

أما من ناحية أمريكا فقد التقي حافظ إسماعيل بكسينجر في باريس في فبراير ٧٣ ولكن لا شيء جديد .. وكما كنت أقول دائما لم يكن من الممكن لأمريكا أو لغيرها من القوي أن تتحرك ما لم نتحرك نحن عسكريا وكان ملخص ما قاله كسينجر لحافظ اسماعيل أنهم للأسف لا يستطيعون مساعدتنا لأننا مهزومون وإسرائيل متفوقة .

كان لابد أن أعد للمعركة علي المستوي العربي وهنا يجب أن أقرر أن هناك قوة خارجية أقوي من البشر تدبر أمورهم وتسيرها حسبما تري وفي ظروف معينة لا سلطان لنا عليها ... ولذلك فمن العبث أن نقول في أحيان كثيرة أننا صنعنا هذا أو ذاك لأننا في الواقع لم نصنع شيئا .. وهذا ما ينطبق علي إعدادي للمعركة علي المستوي العربي .. فقد كانت الأمور كلها معدة قبل أن أبدأ أنا في الإعداد أو في التفكير فيه .

في الكويت يعتبرني آل الصباح أحد أفراد عائلتهم فقد كانت لي صلة بعبد الله مبارك الصباح يحكمها الوفاء ، وكان هو في ذلك الوقت من عام 1955 وزير داخلية ووزير الدفاع وولي عهد الكويت و لظرف تاريخي أراده الله ، عندما مات جمال عبد الناصر كنت أنا وجابر الأحمد ولي عهد الكويت ورئيس وزرائها صديقين حميمين نتبادل الرسائل .

وفي السعودية كان الملك فيصل صديقا شخصيا لي منذ واحد وعشرين عاما وبالذات منذ المؤتمر الإسلامي في سنة 1955 وكان وقتها ولي العهد وبرغم حرب اليمن ظللنا أصدقاء لأن معني الصداقة عنده وعندي واحد .

وفي لبنان كان شقيق سليمان فرنجية ... حميد فرنجية .. صديقاً شخصياً لي .

وفي المغرب ترجع صلاتي بالملك الحسن الثاني إلي عام 1969 حين ذهبت بدلا من عبد الناصر لأحضر أول مؤتمر إسلامي يعقد من أجل حرق المسجد الأقصي وهناك توطدت علاقات أخوة وصداقة بيني وبين الحسن وبلغني أن الملك فيصل قال للملك الحسن : «إذا أراد الله لمصر خيرا يحكمها أنور السادات» .. وقد عرف عني أثناء المؤتمر أني واضح وصريح ولا أنحاز إلا للحق .

بالنسبة للجزائر كان بومدين يحمل في نفسه حساسية من عبد الناصر لأنه صديق بن بيلا.

وفي تونس نفس الشيء فالحبيب بورقيبة طالما اختلف مع عبد الناصر لأنه صور بورقيبة علي أنه خائن يبيع نفسه لمن يدفع .

هكذا أراد الله أن أكون علي علاقة شخصية مع زعماء العالم العربي ولذلك عندما توليت رحبوا بي جميعا وأبدوا استعدادهم لمعاونتي .. فأعلنت سياستى الواضحة وهي أنه بالنسبة للعرب مصر لا تفرق بين دولة عربية وأخري علي أساس ما يسمونه بالرجعية والتقدمية أو الملكية والجمهورية .. الأمر الوحيد الذي يجب أن نلتزم به جميعا هو أننا عرب فحسب .

كان علي بعد ذلك أن أنتبه للوضع الإفريقي ، فذهبت في مايو سنة ١٩٧٣ إلي مؤتمر الوحدة الإفريقية الذي يعقد كل سنة في أديس أبابا ولأول مرة اتخذ المؤتمر قرارا واضحا بإدانة إسرائيل وقطعت ٨٠ ٪من الدول الإفريقية علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل قبل أن تقوم المعركة .

حدث في تلك الفترة أن اغتالت إسرائيل ثلاثة من الزعماء الفسلطينيين في قلب بيروت فأرسلت للرئيس فرنجية أقول إن عليه أن يطالب بدعوة مجلس الأمن و إلا فعلت أنا هذا .. فدعا فرنجية إلي اجتماع مجلس الأمن وساندت أنا دعوته بدعوة أخري من عندي .. واجتمع مجلس الأمن وبدأ أعماله بقضية اغتيال الزعماء الفلسطينيين وإذا بالعالم

ومجلس الأمن نفسه يفاجأ بمصر تطرح قضية الشرق الأوسط.. استمرت المناقشات لمدة شهرين ثم أتخذ أول قرار في صفنا بأغلبية 14 صوتا من 15 أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا الذي يعني الفيتو .

لقد كان هذا تنفيذا للاستراتيجية التي رسمتها بتجهيز الموقف عربيا كما شرحت وإفريقيا في مؤتمر الوحدة الأفريقية في أديس أبابا عام ١٩٧٣ و دوليا بقرار مجلس الأمن الذي أشرت إليه سابقا ثم في عالم عدم الانحياز الذي اجتمع مؤتمره الذي يعقد مرة كل ثلاثة سنوات في سبتمبر ١٩٧٣ في الجزائر .. وكانت كل هذه التواريخ في ١٩٧٣ عام المعركة كأنها منحة من السماء .

في سبتمبر سنة ١٩٧٣ حضرت مؤتمر دول عدم الانحياز في الجزائر وقلت في خطابي إنه لا مفر من المعركة فإسرائيل هي التي تريد لنا هذا .. وضعت أوراقي علي المنضدة و أخبرتهم بالتسليم الذي تطالبنا به إسرائيل ، وبذلك هيأت دول عدم الانحياز للمعركة وكانت الأغلبية في صفي .

بهذا الشكل كان معي أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع .. في خلال الفترة ما بين يناير إلي سبتمبر سنة ٧٣ كنت قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة.

- دوليا في مجلس الأمن بقرار بأغلبية 14 من 15 أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا .

- عربيا علي مستوي كل الدول العربية مهما اختلفت سياساتها .

- إفريقيا في مؤتمر الوحدة الإفريقية في مايو ١٩٧٣ .

- علي مستوي العالم الثالث وعدم الانحياز في مؤتمر الجزائر في سبتمبر ١٩٧٣.

في داخل مصر لم يكن اهتمامنا منصبا علي الناحية المعنوية فحسب.. فقد أنفقنا أكثر من ١٢٧ مليون جنيه علي إعداد الدولة للحرب، إذ كان تخطيطي يقوم علي أن مصر كلها من الإسكندرية إلي أسوان أرض معركة .. كل مصنع .. كل محطة كهرباء وضعت لها خطة دفاع بحيث إذا ضرب جزء من المرفق يعمل الجزء الباقي .

في إبريل سنة ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلي مصر في زيارة سرية .. كان الفريق الجمسي وقتها مدير العمليات بالقوات المسلحة ، فأحضر لنا المذكرة التي دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية علي مدار السنة من وجهة نظر العلوم العسكرية وقد كانت مكتوبة بخط يد الجمسي لأنها سرية ، وهي ثلاثة مجموعات من الأيام .. المجموعة الأولي في شهر مايو سنة ١٩٧٣ والثانية في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ والثالثة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية إبتداء من نوفمبر وحتي الربيع غير جاهزة للعمليات نظرا للظروف الطبيعية هناك .

في هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا في برج العرب وهي عاصمة الصحراء الغربية فقلت له : «لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام وأعطيت تعليماتى بذلك للجنرال أحمد اسماعيل فما رأيك ؟».. قال لي : « أنا معاك وداخل وبنجهز نفسنا ».

لم أكن أنوي أن أدخل المعركة في مايو سنة ١٩٧٣ ولكن كجزء من الخداع الاستراتيجي قمت بحملة في الصحف عندي وفي الدفاع الشعبي فما كان من الإسرائيليين إلا أن صدقوا وفي الأيام المناسبة للحرب حشدوا جيوشهم بينما كنت أنا في حالة استرخاء تام .. في أغسطس من نفس السنة فعلت نفس الشيء وكان رد الفعل في إسرائيل هو نفس ما صنعوه في مايو فأعلنوا التعبئة العامة .. ولذلك عندما سئل موشي ديان بعد حرب أكتوبر لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر قال إن السادات قد دفعني إلي هذا مرتين مما كلفي في كل مرة عشرة ملايين دولار دون

جدوي فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المرتين السابقتين ولكنه خيب ظني .

اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبدأ المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلي مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية ، فكونا هذا المجلس المشترك و اجتمع فعلا في أغسطس ١٩٧٣ في الإسكندرية ليضع اللمسات الأخيرة للمعركة .

في أواخر أغسطس ١٩٧٣ خرجت في زيارة للسعودية ثم قطر ثم سوريا حيث اجتمعت مع الرئيس الأسد يومي ٢٨، ٢٩ أغسطس و اتفقنا علي أن يكون يوم 6 أكتوبر هو بدء المعركة .. أي يوم (ى) في التعبير العسكري .

في تلك الفترة كنت أزور جميع وحدات القوات المسلحة لأشرح لهم الموقف السياسي وأقول لهم إن المعركة أصبحت قريبة وأستطيع أن أقول إنه في يونيو ١٩٧٣ أي قبل المعركة بحوالي ثلاثة شهور كنت قد أعطيت الأوامر النهائية والإحساس النهائي بالمعركة ولكنني طبعا لم أفصح عن تاريخها وكان جميع من بالقوات المسلحة في قمة الإنفعال .. ففي 5 يونيو ١٩٧٣ زرت مطار القطامية وهو من مطارات الجبهة واجتمعت بالطيارين وفي أثناء اجتماعي بهم دق جرس التليفون .. فقام الجنرال أحمد اسماعيل يرد علي التليفون بينما واصلت أنا حديثى مع الطيارين إلي أن انتهيت منه فذهبت لآخذ طائرتي وأمر علي الجيشين الثاني والثالث فإذا بالجنرال أحمد اسماعيل يسر إلي أن السفير السوفيتي يطلب موعدا عاجلا وأنه طلب منه أن يبلغنى برسالة عاجلة وهي أن القيادة السوفيتية رأت بعد فترة الجمود الطويلة هذه أن ترسل بودجورني رئيس هيئة السوفيت الأعلى ليزورني

يوم 11 يونيو ١٩٧٣ .. قلت للجنرال اسماعيل : « آسف : أنا لا استقبله » ، يعلم السوفيت جيدا أني لا أحب بودجورني والسبب أنه كان أثناء زيارة له لتركيا قد سب العرب و العسكري العربي وقال إنهم لن يعطوا العرب أبدا أي أسلحة متقدمة لأنهم يتركون الإسرائيلين يستولون عليها .. أرسلت في وقتها أطلب تفسير لهذا الحديث من جانب رئيس الدولة السوفيتية ولكن لم يصدر أي تكذيب .. ثم إن بودجورني هذا من أكثر

الناس كرها لمصر.. حتي في اجتماعاتنا في القيادة السوفيتية علي مائدة الكرملين كانت تعليقاته دائما تسيء إلي مصر .. فكيف أستقبله علي أرض مصر ؟.

بعد ذلك ذهبت لزيارة الجيش الثاني والثالث ثم توجهت إلي أماكن العبور علي خط الدفاع الذي كان يتكون من عدة أهرامات علي مسافات متقاربة بين السويس وبورسعيد يرتفع كل منها عشرة أمتار فوق تحصينات إسرائيل .. ولذلك استطعت أن أري من فوقها سيناء كما أرى كف يدي .. وقفت أمام القنطرة شرق و جاءني القائد المكلف باسترجاع القنطرة وكان فؤاد عزيز وشرح لي العملية .

كنت أعتبر أن القنطرة شرق من أهم النقط التي يجب أن نستولي عليها في الساعات الأولي للحرب لأنها تمثل شيئا هامة جدا بالنسبة لإسرائيل فهي ثاني مدن سيناء بعد العريش العاصمة وكان ديان في غمرة نشوته بنصر سنة 196٧ قد خطب في طلبة الجامعات في إسرائيل وقال : «لقد تسلمنا الأمانة من الجيل السابق لجيلنا فوصلنا حدود إسرائيل من القنطرة في مصر إلي القنيطرة في سوريا وعليكم أنتم الجيل الصاعد أن تحموا هذه الحدود وتوسعوها ».

فكان هذا من الأسباب الأولي التي جعلتني أهتم بالقنطرة .. لأن الأمل كان دائما يراودني في أن أرد علي ديان وأقول له : « انهي حلمك إلي الأبد» .

وقبل أن يموت عبد الناصر ذهبت إلي الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة 196٧ وقلت له : «لما توضعوا خطة الهجوم اعمل حسابك أنا داخل مع القوات اللي حتروح تسترجع القنطرة شرق » .

كل هذه الصور مرت بي وأنا أقف علي إحدى مواقع الهجوم وأتطلع إلي القنطرة شرق وهي بين يدي إسرائيل صامتا لا أتفوه بكلمة .. كنت فقط أتأمل وأفكر .. لم أكن قد رأيت القنطرة منذ سبع سنوات وكنت قد خدمت بها حينما عدت إلي الجيش سنة 195٠ .. مر بي هذا الخاطر .. فزاد صمتي ولكن مشاعري كانت تجيش في صدري تدهمه وتعذبه وفي نفس الوقت تضيئه بنور الأمل .. قال لي أحمد اسماعيل القائد العام

تعليقا علي موقفي أمام القنطرة أثناء عودتنا إلي القاهرة : «يا أفندم أنا لما شفتك ساكت من الرهبة جالي إحساس أنك حتدينى أمر بدء الهجوم فورا » .

حينما بدأت أفكر في وضع التخطيط الإستراتيجي للمعركة كان أمامي عدة أشياء أولها الأساس الإستراتيجي الذي أبني عليه الخطة .. وفي حياة عبد الناصر كنت أقول له علي سبيل المبالغة إننا لو أخذنا حتي عشرة سنتيمترات في سيناء ووقفنا فيها لم ننسحب فسوف يتغير الموقف شرقا وغربا وكل شيء .. وخاصة المهانة الي كنا نعيشها نتيجة هزيمة سنة 196٧ فهذا العبور إلي سيناء والصمود بها سيعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا .. هذا إلي جانب أننا سنكون قد انتهينا من أكبر عائق مائي في تاريخ الحروب لأن شواطىء القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضا الساتر الترابي الذي يبلغ ارتفاعه ١٧ متر .

وبناء علي هذا وضعت توجيهي الإستراتيجي فقلت للقوات المسلحة في أواخر فبراير سنة ١٩٧٣ إن الذي يكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولي سوف يكسب الحرب كلها .. ولذلك فلابد من أن يعتمد الأداء والخطة علي عمل من شأنه أن نكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولي .

من ضمن الخداع الإستراتيجي الذي قمت به أنه كان في زيارتى وزير خارجية دولة أجنبية فقلت له وكنا في سبتمبر ١٩٧٣ : «بلغ رئيس جمهوريتك بينك وبينه ما يطلعش السر ده بره إني ذاهب إلي الأمم المتحدة في أكتوبر القادم .. بس مش عاوز أعلن هذا » .. كنت أعلم أن هذا الخبر بعد ثوان سوف يصل إسرائيل .. وقد حدث وبناء عليه فهمت إسرائيل أني غير مقدم علي الحرب .

في يوم ٢٨ سبتمبر سنة 1973 وهو يوافق ذكري وفاة عبد الناصر أردت أن أضع اللمسة الأخيرة للشعب .. وكنت قبل ذلك بشهور طويلة قد عزلت عدد من الصحفيين أو علي الأصح نقلتهم من الصحف إلي مصلحة الاستعلامات لأنهم كانوا يساعدون علي إيجاد حالة تمزق وبلبلة في البلد و اشترك البعض منهم في أحداث الطلبة التي وقعت في أواخر ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ بإيعاز من الشيوعيين ..

كان لهؤلاء الصحفيين مقالات و تصرفات تهدف كلها إلي إشعال النار بين الطلبة .. في خطابي بوم ٢٨ سبتمبر سنة 1973 أعلنت أني قد عفوت عفوا تاما عن الطلبة والصحفيين .. حتي القضايا التي كان الطلبة متهمين فيها - وكلهم من اليساريين - أسقطها جميعا وكأنها لم تكن .. تلقف اليساريون هذا وفسروه علي أنه مصالحة وطنية من أجل تدعيم الجبهة الداخلية ولم يخطر لهم علي بال أن هذا كان جزءا من تخطيطي للمعركة ..

قبل ذلك كانت قد حدثت فتنة طائفية ولكني صفيتها ..

وفي يوم 30 سبتمبر سنة ١٩٧٣ جمعت مجلس الأمن القومي وطلبت من الأعضاء إبداء رأيهم في الوضع الذي كنا فيه و تناقشنا طويلا .. طالب البعض بالمعركة وتردد البعض الآخر .. قال وزير التموين إن التموين الموجود لا يكفي معركة طويلة.. وبعد أن تحدث الجميع عن المعركة وظروف البلد والتحرك .. قلت لهم : «كل واحد منكم قال كلمته .. طيب أنا عايز أقول لكم إن اقتصادنا النهارده في مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلي آخر السنة لن نستطيع الوفاء بها للبنوك . وعندما تأتي سنة 1974 بعد شهرين بعد لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين . ولا أستطيع أن أطلب من أي عربي دولارا واحدا لأن العرب بيقولوا لنا أحنا بندفع الدعم بتاع قناة السويس وخلاص ولا فيه حرب ولا فيه حاجة.

هكذا أعلمت المسئولين عندي بالموقف ثم أنهيت الاجتماع ..

وفي اليوم التالي أي أول أكتوبر سنة ١٩٧٣ جمعت المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووقف جميع القادة أمام الخريطة وشرح كل واحد خطته بالتفصيل ودوره في هذه الخطة .. وقبل أن ينتهي الاجتماع قلت لهم : « كل واحد يكون جاهز في أي لحظة لصدور الأمر »..

ويوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقعت للقائد العام الجنرال أحمد اسماعيل أمر القتال وكنت قبل ذلك في سبتمبر سنة ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجي للقائد العام ووضعت فيه تصوري للهدف الاستراتيجي وقد كان هذا الأمر الأول من نوعه في تاريخ مصر الحديث ..

بدأ العد التنازلي قبل المعركة بعشرة أيام كما خرجت القطع البحرية لتتخذ أماكنها في الحرب قبل ساعة الصفر بعشرة أيام وكانت مع كل قطعة بحرية ظروف مقفلة تحمل تعليمات العمليات ولا تفتحها إلا بعد أن تتلقي كلمة شفرة محددة و عندئذ ستجد التعليمات المفصلة لخطة عملها.

كان تدريب القوات يستلزم هذه الأيام العشرة أيضا فالحرب لم تعد خطة توضع وأوامر تصدر للقوات لتنفيذها فحسب .. بل يجب التدريب علي كل شيء بالتفصيل وكلما كثرت التدريبات وأتقنت زادت فرص النجاح ... كان العد التنازلي للتدريب قد انتهي في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .. وكان تدريب آخر لواء من اللواءات المشتركة في العمليات علي الواجب الذي سيقوم به قد تم يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وفي يوم الأربعاء 7 رمضان الموافق 3 أكتوبر سنة ١٩٧٣ - حسب اتفاقي مع الرئيس حافظ الأسد في أواخر أغسطس سنة ١٩٧٣ - استدعيت السفير الروسي وقلت له : « أريد أن أبلغك رسمياً أنني أنا وسوريا قد قررنا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل وعندي سؤال أريد الإجابة عليه من القادة السوفييت بصفة عاجلة وهو ما موقف الاتحاد السوفييتي منا ؟ » سألني عن الموعد فقلت له : « إننا لم نتفق عليه بعد»..

كنت قد اتفقت مع الأسد علي أن يستدعي السفير السوفييتي عنده في اليوم التالي وهو الخميس 4 أكتوبر سنة ١٩٧٣ ويعلنه بالموعد لأن علاقاتي بالسوفييت كانت سيئة .

في اليوم التالي ٨ رمضان أي الخميس 4 أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب السفير السوفيتي موعدا عاجلا معي فتصورت أنه جاءني بالرد علي سؤالي .. استقبلته فكان أول ما قاله هو : « معي رسالة عاجلة من القيادة السوفييتية - إنهم في موسكو يطلبون موافقتك علي وصول أربع طائرات ضخمة لحمل العائلات السوفييتية من مصر ..

وهذه العائلات السوفييتية هي عائلات المدنيين السوفيت الذين يعملون في المصانع والقطاع المدني لأن العسكريين السوفييت وعائلاتهم كانوا قد رحلوا قبل ذلك بعام عند صدور قرارى بترحيل المستشارين العسكريين السوفييت من البلاد .. ومضي السفير قائلا إن القادة السوفيت يريدون للعائلات أن ترحل من مطار عسكري حتي لا يراها الناس في المطار الدولي وأن هذه الطائرات ستصل غدا صباحا أي الجمعة 5 أكتوبر سنة ١٩٧٣ ...

ما هذا الفأل السيء ؟ قلت في نفسي : هذا معناه أنهم يقولون لي مقدما إن معركتك فاشلة ونحن نخاف علي أرواح رعايانا .. وماذا عن المصريين أهل البلد ؟ ألا يعلمون أني أخاف عليهم ..؟

قلت للسفير السوفييتي وما زالت الدهشة من تصرف السوفييت تعقد لسانى : « أنا ما عنديش مانع وبلغ موسكو بموافقي .. ولكن أين الإجابة علي سؤالي ؟ » قال لي : « هذه هي الرسالة الوحيدة التي كلفتني موسكو بإبلاغها لكم »

وفعلا في اليوم التالي وكان يوم الجمعة 9 رمضان الموافق 5 أكتوبر سنة ١٩٧٣ وصلت أربع طائرات نقل ضخمة سوفييتية وحملت الرعايا السوفييت من عائلات الخبراء المدنيين في المصانع من السوفييت عائدة بهم إلي بلادهم ..

ولقد رصد الإسرائيليون هذه الطائرات الضخمة بواسطة رادارهم واعتقدوا أنها تحمل إمدادات من روسيا إلي مصر وكذلك إلي سوريا لأن نفس الأمر تكرر مع سوريا في نفس التوقيت ..

لقد كنا نحن وإسرائيل بما لدينا من أساليب الحرب الإلكترونية نرصد ما يحدث عند الآخر ..

كان تصرف السوفييت يدل علي عدم الثقة فينا وفي قدراتنا .. و أسوأ من هذا أن سفينة سوفيتية كانت في طريقها إلينا تحمل بعض الإمدادات - وكان عندنا إخطار من السوفييت بموعد قيامها وأنها ستدخل الاسكندرية يوم 9 رمضان - ولكن صدرت إليها الأوامر السوفيتية وهي في عرض البحر بأن تتجول في البحر الأبيض وفعلا تجولت في البحر حوالي ستة أيام إلي أن تأكدوا من انتصارنا فرست في الاسكندرية .. ولما سألناهم عن أسباب التأخير قالوا إن السفينة قد تاهت في البحر..

انتقلت يوم الخميس 8 رمضان إلي قصر الطاهرة بعد أن جهز كمركز قيادة لإدارة الحرب ، وفي يوم الجمعة ذهبت لأصلي في الجامع الذي تعلمت فيه الصلاة منذ خمسين سنة وهو زاوية صغيرة .. وهناك في رحاب الله وهدوء الجامع شرد ذهني في أيام الطفولة والنقاء ..

بعد الظهر جلست في الشرفة وكان القمر ما زال صغيرا وطلعته جميلة وأنا أعشق الطبيعة المجردة ولا أحب المدينة ولا الزخرف والأضواء ..

كنت في أقصي درجات السلام الروحي فرغم اللحظة التي كنت مقبلا عليها كنت أرنو إلي الغد موعد المعركة علي أنه مجرد يوم قدر لي الله أن أعيشه ولذلك دخلت المعركة دون أدني انفعال أو عصبية ..

لم يكن يشغلني سوي بعض التفاصيل التي لم تكن إلا مجرد رتوش حول المعركة ... وقد يعجب الناس إذا عرفوا أن ليلة المعركة كانت من أحسن الليالي التي نمتها في حياتي .. ولذلك عندما استيقظت في الصباح قمت بالتدريبات الرياضية اللازمة وسار برنامجي اليومي كالعادة وكان عقلي في منتهي النشاط والراحة مستعدا لمسئوليات اليوم الجديد ..

في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت 6 أكتوبر ، حضر المشير أحمد اسماعيل إلي حسب ما اتفقنا عليه وركبنا العربة الجيب الخاصة بالجيش وكنت أرتدي الزي العسكري وتوجهنا إلي غرفة العمليات حيث جلست في مكاني والقائد العام عن يميني وكانت التعليمات أن الجميع يجب أن لا يلتزموا بالصيام .. وقد أصدرنا هذه الأوامر بفتوي من المشايخ وكنت أتصور أن القادة قد نفذوها ولكني لم أكن واثقا من أن هذا قد حدث بالفعل فسألتهم : « أنت ما بتدخنوش ليه ؟ ليه ما بتشربوش سجاير ؟ العملية دي عايزة تركيز وانتباه » لاحظت عليهم حرجا شديدا فطلبت الشاي لنفسي وأشعلت غليوني ورحت أدخن .. علي الفور فعلوا كلهم مثلي .. وفي الساعة الثانية تماما وهي إشارة عبور الطيران وصل الخبر بأن طائراتنا قد عبرت قناة السويس وكانت ٢٢٢ طائرة نفاثة سرعتها فوق سرعة الصوت انتهت من ضربها الأولي في ثلث ساعة بالضبط فقدنا فيها خمس طائرات فقط .. كما فقدت في تلك اللحظات الأولي من الحرب أخي الطيار الشهيد عاطف الذي هو في منزلة ابي لأني أنا الذي ربيته ولكنهم أخفوا علي حينذاك نبأ استشهاد أخي .

ونجحت ضربة الطيران نجاحا كاملا ومذهلا حسب التخطيط الذي وضعناه لها .. مذهلا لنا في المقام الأول فقد حققت الضربة نتائج فاقت التسعين في المائة بخسائر لم تزد عن إثنين في المائة ومذهلا لإسرائيل وللعالم كله شرقه وغربه .. فقد كان تقدير الاتحاد السوفيتي الرسمي بواسطة خبرائه قبل أن يخرجوا من مصر أنه في أية حرب مقبلة فإن ضربة الطيران الأولي سوف تكلف سلاح الطيران المصري علي أحسن الفروض 40٪ من قوته ولن تحقق نتائج أكثر من ثلاثين في المائة .. و بالقطع كان هذا التقدير من جانب السوفييت يهدف إلي تعجيزنا وتخويفنا من المعركة فلم يكن لهم ثقة فينا علي الإطلاق تماما كما فقدنا الثقة فيهم .

في ثلث ساعة فقط أي بعد عشرين دقيقة من ساعة الصفر كانت طائراتنا قد ضربت مراكز القيادة و مراكز إدارة الطيران ومراكز

إدارة الدفاع الجوي .. وحين تحققت من هذه النتيجة وأنا في غرفة العمليات هنأت قائد الطيران حسني مبارك الذي خطط ونفذ هذه الضربة وهنأت جميع القادة في غرفة العمليات إذ أن هذه الضربة قد حددت بالفعل مصير المعركة بعد ذلك .. فقد فقدت إسرائيل توازنها بالكامل ليس للأربعة وعشرين ساعة الأولي الحاسمة بل لأكثر من أربعة أيام كاملة فقدت فيها السيطرة علي قواتها في سيناء وانقطع الاتصال كاملا بهذه القوات .. لقد استعاد سلاح الطيران المصري بهذه الضربة الأولي كل ما فقدناه في حربي 1956 ، وهزيمة 1967 ومهد الطريق أمام قواتنا المسلحة بعد ذلك لتحقق ذلك النصر الذي أعاد لقواتنا المسلحة ولشعبنا ولأمتنا العربية الثقة الكاملة في نفسها وثقة العالم بنا ... وأنهي إلي الأبد خرافة إسرائيل التي لا تنهزم .. لقد كان قائد سلاح الطيران المصري في هذه المعركة الجنرال حسني مبارك الذي طلبت إليه بعد ذلك أن ينزع ملابسه العسكرية ليرتدي الملابس المدنية لكي يعاونني في عملي كنائب لرئيس الجمهورية .

عقب ضربة الطيران بدأت المدفعية المصرية تزمجر بأكبر تركيز شهده العالم بعد معركة العلمين في الحرب الثانية إذ انطلقت قذائف أكثر من ألفي مدفع لتقصف بدقة رائعة أهدافها .. وهكذا بدأت ملحمة 6 أكتوبر والأداء الرائع للجندي المصري العربي إذ لم ينتظر جنودنا علي القناة أمر العبور وإنما كان مرور ٢٢٢ طائرة مصرية علي ارتفاع منخفض يكاد يلمس رؤوسهم في وقت واحد كافية لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة منذ وقت طويل فأخذوا يسحبون زواقهم إلي مياه القناة من خلف الساتر وفي حالة هستيرية اندفعوا يعبرون القناة وهم يصرخون «الله أكبر »

وهكذا بدأت مراحل الخطة تنفذ ولأول مرة يغير التخطيط العسكري المصري تلك المفاهيم التي كانت ثابتة إلي معركة أكتوبر ١٩٧٣ .. كانت القاعدة ألا يتصدي للمدرعات إلا المدرعات .. وقد تعلمنا كما تعلم العسكريون في العالم كله أن قوات المشاة مهما كان تدريبها أو نوعيتها فلا يجب أن تدخل في أية معارك مع المدرعات لأنها كما يقول التعبير العسكري (SOFT) ولكن في حرب أكتوبر عبرت القوات الخاصة والمشاة المدربة في الأفواج الأولي وهم يحملون الصواريخ في أيديهم

وواجهوا الدبابات الإسرائيلية في معركة مريرة وضربوا أعداداً ضخمة منها قبل أن تعبر دباباتنا وتصل إليهم وتدخل معركة الدبابات .

كان في الخطة أن ضربة الطيران تليها ضربة المدفعية كما ذكرت و تحت ستار ضرب المدفعية يتم العبور ولكن الذي حدث أن العبور تم أثناء عملية الطيران وقبل أن تبدأ المدفعية .. وبعد العبور دخل جنودنا علي الحاجز الترابي الذي كان في بعض مواقعه يبلغ ارتفاعه ١٧ مترا واستخدموا في تسلقه عمليات بدائية أذهلت العالم – فهي عبارة عن سلم من الحبال يحمله الجندي ثم يتسلق الحاجز الترابي وعندما يبلغ القمة يطرح السلم لإخوانه فيتسلقونه وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات من صواريخ ومدفعية ثقيلة وبسرعة يستولون علي المواقع التي أعدها الإسرائيليون خلف الساتر الترابي علي الضفة الشرقية ليتربصوا فيها بالعدو ويستروا زملاءهم الذين يعبرون .

كان مهرجاناً رائعاً وأنا أري هذا المشهد من غرفة القيادة هادىء البال حتي خيل إلي أنه لو دخل أي إنسان نفسي لوجد بها طمأنينة كاملة .. لم يكن في خاطري أي هم فكل الهموم قد انقشعت وانتهت تماما .

أول لواء من لواءاتنا المصرية رفعت العلم المصري علي الضفة الشرقية كان اللواء السابع وتوالت الأنباء بعد ذلك وبدأ سقوط النقط الحصينة في خط بارليف الواحدة بعد الأخرى وفي نهاية ست ساعات فقط كان قد اتضح تماما أن اليهود قد فقدوا توازنهم وفقدوا السيطرة وفقدان السيطرة هذا تعبير عسكرى معناه أن القيادات قد فقدت الاتصال بينها وبين القوات وهذا أهم شيء في العسكرية من أجل تحقيق المفاجأة .

بعد عبور الموجات الأولي من القوات حاملة الصواريخ والمدفعية المضادة للدبابات و احتلالها للمواقع التي أعدها الإسرائيليون لإعاقة عبورنا بدأ المهندسون في تطبيق نظرية شق الحاجز الترابي بخراطيم المياه المكثفة وهذه فكرة مصرية١٠٠ ٪ فسلاح المهندسين هو الذي قام بها وأذكر أننا حين طلبنا من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالي سخروا منا وكانوا يتساءلون : « هل هناك حريق في العالم كله يحتاج إلي كل هذه القوة ؟».. من قوة دفع الماء قطع الساتر

الرملي كما لو كان بالسكين وفتحت الثغرات في هذا الساتر الذي يبلغ ارتفاعه سبعة عشر مترا حيث ركبت فيها الكباري . وعبرت الدبابات .

في المساء كان كل شيء قد تم قبل موعده حسب الخطة .. أما بالنسبة للموقف علي الجبهة صباح 6 أكتوبر فإن القادة المحليين قاموا بخدعة لطيفة وهي أنهم جعلوا الجنود يجسلون علي ضفة القناة وهم يمتصون عيدان قصب السكر في تراخ وكأنهم في إجازة .. أما الخداع التكتيكي الأساسي الذي أجبر إسرائيل علي احترام الجندي المصري إلي الأبد فهو النزول بخمس فرق كاملة علي خط المواجهة الذي كان طوله ١٨٠ كيلو مترا .

في الساعة الثامنة إلا ثلث أي بعد ست ساعات إلا ثلث قضيها في غرفة القيادة أبلغوني أن السفير السوفيتي يريد مقابلتي فقلت للجنرال أحمد اسماعيل إني ذاهب إلي قصر الطاهرة و هو المكان الذي أعددته بأحدث وسائل التكنولوجيا للإتصال بكل أنحاء مصر حتي لو ضربت المدن والمنشآت وأوصيته بأن يبلغنى بتطورات الموقف أولا بأول بعد أن هنأت الجميع في غرفة العمليات علي الأداء الرائع لقواتنا وأرسلت لقواتنا أشكرهم علي الجبهة فكما قلت كان مصير المعركة قد تحدد نهائياً.

عندما التقيت بالسفير السوفيتي كنت أظن أنه جاء ليحمل إلي رد القيادة السوفيتية علي سؤالي الذي سبق أن سألته وهو ما موقف السوفيت منا ؟ ولكن خاب ظني فقد جاء ليقول لي إن الرئيس حافظ الأسد استدعي السفير السوفيتي يوم 4 أكتوبر وأبلغه أن الحرب ستبدأ يوم 6 أكتوبر فقلت له نعم أنا أعرف ذلك وقد كان ذلك باتفاق سابق بيننا ثم استطرد السفير السوفيتي قائلا إن حافظ الأسد طلب في هذه المقابلة منا أي من الاتحاد السوفيتي لعمل علي وقف إطلاق النار بعد 48 ساعة علي الأكثر من بدء العمليات يوم 6 أكتوبر .. وبناء علي ذلك فقد جاء ليبلغني ذلك رسميا من القادة السوفيت ويطلب مني الموافقة علي ذلك .. قلت له : «أنا أشك في أن الرئيس الأسد قد طلب هذا قبل المعركة .. ومع ذلك فهل أنت تبلغي هذه الرسالة كمعلومات أو كرسالة رسمية » ؟ قال لى: «أنا أبلغك هذا كرسالة رسمية من قادة الاتحاد السوفيتي وإذا كان لديك أي شك فيمكنك أن تتصل بالرئيس الأسد للتفاهم معه » .. قلت له : « سوف أرسل للرئيس الأسد أسأل في هذا الموضوع ولكن أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنه حتي إذا كان هذا طلب سوريا فعلا فإني لن أوقف إطلاق النار إلا بعد الإنتهاء من الأهداف الأساسية المحددة لمعركتى ».. بعد ذلك سألته عن الرد علي سؤالي الذي أبلغته له يوم ٨ رمضان عن موقف الاتحاد السوفيتي من دخولي المعركة فأجاب بأنه مازال موضع دراسة .. وبمجرد مغادرة السفير السوفيتي للمقر كتبت برقية شفرية إلي الرئيس الأسد وأبلغته بنص ما أبلغه السفير السوفيتي وكان ذلك حول الساعة الثامنة والنصف مساء بتوقيت

القاهرة أي بعد ست ساعات ونصف فقط من بدء حرب أكتوبر .. وأبلغت الرئيس الأسد أيضا ردي علي السفير السوفيتي وهو أنني لن أقبل وقف إطلاق النار إلا بعد تحقيق أهداف المعركة ورغم خطورة الموضوع جاءني الرد من الرئيس الأسد عصر يوم 7 أكتوبر 1973 أي بعد أربع وعشرين ساعة ...! بأن هذا الذي يدعيه الاتحاد السوفيتي لم يحدث .

في اليوم التالي لم أذهب إلي القيادة فالعمليات تسير في خطها السليم ثم إن القادة جميعا محترفون وصنعتهم الحرب .. هذا إلي جانب اعتبار آخر وهو أن وجودى بينهم قد يسبب لهم شيئا من التوتر العصبي .. ولكني طبعا طلبت من المشير أحمد اسماعيل أن يطلع علي الموقف أولا بأول .

فوجئت يوم 7 أكتوبر بالسفير السوفييتي يطلب مقابلة عاجلة في المساء . . قابلته وقلت له : من نصف ساعة فقط تلقيت الرد من الرئيس الأسد وهو أن ما أبلغته لي رسميا أمس كرسالة رسمية من القادة السوفيت لم يحدث .. ابيض وجه السفير فأصبح بلون الثلج وقال : « أنا جاي لك برسالة ثانية من الحكومة السوفيتية بناء علي طلب سوريا للمرة الثانية بوقف إطلاق النار » قلت له : « اسمع .. أرجو أن تقفل هذا الموضوع وتعتبره انتهي عند هذا الحد فأنتم تعلمون منذ الأمس أنني لن أوقف إطلاق النار إلا بعد أن تتحقق أهداف المعركة وأريدك أن ترسل للقيادة في موسكو بأن يرسلوا إلي دبابات فورا فهذه المعركة سوف تكون أكبر معركة دبابات في التاريخ ، (وكان القتال يومي 6 ، 7 أكتوبر شرسا كل الشراسة ومعركة الدبابات قد بدأت) .. وهنا أبلغني السفير السوفيتي بالكوبري الجوي الذي قرر الاتحاد السوفيتي إقامته لكي يرسل إلي ذخائر ومعدات متأخرة كان لابد من تسليمها خلال سنة ١٩٧٣ وفقا للاتفاقية التي عقدها معهم المشير أحمد اسماعيل في أوائل عام ١٩٧٣ .. رحبت علي أي حال بهذا النبأ وقلت له : « هكذا يجب أن يكون شكل العلاقة بيننا » .

بعد ذلك كان السفير السوفييتي يزورني يوميا في قصر الطاهرة لتبادل المعلومات ولكنه لم يكف عن الإلحاح علي وقف إطلاق النار وأنا أنهره

و أقول له : «ليس قبل أن أحقق هدفي وهو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلي» .

ظل الموقف العالمى مبلبلا .. يأخذ بوجهة نظر إسرائيل لأنه يستقي معلوماته من البلاغات الإسرائيلية التي كانت تقول إنهم سوف يطحنون عظامنا وقد استخدمت إسرائيل لكي تغطي هزيمتها أفلام حرب 1967 في إسرائيل وفي العالم وظنوا أن حرب الدعاية يمكن أن تلغي الحقائق .. ولم يكن العالم في بادىء الأمر يصدق بلاغاتنا رغم أن المشير إسماعيل كان متحفظا فيها إلي أبعد الحدود .. لدرجة أن عدد الدبابات التي خسرتها إسرائيل كان في بعض بلاغاتنا أقل من الواقع لأن المشير كان يطلب التأكد من أكثر من جهة فإذا لم يتوفر له هذا كان يأخذ بالرقم الأقل والحقيقة أنه لو جمعنا عدد الدبابات التي خسرتها إسرائيل وفقا لبلاغاتنا ستجده أقل من الواقع بحوالي ١٠٠ دبابة .. وكنت قد قلت لأحمد إسماعيل والدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام وقتها : «في هذه المعركة نريد الحقيقة كما هي للناس بخيرها وشرها .. حتي نعود شعبنا علي أن يسمع الحقيقة كاملة مهما كانت ».

في هذه الأثناء اتصل بريجنيف بالرئيس تيتو وطلب منه أن يتوسط عندى حتي أن أقبل وقف إطلاق النار لأن سوريا كانت قد أرسلت للاتحاد السوفييتي (كما أبلغ بريجنيف تيتو) ثلاث مرات تطلب وقف إطلاق النار وقال له إن مصر رفضتها وأن الرئيس السادات بإصراره هذا سوف يكون السبب في كارثة تودى بالعالم العربي والنظم التقدمية و العالم بأجمعه .. كان تيتو حريصا فرد علي بريجنيف يبلغه أنه لا يسمح لنفسه بالتدخل فيما يفعل السادات رغم الصداقة به فالرئيس السادات أمامه الصورة كاملة للأمور وهو يتصرف علي أساسها .. في هذا الوقت كان تيتو قد أتم تجهيز 140 دبابة كنت قد طلبتها علي وجه السرعة لخبرتي بأسلوب السوفيت معي أرسلها إلي وهي محملة بالذخيرة والبنزين لكي تدخل إلي ميدان المعركة مباشرة فتيتو له خبرة من الحرب العالمية الثانية وهو مناضل أصيل .. موقف لن أنساه أبدا للرئيس تيتو وليوغوسلافيا .

بعد اليوم الثالث تأكد انتصارنا فبدأ العالم يأخذ ببياناتنا ويبدي إعجابه بقدرتنا القتالية وفرحته لانتصارنا - في هذه الأيام الثلاثة فقدت إسرائيل

أكثر من ثلث سلاح طيرانها علي الجبهتين المصرية والسورية وخيرة الطيارين المدربين ولذلك في المعارك التي دارت بعد ذلك كانت طائراتنا الميج ١٧ وسرعتها أقل من سرعة الصوت تهزم الفانتوم التي كانت أحدث طائرة في ذلك الوقت عند إسرائيل وهي التي سلمتها لها أمريكا .

وبذلك انتهت خرافة سلاح الطيران الإسرائيلي واليد الطولي وخرافة المدرعات الإسرائيلية والجندي الإسرائيلي بوجه عام ، وعلي سبيل المثال قتل علي الجبهة المصرية قائد عام مدرعات إسرائيل الجنرال ابراهام مندلر وكانت له شهرة عالمية.. ولعل البرقيات المتبادلة بينه وبين القيادة الإسرائيلية توضح حقيقة هزيمة إسرائيل . كل هذا الانهيار الذي تم في الأيام الثلاثة الأولي للحرب جعل كيسنجر يقول لمسز مائير في اليوم الرابع : « لقد خسرت الحرب ويجب أن تعدي نفسك لهذا .. ثم بدأ كيسنجر مساعيه لإيقاف إطلاق النار حتي يلتقط الإسرائيليون أنفاسهم .. فقد كانت المعارك تسير بالنسبة لنا من نصر إلي نصر .. فمثلا اللواء 190 المدرع الإسرائيلي وكان من أهم لواءاتهم المدرعة إذ يعتبرونه رأس الحربة كانت خطته أن يخترق ويندفع إلي أن يصل إلي ضفة القناة ويفصل قواتنا بعضها عن البعض فإذا بقائده عساف ياجوري يصاب بانهيار عصبي وهو يسلم نفسه للقوات المصرية لأنه بعد ثلث ساعة فقط من بدء المعركة .. تلفت حوله فلم يجد سوي دبابته أما بقية اللواء وقدرها أكثر من مائة وخمس عشرة دبابة فكان قد قضي عليها بالكامل .. والذي قام بهذا العمل الرائع قائد من البراعم المصرية الجديدة اسمه أبو سعدة ..

لقد سجلنا رقما قياسيا عسكريا مصريا بالقضاء علي أي لواء مدرع معادى في عشرين دقيقة .

كما سجلنا من قبل أن أكبر قطعة بحرية إسرائيلية هي إيلات بقوة نيرانها وصواريخها وطاقمها الذي يبلغ أكثر من ٣٠٠ (ثلاثمائة) بحار يمكن أن يقضي عليها زورق صواريخ لا يزيد طاقمه عن ١٧ فردا وكان هذا إيذانا بتغيير استراتيجي في حرب البحار أخذت به كل دول العالم بعد حرب أكتوبر وسجل التاريخ أن أول صاروخ بحرى سطح

سطح والذي غير الاستراتيجية البحرية العالمية .. كان صاروخا مصريا أطلق من زورق مصري وبأيدى ضباط وجنود مصريين في وقت ظن العالم فيه أن مصر والعرب لا يستطيعون استيعاب التكنولوجيا الحديثة ..

وقع ذلك في أحلك لحظات الهزيمة عام 196٧ ...

ثم كان ما سجله المقاتل المصري من تغيير جذري في حرب المدرعات و المشاة في تاريخ العالم العسكري بعد ست سنوات في أكتوبر سنة ١٩٧٣ والذي ذكرته سابقة ..

إن العسكرية المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٣ و بعد هزيمة سنة 196٧ قد سجلت في تاريخ العسكرية العالمية علامات محددة هي :

ا- الأسس الجديدة لاستراتيجية حرب البحار التي أخذ بها العالم بعد أن ثبت أن زورقا صغيرا يمكن أن يصيب أكبر القطع البحرية وأن قوة النيران لم تعد تتطلب بوارج أو مدمرات ثقيلة فقد كانت قوة نيران زورق صغير أفعل من قوة نيران مدمرة ثقيلة بالمدافع والصواريخ هي إيلات ..

٢ - أن أول حرب اليكترونية وصاروخية وقعت في معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ وثبت أن المصريين والعرب يفخرون بأنهم خاضوا هذه الحرب وانتصروا فيها ولولا تدخل الولايات المتحدة بكل ثقلها إلي جانب إسرائيل لتغير الوضع . مع أن ما كان لدي إسرائيل في هذه الحرب من تكنولوجيا حديثة حصلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقا لما لدي العرب من روسيا بأشواط طويلة .

3 - أن معارك الدبابات أصبحت في عصر الصواريخ والحرب الإليكترونية معارك رهيبة تعتمد علي أعداد رهيبة من الدبابات لم يشهد لها العالم مثيلا ففي خلال الحرب الثانية كانت معركة كورسك في روسيا للدبابات هي أكبر معركة شهدها العالم .. وفي معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي استمرت ١٧ يوما فقط فقد المحاربون ثلاثة آلاف دبابة أي أن القوات التي دخلت المعركة في حرب أكتوبر كانت أكثر من خمسة آلاف دبابة في الوقت الذي اعتبرت فيه معركة كورسك الروسية

التي أشترك فيها 5٠٠ دبابة أكبر معركة دبابات خلال خمس سنوات من الحرب وليس سبعة عشرة يوما كما حدث في حرب أكتوبر ..

في يوم 13 أكتوبر سنة ١٩٧٣ أي بعد سبعة أيام من ابتداء الحرب أيقظوني من النوم في الفجر وقالوا لي إن السفير البريطاني يطلب مقابلة عاجلة لتسليم رسالة عاجلة من رئيس وزراء بريطانيا «هيث» ... استقبلته في الصالون المجاور لحجرة نومي فأعطاني رسالة من كسينجر عن طريق رئيس وزراء بريطانيا فقد كانت علاقاتنا لا تزال مقطوعة بأمريكا - وكان كسينجر في رسالته يطلب من «هيث » أن يتأكد أنني موافق علي وقف إطلاق النار فقد أخبره السوفيت بهذا .. وكان كسينجر قد أفاق منذ اليوم الرابع للحرب و نداء SAVE ISRAEL الذي وصله في اليوم الرابع بعد أن كانت دعاية إسرائيل تحكى لمدة الثلاثة أيام الأولي أنهم يطحنون عظام المصريين و سايرتهم إذاعات العالم - أقول أفاق كسينجر الذي لم يكن لديه أدني شك في طحن عظامنا علي نداء SAVE ISRAEL وطلب إسرائيل لأربعمائة دبابة بصفة عاجلة وهي مجموع ما خسرته علي الجهة المصرية إلي ذلك التاريخ أي اليوم الرابع وتقرير من البنتاجون يقول إن المعركة علي الجبهة المصرية تسير في غير صالح إسرائيل ولابد أنه وصله أيضا بكاء ديان علي الجبهة المصرية أمام جميع مراسلي الصحف العالمية وانهياره وقوله إن الإسرائيليين لن يستطيعوا أن يزحزحوا المصريين بوصة واحدة وأن الطريق مفتوح إلي تل أبيب..

كان كسينجر منذ اليوم الرابع بعد أن عرف كل هذا يعمل علي وقف إطلاق النار مع السوفيت فبدأ أولا بالنداء لوقف إطلاق النار مع عودة الأطراف المتحاربة إلي الخطوط التي بدأ منها القتال علي أساس أن الإسرائيليين كانوا يطحنون عظامنا.. ثم بدأ يعدل موقفه لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور وتقرير البنتاجون إلي وقف إطلاق النار علي الخطوط القائمة بالفعل يوم 13 أكتوبر ورفضنا العرضين .. ولكن حينما أخبره السوفيت أن مصر وافقت علي وقف إطلاق النار علي الخطوط الحالية للقتال يوم 13 أكتوبر سعد جدا واتصل بوفد أمريكا في الأمم المتحدة للإعداد في مجلس الأمن وأراد أن يستوثق مني فأرسل هذه الرسالة عبر هيث رئيس وزراء انجلترا لأنه كان قد عرف قبل ذلك من مستشار الأمن القومي المصري الذي قابله في باريس

أوائل سنة ١٩٧٢ حقيقة أبلغها رسميا للولايات المتحدة وهي أن الاتحاد السوفيتي لا يملك أن يتحدث باسم مصر .. لذلك صدم كسينجر حينما أبلغه هيث ردي علي الرسالة وكان « بلغ كسينجر أن هذا لم يحدث فأنا لم أوافق علي وقف إطلاق النار لا للسوفيت ولا لغيرهم وقد سبق أن أخبرته بأن يتصل بالقاهرة إذا كان ثمة ما يخص مصر وليس بموسكو .. ثم إني لن أوافق علي وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التي تتضمنها الخطة» .

سألني السفير الإنجليزي : - « هل صحيح أنكم تصرون علي قفل البحر الأحمر ؟» .

قلت له : فعلا قال : طيب .. ما هي الشروط ؟ قلت له : أنا مستعد لوقف إطلاق النار في حالة موافقة إسرائيل علي الانسحاب من الأراضي العربية .

وخرج السفير من عندي ليبلغ كسينجر بالموقف.. بعدها مباشرة وصلني خبر من الاتحاد السوفيتي بأن رئيس الوزراء كوسيجين سيحضر لزيارتى - فقلت أهلا وسهلا .

وجاء كوسيجين والتقينا .. كان مطلبه الأساسي وقف إطلاق النار علي الخطوط الحالية .. قلت له : - «أنا مش مستعد أكرر هدنة سنة 1948 التي كانت السبب في خسارتنا للحرب).

قال لي «إحنا حندخل ضامنين »

قلت : « إسرائيل لا ضمان لها إطلاقا - ثم أنا طالب دبابات من ثاني يوم للمعركة ولم تصلني للآن والكوبري اللي انتم عاملينه بيجيب لي معدات تأخرتم في تسليمها وكان لازم تورد في سنة ١٩٧٣ قبل المعركة ، وطبعا كان من ضمنها الذخيرة التي رفضوا أن يستعوضوها لعبد الناصر في حرب الإستنزاف لأنه رفض أن ينفذ طلباتهم .. ثم بدأ أسلوبه الهجومي ، وكوسيجين هجام و بيروقراطي .. وهم يضربون به المثل في الاتحاد السوفيتي بأنه خدم مع ستالين في الحكومة لمدة ثلاثة عشرة عاما ومع ذلك لم يصفي بواسطة بيريا وزير داخلية ستالين أو

يرسل إلي سيبيريا بعكس كل ما حدث لمن عملوا مع ستالين ولم ينج منهم أحد كما حدثنا خروشوف في زيارته لنا عام 1964 .

قلت له : « تعالي بتي نستعرض الكلام اللي أنت بتقوله - الكباري اللي إنت وردتها لي واللي أنا ركبتها علي قناة السويس .. الكوبري الواحد منها يحتاج لخمس ساعات تركيب وهي كباري الحرب العالمية الثانية في الوقت اللي عندك كوبري . B M P . بيتركب في نصف ساعة .. كل المعدات اللي أعطيتها لي متأخرة .. وحاططني وراء إسرائيل ب 10 خطوات ومع ذلك قبلت وبدأت معركتي وأنا منتصر آدى علاقتكم معنا .. وأظن أن الأوان قد آن لكى ننسي الماضي و نبدأ صفحة جديدة » .

قال لي : - « يا سيادة الرئيس أنا لم أكن أتصور أنك بهذا الانفعال » .

وانتهي اللقاء الأول - ولكن في فترة الأربعة أيام التي قضاها بمصر كان يقضي اليوم كله في السفارة السوفييتة ويقابلني في المساء .

وأثناء وجوده في مصر حدثت الثغرة فجاءني وعلي وجهه علامات التشفي وقال : « لقد حدثت الثغرة و موقفكم خلاص إتحدد .. القاهرة أصبحت مهددة » .

قلت له : - « آسف .. القاهرة لن تهدد أبدأ .. ولكن أين الدبابات التي طلبتها منكم .. أين ؟».

قال لي : - « إحنا ركزنا علي سوريا لأنها إنكسرت وفقدت ١٢٠٠ دبابة في يوم واحد » .

قلت له : - «لا اعتراض علي هذا ولازم تنجدوا سوريا بكل الطرق .. ولكن هذا لا يمنع من إرسال الدبابات اللي طلبتها .. أرسلوا الدبابات وأنا كفيل بالتعامل مع الثغرة».. وسافر بعد 4 أيام وقلت له وأنا أودعه : - «لن أوقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المرحلة النهائية من الخطة .. أرجو أن يكون ذلك واضحا لكم ».

اتضح لي بعد ذلك أن القمر الصناعي الأمريكي الذي كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة بعد نداء SAVE ISRAEL أخطرهم بنقل الفرقة ٢١ المدرعة المصرية من الضفة الغربية للقناة إلي الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط علي سوريا كما طلب و ألح الرئيس الأسد وأن البنتاجون قد نصح الإسرائيليين بمحاولة عمل الثغرة لإنقاذ الموقف الإسرائيلي المنهار علي جبهة سيناء .. وقد كتب بعد ذلك رئيس الأركان الإسرائيلي أثناء حرب أكتوبر ليدافع عن نفسه في مذكرات نشرها ليبرىء نفسه بعد أن أدانه تقرير لجنة أجرانات أن جولدا مائير قالت لهم بعد وصول معلومات القمر الصناعي الأمريكى افعلوا أي شيء فنحن علي الجبهة المصرية قد وصلنا إلي الحضيض BOTTOM بنص الكلمة .. كان القمر الصناعي الأمريكي يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة وأقرر هنا للتاريخ أن روسيا التي تدعي وقوفها مع الحق العربي لم تبلغنا بشىء بواسطة أقمارها الصناعية التي كانت تتابع المعركة منذ لحظة بدأها إلي لحظة وقف إطلاق النار لأننا أخطرناها بواسطة سوريا عن ساعة الصفر كما قلت سابقا .. وهذا التسجيل للمعركة عرض في اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتي وطلبت صورة منه فلم أتلق ردا إلي اليوم ولن أتلقي هذا الرد .. ولكن القمر الصناعي الأمريكي والبنتاجون كانوا يوافون إسرائيل بالموقف ساعة بعد ساعة دون أن تطلب ذلك .. وخاصة بعد أن سجل القمر الأمريكي كما قلت أن المعركة علي الجبهة المصرية تسير لغير صالح إسرائيل وأقر ديان أن الطريق من سيناء مفتوح إلي تل أبيب .. ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات .

لقد استخدم الكوبري الجوي الأمريكي لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التي تحمل الدبابات وكل الأسلحة الحديثة SOPHISTICATED و العريش مدينة مصرية وهي عاصمة سيناء .. تقع خلف الجبهة مباشرة .. وبدأت ألاحظ تطورا خطيرا آخر .. في معارك الدبابات التي اعترف الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين في إدارتها (وخاصة بعد أن أفنينا الدبابات التي كان يقودها

مندلر قائد الدبابات الإسرائيلي الذي كان فخر إسرائيل وبعد إعلان استغاثته وموته) كنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات أري مزيدا من الدبابات .

أمريكا .. لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور في اليوم الرابع .. وهي تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصري الذي يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكي تحول الهزيمة الإسرائيلية إلي انتصار .. وتذكرت في تلك اللحظات ما فعلته أمريكا علي جبهة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية .. ثم علي الجبهة اليابانية .. لقد كانت أمريكا تغير علي الأهداف الألمانية ومدن ألمانيا بألف طائرة في الغارة الواحدة لكي تلقن الألمان درسا لا يمكن أن ينسوه .. وأغارت علي نجازاكى و هيروشما علي الجبهة اليابانية لكي تلقنهم أيضأ درسا لن ينسوه ..

و تطور خطير ثالث .. فقد أطلقت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانتوم الأمريكي عشرة صواريخ علي بطاريات الصواريخ المصرية فلم يصب إلا هوائي لبطارية واحدة أصلح بعد ربع ساعة فقط ولم تتعطل بطاريات الصواريخ المصرية التي أسقطت ثلث السلاح الجوي الإسرائيلي في الأيام الأولي للمعركة مما دعا القيادة الإسرائيلية أن تصدر أمرا إلي الطائرات الإسرائيلية في اليوم الثالث لحرب أكتوبر بعدم الإقتراب من جبهة القتال في سيناء .. أما التطور الثالث الخطير فهو أن أطلق صاروخان علي بطاريتين مصريتين للصواريخ فعلا البطاريتين تعطيلا كاملا وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكي جديد يسمي القنبلة التليفزيونية تم تطويره في اليابان لحساب أمريكا وأنه كان لا يزال تحت الاختبار في أمريكا فأرسلته أمريكا لنجدة إسرائيل .

لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل SAVE ISRAEL حتي بالأسلحة التي تحت الاختبار .. وقنبلة المافريك .. وأسلحة أخري .. وأنا أعرف إمكانياتي وأعرف حدودى ... لن أحارب أمريكا ..

ولذلك بعد عودتي من غرفة القيادة في الساعة الواحدة والنصف من صباح / ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ كتبت للرئيس الأسد شريكي في القرار برقية أخطره فيها أني قررت الموافقة علي وقف إطلاق النار و سجلت في هذه البرقية موقفي و هو أنني لا أخاف مواجهة إسرائيل و لكني

أرفض مواجهة أمريكا .. وأني لن أسمح أن تدمر القوات المصرية مرة أخري .. وأني مستعد أن احاسب أمام شعبي في مصر وأمام الأمة العربية عن هذا القرار .

وأعود إلي القصة .. في يوم 16 أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلي للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جدا التعامل معها في ذلك اليوم ، فقد كان السباق فيها للزمن .. ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا و الفريق أحمد إسماعيل وفي التوقيت الذي حددته له فأحاط شاطىء البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم و كان في إمكانه أن ينتهي من العملية كلها بعد وصوله بساعات ولكنه أضاع الليلة بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال اسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلي الدفرسوار ووصلت فعلا إلي نقطة النزول واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة و القوات الخاصة .. ولكن الشاذلي أعطاهم الأمر بالإنسحاب إلي أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة .

في يوم 19 أكتوبر عاد الشاذلي منهارا وقال لابد أن نسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد .. وكان هذا – لو تم - هو ما يريده الإسرائيليون .. فطلب مني أحمد اسماعيل في منتصف ليلة ١٩ /٢٠ أكتوبر أن أذهب إلي القيادة حتي أتخذ قرارا مهما بوصفي القائد الأعلى للقوات المسلحة .. ذهبت إلي القيادة . واستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة في شرق القناة و عندنا ١٢٠٠ دبابة في الشرق أيضا أما في الغرب فعندنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل وفي القاهرة فرقة يمكن سحبها - هذا غير الحرس الجمهوري الخاص بي والذي أدخلته الحرب وقاتل قتالا مجيدا وعاد كاملا بكل دباباته .

بعدما اتضح الموقف لي جمعت القادة كلهم وكان معي الفريق أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجمسي مدير العمليات و الفريق حسني مبارك والفريق محمد علي فهمي قائد سلاح الصواريخ ، وكانوا جميعا من رأيي وهو أنه لم يحدث شيء يستدعي القلق .. فأعطيت الأمر الذي اعتبره أهم من قرار 6 أكتوبر - بأن لا ينسحب

جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا أي شيء علي الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة ثم بدأت أتصل بنفسي مع الفرقة المدرعة في الغرب وكان يقودها ضابط اسمه قابيل و هو بطل من أبطال أكتوبر وقلت له : ـ ثبت الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشتبك معهم إلي أن تصلك الإمدادات .

في هذه الليلة أعطيت تعليماتي لأحمد اسماعيل بعزل الشاذلي من رئاسة الأركان علي أن لا يعلن هذا القرار علي القوات حتي لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين .. وفي نفس الليلة استدعيت الجمسي وعينته رئيسا للأركان . وفي هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار فقد كان لي عشر أيام أحارب فيها أمريكا وحدي بأسلحتها الحديثة التي لم يستخدم أغلبها من قبل .

وكان الموقف علي غير ما يتصوره العالم كله .. فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفيتي يقف إلي جانبنا وأنه قد أرسل الكوبري الجوي لنجدتنا .. ولكن الموقف كان غير ذلك في الواقع .. فأمريكا وإسرائيل في مواجهتى والاتحاد السوفيتي في يده الخنجر ويقبع وراء ظهري ليطعنني في أية لحظة عندما أفقد ٨٠٪ أو ٩٠٪ من سلاحي كما حدث في سنة 194٧ وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضي علي دفاع الجوي بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود سماء مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث في عام 1967 ..

وقد كان حسني مبارك قائد الطيران يستخدم كل الطائرات الموجودة .. حتي طائرات التدريب التي في مدرسة الطيران ركب بها صواريخ وقاتلت .. وطائرات الميج ١٧ وسرعتها أقل من سرعة الصوت استخدمها طيارونا بمهارة شديدة ضد الفانتوم والميراج .. .

وكان هذا في مجموعه يشكل ملحمة رائعة لسلاح الطيران المصري علي عكس ما كان الاتحاد السوفيتي يتوقع .. إذ كان يريد أن يثبت أنني لست كفئا للحرب بعد أن طردت الخبراء السوفييت وأن مصر يجب أن تعود مرة أخري إلي الاتحاد السوفيتي .. وقد صرح بهذا بريجنيف للرئيس بومدين عندما زار الاتحاد السوفييتي زيارة سرية لم يخطر بها أحدا ونحن في أوج انتصارنا ليشترى لنا السلاح .. في أثناء المناقشة احتد بريجنيف وقال له إن أنور السادات ضيع مصر وسوف يضيع العرب والقاهرة ودمشق والنظم التقدمية وإنه أحمق .. فرد عليه بومدين وقال : « أنا زبون جاى أشتري منك سلاح .. اتفضل آدى مائة مليون

دولار لمصر ومثلها لسوريا.. أرسل لهم الأسلحة التي يطلبونها .. ولما عاد بومدين إلي الجزائر جمع مجلس الثورة وحكي لهم ما حدث وقال : « إذا كان الأمريكان و إسرائيل عايزين يهزموا أنور السادات قيراط فالاتحاد السوفييتي عايز يهزمه ٢4 قيراط » ، هل يذكر بومدين هذا وقد قاله لي شخصيا أم نساه بعد أن أصبح عضوا في جبهة رفض مبادرتي الأخيرة للسلام ؟ .

في يوم 19 أكتوبر بعد اجتماعى بالقواد عدت إلي قصر الطاهرة و بدأت في الحال تنفيذ قرارى - طلبت منهم أن يستدعوا لي السفير السوفييتي وإلي أن حضر كتبت برقية إلي الرئيس الأسد قلت فيها إني قد قبلت وقلبي يزف دما وقف إطلاق النار .. لأني مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت لكني غير مستعد علي الإطلاق لمحاربة أمريكا - كما أني لا أسمح بأن تدمر قواتي المسلحة مرة أخري أو أن يدمر شعبنا ومنشآته و في آخر البرقية قلت له إنني مسئول عن هذا القرار يحاسبي عليه الشعب في مصر وتحاسبني عليه أمتنا العربية ..

وجاء السفير السوفييتي فقلت له : «لقد قبلت وقف إطلاق النار علي الخطوط الحالية » .. في هذا الوقت كان كيسنجر في طريقه إلي موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار فاستأنفت حديثى مع السفير وقلت له :

« الدولتان العظميان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ الفورى لقرار ٢4٢ »..

وفعلا اتفقت الدولتان و اجتمع مجلس الأمن وقرر أن يكون وقف إطلاق النار في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر ويجب أن أقرر هنا للحقيقة والتاريخ أن قواتنا قاتلت من 19 إلي ٢٢ أكتوبر قتالا رائعا مجيدا و أنا اتحدي إسرائيل أن تعلن عن خسائرها الحقيقية في الثغرة أو في سيناء لأنهم بالفعل مُنيوا بخسائر فادحة علي أيدي قواتنا الخاصة و قواتنا الجوية .. وخاصة في الثغرة في الضفة الغربية ولم يفصحوا عن ذلك إلا منذ سنة حينما وصفوا الثغرة علي الضفة الغربية بأنها كانت « وادى الموت » وهو وصف إسرائيلي ..

وأكرر مرة أخري إني أتحدي أن تعلن إسرائيل حقيقة الثغرة و دور شارون ..

يوم ٢٢ أكتوبر قبل وقف إطلاق النار ذهبت إلي غرفة العمليات و أعطيت الأمر بضرب صاروخين أرض أرض .. اثنين فقط .. علي الدفرسوار ، فقد أردت أن تفهم إسرائيل أن هذا السلاح موجود عندنا و يمكن أن نستعمله في المرحلة القادمة وكانت إسرائيل قد أدركت منذ بدأنا الحرب أننا نعي ما نقول وننفذه ...

أوقفنا القتال علي خط ٢٢ أكتوبر وهذا الخط كما اعترف اليهود بعد ذلك كان مقتلا لهم لأنه شريط مستطيل بجانب بحيرة الدفرسوار مفتوح من جميع الجهات فانتهزوا فرصة وقف إطلاق النار (كعادتهم منذ حرب ١٩٤٨) وبعدها بساعتين وجهوا هجوم نحو الجنوب تجاه السويس و هجوم آخر تجاه الإسماعيلية .

في هذه الأثناء قامت قواتنا الخاصة بأعمال عظيمة في الثغرة فبمجرد حلول الليل يحمل معه الرعب في قلوب الإسرائيليين ومن أجل هذا تحديت أن يعلنوا عن خسائرهم الحقيقية في الثغرة ، ففي الثلاثة أيام الأولي من الحرب ضربنا لهم 400 دبابة .. تلك التي طلبوها من أمريكا رسميا تعويضا لهم ، ولكني بعد هذا وجدت أمام مئات الدبابات ـ كما ذكرت – أمدهم بها أمريكا بسرعة ولذا أوقفنا القتال علي خط ٢٢ أكتوبر .. قامت إسرائيل بالهجوم الذي أشرت إليه بعد وقف إطلاق النار بساعتين وكان الهدف منه أن يوسعوا الثغرة فتمتد قواتهم خلف الجيشين الأول والثاني وبذلك يقطعون خط إمداد الجيشين ويتراجع خط دفاعنا الجوي إلي الخلف فتحرم الجيوش التي في المقدمة من الحماية وبذلك يتمكنون من الاستيلاء علي الإسماعيلية والسويس وينقذون سمعتهم أمام العالم ..

ولكن الذي حدث كان عكس هذا ـ فقد أمرت قادة الجيشين الثاني والثالث وخاصة الجيش الثالث بأن لا يسمحوا لقوات إسرائيل بتحقيق أي تقدم من ناحية الجنوب ولكن قائد الجيش الثالث أهمل وبذلك تمكنت قوات إسرائيل من أن تقتحم المنطقة فتصل إلي مشارف مدينة السويس ولكنهم لم يتمكنوا من دخول السويس علي الإطلاق .. كل الذي استطاعوا تحقيقه هو أنهم فتحوا ثغرة بين الجيشين في الشرق حجمها 6,5 كيلو مترات وذلك بين خمس فرق مصرية كاملة بدباباتها

وأسلحتها بالكامل فقد أعطيت الأمر بأن لا تنسحب أية بندقية أو فرد من هذه الفرق من الشرق تحت أي ظروف .. أما في الغرب فعندما حاول الإسرائيليون الاستيلاء علي مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتي إلي مشارفها.. وكنت قد كلفت ممدوح سالم وكان في ذلك الوقت مسئولا عن المجلس الأعلى للدفاع الشعبي .. فأرسل ١٠٠٠ فرد من قوات الأمن المركزي و هم مدربون علي مستوي عال .. فأتوا بأسلحتهم وعتادهم وكانوا علي أتم استعداد و معهم الجيش والأهالي لإستقبال الإسرائيليين ..

بعد أن خرقت إسرائيل وقف اطلاق النار بنذالة وفشلت في دخول الإسماعيلية والسويس اتصلت بالقوتين الأعظم روسيا وأمريكا وقلت لهما : «اتفضلوا .. أنا مستعد أقبل نزول قواتكم عندي - أي قوات أمريكا وروسيا - عشان ترجعوا لي خط ٢٢ أكتوبر أو تتركوني أسترد هذا الخط بشرط أن لا تعتبروا هذا خرقا لوقف اطلاق النار .. وكان حرصي في هذا هو أن لا تتدخل أمريكا إلي جانب إسرائيل كما حدث ..

استجاب السوفييت فقاموا بحشد قوات للإنزال في البحر الأبيض ..

أما الأمريكان فأعلنوا حالة التعبئة الذرية وقد سببت لهم هذه متاعب كثيرة لأنهم لم يستشيروا حلفاءهم في حلف الأطلنطي .. وقد كان الرأي العام الأوروبي في سنة ١٩٧٣ معنا وضد إسرائيل علي عكس ما كان الحال عليه في 194٧ .

انتهت المسألة بأن الإسرائيليين حينما يئسوا من السويس والإسماعيلية اكتفوا بالوقوف في الثغرة .. و بدأت قواتنا في الغرب تضغط عليهم باستمرار ...

ولن أنسي هنا موقف الضابط قابيل لأنه وقف يناور بفرقة مدرعة واحدة في مسافة بين السويس والإسماعيلية تحتاج لثلاث فرق من الشمال إلي الجنوب حتي يثبت الإسرائيليين في الجيب .. وكان يمكن أن يتغير الموقف لو أننا كنا ننوى خرق اطلاق النار بدلا من الإسرائيليين بحيث ينضم الجيشان اللذان كانا في الشرق ويضغطان علي الثغرة التي تسلل منها الإسرائيليون إلي الغرب وهي 6,5 كيلومتر فتنتهي في الحال

.. ولكننا كنا ولا نزال نلتزم بالقواعد الأخلاقية في الحرب والسلام علي السواء ..

ولكن إسرائيل منذ سنة 1948 أي منذ قيامها لا تلتزم بأي قانون أخلاقي أو دولي وحاولت أن تضغط علينا نفسيا فشحنت قوات كبيرة جدا من أجل تخويفنا و بقصد المساومة.. أرسلوا 400 دبابة داخل الثغرة في رقعة أرض لا تتحمل أكثر من ٢٠٠ دبابة - وقواتي تحيط بهم من كل جانب فهناك خمس فرق في الشرق و أربع فرق في الغرب هذا بخلاف حائط صواريخ كاملة ودباباتي التي تحاصرهم حصارا تاما – فقد وصلني أول إمداد بالدبابات من بومدين وكان عددها ١٠٠ دبابة ثم وصلني إمداد آخر 140 دبابة أرسلها الرئيس تيتو بالذخيرة والبنزين بحيث تنزل من السفينة علي أرض المعركة مباشرة .. أما الاتحاد السوفيتي فلم يكن بعد قد أرسل الدبابات التي طلبتها ثاني يوم للمعركة ..

وقد جاءني السفير السوفييتي ذات يوم وقال إن اللجنة المركزية قد قررت إهداء مصر ٢٠٠ دبابة فشكرته وطلبت منه سرعة إرسالها ولكن السوفييت لم يستجيبوا لمطلبي إلي أن تثبت الوضع بالنسبة للثغرة .. مع أن الثغرة لم تكن في الحقيقة إلا مجرد محاولة لإنقاذ سمعة إسرائيل ..

وقد جاء لزيارتي بعد ذلك الجنرال بوفر وهو رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسي وقال لي : إن هذه الثغرة لا قيمة لها لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية .

طلب كسينجر أن يزورني وجاء إلي مصر في أول زيارة له في نوفمبر سنة ١٩٧٣ وقال لي : - «أنت أزمت الموقف دوليا وأنا جاي لك عشان كده فما هي طلباتك ؟».

قلت له : « أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر .. أنا الآن عندى ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لها في الثغرة 400 دبابة وأنا عندي صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون و مدخلهم 6,5 كيلو مترا في شرق القناة وإذا أغلقناه .. فهم مقضي عليهم .. مش عاوزه جدال .

استمرت الجلسة 3 ساعات اتفقنا فيها علي ست نقاط كان من ضمنها أن تبدأ المحادثات علي الكيلو ١٠١ علي طريق مصر السويس بين المصريين والإسرائيليين من أجل فصل القوات والعودة إلي خط ٢٢ أكتوبر .

قامت المفاوضات علي الكيلو ١٠١ بين المصريين والإسرائيليين تحت علم الأمم المتحدة .. وطالت المفاوضات وانعقد خلالها مؤتمر القمة العربي في الجزائر وذهبت إلي هناك وعندما وجدت أن المفاوضات لم تصل إلي أية نتيجة طلبت من الجمسي إيقافها وقلت لهم: «أنا غير مستعد للدخول في مساومات و مهاترات » .

في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعدا لتصفية جيب الثغرة فقد بدأت قواتنا حرب الإستنزاف ولم يتوقف ضغطها علي الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضا جديدة كل يوم، تارة بالأمتار وتارة بالكيلومترات ولكنا كنا نكسب دائما .. أنا فعلا كنت علي أتم الاستعداد لتصفية الثغرة وخاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها .. ولا خط بارليف للقتال معي ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا .. ففي 11 ديسمبر جاء كسينجر وقلت له « أنا مش مستعد أقبل الأسلوب الي هم ماشيين به ده وأنا حاصفي الثغرة».‌ .

قال لي : « أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز .. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطوني تقريرا كاملا .. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة .. مدافعك عددها

كذا و تستطيع فعلا أن تصفي الثغرة ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيضربك البنتاجون »

قلت له : - « هذا هو السؤال .. ما هو موقف أمريكا ؟ .

قال لي : - « سيضربك البنتاجون.. سيضربك البنتاجون لسبب واحد .. وهو أن السلاح الروسي قد انتصر علي السلاح الأمريكي مرة ولن يسمح له في الاستراتيجية العالمية بتاعتنا أن ينتصر للمرة الثانية » .

و استأنف كسينجر حديثه قائلا : - « هل تعرف أنه عندما أزمت أنت الموقف عالميا وقلت للقوتين تعالوا هاتوا لي خط ٢٢ أكتوبر أو أن تستعيده علي شرط ألا يقف البنتاجون ضدك .. تعرف الخطة اللي وضعها البنتاجون في ذلك الوقت كان شكلها إيه ؟ كنا حنزل في بلدك سيناء ونخلص عليك إذا الروس نزلوا عندك في الغرب لأننا كنا عاوزين نوريك إن الروس لا يعتمد عليهم فنضربك ضربه نضرب بها الروس .. نفس الوضع دلوقت .. لو أنت حاولت تصفي الثغرة سيتدخل البنتاجون ويضربك لأن دي سياسة أمريكا المقررة – ثم إن البنتاجون عاوز ينتقم لهزيمة أسلحته اللي حصلت في أكتوبر ».

قلت له : طيب وما العمل ؟

قال لي : «ادينى فرصة لغاية يناير ١٩٧4 وأنا بأوعدك أني أعمل لك فض اشتباك .

في هذا اليوم قال لي كسينجر : «إن جينيف مفروض أن تجتمع في ديسمبر سنة ١٩٧٣ فهل ستذهب ؟ .

قلت له : « أنا رايح جينيف » .

غادر كسينجر مصر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ وكان الألم قد استولي علي وصار يحز في نفسي ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم لا أستطيع منه فكاكا فالأوضاع من حولي كلها خاطئة .. وأنا غير قادر علي أن أصلحها لأنه ليس بيدي إصلاحها فأصبت بنزيف لمدة 4 أيام وأستدعيت الأطباء ليفحصوا البول الذي كان قد صار كلا من الدم .. قال لي الأطباء إن هذا نزيف بسبب التوتر النفسي ولكن لا خطورة منه وأعطوني بعض الأدوية استمر بعدها يومين ثم انتهي والحمد لله .

في يوم ٢4 ديسمبر ١٩٧٣ دعوت قادة الأسلحة وقادة الجيوش وعينت لتصفية الثغرة قائدا هو الجنرال سعد مأمون وهو محافظ القاهرة الآن ثم ناقشنا الخطة علي مدي سبع ساعات وصدقت عليها .

في يوم ٢5 ديسمبر ١٩٧٣ وهو يوم عيد ميلادي ذهبت كعادتي كل عام لأقضيه في قريتي ميت أبو الكوم .. وفي يوم ٢٩ سافرت إلي أسوان ثم جاء كسينجر في يناير ١٩٧4 و وقعنا اتفاق فض الاشتباك الأول - الذي كانت أمريكا تقوم فيه بدور الوسيط بيننا وبين إسرائيل ..

كان همي في اتفاق أسوان شيء واحد أساسي .

لم أكن أريد أكثر من حجم انتصاري علي الأرض لأني أعلم أن الإسرائيليين مسجونين عندي في الثغرة وبقاؤهم في الغرب مقبرة لهم وعلي هذا الأساس بالفعل وهو تحديد حجم انتصاري علي الأرض تم الإتفاق بيننا .

كنت في حالة نفسية مرهقة .. لماذا ؟ لأن جميع القوي تريد أن تجهض انتصارى.. أمريكا تريد أن تجهضه .. والاتحاد السوفيتي يريد أن يجهضه لأن سوريا خرجت مكسورة رغم وجود الخبراء السوفيت ، وأنا خرجت منتصرا مع أني طردت الخبراء السوفيت .. وطبعا إسرائيل تريد إجهاض انتصاراتي .

لم تكن محاولات الإجهاض هذه في حد ذاتها بالشيء الذي يقلقني .. فقد كنت أنظر إلي انتصاري علي أنه الطريق إلي السلام العادل الذي كنت أسعي إليه دائما ..

الفصل العاشر : الطريق إلي السلام

من أسعد لحظات حياتي في الفترة الأخيرة تلك الساعات التي أقضيها في كشك صغير عادي علي حافة قناة السويس ، أرقب المشروعات والإنشاءات الجديدة ..

وفي كل مرة أزور فيها مدن القناة يمثل أمام عيني يوم 5 يونيو ١٩٧٥ ، عندما وصلت إلي بورسعيد و من مكان الطائرة الهيلوكبتر أخذت السيارة وتوجهت لكي أفتح قناة السويس بعد أن ظلت مغلقة لثمان سنوات كاملة ، لن أنسي أبدا ذلك اليوم ، كانت الفرحة التي تشع من عيون كل رجل وامرأة وطفل شيئا جميلا حقا .. لقد عادوا إلي وطنهم أخيرا بعد سنوات بأكملها من التشريد والنفي والضياع ..

لا يستطيع أحد أن يقدر هذه الفرحة وأثرها علي النفس مثل من اقتلعت جذوره فعاني من إبعاده بالقهر ورغم إرادته عن وطنه .. أو عن مدينته أو عن الشارع الذي يقطنه والصحبة التي يجالسها كل يوم .. أو عن أرضه التي يعرفها جيدا ويحبها فهو نبت منها وبدونها لا يكون ..

ونحن في مصر شعب عمره سبعة آلاف سنة قدم للعالم أول حضارة أهم مقوماتها حب الأرض و الإلتصاق بها .. ولذلك لم تكن الفرحة التي رأيتها علي وجوه الناس فرحه الإنسان بخير أو مكسب يناله .. كانت في الواقع أكثر من هذا بكثير وأبعد أثرا... كانت فرحة يأس طويل تحول فجأة إلي أمل .. نبت ذبل وانتهي فإذا بالحياة فجأة تدب في أوصاله .. فقد هجر هؤلاء الناس لثمان سنوات كاملة ماتت خلالها أجيال و ولدت أجيال .. وتساءلت الناس عبر الزمن متي العودة ؟!

ولكن السؤال ظل بلا إجابة ولو حتي علي الأفق البعيد .. فإذا أخذنا في الاعتبار أن أهل القناة دون شعب مصر بأجمعه ـ لهم حياتهم الخاصة التي تتمثل في البحر و القناة ، لأدركنا مدي فرحتهم بالعودة .. التي لم تكن مجرد عودة إلي الوطن .. بل إلي الذات نفسها .. فكما أن الأرض تمثل لنا نحن أهل الوادي قمة القدسية والأصالة ، كذلك القناة والبحر بالنسبة لهم .. فالقناة هي التي شكلت نمط حياتهم وبالتالي شكلت وجدانهم جيلا بعد جيل حتي أصبحت هذا الوجدان نفسه . .

في ذلك اليوم 5 يونيو ١٩٧٥ الذي ما زال قريب من قلبي كل القرب لن أنسي أبدأ هذا المنظر الذي هز كياني هزا ..

السيارة متجهة إلي مبني هيئة القناة ، وفجأة يعترض الطريق أحد الرجال ويشير إليها بالتوقف .. كان شيخا طويل القامة شعره الأبيض يتدلي علي كتفيه مهيب المنظر حاد النظرات رغم شيخوخته .. حاول الحراس إبعاده فقلت لهم اتركوه .. وأمرت السائق بالتوقف .. نظر إلي الرجل نظرة طويلة ثم ركع علي الأرض أمام السيارة ساجدا لله يشكره .. ثم قام وأشار إلي الموكب باستكمال المسيرة ، وفي ومضة عين اختفي بين الجماهير المحتشدة ..

لم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة زمن.. ولكن وراء هذه اللحظة كانت تكمن أيام وأعوام من اليأس والعذاب .. ورغم قصر هذه اللحظة نفسها فقد كانت كل شي بالنسبة لهذا الشيخ .. فقد امتد به العمر ليري بعينيه وطنه وقد عاد إليه .. ربما لن يعيش به طويلا لكنه سيدفن في ترابه ... من هنا كان الإحساس بالطمأنينة والأمان والسلام .. مما جعله يسجد لله امتنان لأنه عز وجل قد بدد الظلمات بنور لم يكن في الحسبان ...

تركت الشيخ المهيب الوقور خلفي وذهبت لحضور مراسم افتتاح القناة وصورته ما زالت ماثلة أمام عيني تهز وجداني هزا.. وبمجرد وصولي تقدمت إلي القوات المسلحة بوثيقة تسليم القناة من القوات المسلحة إلي الإدارة المدنية لهيئة القناة - وقعتها ثم ركبت المدمرة 6 أكتوبر وفتحت القناة .

كان العالم كله يقف إلي جاني في ذلك اليوم - نفس العالم الذي كان يردد قبل ذلك بشهور قليلة أن القناة قد فقدت قيمتها بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها ..

ولكن لا شيء مثل الواقع فهو الذي يدحض كل افتراء وهو الذي يجعل الناس تتحول من حال إلي حال .. ففي 5 يونيو ١٩٧٥ كان العالم ممثلا في الوفود التي تدفقت علي القناة يحتفل معي وكأنه يعلن أن يوم 5 يونيو لم يعد يوم أحزان بالنسبة لمصر وللعرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه - فهو يوم الافتتاح الثاني لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة ..

قبل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا بل وأهانت وزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك الثاني .. ورغم أن أمريكا هي شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان وضع الرئيس فورد في نظرهم ضعيفا لأنه لم يكن رئيسا منتخبا ثم إن أمريكا مشغولة بفضيحة ووترجيت .. فلم لا تستغل إسرائيل الفرص كعادتها ؟

كان ردي علي كل هذا هو الفعل لا رد الفعل ففتحت القناة رغم أنها كانت تقع في مدي المدافع الأمريكية الضخمة التي زودت بها إسرائيل وأعدت المهجرين إلي المدن الثلاثة - بورسعيد والإسماعيلية والسويس - كانوا حوالى ٧٠٠ ألف إنسان كادوا أن يفقدوا آدميهم أثناء الهجرة ليس فقط للوضع الكئيب الذي كانوا يعيشون فيه بسبب ازدحام الوادي بل السبب أهم من هذا بكثير فقد كانوا يعيشون بلا أمل .. والأمل أهم مقومات الحياة و بدونه لا يمكن للإنسان أن يكون ..

كنت أعرف وأنا أفتح القناة أن مدافع الإسرئيليين تقع في مداها هي والمدن الثلاثة - ولذلك أعلنت للعالم أن المدن الثلاثة والقناة قد أصبحت

في عمق الجمهورية وأن العدوان عليها من جانب إسرائيل يعتبر عدوانا علي العمق ولابد لي في تلك الحالة من الرد في عمق إسرائيل ..

كانت هذه عملية مقامرة من دون شك .. فقد كان في الإمكان الا تنصاع إسرائيل بعد ذلك بشهور وتقبل فض الاشتباك الثاني الذي خرجت به من مدي القناة ومدنها - ولكني خاطرت من أجل السلام وكل شيء جائز .. المقامرة والصعاب بل والأخطار التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان في سبيل السلام .

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندي ..

علي طريقة اليهود كل شيء له ثمن ، فأخذوا يتفاوضون مع رجالي علي الثمن الذي يستردون به موتاهم .. قلت لهم : « إن هذا عمل إنساني لا نتقاضي عليه ثمنا تعالوا خذوا قتلاكم».. وبكل تكريم عسكرى سلمتهم الجثث التسعة والثلاثين بلا مقابل .. وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار الضباط ..

وفي عام ١٩٧٧ ونحن نعمق مجري القناة ظهرت ١٩ جثة أخري للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها علي الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم ..

لماذا فعلت هذا ؟ من أجل السلام .. فإني أومن أنه في سبيل السلام يمكن بل يجب أن يفعل الإنسان أي شيء لأنه لا شيء في الدنيا يساوى السلام ...

كان لأمريكا دور فعال في إعادة فتح القناة - فقد كانت تقف معي بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذي يفرض نفسه فرضا .. ذلك الوجه الذي شوهته حرب فيتنام .. ففي عام 1974 عندما قلت إنني سأفتح القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التي تصلح لمثل هذا الأمر لا توجد إلا في البحرية الأمريكية و ليس حتي في الشركات الأمريكية ذات الميزانيات والإمكانات الفنية العملاقة .. قلت هذا لكيسنجر وكان في زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - كان رده بسيطا .. قال :

- هل أفهم من هذا أنك تطلب مساعدتنا ؟

قلت : نعم .

قال لي : أعطني ساعة زمن ..

في هذه الساعة كما علمت اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبنتاجون ثم عاد وقال :

- هل تقبل أن تدخل بور سعيد حاملة الطائرات الهليكوبتر « أيوجيما » - وهي من قطع الأسطول السادس و عليها الهليكوبترات ومعدات التطهير لكي تبدأ في مساعدتك ؟

إلي هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا وعلي مدي ثمانية عشر سنة في مواجهة مع أمريكا .. ولكني قلت له : - نعم .

إتصل كسينجر مرة أخري بالبيت الأبيض والبنتاجون وعاد ليقول لي : - « بعد غد ستدخل (أيوجيما) ميناء بورسعيد لتتعاون معكم وتطهر القناة تحت قيادة البحرية المصرية » .

بعض ضباط حاملة الطائرات وبعض الدبلوماسيين في سفارة أمريكا بالقاهرة أشفقوا من دخول (أيوجيما) فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية التي تحمي السواحل نيرانها علي الحاملة ، ولكنني طمأنتهم وقلت إن شيئا من هذا لن يحدث فقد أصدرت أوامري إلي بحريتي .

في الميعاد المحدد دخلت (أيوجيما) علي استحياء ميناء بورسعيد وهي تتلمس خطاها في كل مرحلة ، ولكن فوجىء رجالها بالمقابلة الدافئة من جانب بحريتنا وبدأوا العمل في الحال .

قد يذهل الشعب الأمريكي عندما يعلم أني لم أتبادل مع الحكومة الأمريكية أي مستند بشأن اشتراكها في تطهير القناة - ليس في ذلك الوقت ، بل وإلي اليوم .. ومن هنا أتوجه بالشكر إلي الشعب الأمريكي ، فهذه هي روح الفروسية الأمريكية وهذا هو الوجه الحقيقي لأمريكا .. فالقناة ليست لمصر فقط .. بل من أجل رخاء العالم كله .. وأمريكا بإمكانياتها العملاقة المفروض بل والمتوقع منها أن تقف إلي جانب كل من يحتاج إلي معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم كله .

هكذا كانت صورة أمريكا ومازالت عندي وعند شعبنا المصري العريق .. الذي دأب عبر تاريخ البشرية علي احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها .

وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike .

لكفاحي من أجل السلام قصة طويلة تعود إلي تاريخ انتخابي رئيسا لجمهورية مصر في 15 أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، وبدء ولايتي الأولي في 16 أكتوبر .. فيوم أن توفي عبد الناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة جاء للعزاء فيه السفير ريتشاردسون علي رأس وفد أمريكي وللأسف التقيت به في ظروف مؤلمة .. ذلك أنه في يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشيا علي فأخذوني إلي أقرب مكان في مجلس قيادة الثورة حيث أعطاني الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات ، وكان أول من وقع عليه نظري ريتشاردسون الذي قدموه لي علي أنه وزير من الحكومة الأميركية جاء ليقدم العزاء فشكرته وأنا في الفراش ثم ضربت له موعدا بعد ذلك فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثا طويلا .

كانت مبادرة روجرز قائمة في تلك الأيام فقلت لهم: - « اعلموا رعاكم الله و انقلوا ما أقول إلي الرئيس الأمريكى .. لقد كنت ضد مبادرة روجرز و بالفعل رفضتها ولكني وافقت عليها بعد أن عاد عبد الناصر من الاتحاد السوفيتي وشرح لي الظروف هناك فكل ما أريده هو السلام - دعونا إذن نعمل من أجل السلام معا .. أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز ولكني لا أرضي لأمريكا أن تنقاد لإسرائيل في دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ في الضفة الغربية للقناة .. ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هي أرضي .. مرة أخري أدعوكم للعمل من أجل السلام .. وأنا مستعد للذهاب إلي أقصي مدي في سبيل ذلك ؟

عاد ريتشاردسون إلي بلاده وقدم تقريرا إلي وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبقي في الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله .. وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشيء .. وبناء علي هذا اتخذوا قرارا فيما بينهم أن ينتظروا حتي يروا مصيري .. لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخرا وكثيرا ما أتندر به اليوم مع المسئولين في أمريكا .

وفي نوفمبر ١٩٧٠ انهت التسعون يوما التي تنص عليها مبادرة روجرز فجمعت مجلس الأمن القومي وقلت لهم إننا بحاجة إلي تسعين يوما أخري ولكنها سوف تكون الأخيرة .. فالمبادرة كانت تنص علي وقف إطلاق النار لمدة 90 يوما ، يعمل في خلالها يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتنفيذ البند الثاني من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل .. بحيث يتم في خلال التسعين يوما الإتفاق علي الإنسحاب - وهذا ما لم تكن إسرائيل تريده .

تقدم وزير خارجيتنا إلي مجلس الأمن بإقتراحنا وفعلا تجددت مبادرة روجرز ولكن انقضي نوفمبر وديسمبر ويناير ولم يحدث شيء ، فإسرائيل تدعي أن مصر قد خرقت المبادرة وتسايرها في دعواها أمريكا ، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها .. وكل ذلك بهدف نسف المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك .

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أي بعد انتخابي رئيسا بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزي وكان في ذلك الوقت رئيسا للوزراء ، يحيل إلي خطابا من الرئيس نيكسون يشكر مصر لأنها أوفدت الدكتور فوزي يمثلنا في جنازة أيزنهاور .. مباشرة استدعيت القائم علي رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعته علي خطاب نيكسون وقلت له : « لقد استدعيتك لأحملك الرد إلي الرئيس الأمريكي وهذا هو نص الرسالة :

أولا : لقد أرسلت لكم مع ريتشاردسون الذي جاء للعزاء في عبد الناصر ولكنكم لم تردوا علينا .. مبادرة روجرز انسقتم فيها وراء دعوي إسرائيل أن مصر قد نقضت المبادرة وأنتم تعلمون جيدا أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية

ثانيا : بمجرد أنكم أرسلتم خطابا لرئيس وزرائنا .. تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغي بهذا الشكر .. ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتي التي بعثت بها مع ريتشاردسون ولأقول لكم إذا كنتم تعتقدون أننا في منطقة النفوذ السوفييتي فأنهم مخطئون .. نحن لسنا في منطقة نفوذ سوفيتية ولن نكون في منطقة نفوذ أحد أبدأ .. وأرجو أيضا أن تعلموا أنه ليس لمصر ولي أمر - فإذا شئتم أن تتحدثوا عن أي شيء

خاص بمصر فالمكان هنا في القاهرة ومعي .. لا مع أية جهة أخري (وبهذه الجهة الأخرى كنت أعي بصراحة كما أفهمت المشرف علي رعاية المصالح الأمريكية السوفييت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا وكان عبد الناصر قد أعطاهم هذا الحق في مرحلة من المراحل) وأرجو أيضا أن تعلموا أن قرارنا بيدنا وحدنا فنحن أحرار ومستقلون فإذا اقتربتم منا خطوة سنقترب منكم عشرة خطوات وإذا ابتعدتم خطوة سنبتعد عشرة .. وكما أن في القوانين الطبيعية لكل فعل رد فعل كذلك شأننا معكم فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح.

كان هذا أول اتصال لي بأمريكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التي حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أي صدي عندهم .. وجاء رد نيكسون علي الفور وتعجبت للسرعة فقد كنت إذا كتبت للسوفييت عن أي شيء لا يصلني الرد إلا بعد أربعة شهور علي الأقل وبعد أن استدعي السفير السوفيتيي عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور .. .

في 48 ساعة جاءني الرد موقعا عليه من نيكسون وكانت رسالة رقيقة يشكرني فيها الرئيس الأمريكي ويقول إنه لا يطلب صداقتنا علي حساب أحد (وكنت قد حذرته في رسالتي من هذا) فهم يعلمون في أمريكا أني رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق في أن تتكلم عن نفسها.

كان هذا في ٢6 ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضي ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يوما الثانية لمبادرة روجرز تنتهي في 4 فبراير سنة ١٩٧١ فقررت أن أفعل شيئا قبل هذا التاريخ .. كان من الواضح أن أمريكا مازالت تسير في خط إسرائيل منقادة للدعاية الصهيونية وأن أمريكا لظروف خاصة بها كانت تعطي إسرائيل أولوية حتي علي مصالحها هي منذ حكومة جونسون .. ورغم رسالة نيكسون لي فقد كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجهة مع أمريكا والصورة التي صورها لنا السوفييت في نظر الأمريكان أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأي إجراء يعيد السلام إلي المنطقة وخاصة بعد أن استقر في أذهان المسئولين هناك ما جاء في تقرير المخابرات من أنني

لن أبقي في رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع .. صحيح أنه كان قد مضي علي ولايتى أكثر من أربعة شهور في فبرابر سنة ١٩٧١ ولكن الشك كان مازال يخامرهم ... هل أبقى أو لا أبقي ؟ هل أنا قادر علي أن أفعل شيئا أو غير قادر ؟

إزاء كل هذا كان لابد من إنهاء مبادرة روجرز ولكن في نفس الوقت كان لابد لي من أن أفعل شيئا بناء يثبت لأمريكا و نيكسون والعالم كله حسن مقاصدى فأنا أريد السلام و مستعد له وفي يدي أن أتخذ قرارا في هذا الشأن .. هكذا فكرت ولم أطلع أحدا علي تفكيري إلا الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء في ذلك الوقت فاستدعيته وقلت له لقد قررت أن أتقدم بمبادرة سلام كالتالي :

أولا : تنسحب إسرائيل من شاطيء القناة الشرقي إلي المضايق في فترة ستة شهور يأتي خلالها يارنج لكي يتفق معنا ومع إسرائيل علي مراحل الإنسحاب .. وبمجرد انسحاب إسرائيل إلي المضايق تعبر القوات المصرية إلي الضفة الشرقية .

ثانيا : بعد أن يتم الإنسحاب إلي المضايق تعيد مصر علاقتها مع أمريكا فورا فباعتبارها طرفا أساسيا في المشكلة لابد أن تحضر معنا كل مراحل التسوية .

ثالثا : إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنتهي بموجبه حالة الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلي هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة 1948 مع إعطاء إسرائيل كافة الضمانات التي ترغب فيها وتنهي بذلك أخطر مشكلة يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها .

سعد الدكتور فوزى جدا بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم كله و تثبت أن مصر ترغب فعلا في السلام .

وفي يوم 4 فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلي مجلس الشعب وألقيت خطابي وأعلنت المبادرة وكما توقعت كان استعدادي لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة مذهلة للعالم كله .. فهذا ما لم يجرؤ قائد أو زعيم عربي

أن يقوله منذ أن قامت إسرائيل عام 1948 .. ولكنني كنت أعني ما أقول لأني فعلا راغب في السلام ...

دخلت بعد إعلان المبادرة إلي صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت تجهما غريبا علي وجوه المسئولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوي في ذلك الوقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التي تركها إلي عبد الناصر.. كانت المبادرة تتعارض طبعا مع أهدافهم التي رسمها لهم السوفييت كما اتضح لي بعد ذلك . علي أي حال لم يرق لي تجهمهم هذا فقلت في نفسي هؤلاء لا فائدة منهم ولن ألتقي بهم في اجتماع آخر .

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة علي طرف نقيض تماما من استقبال القيادة السياسية المصرية في ذلك الوقت مضافا إليهم بعض الوزراء .. ففي أقل من ٢٤ ساعة كان الشعب المصري يهلل لهذه المبادرة من جانبي ويرحب بها كل الترحيب .. وهنا يجب أن أسجل أن حس الشعب أوعي بكثير وسابق عن كل مسئول عمل معي حتي هذه اللحظة وهو ما أعتز به .

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معي يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولي ويدركها إدراكا كاملا .

في خطاب إعلاني لمبادرة السلام يوم 4 فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت إن التسعين يوما تنتهي اليوم وبهذا تسقط مبادرة روجرز ولكن ها هي مبادرتي أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله .. فيا عالم تحمل مسئولياتك وأنت أيضا يا مجلس الأمن .. ويا أمريكا ويا سوفييت تحملوا مسئوليتكم جميعا - إني أعطيكم مهلة إلي مارس سنة ١٩٧١ .. ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون مقيدا بمبادرة ولا أي شيء .

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها في مأزق يصعب الخروج منه فها هو أول رئيس عربي يعلن أنه علي استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل .. شيء لم يكن في الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتي الحلم به .

وفي مصر لم تقم مظاهرات ولم يرتفع صوت بالإحتجاج أو الرفض أو التبرم -

علي العكس سعادة تامة تسود الناس في كل مكان و فهم وإدراك واع وحصيف من الشعب كله .

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر و لبدأنا السلام في فبراير ومارس ١٩٧١ .

وضح لأمريكا أنني أتكلم من مركز قوة وأن شعبي كله ورائي وأنني قادر علي ما لم يجرؤ أي زعيم في العالم العربي أن يقوله أو يفعله طوال اثنين وعشرين عاما .. ولكن رغم هذا كله لم تفعل أمريكا شيئا ولم تغير موقفها واستمر الوضع علي هذا الحال إلي أن جاء مايو فاتصل بي روجرز وجاء لزيارتي في 4 مايو ... كان سعيدا جدا بمبادرة السلام التي قمت بها .. قال لي ..

- أتعرف أنك أوجدت لنا حلا للمشكلة ؟ سألته : كيف ؟

فروي لي أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكي في تل أبيب وقالت له : « اكتب لروجرز ولنيكسون وقل لهما إنني أنا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أتحدي أي زعيم عربي أن يقول إنه علي استعداد لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل فإذا حدث هذا - قل لهما - فسوف أكون علي استعداد لكي أضع كل أوراقي علي المنضدة ، ثم استطرد روجرز يقول لي: لقد وصلتنا هذه الرسالة منذ فترة طويلة ، فإذا بنا نفاجأ بك في 4 فبراير سنة ١٩٧١ - ودون أن تعرف ما قالت جولدا مائير - تعلن علي العالم أنك علي استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أعجبنا بذلك كل الإعجاب و لذلك طلبت زيارتك .. والشيء العجيب أيضا - استمر روجرز في حديثه - أنه حسب التقارير التي عندنا كنت أتوقع أني عندما أصل إلي مصر سوف يقذفني الناس بالطوب .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث علي العكس نزلت الشارع بدون حراسة و عرفني بعض الناس فحبوني وسلموا علي .

قلت له : أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكي تعرفوا الشعب المصري .. علي أي حال ماذا تريد مني أن أفعل؟

قال : أبداً .. لقد قلت كل شيء في مبادرتك ونحن معك .. سأتوجه من هنا إلي إسرائيل و سأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدي .. حتي دون أن يعلم به .. ولذلك أرجو أن تكوني عند وعدك وتضعي كل أوراقك علي المنضدة حتي يتسني لأمريكا أن تدخل وتحل المشكلة ..

غادر روجرز مصر إلي إسرائيل .. وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت من مراكز القوي الذين كانوا أغلبية في القيادة السياسية المصرية وكانوا يستندون علي الاتحاد السوفييتي وينفذون تعليماته فجاءني (بودجورني) يلهث فزعاً وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفييت .. وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات الصحف الغربية تعليقا علي زيارة بودجورني وعقد المعاهدة المصرية السوفيتية أظهرت بودجورني يستعرض طابوراً يلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن بودجورني القائد يستعرض طابور الأصدقاء في السجن ..

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورني قرر أن رسالي لهم بشأن تصفية الصراع قد وصلتهم فإني وافقت علي إبرام المعاهدة المصرية السوفيتية في مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورني سعيداً .. ولم تستمر هذه المعاهدة إلا خمس سنوات فقط بدلا من خمس عشرة سنة هي مدة المعاهدة وقد أنهاها البرلمان المصري .

ولهذه المعاهدة قصة ..

فبعد هزيمتنا في يونيو 196٧ ووضوح دور جونسون رئيس أمريكا في ذلك الوقت في خداعنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبد الناصر بعد إغلاق خليج العقبة في مايو 196٧ في وجه الملاحة الإسرائيلية علي أن يرسل نائبه همفري إلي القاهرة أو يرسل عبد الناصر أحد نوابه إلي واشنطن فبادر عبد الناصر بإخطار جونسون أنه سيرسل له أحد نوابه إلي واشنطن لحل مشكلة مضايق العقبة وكانت المشكلة قد شدت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلي الأسوأ واتفق رسمياً بين عبد الناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس المصريين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء 7 يونيو 196٧ في واشنطون وفي نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين علي المبادرة بالهجوم علي سيناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعي الأمريكي عن أوضاع القوات المصرية في سيناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصري إلي واشنطن في 7 يونيو 196٧ وخاصة عندما عرض الإسرائيليون خطتهم عليه في مكتبه بالبيت الأبيض بحضور رئيس الـ CIA وأحد القادة الكبار من

البنتاجون ... وقد نفذت إسرائيل فعلا كلام جونسون وهجمت يوم 5 يونيو 196٧ أى قبل وصول نائب الرئيس المصري بيومين وطبعا لم تتم هذه الزيارة .. لم يكتف جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضا الخط الساخن مع القادة السوفييت وأكد لهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يخطروا عبد الناصر بذلك وقد استجاب السوفييت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها لا استطيع أن أجزم ولكن ما حدث هو أن بادر السوفييت عقب اتصال جونسون بهم إلي الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه في الفجر ليبلغوه علي لسان سفيرهم في القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأييدهم لها..

أعود إلي القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا في 196٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلي الاتحاد السوفيتي لبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من 85% من أسلحتنا ..

وكان طبيعياً أيضا أن نحافظ علي صداقتنا مع الاتحاد السوفييتي بأي ثمن .

وهناك حقيقة معروفة عن الروسي سواء كان في عهد القياصرة أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسي ذلك أن الشك طبيعة ثانية فيه SECOND NATURE وقد زاد هذا الشك تحت الحكم الماركسي بفعل طبيعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ البلشفية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة

والشك المسبق في كل إنسان إلي أن يثبت العكس .. لذلك حرصنا للابقاء علي صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي ومحو شكوكه الرهيبة بعدة أمور .. كان أولها أن طلبنا إلي السوفييت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربي الإسرائيلي بعد أن لمسنا شكوكهم من أي اتصال أمريكى بنا .. بل ووصلت الأمور إلي الحد الذي طلبنا إليهم تعيين قائد سوفييتي للدفاع الجوي المصري وقائد السلاح الطيران المصري أيضا أمام عربدة إسرائيل الجوية في أجوائنا و لكنهم رفضوا المطلبين لحسن حظنا ...

وكان قمة ما أردنا أن نطمئنهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا تريحهم وتزيل شكوكهم (التي كنا نعجب لها) وتضمن لنا إمدادات

الأسلحة التي نحن في أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا ..

عرض عبد الناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين ، وسافرت أنا بتكليف من عبد الناصر إلي موسكو وطلبت أيضاً مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفييت لعبد الناصر ولي هو الرفض .. لعلهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلي ما لا يريدون .

وذهب عبد الناصر إلي آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو في موسكو حين طلب إليهم أن يعقدوا معنا حلفا PACT إذا كانوا يشعرون أن في ذلك مدعاة لراحة شكوكهم .. ورفضوا .. فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلنهم في هذه الجلسة وعلي مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال وغضب بريجنيف الذي قال لعبد الناصر في انفعال إنك بهذا تقبل حلا أمريكية فرد عليه عبد الناصر إني أقبل أي شيء مادام هذا هو أسلوبكم معي . لقد كان تعليق عبد الناصر لي يوم وصوله إلي القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة في حياته إلي موسكو كلمتين قالهم لي بالإنجليزية . لقد قال لي وأنا أسأله في طريقنا إلي منزله من المطار عما تم في موسكو فلم يزد عن « السوفييت Hopeless Case » أي حالة ميئوس منها .

لذلك استغربت أن يأتيني بودجورني رئيس الاتحاد السوفييتي إلي القاهرة في أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لي في نفس الشهر وبعد أن صفيت عملاءهم في القيادة المصرية ، أقول استغربت أن يأتي بودجورني ملهوفا علي عقد معاهدة فورا معنا .. وقلت له في الحال أنا لا مانع عندي وقد طلبها منكم عبد الناصر مرتين فرفضتم وعرض عليكم أيضا حلفا PACT في زيارته الأخيرة لكم فرفضتم و طلبتها أنا منكم كطلب عبد الناصر مرتين فرفضتم .. لا مانع لدينا ولكني كصديق أنصحكم أن التوقيت الذي اخترتموه لعقد المعاهدة خاطئ جدا ذلك أن الكل سيعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكأنهم كانوا هم

الذين تعتمدون عليهم في علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه .. ولهذا التنبيه أيضاً قصة ..

فإني حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفييتي في القيادة المصرية وقبل أن تتم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفييتي في القاهرة وطلبت منه أن يبلغ القادة السوفييت رسالة عاجلة مني ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أني حرصا علي صداقتنا مع السوفييت أريدهم أن يكونوا علي علم بها .. هذا الأمر هو أني قررت تصفية علي صبري وكان عميد عملائهم في القيادة المصرية لأني أسمح بالإختلاف في وجهات النظر في القيادة السياسية ولكني أرفض الصراع ولذلك فإني أريد أن يعرف الأصدقاء السوفييت بذلك قبل أن يقع حتي لا تستيقظ شكوكهم التي أعاني منها وحتي لا تهيج صحف الغرب أعصابهم .. .

ولقد حدث هذا فعلا بعد أن أقلت علي صبري فقد خرجت صحف الغرب با لمانشيتات عن تصفية رجل موسكو ..

بدأت صورتي في نظر أمريكا حتي بعد عقد المعاهدة مع السوفييت تتخذ ألوانا وأبعادا لم تكن مألوفة لديهم من قبل ساعدتهم علي المزيد من التعرف علي وفهمي علي حقيقي وهو الأمر الذي لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفييت الذين بيننا وبينهم معاهدة .. فهم منذ بدء علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف يتصرفون معنا بنفس الاسلوب الفج الفظ و الذي يبعد كل البعد عن إدراك الحقيقة كما هي .. أو حتي مجرد محاولة الإدراك ..

ولم يمض شهران حتي وقع تطور آخر سبب إلي الصداع والصراع مع السوفييت ففي يوليو ١٩٧١ قامت الثورة الشيوعية في السودان وعندما جاءني السفير السوفييتي في القاهرة يطلب مني الاعتراف بالحكم الجديد رفضت وقلت له :

- و أنا لا أسمح بقيام حكم شيوعي علي حدودى - هذه نقطة أما النقطة الأخري التي أرجو أن تنتبهوا لها فهي أنه لن يقوم في هذه المنطقة حكم شيوعي لأن الدين يجري في دمائنا ، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط لكم في هذا المجال حتي تريحوا و تستريحوا .

انصرف السفير السوفييتي في حالة غضب وأكد موقفي هذا شكوكهم في
طبعا. .

نعود إلي موقف أمريكا - غادر روجرز مصر في أوائل مايو ١٩٧١ إلي إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انقضي يونيو ١٩٧١ و جاء يوليو ١٩٧١ وأنا خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم علي شئون أمريكا أطلب منه أن يكتب إلي روجرز ليخبرني بما حدث مع إسرائيل .. ولكن دون جدوي تماما كما يفعل السوفييت معي .. إسرائيل مستمرة في غرورها و أمريكا متحفظة لا تتكلم ولا تتخذ أي موقف .. إلي أن جاء 6 يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال وزارة الخارجية الأمريكية يأتي من واشنطون يطلب موعدا عاجلا للأهمية - قابلته في مساء نفس اليوم فقال لي إنه يحمل رسالة من نيكسون وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد مني الإجابة عليها أولا...

كان السؤال الأول : هل غيرت المعاهدة السوفيتية التي عقدت في أواخر مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك في التعامل معنا لإعادة السلام إلي المنطقة ؟

وأجبته : أبداً .. لقد أعلنت أن المعاهدة السوفيتية ليست لها بنود أو ملاحق سرية ولابد أن تتعودوا أنتم وغيركم علي أن ما أقوله في العلن هو نفس ما أقوله في السر وأن أي التزام التزم به من حق شعبي علي أن يعرفه قبل غيره من الناس لأني غير مستعد لأن أضحك علي شعبي في يوم من الأيام ومهما كانت الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسميا في البرلمان عند إقرارها وليس علي مصر أي قيود من أي نوع فنحن مصرون علي حريتنا و استقلالنا ..

وكان السؤال الثاني : هل ما زلت توافق علي مبادرتك التي أعلنتها في فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان في مصر ؟

قلت له : طبعا .. ولو حدث أن غيرت أي شيء فلابد أن أعلنه علي الناس فوراً .. وأحب أن أنبهكم - وهذه ليست أول مرة - إلي أن كل ما

يخص مصر يجب أن تتكلموا معي أنا في شأنه .. فإذا تكلمتم مع أي شخص آخر ثقوا أننا لن نستمع إليكم ..

قال لي : حسنا .. حسب ما لدي من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما تلقيت منك هذه الردود فابتداء من منتصف الليلة 6 - 7 يوليو ١٩٧١ ، فإن الرئيس الأمريكي سيتدخل بنفسه ليبدأ الحل السلمي .

قلت له : علي خيرة الله .. ما الذي فعله روجرز في إسرائيل ؟

أجاب : تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك .. علي أي حال أنا ليست عندي تعليمات بأن أقول شيئا في هذا الشأن .

وانصرف وانتظرت .. مضي نصف الليلة وأنصاف ليال كثيرة وكثيرة جدا بعد ذلك ولكن لا حراك .. العكس حدث .. فقد وقفت جولدا مائير في الكنيست الإسرائيلي تلقن روجرز درسا عنيفا .. ومبلغ دراستنا الشخصية مسز مائير أنها مولعة في حياتها العادية ومع مجلس الوزراء الإسرائيلي بمعاملة الوزراء كما كانت تعلم الطلبة في فصل المدرسة وهي تدرس للاطفال في ميلووكى .. ويظهر أن كل ذنب روجرز هو أنه طالبها بأن تضع أوراقها علي المنضدة كما سبق وأن أخطرته رسميا عن استعدادها لذلك إذا أعلن أحد زعماء العرب عن قبوله توقيع اتفاقية سلام بينما كان يعلم تمام العلم أنها لم تكن مستعدة لذلك .

وكان لزاما عليه أيضا أن يدرك أنها عندما أرسلت التحدي عن طريق السفير الأمريكي في تل أبيب كانت علي ثقة من أنه لا يوجد زعيم عربي يمكن أن يدعو إلي اتفاقية سلام مع إسرائيل .. ففيم كثرة الكلام إذن ؟ وإلي أين سوف تودى سذاجة روجرز وجهله بحقائق الأمور بأمريكا وإسرائيل علي السواء ؟ كان هذا الدرس بمثابة إشارة إلي الدوائر الصهيونية في الولايات المتحدة لكي تقضي علي روجرز .. . و بالفعل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولا عزلا تاما ...

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الرسالة التي وصلتي يوم 1 يوليو ١٩٧١ علي لسان الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته روجرز مع دبلوماسي أمريكى كان هو رئيس قسم مصر في وزارة الخارجية لم يكن لدي

الرئيس الأمريكي أي علم بها كما عرفت بعد ذلك .. شيء غريب حقا .. أليس كذلك ؟!

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير في الكنيست عادت الأحوال بينى وبين أمريكا إلي أسوأ مما كانت عليه .. فقد كان للخطاب أثره في الرأي العام الأمريكي كما أنه أرهب روجرز فتراجع عن كل شيء ..

وليت روجرز اقتصر علي التراجع بل إننا نجده في أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة و دخلت معها في عمليات تصنيع ولن تكف عن بذل المعونة لها حتي تظل متفوقة عسكرية علي العرب مجتمعين ..

مسكين .. كان يريد أن يشتري رضاء إسرائيل مرة أخري بعد الدرس الذي أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوي .

بعد تصريح روجرز وبعد عدم استطاعتي تحقيق و عدي بأن سنة ١٩٧١ لابد أن تكون سنة الحسم إما سلما أو حربا بدأت أعاني الشماتة في العالم الخارجي وفي الداخل من عملاء السوفييت وبعض من ضللتهم الدعاية السوفيتية و مسلك أمريكا معي .. فها هي سنة ١٩٧١ تنقضي دون أي حسم ما .. لقد تعمد الاتحاد السوفييتي أن يخذلني بعدم إرسال العتاد الذي طلبه وكأنهم في موسكو يريدون أن يقولوا لي أنت لا تستطيع أن تقرر شيئاً بدون إذن السوفييت وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بسنتين للمارشال أحمد إسماعيل عندما زار موسكو في مارس سنة 1٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة ..

وتستمر سخرية عملاء الاتحاد السوفييتي وعملاء مراكز القوي عندي في مصر من سنة الحسم واضطر إلي أن أكتم آلامي وأخفي جروحي و أذهب إلي مجلس الشعب في فبراير سنة ١٩٧٢. أدافع عن السوفييت رغم أني مطعون في ظهري منهم فقد زرت موسكو في سنة واحدة أربع مرات أطلب العتاد وألح في الطلب ولكن عبثا ... وفي نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلي مهاجمة أمريكا وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون .. وهكذا بدأ فصل جديد من العلاقات السيئة بيني وبين أمريكا .. مواجهة عاتية كاملة..

طبعا أصيب الأمريكان بذهول يوم 16 يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت قرار الإستغناء عن الخبراء السوفييت ولكنهم حاولوا جهد طاقتهم أن لا يأخذ القرار مكانه في إعلامهم .. فالوفاق بدأ .. و كان نيكسون قد زار موسكو في مايو سنة ١٩٧٢ أي قبل شهرين فقط من قرارى بالاستغناء عن الخبراء السوفييت .. فكأنما كانت مؤامرة صمت .. .

ولكن يخطىء من يظن أني اتخذت قرار طرد الخبراء السوفييت لإرضاء أمريكا أو أية جهة أخري .. لقد كان قرار وطنيا سعد به شعب مصر كل السعادة فهو قرارى و قرار شعبي وحده ، وكان هجومى علي روجرز وأمريكا لما لقيته من سلوك من جانبهم لا يقل عنفا عما وجهته للسوفييت وأنا أطرد خبراءهم .

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتي أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيراً للخارجية - فطلب أن يلتقي بأي رسول أرسله له ولكن سنة ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات والحكومة الأمريكية في مثل هذه السنة لا تقدم ولا تؤخر ثم إن الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن فلم يتحقق لهذا اللقاء الذي طلبه كيسنجر أن يتم إلا في فبراير سنة ٧٣ .

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي عندنا فالتقي به في باريس مرة في فبراير سنة ١٩٧٣ وأخري في أبريل سنة ١٩٧٣ .

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذي فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكي ولذلك لم يتم شيء . ولكن الرئيس الأمريكي الآن مستعد للتعاون من أجل السلام .. قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدي روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا في يناير سنة ١٩٧٢ فرد كيسنجر قائلا : -

- قل للرئيس السادات رغم أنني لا أعرفه شخصية إن تقديرنا له الذي بني علي تقرير مندوب أمريكا في جنازة عبد الناصر كان خاطئاً .. بل إن الحقائق كلها تشير إلي عكس ما جاء في هذا التقرير .. فقد رأيناه يتقدم بمبادرة سلام ثم رأيناه وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفييت .. وهذه مسائل لافتة للنظر ..

« ولكن نصيحتي للسادات أن يكون واقعية .. فنحن نعيش في عالم الواقع ولا نستطيع أن نبني شيئا علي الأماني والتخيلات .. والواقع أنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر .. لابد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتي تستطيع أمريكا أن تساعدكم ..

« فكيف يتسني وأنتم في موقف المهزوم أن تملوا شروطكم علي الطرف الآخر .. إما أن تغيروا الواقع الذي تعيشونه فيتغير بالتبعية تناولنا للحل وإما أنكم لا تستطيعون ، وفي هذه الحالة لابد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التي تعرضونها وأرجو أن يكون معني ما أقول واضحاً فلست أدعو السادات إطلاقا إلي تغيير الوضع العسكري فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخري بأشد

مما انتصرت في سنة 196٧ وفي هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أي شيء .. وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصيا وهو رجل أحب أن أتعامل معه في يوم ما ... فأنا شديد الإعجاب به لمواقفه وشجاعته الواضحة ولأنه إنسان لأول مرة في هذه المنطقة بضع كل شيء في مكانه بأسلوب علمي سليم ويتخذ خطة جديدة لم يتخذها أي زعيم عربي من قبله ..»

كان هذا كلام كيسنجر في فبراير وإبريل سنة ١٩٧٣ فقلت في نفسي لا فائدة

ترجي من الأمريكان فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التي وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل علي مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا في مصر .. إسرائيل هي الحارس الوحيد علي مصالح أمريكا في الشرق الأوسط .. هذا ما جعلت من نفسها .. أو هكذا جعلتها أمريكا .. والنتيجة في كلا الحالين واحدة وهي أنه لا أمل في تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام .

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفوجىء كيسنجر وحزن حزنا شديدة علي مصيري كما قال لي فيما بعد إذ كان الإسرائيليون في الأيام الثلاثة الأولي للحرب يؤكدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضي علي المصريين ويدفنون في القناة ..

واستخدموا أفلام هزيمتنا في سنة 194٧ في كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلي الخارج .. وكأن « البروباجاندا » السوداء ستجعلهم ينتصرون..

وفي اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة : « أنقذوا إسرائيل ».. وأن إسرائيل خسرت علي الجبهة المصرية 400 دبابة مطلوب إرسالها فورا من أمريكا لإسرائيل ..

ولابد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتما حينما أكد البنتاجون بأقماره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية ..

وعلي الفور بدأ كيسنجر - بعد أن أفاق من ذهوله - في العمل علي وقف إطلاق النار علي أن تعود القوات إلي المواقع التي بدأت منها القتال يوم 6 أكتوبر .. طبعا رفضت .. لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولي بالإستيلاء الكامل علي خط بارليف ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهي الوصول إلي المضايق ..

وساء حال إسرائيل أكثر .. فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار علي الخطوط الحالية ولكن سوريا كانت في ذلك الوقت قد رجعت عن خط البدء فرفضت هذا أيضا .. وخاصة عندما قفز إلي ذهني الموقف في سنة 1948 عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا علي كل شيء .. كانت هذه حيلة مماثلة ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ..

أرسل الاتحاد السوفييتي إلي ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضتها جميعا . . ثم حضر رئيس وزرائهم كوسيجين إلي مصر وبقي عندنا أربعة أيام .. وفي يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفييتي إلي أمريكا

يقول إن السادات قد وافق علي وقف إطلاق النار .. وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية مستر هيث لكي يتصل بي عن طريق السفير البريطاني في القاهرة ليسأل عن مدي صحة الرسالة .. وفوجئت بالسفير البريطاني يوقظني من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليبلغني الرسالة .. قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط ..

طبعا كانت أمريكا تساند إسرائيل منذ بداية الحرب وقبلها.. ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلي تدخل واضح وصريح ومباشر.. فكانت الدبابات تنزل إلي أرض سيناء في العريش المصرية عاصمة سيناء وهي التي تقع وراء الجبهة مباشرة وهي محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة .. كما كانت ثمة أسلحة أخري لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها .

ووجدتني فجأة أواجه أمريكا ..

وهذا ما جعلني أعلن علي العالم يوم 19 أكتوبر سنة ١٩٧٣ أني لا أحارب أمريكا .. وبناء عليه فأنا أقبل وقف إطلاق النار وهو ما رفضته أربع مرات علي مدي ١٧ يوما عندما كان خصمي في المعركة إسرائيل وحدها – لا أمريكا .

وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هي مسئولية أمريكا بل ومسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التي قدمها لإسرائيل والصور الجوية والعتاد والأسلحة الجديدة التي استخدمت لأول مرة ولم تكن متاحة لأي إنسان خارج أمريكا إلي ذلك التاريخ ..

لم تكن الثغرة في ذاتها هي التي جعلتني أقبل وقف إطلاق النار .. الذي دفعني إلي هذا - كما سبق أن قلت - أني أصبحت في حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا و هو ما لا قبل لي أو لأية دولة غير عظمى به.

أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية كما أسماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية ومن الناحية السياسية كان واضحا أن الهدف منها هو إعطاء

إسرائيل نقطة انطلاق تحفظ ما تبق لها من كرامة في المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا علي الجبهة المصرية إلي الحضيض BOTTOM كما قالت مسز مائير وقتذاك .. لقد حشدوا قوات كبيرة في الثغرة في منطقة صغيرة لا تحتمل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفني هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة ..

طبعا خاب ظنهم فالحرب النفسية قد تصلح مع غيري ولكنها لا تصلح أبدأ معى لأني أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عدتها ..

كنت واثق كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكتوب لها الفشل المحقق .. فلو أني صفيت الثغرة حسب الخطة الموضوعة والتي وقعتها بنفسي كانت إسرائيل ستفقد 400 دبابة وعشرة آلاف عسكرى ما بين قتيل وجريح ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد .. في هذه المعركة لم يكن أمامي قناة أعبرها أو خط بارليف أقتحمه.. العدو أمامي وعلي مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه علي الضفة الشرقية خمس فرق كاملة لي ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هي ستة كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثاني والثالث .. كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلي أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبحة التاريخ ..

ولكنها لم تتم .. لماذا ؟ لأنها كانت ستعني المزيد من الدم والكراهية والأحقاد .. وأنا أكره كل هذا ..

بل إني لأذهب إلي آخر العالم - كما يعرف شعبي وقوات المسلحة - إذا كان ذلك من شأنه أن أتفادي جرح - ولا أقول قتل - فرد واحد.

كان أول لقاء لي مع كيسنجر بعد وقف اطلاق النار الذي تم في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. وخرق إسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ذلك بساعتين فقط .. فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار فأرسلت إلي القوتين نداء أحملهما فيه مسئولية ما فعلت إسرائيل وأعلن أني رغم التزامى بوقف اطلاق النار إلا أني أعتبر نفسي في حل من التزامي فإما أن يعيدا اليهود إلي خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ و هو الخط الذي كان قائما وقت وقف إطلاق النار و تعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل علي الأرض .. وإما أن أعيدهم أنا بيدى - كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلي مصر فقلت علي الرحب .. وأتي ..

كان ذلك في أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولي ثلاث ساعات.. بعد الساعة الأولي شعرت أني أمام عقلية جديدة وأسلوب جديد في السياسة وأني أري لأول مرة وجه أمريكا الحقيقي الذي كنت فيما مضي أتمني أن أراه - لا الوجه الذي صنعه دالاس و دين راسك وروجرز .. وأعتقد أنه لو رآنا أحد بعد الساعة الأولي من اجتماعنا بقصر الطاهرة لاعتقد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات .

لم تكن هناك أية صعوبة في التفاهم فاتفقنا علي النقاط الستة ومن ضمنها إقرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر في إطار فض الاشتباك .

كان الاتفاق علي النقاط الستة بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمريكا تبلورت فيما نسميه بعملية السلام (PEACE PROCESS) التي سارت فيها أمريكا معي وما زالت حتي اليوم.

نفس هذه البداية اعتبرها السوفييت نهاية العلاقة بينهم وبيننا - أو هكذا يبدو علي أي الأحوال كان الاتفاق علي النقط الستة بيني وبين كيسنجر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير - كما تقول في العربية - بالنسبة للسوفييت ، لقد تحملوا كارهين قرار طرد الخبراء السوفييت وتصفيتي لمراكز القوي ثم موقفى من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قرار الحرب و انتصاري فيها رغم تحذيرهم السوريا بأني سأغرق في القناة

بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهوا إسرائيل وحدهم .. فإذا بالأمور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطر مانع مائي في التاريخ وأسيطر علي خط بارليف في ساعات وأدخل سيناء .. ولكن حتي في هذه المرحلة المتقدمة لم يكف السوفييت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعة حين حضر إلي مصر رئيس وزرائهم كوسيجين - كما سبق أن رويت - ليقنعني بوقف إطلاق النار وحدثت بيننا مشادة في منتهي العنف .. وأخيراً كان اتفاق مع كيسنجر علي النقاط الستة و بداية عملية السلام .. منذ تلك اللحظة إلي هذا اليوم في سنة ١٩٧٧ وكل شيء عند السوفييت موقوف علي .. لا بيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت ولا قطع غيار ولا أي شيء علي الإطلاق . . بل موقف متشدد يكاد أن يصل في بعض الأحيان إلي العداء ..

في 11 ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءني كيسنجر حسب الاتفاق لتنفيذ النقاط الستة فقلت له : « يا هنري أنا لا أطالب بعودة اليهود إلي الضفة الشرقية ولكني أريد عودتهم إلي خط ٢٢ أكتوبر - كان هذا اتفاقنا وقت وقف إطلاق النار فإما أن يعودوا إليه وإما أن آخذه بالقوة ..

قال : – ما الداعي إلي المعركة ؟

قلت : – لأن ثمة عربدة إسرائيلية – وهم يتصورون أنهم يخيفوننا بهذه الثغرة - وأنا لست علي استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر بل لن أسمح بهذا ... هل تعرف مدي قوتي ومدي قوتهم في الثغرة ؟ .

قال : نعم أعرف .. وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعي رسمها البنتاجون . كما سبق أن رويت.

وقال : قبل أن أحضر إليك طلبت من البنتاجون أن يعطوني الموقف فأعطوني هذه الصورة وفيها الي 400 دبابة إسرائيلية ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقريبا لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم .. أنت فعلا تستطيع أن تصفي الثغرة بهذه القوات ..

قلت : هذه سوف تكون معركة التاريخ بالنسبة إلي .. فما هو موقف أمريكا .. إنكم أنتم الذين أخرجتموني من الحرب ولكنكم أنتم المسئولون عن الثغرة .. ما هو موقف أمريكا إذا صفيت الثغرة بمعركة ..؟'

قال : سيضربك البنتاجون بكل قوته .. هذا هو موقف أمريكا .. ولكن لي سؤال : هل أنت مُصر علي تصفية الثغرة بمعركة عسكرية ..؟

قلت : أبداً .. أنتم تعلمون أني رجل سلام .. ولو كنتم قبلتم مبادرتي سنة ١٩٧١ لما كانت هنالك حرب - فأنا ضنين بحياة الجندي قبل الضابط ولكنكم لم تأخذوا كلامى مأخذ الجد وهذه هي النتيجة ..

قال : كما بدأنا عملية السلام ، نعمل فض اشتباك تنهي هذه الثغرة بمقتضاه سلمية . قلت له : أنا معك ١٠٠ ٪ ولكن متي ؟

في ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمر جنيف يوم 19 ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأجل إلي ٢١ من الشهر نفسه ، وفعلا ذهبت مصر والأردن وإسرائيل وامتنعت سوريا - وعقدنا في جنيف جلستين أو ثلاثة ثم أجلنا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر علي فض الاشتباك في يناير سنة 74 - وذلك بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية .

قبل ذلك بفترة - وعلي وجه التحديد في يوم 16 أكتوبر بعد بدء المعركة بعشرة أيام وبينما كان انتصارنا واقعا أذهل العالم كله - خطبت في مجلس الشعب هنا في مصر وقلت إنني مستعد أن أذهب إلي جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة في عام 1967 ونجتمع في جنيف لنضع اتفاقية سلام .. كان في إمكاني في ذلك الوقت أن أضرب في عمق إسرائيل .. وهي تعلم ذلك و تعلم أن لدي السلاح الذي يقوم بذلك ..

أي رجل مكاني كان يفعل هذا ولو من باب الانتقام من إسرائيل لثلاث حروب مضت - ولكني لم أفعل لأني أفضل السلام -.. ومن نفس المنطلق آثرت أن أصفي الثغرة سلمياً فجاء كيسنجر حسب الاتفاق في يناير سنة ١٩٧٤ وأخذ يتنقل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمن إلي أن جاء إلي في يوم وقال : -

- للأسف يبدو أننا قد وصلنا إلي طريق مغلق فهم في تل أبيب غير راغبين في التفاهم .

قلت له : لقد جاء دوركم أنتم الأمريكان .. فحلوا الموقف أنتم بأنفسكم ..

قال : هل تقبل عرضا أمريكيا ؟ قلت : بكل سرور .. مستعد أتلقاه و أدرسه و أرد عليك ..

تلقيت الاقتراح الأمريكى وتلقته إسرائيل في نفس الوقت .. و بالاتفاق علي فض الاشتباك الأول علي الجبهة المصرية بدأنا مرحلة جديدة .. المرحلة الثانية في عملية السلام ...

وهنا لابد لي أن أقول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يقوم بهذا الدور وهو التدخل بين الطرفين اللذين تأكلهما أحقاد رهيبة ودماء وكراهية وعنف ومذابح قامت بها الصهيونية في القري الفلسطينية ..

لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق المسدود .. وفض الاشتباك الأول مكتوب علي رأسه كلمة « عرض أمريكى AMERICAN PROPOSAL .. لهذا قلت وأقول إن بيد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة.. مهما أغضب ذلك الآخرين ..

كان من المفروض أن ندخل المرحلة الثالثة من عملية السلام في سبتمبر ١٩٧4 وهي فض الاشتباك الثاني - ولكن حدثت زيارة نيكسون إلي مصر ثم عاد إلي أمريكا حيث كانت مسألة ووترجيت قد نضجت تماما وتفجرت فاستقال نيكسون ودخلت أمريكا في دوامة رهيبة استمرت خلال سنوات ٧4، ٧٠، ٧٩ سنة الانتخابات بعد أن استقال نيكسون وحل فورد محله ، وبدأت دبلوماسية (المكوك) بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثاني .

في تقديري أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلي عشرة أيام .. أما هذه المرة فقد كان الأمر يختلف .

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شيء يلوح في الأفق ..

وقبل أن تنتهي هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندي في أسوان :

- يا هنري لن يتم فض الاشتباك هذه المرة – ولن يستجيب اليهود لكم ولا للسلام .. لأنهم يعلمون أن الحكومة الأمريكية في حالة ضعف - فووترجيت ما زالت متفجرة - والرئيس الموجود معين وليس منتخبا ..

قال : بالعكس أنا أري أن العملية تسير سيرا حسنا - صحيح أنها قد تستغرق وقتا أطول من فض الاشتباك الأول ، ولكن هذا لا يعني الكثير .

قلت له : تقدر تقدم مقترحا أمريكيا يا هنرى ؟

قال : لا ..

قلت : أرأيت ؟ أنت لا تقدر لأنكم في وضع داخلي صعب .. ولذلك لن توافق إسرائيل .

بعد عشرين يوما جاء إلي وقال : - أنت علي حق .. إنها حالة ميئوس منها .. فقلت له : لا تعلن هذا من عندي - سافر إليهم وأعلنها من عندهم .

وفعلا أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثاني في مرحلته الأولي من تل أبيب ، و في نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعى كيسنجر في مؤتمر صحفي عقده بأسوان ، وفي صباح اليوم التالي سافر كيسنجر من عندهم رأسا إلي أمريكا .

الذي أريد أن أقوله للشعب الأمريكي هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد من أمريكا إلي إسرائيل بكل ألوان الحياة من رغيف العيش إلي الفانتوم إلي سد العجز في الميزانية ، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه كان في تقديرها في ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية في موقف ضعف .. فهي إذن ليست موضع ثقة إسرائيل ـ أنا أيضا كنت أعرف أن الحكومة الأمريكية في موقف ضعف .. ولكن رغم هذا ورغم أنني كنت قبل ذلك في مواجهة صريحة كاملة مع أمريكا لمدة 18 عامة .. إلا أنني كنت أثق فيها من أجل تحقيق الخير والسلام .. .

وهنا تتضح حقيقة لا أظن أنها تفوت علي الكثيرين .. وهي أن ما هو معروف من أن إسرائيل هي راعية مصالح أمريكا في المنطقة هو في الحقيقة مجرد ادعاء .. فأين حماية هذه المصالح والبترول الذي حظره العرب كان يهدد كيان أمريكا الاقتصادي بل و يهدد المدنية الغربية كلها بالإنهيار ؟ إن إسرائيل لا تنظر إلا إلي مصالحها الذاتية .. والمسألة بعد هذا أعمق وأدق فهي مسألة أخلاق .. ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عمن سيدفع ثمن فشل محاولات السلام .. وهذا ما دعاني رغم كل علاقاتي السابقة مع أمريكا أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل سويا من أجل السلام ..

هل يحتاج الأمر إلي عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف مصر في تلك المرحلة التاريخية ... وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص علي السلام أو العكس ؟ لا أعتقد

أنا لا أريد أبدا أن أثبت أني رجل سلام بالكلام فقط ولذلك فبمجرد خذلان إسرائيل لمساعى كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلي البرلمان وأعلنت للشعب كل ما حدث ثم تقدمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل ، وإنما كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالحق فأعلنت فتح قناة السويس في 5 يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع في تطهيرها مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتي الذي طهر خليج السويس لوصوله متأخرا .. وسمعنى شعبي وأمتي العربية والعالم أجمع.

كما سمعني الجميع أعلن أيضا أن المهجرين سيعودون إلي مدن القناة ،

وأني سأسلم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلاها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أي ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكني أعطيتها لهم بدون مقابل ..

كل هذا من أجل السلام .. مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو ضربت أي مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية طويلة المدي فسوف أرد بالضرب في عمق إسرائيل ..

كنت طبعا قد قابلت فورد في سالزبورج (بومى ١، ٢ يونيو ١٩٧٠) بعد فشل محادثات مارس واتفقنا علي عملية جديدة يتولاها فورد شخصية ..

في أغسطس جاءني كيسنجر وبدأ (المكوك) بيني هنا وتل أبيب .. كان الرجل مكسور القلب .. فالوضع السيئ الذي كانت عليه الإدارة الأمريكية في مارس أصبح أسوأ بكثير في أغسطس .. فالفضائح تتفجر كل يوم والإضطراب وعدم الإستقرار مستمر .. واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم ..

قلت له : كنت قد قلت لك في مارس إن العملية لن تتم ولكنني أقول لك هذه المرة إنها سوف تم.. فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين .. إلي آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلي المنطقة.. ولذلك فلو حاولت إسرائيل أية محاولة لإفشال السلام فستتضح الحقيقة للعالم كله وهي أنها وحدها المسئولة عن هذا ..

وفعلا لم تستطع إسرائيل إلا أن توافق ، فوقعنا في أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ إتفاقية فض الاشتباك الثاني و بذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام.

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة فنحن الآن بصدد تسوية شاملة أي اتفاق السلام النهائي وإنهاء حالة الحرب التي لا تزال قائمة إلي اليوم منذ ثلاثين سنة .. وعلينا أن نسعي إلي السلام الدائم العادل .. بعد ما ثبت من أن مصر التي كانت في مواجهة مع أمريكا لمدة 18 سنة تستجيب للسلام بينما إسرائيل وهي ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئا من أطماعها.

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح في الانتخابات وأصبح رئيسا للولايات المتحدة .. واستعرضت معه كل المراحل التي تمت ، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا أعتقد أن اسرائيل قادرة أو راغبة في أن تصنع مثيلتها أو شبيهة بها. ما هي استراتيجية السلام التي وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم ؟ قبل أن أدخل في التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هي المشكلة الفلسطينية .. دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمرض أساسي هو هذه المشكلة بالذات .. ولعل مما يلفت النظر في هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الإعتراف بإسرائيل .. تناقض غريب .. فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها - يطلبون من هولاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هي إسرائيل تتمتع باعتراف 140 دولة في الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة و تأييد الإتحاد السوفييتي الذي لم يحاول قط إخفاء مساندته لإسرائيل وحقها في أن لا تمس .. .

حتي أنه في زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفييت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئي لحل المشكلة .

في استراتيجية السلام الأولي التي أعرضها علي العالم اليوم لا أنكر علي إسرائيل حقها في أن تعترف بها دول المنطقة .. ولكن بشرط أن يأخذ كل شيء وضعه الطبيعي .. فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، علي أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة 196٧ .

و بذلك عندما نجتمع في جينيف نعلن رسميا إنهاء حالة الحرب التي استمرت منذ قيام إسرائيل حتي هذه اللحظة ..

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطي جميع الضمانات التي تطلبها حتي إذا رأت أن تسلح كل مواطن فيها بدبابة وطائرة وأعطتها أمريكا هذا فلن نمانع .. بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس في أرض الغير .. لن نمانع اطلاقا في أي شيء تطلبه إسرائيل سواء من أمريكا أو الاتحاد السوفييتي أو مجلس الأمن ، وبأية صورة تطلبه .. قوة مشكلة من الأم المتحدة .. قوات علي الحدود .. مناطق منزوعة السلاح علي الجانبين .. ميثاق دفاع مشترك مع أمريكا .. أقول إنني في استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندي إطلاقا .. ولكنني أري أنه من الحق والعدل أن كل ضمان تأخذه إسرائيل يجب أن تحصل عليه نحن العرب أيضا .. فيما عدا شيء واحد .. وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك فلن أطالب بالمثل لامع أمريكا أو الاتحاد السوفييتي أو أية دولة أخري .. فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك .. إرادتنا ملك لنا ولنا فقط ..

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم في سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتي في ١٩٧١ بل وأكثر .. كما أكدت أنني علي استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التي يفرضها علي قرار ٢٢ لمجلس الأمن ولكن علي إسرائيل أيضا أن تفعل نفس الشيء .. فلا مساومة علي حقوق شعب فلسطين أو علي شبر واحد من الأرض العربية المغتصبة في سنة 196٧ . بهذا يتحقق السلام الدائم والعادل ...

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا ؟ ,

كلنا يعرف نظرية الأمن التي نادي بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل والتي تقول صراحة إنه لابد من فرض الصلح علي العرب بالقوة .. قلت لكارتر وأنا في زيارتي للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلما لأن هذا معناه أن هناك طرفا يملي شروطه علي الطرف الآخر وإسرائيل لم تستطع أن تملي شروطها علينا برغم هزيمة سنة 196٧ المنكرة ونحن برغم انتصارنا سنة ١٩٧٣ لم نستطع أن نملي شروطنا علي إسرائيل .. يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة .

لقد كانت أسطورة سقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكري الإسرائيلي الذي لا يقهر .. وهذا ما يدركونه جيدا في إسرائيل اليوم ، ولذلك نجدهم يكفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلي ويحلون محلها موضوعا جديدا هو طبيعة السلام ..

ماذا يقصدون بطبيعة السلام ؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية ؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع في طريق السلام .. لأنه لا يوجد إنسان في العالم العربي بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربعة حروب ومذابح ودم وكراهية وتعبئة في كل ناحية مهيأ لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخري ..

ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود ؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض ؟ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية فهى أيضا لا تمنع قيام الحرب .. خذ مثلا اليابان في (بيرل هاربر) لقد كان السفير الياباني في زيارة (لكوردل هل) وزير خارجية أمريكا في نفس الوقت الذي كانت اليابان تقصف فيه (بيرل هاربر) بالقنابل ..

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسي مسألة سيادة ولكل دولة الحق في أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مع من تشاء من الدول دون أن يكون لهذا أي دخل في قيام الحرب أو السلم .. وقد دعوت الرئيس كارتر إلي أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عاما قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفييتي ولم يكن هذا يعني أو يدعو إلي الحرب بين الدولتين .. ونفس الشيء بالنسبة للصين الشعبية فمستوي التمثيل الدبلوماسي بينها وبين أمريكا لم يزد إلي الآن عن قنصلية أو شيء من هذا القبيل مع أنه قد انقضي علي ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة ..

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهون بمثل هذه العلاقات وهو الأمر الذي لم يكن في يوم من الأيام بين أية دولة وأخري كما يقول لنا التاريخ ؟

إن طبيعة السلام التي تتطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست في الواقع

إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام تهدف من ورائها إلي كسب الوقت لكي تتمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية في الأرض العربية المحتلة .. كما تحاول الآن .. ثم علي المدي البعيد لكي تنهي أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا

كما هو حادث الآن ..

وفي هذه الناحية أدعو القارىء أن يعقد معي مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية ..

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا في المنطقة معنا نحن العرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا .. ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلي .. ونحن لا ننادي بأن ترمي إسرائيل في البحر أو أن تقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها.. فلتعطها كما تشاء ولكن داخل حدودها .. ولن يؤثر هذا علي علاقتنا بأمريكا بأي شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها

تهمنا مصالحها وأقرب دليل علي هذا قرار رفع حظر البترول الذي اتخذناه عندما وجدنا أن الحظر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكي ..

وهذا عكس ما تفعله وما فعلته إسرائيل في كل مرحلة من المراحل . فعلاقتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية ويطلق عليها كلمة خاصة لم تمنعها في أي وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا في سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلي أطماعها التوسعية بالنفع ..

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيرا وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالقدر الكافي فأنا أحمل أمريكا مسئولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام في المنطقة كدولة عظمي ، بل ونحو نفسها ومصالحها في هذا الجزء الخام من العالم وكل ما نطلبه من أمريكا و هي ترسم سياستها في هذا الصدد شيء واحد وهو أن تفكر تفكير أمريكيا خالصا يتفق مع مصالح شعبها - وأرجو أن لا يغضب مني القارىء الأمريكي لقولي هذا فقد سلمت أمريكا في أوقات متعددة نفسها و سياستها إلي إسرائيل وخاصة في أيام جونسون - عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نفعل أي شيء - فتفاهموا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم.. وبمعرفتنا بخط إسرائيل وعجرفتها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام ...

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جدا بعد مقابلي مع كارتر وواثق أنه

سنهض بمسئوليته كرئيس لأعظم دولة في العالم .. وأعتقد أنه سيستمر في عملية السلام التي بدأناها سوياً والتي أرجو أن تتم إن شاء الله في جينيف برغم الحملات الإسرائيلية التي سيتعرض لها الرأي العام الأمريكي والكونجرس لمحاولة فرض شروط إسرائيل علي العرب وهو ما لن نقبله.. فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف نقبله بعد انتصار اكتوبر وإثبات ذاتنا ؟

بقي شيء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكي الصديق : نحن مستعدون للسلام نريده ونرحب به وقد مددت يدي في مبادراتي منذ سنة ١٩٧١ إلي الآن .. كم أتمني أن تفعل إسرائيل نفس الشيء.

قد أصبح أمرا واضحا كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتي التاريخية للقدس في نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

كيف تمت هذه الزيارة ؟

قبل المبادرة بشهرين تقريبا فوجئت برسالة من السفارة المصرية في واشنطن تقول إنها تسلمت خطابا خاصا للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر . فقلت لهم أرسلوه . ولكن السفارة لم ترسله في الحقيبة الدبلوماسية بل أصرت علي إرساله مع مندوب خاص (كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل علي الذي يعمل بالسفارة هناك) . قرأت هذا الخطاب الذي لا يعلم أحد عنه شيئا ، ويخيل إلي أن أحدا لن يعلم عنه شيئا في المستقبل أيضا ـ ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة . أي بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذي سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصيا .

ربما تبادر إلي ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلبا من الرئيس كارتر لي بالقيام بهذه المبادرة . ولكن هذا غير صحيح . إذ أني منذ أن زرته في إبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتينا وأتبادل معه تقييم الموقف من وقت لآخر والإتفاق علي الخطوات المقبلة. وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضا مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل (وقد علمت أثناء وجودي في القدس أن ثمة « خط أحمر » بين الرئيس الأمريكي ورئيس إسرائيل).

ولكن ـ رغم أن هذا الخطاب كان خطابا شخصية لا يمكنني أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل في الحقيقة بدء التفكير في المبادرة التي حدثت بعد ذلك بشهرين .

كما قلت لم يطلب كارتر مني هذه المبادرة فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين اسرائيل حاجزا نفسيا رهيبا . ولابد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته في واشنطن أثناء زيارتي للولايات المتحدة في إبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة .

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك .. وهذا ما يجعلني لا أجد صعوبة في التعامل معه . فأنا

أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده .. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم - وإلي جانب هذا فهو فلاح مثلي . كانت رسالته تشتمل - كما قلت - علي استعراض للموقف وكان ردي عليها بنفس الروح التي تسود تعاملنا . ومع ذلك فقد فتحت رسالته إلي طريقا جديدا كل الجدة . لماذا ؟

بعد أن أرسلت ردي أخذت أتأمل الموقف فتبين لي أننا داخلون علي حلقة مفرغة رهيبة - تماما كالتي عشناها طوال الثلاثين عاما الماضية . إذ أنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسي الرهيب الذي أشرت إليه – أخذت إسرائيل في هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تعترض علي شكليات وإجراءات - من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة في النص إلي كلمة مضافة أو كلمة محذوفة وكان يهمها جدا أن يقال إن ورقة العمل التي ستكون أساسا لإجتماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية ..

وأخذنا نحن العرب أيضا بسبب ذلك الحاجز الرهيب نعترض بصورة تلقائية علي هذه الشكليات فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إني إذا قبلت من ناحيتي ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخوانى العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية (مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا) وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابتعدنا عن جوهر القضية . .

والحاجز النفسي الذي أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكراهية بل وسوء الفهم إذ أن كلا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهيأ نفسيا لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا (بل ويشك فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر).

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجاني الضخم عند أستراليا والذي يمكن أن يشطر أي سفينة تقترب منه شطرين .

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عاما - أي منذ قيام إسرائيل - فإن له جذورا أعمق من هذا التاريخ - أي أنه إذا كان بيجين يدعي أن للمسألة بعد دينيا بالنسبة لهم فإن لها بعدا دينيا أيضا بالنسبة لنا .. وهكذا . بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة و عكفت علي دراسته دراسة ذات عمق جديد .

وهنا وجدت ما تعلمته في الزنزانة 54 في سجن مصر يمدني بقوة جديدة وطاقة جبارة علي التغيير . إني أواجه واقعا بالغ التعقيد يحتاج إلي طبقات نفسية أولا وفكرية ثانيا لتغييره ولقد تعلمت أثناء تأملي للإنسان والحياة في ذلك المكان المنعزل أن من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولا لن يستطيع أن يحدث أي تغيير في عالم الواقع ومن ثم لن يستطيع تحقيق أي تقدم . التقدم مستحيل دون التغير . وليست هذه مجرد فكرة اهتديت إليها بل أسلوب عمل و ديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتي في الزنزانة 54 .

ماذا يمكنني إذن أن أغيره ؟ لقد درجنا علي اعتبار إسرائيل موضوعا مشحونا بحساسية وخطورة إلي الدرجة التي تحرم الاقتراب منه . بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتي بلغت التراكمات حدا يصعب معه التغير إن لم يكن يستعصي فعلا - تماما مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب . وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلي التغيير لابد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها . فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام الدائم فلابد لنا من أسلوب جديد تماما - أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتي لا نعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود .

هذا من ناحية . نظرت من ناحية أخري إلي موقف أمريكا . ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ؟ كان لابد من بحث هذا الموضوع علي أساس حقائق الحياة وأولها أن قدرة الرئيس كارتر علي الحركة مرهونة بالوضع العالمي الراهن . وثانيها أن قدرة أمريكا علي المساعدة لا يمكن أن تخطي طبيعة علاقتها الخاصة بإسرائيل . إذ أنه من غير المعقول أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلي جوارى ضد إسرائيل . أعلم أن هذا غير ممكن وتأكدت منه أثناء مباحثاتي في واشنطن في إبريل ١٩٧٧ .

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطالب به الرئيس كارتر اهو انتهاج خط سياسي أمريكي أي موقف يتسق أولا مع مصالح أمريكا ويتسق ثانيا مع مسئولية

الولايات المتحدة كقوة عظمى مسئولة عن السلام في العالم . ومعني هذا وضع حد لسياسة « الكارت بلانش » التي أعطتها إدارة جونسون لإسرائيل - أي أن تعطيها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت .

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التي أتت بها حرب أكتوبر إلي العالم وأولها أن العرب ليسوا جثة هامدة بل قوة قادرة علي القتال و هزيمة إسرائيل فعلا (ولعل النداء - نداء «أنقذوا إسرائيل» الذي صدر في اليوم الرابع للقتال أكبر برهان علي هذا) وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول - عصب المدنية في الغرب - لأول مرة وبكفاءة عالية .

(وهنا لابد أن أذكر الشعب الأمريكي أنه بمجرد أن شعرنا أن حظر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكي رفعناه فورا لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكي أو الغربي بل التنبيه بأن الانحياز الأعمى لإسرائيل له ثمن .. فللغرب مصالح مثلما لنا مصالح ولنا قضية وينبغي أن يعود الغرب إلي رشده ويتبين أين مصالحه ومصالحنا) .

وهكذا - بالنسبة للمبادرة - كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل البؤرة التي تجمعت عندها خيوط تفكيري بعد أن تلقيت رسالة كارتر .

وفي نفس الوقت استقبلت مبعوثا من الرئيس حافظ الأسد فوجدته ما يزال يردد نفس العبارات التي سادت العالم العربي سنين طويلة والتي تفصح عن العقد التي تحكم موقف الجانبين . قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلي حل وإنها تلعب علي الوقت (وهذا صحيح) وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتي لو أرادت فإنها لن تستطيع . وهنا أبديت اختلافي مع هذا الرأي وقلت للمندوب السوري إن الرئيس كار تر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت علي ذلك بواقعة فض الاشتباك الثاني عندما كان رئيس الولايات المتحدة معينا وغير منتخب وكانت أمريكا ما تزال تعاني من فضيحة ووترجيت . وقد بدأت أيضا تدخل دوامة الانتخابات القادمة - أي أن الإدارة الأمريكية كانت في أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثاني لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم . فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر ؟

استمر تفكيري في الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسيدا ووضوحا. فإلي جانب الموقف النفسي الذي تبلور في أعماق ذاتي داخل الزنزانة 54 وإيماني بأنه لا يمكن إحداث التغيير في عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير في عالم أفكاره وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبي - تلك المسئولية أو الأمانة التي أحملها بالنسبة لجيلنا وبالنسبة للأجيال المقبلة تفرض علي أن أقوم بما ينبغي أن أقوم به دون اعتبار لكرسي الحكم.

لابد أن أؤدي واجبي كما ينبغي وإذا كان في إمكاني أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التي ورثناها - إذا كنت أستطيع ذلك ثم تقاعست عنه فسأكون قد أخطأت أمام نفسي وأمام الله الذي سوف يحاسبني علي كل ما أفعل ..

انتهت هذا المرحلة من تفكيري قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين – بعد أن تسلمت رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتي إلي كل من رومانيا وإيران والسعودية .

وعندما وصلت إلي رومانيا تحدثت مع شاوسيسكو طويلا فأخبرني عن اجتماع كان قد عقده مع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل واستمر ثماني ساعات (ساعتين ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما علي انفراد). سألت شاوسيسكو عن انطباعاته فقال لي : -

- إن بيجين يريد التوصل إلي حل .

قلت له :

- كل ما يشغلني في هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقا أم لا؟.. أنا عن نفسي أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالا للشك عند أحد . لكن هل إسرائيل اليوم - وخاصة بيجين زعيم كتلة ليكود المتعصبة - تريد السلام ؟ هل بيجين الذي يسلك هذا النهج المتطرف رجل بريد السلام ؟

فقال لي : - دعني أقرر لك إنه بالقطع يريد السلام ...

كان شاوسيسكو بالغ الثقة وأنا أثق في حكمه . وإلي جانب هذا فهو علي صلة طيبة بالإسرائيليين لم تنقطع يوما ما . ولذلك فحينما أكد لي أن بيجين يريد السلام وأنه « رجل قوي ، كان ذلك بمثابة التأكيد علي ما شعرت به أولا من الحاجة الملحة إلي التغيير .. والتغيير من الجانبين . ولذلك عندما ركبت الطائرة في طريقي إلي إيران - وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا - وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامي .. كان معي في الطائرة وزير الخارجية فقط الذي لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة و استقال .. مسكين .. قلت له إني أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر و بريجنيف و ديستان وكالاهان و هوا كوفينج إلي اجتماع في القدس .. في الكنيست .. لماذا ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغي أن نضغط مرحلتين في مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لمؤتمر جنيف أن ينجح فلابد من التحضير له تحضيرا

كاملا .. وقد حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التي اقترحتها والتي تقدم بها فانس وزير الخارجية الأمريكية ولم تلق أي استجابة نتيجة لنفس الموقف الذي ساد بين العرب والإسرائيلين - نفس الشكوك ونفس الحذر .. ونفس الدائرة المفرغة .. لابد إذن من تحضير يتخذ صورة أخري . وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار أصحاب الفيتو في مجلس الأمن - إلي اجتماع في القدس وأن أدعو معهم الأطراف المعنية في العالم العربي ، أي دول المواجهة - سوريا والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر - بحيث يعلم بيجين أننا قد عقدنا العزم علي التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف وأننا بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Headlines) حتي نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام .

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لي كى اصلي العيد مثلا (أو الجمعة في المسجد الأقصي ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية .. فنقوم معا بزيارة لهذه الأماكن المقدسة - أصدقائي كارتر و ديستان وكالاهان وكذلك هواكوفينج الذي قال ماوتسي تونج عنه لحسني مبارك إنه رجل ممتاز وقال له و هو علي فراش موته : الراجل ده كويس جدا وأنا بازكيه لكم وللدنيا كلها . (وكانت هذه آخر وصية له) - أما بريجنيف فلم أكن واثقا أنه سيقبل رغم أنني أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذي يتمتع بعقلية سياسية في القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقا . وإنما كان الخلاف دائما مع زملائه الآخرين والموظفين .

كانت هذه هي الصورة الأولي لمبادرتي - كنت واثقا من ترحيب أصدقائي كارتر و ديستان وكالاهان وهواكوفينج وكان تصوري أن بريجنيف لن يجد مفرا من القبول إزاء ترحيب هؤلاء . ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعا نحن الأطراف المعنية في الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف كي نجعل إسرائيل تعلم - في القدس نفسها - أنه لا فكاك لها من العنصرين الأساسيين في التسوية وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام 194٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التي هي لب القضية .

اكتملت صورة هذه المبادرة في ذهني ومضيت في رحلتي فزرت إيران والسعودية ولكني لم أخبر أحدا بها . وذلك حتي لا أورط أحدا من أصدقائي فيها . لقد أردت أن أتحمل مسئوليتها بالكامل . وعندما عدت إلي القاهرة بدأت أحس أن صلاة العيد أفعل في النفس من صلاة الجمعة وربما كان العيد مناسبة رائعة للقاء أهلنا في الأرض المحتلة ..

كانت المشكلة أن الوقت ضيق إذ كان بيننا وبين العيد أيام معدودة ولم يكن من الممكن ترتيب زيارة الخمسة الكبار ومعرفة مدي ملاءمة مواعيدهم في نطاق هذا الوقت الضيق .

وهكذا تغيرت صورة المبادرة في ذهني وبدأت تأخذ شكل الزيارة التي أقوم بها شخصيا لأصلي العيد في المسجد الأقصي تحقيقا لما قلته من أني مستعد أن أذهب إلي آخر العالم لتحقيق السلام . لقد قلت إني مستعد أن أذهب إلي آخر العالم في سبيل السلام فكيف أستثني إسرائيل ؟ أنا أعني ما أقول دائما وأتحمل مسئولية الكلمة.. ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلي الكنيست ممثل الشعب هناك لأضع أمامهم حقائق الموقف كاملة وأضع علي عاتقهم مسئولية الإختيار والعمل إذا كانوا يريدون حقا العيش في سلام في هذه المنطقة.

قبلت هذه الصورة المعدلة للمبادرة وتبلورت تماما في ذهني وقررت أن أعلنها في خطبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب . وفعلا أعلنت أنني مستعد للذهاب إلي آخر العالم بما في ذلك إسرائيل إذا كان من شأن ذلك أن يجنبنا جرح (ناهيك عن قتل) جندي أو ضابط واحد..

أعلنت أني أعني ما أقوله تماما وأني علي استعداد للذهاب إلي الكنيست إذا كان هذا سيحقق أهدافنا أمام الجميع وكان جميع الوزراء حاضرين ومعهم ياسر عرفات . كان رد الفعل المباشر مضحكا إذ تصور البعض أنها زلة لسان ولم يعلموا أن وراءها تفكير طويلا عميقا .. فما زال البعض يتصور كما هي العادة أن يقول السياسي كلاما لا يعنيه .. وهذا لا يمكن أن أفعله. وقد حدث قبل أن أتجه إلي مجلس الشعب لإلقاء خطابي أن اتصل بي الرئيس حافظ الأسد ليذكرني بالوعد الذي كنت قد أعطيته إياه بأن أزوره في الصيف ونجتمع في اللاذقية . وهنا قلت له

إني سآتي علي الفور.. وفعلا .. سافرت إلي سوريا واجتمعت مع الرئيس الأسد الذي سألني : -

- هل تعني ما قلته في خطابك بالنسبة لزيارة القدس ؟

فأجبت : - نعم.. أنا لا أقول شيئا لا أعنيه..

فتساءل : - ولكن كيف يتم ذلك ؟ واستمرت مناقشاتنا أربع ساعات كاملة قلت له بعدها : -

- اسمع يا حافظ .. لو ثبت أن هذه آخر مهمة أقوم بها كرئيس جمهورية فسوف أقوم بها وأعود لأقدم استقالتي إلي مجلس الشعب في مصر كما ينص الدستور . أما أنا فمقتنع مائة في المائة بإتمام هذه المبادرة.

انفصلنا بعد هذه المناقشة الطويلة التي لم يقنعني فيها ولم أقنعه كما أعلنت ذلك في مؤتمر صحفي لم يحضره الرئيس الأسد ثم عدت مباشرة إلي الإسماعيلية حيث جاءني السفير الأمريكي حاملا الدعوة الرسمية لي من بيجين . كان ذلك يوم الخميس فقبلتها علي الفور وحددت يوم السبت موعدا لسفري وقمت بإعداد الخطاب الذي سألقيه .

وهنا أحب أن يعرف الناس أن وزير خارجيتي خاف من هذه المبادرة .

فعندما كنا نستعد للسفر إلي سوريا اعتذر كتابيا عن مصاحبتي بسبب المرض فقلت لا بأس .. يمكنه أن يصاحبني إلي إسرائيل .

ولكن نائب رئيس الجمهورية شرح لي الأمر بعد ذلك وهو أن الوزير معترض علي المبادرة كلها من أساسها . وإزاء هذا قلت له إني لا أكلف أحدا بأن يفعل شيئا غير مقتنع به . ثم قبلت استقالته ..

وصلت إسرائيل في أقل من أربعين دقيقة استغرقتها رحلة الطائرة من مطار أبو صوير في القناة إلي مطار اللد . لا أحد يصدق والذهول يسود . بمجرد أن خطوت خارج الطائرة وجدتني وجها لوجه أمام جولدا مائير التي كانت في أمريكا ثم قطعت رحلتها و عادت . بادلتها السلام . ثم رأيت ديان . ديان أنا أعرفه لأنه كان خصمي في معركة ١٩٧٣ . ثم قابلت أبا إيبان وبعده إريك شارون الجنرال الذي كان لدينا في الثغرة - قلت له إذا أتيت مرة أخري إلي الضفة الغربية للقناة فسيكون السجن في انتظارك ! فقال : أبدأ .. أنا حاليا وزير الزراعة !..

ثم رأيت بعد ذلك موردخاى جور رئيس الأركان الحالي الذي كان قد حذرهم قبل زيارتي بأني أقوم بخدعة وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم وشيك . ولذلك حينما رأيته قلت له إني لا أمارس الخداع الأخلاقي مطلقا.. الخداع الاستراتيجي و الخداع التكتيكى مقبول ولكني لا يمكن أن أقبل الخداع الأخلاقي ..

بعد ذلك ركبت السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعى ممتاز . وصلت إلي القدس الإسرائيلية ونزلت في فندق الملك داود .

في الصباح خرجت لصلاة العيد . دخلت القدس العربية لثاني مرة بعد ٢٢ سنة كاملة (كانت المرة الأولي عندما كنت وزير دولة وسكرتيرا عامة للمؤتمر الإسلامي). وتبين لي علي الفور أن المسجد الأقصي قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق الذي اجتاحه عام 196٩ قائمة .. وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تماما وأن عملية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من جديد علي أيدي المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلي الفندق .

بعد الظهر اتجهت إلي الكنيست وألقيت خطابي ثم قام بيجين بإلقاء خطاب مضاد و تلاه زعيم المعارضه بيريز وانتهت جلسة الكنيست . رغم التعب والإرهاق الذي كابدته ذلك اليوم فقد أحسست بسعادة غامرة لأن ابنتي كما علمت كانت قد رزقت بمولود (بنت) في الثامنة صباحا وأنا أصلي في المسجد الأقصي .

لم يكن سبب الإرهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم به ـ ولكن كان السبب الحقيقي هو التركيز الذهني العميق إلي أبعد الحدود والذي يجعل الإنسان يحس بالتعب . كان ذهني بالغ التركيز لسبب بسيط وهو أني كنت أعتبر هذا المهمة مهمة مقدسة حقا وصدقا . ورغم ثقتي من تأييد شعبي إلي فقد كنت مستعدا إذا أبدي أي رفض من جانبه أن أتوجه إلي مجلس الشعب عندنا وأقدم استقالتي .

ولكن ثقتي لم تخب . فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين الثمانية الذين يعيشون في القاهرة لاستقبالي عند العودة . كانت مظاهرة تأييد لم يسبق لها مثيل . كان الجميع في قلق علي وكانوا يرون أنها مجازفة مني أكثر منها شجاعة . ولهذا كان الجميع يلهجون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحتهم الغامرة . كان إحساسي بهذا هو قمة السعادة و بأني قد كلفت تكليفا لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل الذي بدأته .. كان تكليفا بأن أخدم شعبي وأهلي حتي نحقق سويا الهدف من المبادرة .

ولابد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلي النتيجة أن الرئيس جعفر نميري زارني فور عودتني وأبدي تأييده الكامل تماما مثلما زارني في أعقاب ثورة التصحيح يوم الجمعة 14 مايو ١٩٧١ .. إنه موقف لا يسعني إلا أن أذكره له والشعب السودان الشقيق .

ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كانت حساباتى ؟ وهل تحققت ؟

كنت قد قدرت أن تؤدى رحلتي إلي كسر الدائرة المفرغة - الحلقة التي ظللنا ندور فيها سنين وسنين .. وأنا أضع دائما لكل شيء حساباته الدقيقة (تماما مثلما فعلت في حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقد صدق ما حسبت له . إذ أنه مثلما استقبلني شعبي هذا الاستقبال الرائع المذهل كانت استجابة الشعب والناس في إسرائيل - النساء والأطفال والشيوخ – استجابة مذهلة . حتي القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التي كلفت بحراستي كانت ترقص فرحا و تحية إلي رغم أني حاربتهم في ١٩٧٣ وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلا طوال ٣٠ عاما .. لماذا ؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذي يستطيع بعد النصر أن يقول لهم فلتكن حرب أكتوبر آخر الحروب ولنجلس معا مثل كل المتحضرين حول المنضدة لنناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلا من اللجوء إلي القوة .

عدت من إسرائيل بعد أن اتفقت هناك علي شيئين أساسيين : أولا : أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب .. وثانيا : أن نتناقش حول منضدة المفاوضات في موضوع الأمن لهم ولنا ... وهكذا اتجهت إلي مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع تقريبا (إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين ال ٣٦٠ عضوا) .. مما زادني سعادة ومن ثم فكرت في أن أعود إلي القناة كي أنال قسطا من الراحة . ولكني ما لبثت أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلي مؤتمر القاهرة حتي لا تضيع قوة الدفع . وفعلا أرسلت الدعوات إلي جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلي جنيف. لم نتلق إجابات إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل ولم يرسل باقى الأطراف إجاباتهم ولكني مصمم علي المضي في مبادرة السلام إلي النهاية .

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهور ؟ لا أدري . ولكن الذي أدريه هو أني أولا سأظل متمسكا بمبادرة السلام التي قمت بها ..

وثانيا : هو أني لن أضيع فرصة علي الإطلاق لكي تحل مشكلة السلام في الشرق الأوسط حلا جذريا وحضاريا . وهنا أريد أن أردد ما قلته أمام الكنيست الإسرائيلي من أني لا أبغي اتفاقا ثنائيا من أجل سيناء (فهذا لا يحل المشكلة) ولكن سلاما قائما علي العدل وسوف أعمل في الفترة المقبلة - إلي أن يصدر هذا الكتاب وبعده – علي إقامة سلام عادل في المنطقة بإعادة الأرض العربية المحتلة عام 196٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو - كما قال كارتر معي - وطن قومى فلسطينى

بطبيعة الحال لابد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربي لهم (سيناء مع مصر والجولان مع سوريا والضفة الغربية مع الفلسطينيين) ولكني سأستمر في المناقشة إلي النهاية - حتي ولو عارضني العالم كله .

هدفي الأساسي إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والجلاء عن الأرض المحتلة عام 196٧ - وسيكون رائدي دائما أني أريد السلام القائم علي العدل وأنا مستعد لأن أبذل في سبيل ذلك كل شيء مهما طال الزمن . أما إذا كان الأمر أمر فرض إرادة طرف علي طرف آخر فلابد أن أقول إني مثلما أعلنت عن استعدادي للذهاب إلي آخر العالم في سبيل السلام فأنا أعرب عن عزمي علي أن أحارب إلي آخر العالم في سبيل هذا الهدف . لقد فقدت أخي الأصغر الذي كان بمثابة ابن لي بعد خمس دقائق من بدء معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصابين في تلك الحرب - شبانا في عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدين إلي كراسي ذات عجلات . ولقد رأيت حالات مماثلة في إسرائيل وتألمت لها ألمي لكل من نالت منه ويلات الحروب .. أيا كان .. ولعل هذه الروح هي التي ساعدتنا علي تأكيد الهدفين اللذين تحددا في زيارتى و هما أولا ألا تقع حروب بعد حرب أكتوبر وثانيا أن نحقق الآمن للطرفين ..

ولابد في النهاية أن أسجل أن الشعب المصري قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها .. لذلك لم تعد تحركنا أي عقد - سواء عقد النقص والإنهزامية أو

عقد التشكك و الأحقاد ... وهذا هو الذي جعلنا نلتقي - بعد أن انجلي غبار المعركة - سواء في فض الاشتباك الأول أو الثاني أو عندما قابلت جولدا مائير لدي وصولي إلي إسرائيل .

لم يكن بيننا - بعد أن انتهي القتال – إلا الاحترام - وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر .. وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحيتي وجعل القوات المسلحة تحييني كما لم تحيي إنساناً من قبل .

إن جذورنا الحضارية قائمة ... عمرها أكثر من سبعة آلاف عام وما تزال حية ونابضة .. لم تهن أو تضعف أبدا .. وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصري الأصيل الذي يبني للحضارة اليوم مثلما بناها علي ضفاف النيل منذ آلاف السنين في ظل الحرية والسلام ...

وبعد..

فليست هذه قصة الصراع العربي الإسرائيلي أو قصة تحرير مصر من الاحتلال البريطاني أو قصة منجزات وأخطاء ثورة ٢٣ يوليو 195٢ .. ربما كانت ذلك كله وأكثر .. ولكنها في المقام الأول قصة - ذاتى وذات مصر - ذلك الكيان الواحد الذي أشرق في نفسي منذ الطفولة عندما توحدت ذاتى مع ذات بلادي أرضا وشعبا .

هل نجح البحث ؟ هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التي وضعتها نصب عيني منذ طفولتي المبكرة ؟ أترك للقارىء الحكم علي ذلك - فكل ما أستطيع أن أقوله - وحسب مبلغ علمى - هو هذا : و لم يستهوني يوما بريق المتع الدنيوية ولم أحاول قط أن أبني سعادتي علي حساب شقاء الآخرين . فأنا أصدر في كل قرار أتخذه وكل عمل أقوم به عن

الإيمان الراسخ بحق الإنسان في الكرامة والحرية والسلام والمساواة .

لقد وجدت ذاتي في الصداقة .. وفي الحب .. وفي العمل الذي يرقي بحياة من حولي .. وفي انتصار الحق علي الباطل ... باختصار في كل ما من شأنه تحقيق صورة كياني الذي هو كيان بلادى .

لم أسع يوما وراء السلطة إذ اكتشفت في فجر حياتي أن قوتي تنبع من داخلى - من إيماني المطلق بالخير والحق والجمال .

وأحمد الله أنني لا أختلف اليوم عما كنت منذ سنوات بعيدة ، عندما كنت أصحو مع شروق الشمس وأخرج إلي الحقول لأعمل مع الآخرين حتي تعود إلي الأرض الحياة .. وتحمل الأشجار اليابسة الثمار مرة أخري ...

لم ينته البحث بعد .. وأعتقد أنه لن ينتهي يوما ما .. إذ أننا في كل عمل نتخذه لتحقيق ذواتنا نحقق إرادة الله وإرادته عز وجل خالدة .

مازال أمامي وأمام شعبي طريق طويل لابد أن نقطعه حتي نصنع حياة يسودها الحب والسلام والرخاء والاكتمال .

وفقنا الله وهدي خطانا وخطي الجميع في كل مكان .